التعريف بابن خلدون

ورحلته غربا وشرقا

تأليف

عبد الرحمن بن خلدون

منشورات

دار الكتاب اللبناني

للطباعة والنشر

١٩٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غربا وشرقا [1]

وأصل هذا البيت من إشبيلية ؛ انتقل سلفُنا – عند الجلاء وغلَب مَلك الجلالِقة ابن أُدْفُونْش عليها – إلى تُونس في أواسط المائة السابعة .

نسبه :

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد ابن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خَلدون[2] . لا أذكر من نسَبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة ، ويغلب على الظن أنهم أكثر ، وأنه سقط مثلهم عددا ؛ لأنَّ خَلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس ، فإن كان أول الفتح فالمدَّة لهذا العهد سبعُمائة سنة ، فيكونون زُهاء العشرين ؛

---

(١) ختم ابن خلدون الجزء الأخير من تاريخه بالتعريف بنفسه وأضاف بخطه في بعض النسخ قوله: « ورحلته غرباً وشرقاً » .

(٢) بفتح الخاء كما ضبطه بخطه بالقلم مرارا ، وكما نص عليه السخاوي في الضوء اللامع ٤/١٤٥ .

ثلاثةً لكل مائة ، كما تقدم في أول الكتاب الأول[1] .

ونَسَبُنا حَضْرَمَوت ، من عَرب اليمن ، إلى وائل بن حُجْر ، من أقيال العَرب ، معروف وله صُحبة . قال أبُو محمد بن حَزْم[2] في كتاب الجمهرة : وهو وائل بن حُجْر بن سعيد بن مَسْروق بن وائل ابن النُّعمان بن ربيعة بن الحَارث بن عَوف بن سعد بن عوف بن عَديّ ابن مالك بن شُرَحْبيل بن الحارث بن مالك بن مُرَّة بن حِمْيَري بن زيد بن الحَضْرَمِيّ بن عمرو بن عبد الله بن هانيء بن عوف بن جُرشم ابن عبد شمس بن زيد بن لأي بن شَبْت[3] بن قُدامة بن أعجَب بن مالك بن لأي بن قحطان . وابنُه عَلقَمة بن وائل وعبد الجَبّار بن وائل .

وذكره أبو عُمر بن عبد البَرِّ في حرف الوَاو من « الاستيعاب » ، وأنّه وفد[4] على النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فبسَط له رداءه ، وأجلسه عليه ، وقال : « اللهم بارك في وائل بن حُجر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة » .

---

(١) انظر المقدمة ص ٣٠٤ طبع دار الكتاب اللبناني . حيث قدر أعمار الدول .

(٢) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري القرطبي (٣٨٤ – ٤٥٦) انظر الإحاطة وتاريخ الأدب العربي لبروكلمن ١/٤٠٠ ، والملحق ١/٦٩٤ .

(٣) قيدها بخطه بفتح الشين وسكون الباء الموحدة بعدها مثناة فوقية .

(٤) انظر قصة وفادته على النبي (ص) « عام الوفود » في القسم الثاني من الجزء الثاني من تاريخ ابن خلدون ص ٨٣٥ .

وبعث معه جارية بن أبي سُفيان إلى قومه يعلِّمهم القرآنَ والاسلامَ ؛ فكانت له بذلك صحابة مع معاوية . ووفد عليه لأول خلافته وأجازه ؛ فردَّ عليه جائزته ولم يقبلها .

ولما كانت واقعة حُجر بن عَديّ الكِندي بالكوفة ، اجتمع رؤوس أهل اليمن ، وفيهم وائل هذا ، فكانوا مع زياد[1] بن أبي سُفيان عليه ، حتّى أوثقوه وجاؤا به إلى مُعاوية ، فقتله كما هو معروف .

قال ابن حزم : ويُذكر بنو خَلدون الاشْبِيليُّون من ولده ، وجدُّهم الداخل من الشَّرْق خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هاني ابن الخطاب بن كُرَيب[2] بن مَعْدِيكَرِب بن الحارث بن وائل بن حُجْر . قال : وكان من عَقِبِه كُرَيب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد ، وكانا من أعظم ثوار الأندلس .

قال ابن حَزم : وأخوه محمَّد كان من عَقِبه أبو العاصِي عمرو بن محمد بن خالد بن محمَّد بن خَلدون . وبنو أبي العاصي : محمَّدٌ ، وأحمد ، وعبد الله . قال : — وأخوهم عثمان ، وله ، عقِب . ومنهم الحكيم المشهور بالأندلس من تلاميذِ مَسْلَمَة المَجْريطي[3] ؛ وهو أبو مُسلم

(١) هو زياد بن أبي سفيان ، ويقال ابن أبيه ؛ أخو معاوية بن أبي سفيان .

(٢) قيده بخطه بضم الكاف وفتح الراء .

(٣) هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي . فلكي راصد ، له تآليف في الفلك والفلسفة والسحر والكيمياء . انظر عيون الأنباء ٣٩/٢ .

عمر بن محمد[1] بن بَقِيّ بن عبد الله بن بكر بن خالد بن عثمان بن خالد بن عثمان بن خَلدون الداّخل . وابن عمه أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله . قال : ولم يبق من ولد كُرَيب الرئيس المذكور إلا أبو الفضل بن محمد بن خلف بن أحمد بن عبد الله بن كُرَيب ـ انتهى كلام ابن حَزم .

سلفه بالاندلس

ولمّا دخل خَلدون بن عُثمان جدّنا إلى الأندلس ، نزل بِقَرْمُونَة في رَهط من قومه حَضرَموت ، ونَشأ بيتُ بَنِيه بها ، ثم انتقلوا إلى إشْبِيلِيَة . وكانوا في جُند اليَمَن ، وكان لكُرَيب من عقبِه وأخيه خالد ، الثورةُ المعروفةُ باشبيلية أيام الأمير عبد الله المرواني ؛ ثار على ابن أبي عَبْدَة ، وملكها من يده أعواما ، ثم ثار عليه إبراهيم بن حجّاج ، بإملاء الأمير عبد الله وقتله ، وذلك في أواخر المائة الثالثة .

وتلخيص الخبر عن ثورته[2] ، على مانقله ابن سَعيد[3] عن الحِجَاري[4]

(١) في عيون الأنباء (٤١/٢) : « عمر بن أحمد بن خلدون » . وابن خلدون هذا هو أحد أشراف اشبيلية ، وكان فيلسوفا مهندسا طبيبا . توفي سنة ٤٤٩ ﻫ .

(٢) تفصيل خبر هذه الثورة في تاريخ ابن خلدون ٢٩٥/٤ ، ٢٩٦

(٣) علي بن موسى بن سعيد العنسي الغرناطي (٦١٠ - ٦٧٣) صاحب كتابي « المغرب » و « المشرق » وغيرهما . يعتمد عليه ابن خلدون كثيرا في النسب والتاريخ .

(٤) أبو محمد عبد الله ابراهيم الحجاري (نسبة) الى وادي الحجارة) الصنهاجي من أهل القرن السابع ألف كتاب « المسهب في غرائب المغرب » ابتدأ فيه من فتح الأندلس وانتهى الى سنة ٦٣٠ ، انظر نفح الطيب ١ - ٤٨٣ ، ٢ - ٤٠٦ .

وابن حَيَّان[1] وغيرهما، وينقلونَـه عن ابن الأشعث مؤرِّخ إشبيلية: أن الأندلس لمـا اضطربت بالفتن أيام الأمير عبد الله تطـاول رؤساء إشبيلية إلى الثَّورة والاستبداد، وكان رؤساؤها المتطاولون إلى ذلك في ثلاثة بيوت: بيت بَني أبي عَبْدَة، ورئيسهم يومئذ أُمَيَّة بن عبد الغافر بن أبي عَبْدَة، وكان عبدُ الرحمن الداخل ولَّى أبا عبدة إشبيلية وأعمالها، وكان حافدُه أُمَيَّةُ من أعلام الدولة بقرطبة، ويولونه الممالك الضخمـة. وبيت بني خَلدون هؤلاء، ورئيسُهم كُرَيْـب المذكور، ويَردفه أخوه خالد.

قال ابن حَيَّان: وبيت بني خلدون إلى الآن في اشبيلية نهاية في النَّباهة، ولم تزل أعلامُـه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية. ثم بيت بني حجَّاج، ورَئيسهم يومئذ عبد الله. قـال ابن حَيَّان: هم – يعني بني حجَّاج – مـن لَخـم، وبيتُهم الى الآن في اشبيلية ثابِت الأصل، نَابت الفرع موسوم بالرياسة السلطانية والعلمية. فلمـا عظمت الفتنة بالأندلس أعوامَ الثمانين والمائتين، وكان الأمير عبد الله قد ولَّى على اشبيلية أُمَيَّة بن عبد الغافر، وبعَثَ معه ابنَه محمداً، وجعله في كفالته، فاجتمـع هؤُلاء النَّفر، وثارُوا بمحمَّد بن الأمير عبـد الله وبأُميَّة

(١) أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (٣٧٧ - ٤٦٩) مؤرخ الأندلس بلا جدال. له كتاب « المتين » أو (المبين) في التاريخ، و « المقتبس » في تاريخ الأندلس، وكتاب « معرفة الصحابة ». (وفيات الاعيان لابن خلكان ١ـ ٢١٠).

صاحبهم ، وهو يمالئهم على ذلك ، ويكيد بابن الأمير عبد الله . وحاصروهما في القَصْر ، حتَّى طلب منهم اللّحاق بأبيه فأخرجوه ، واستبدّ أُمية بإشبيلية ، ودَسّ على عبد الله بن حجّاج من قَتَله ، وأقام أخاه ابراهيمَ مكانه . وضبط اشبيلية ، واسترهنَ أولادَ بَني خَلدون وبني حجّاج ، ثم ثاروا به ، وهمّ بقتل أبنائهم ؛ فراجَعوا طاعته . وحلفوا له؛ فأطلق أبناءهم فانتقضوا ثانية . وحاربوه فاستمات وقَتَل حُرَمه ، وعَقَر خيولَه ، وأحرق موجودَه . وقاتلهم حتى قتلوه مقبلاً غيرَ مدبر ، وعاثت العامّة في رأسه . وكتبوا الى الأمير عبد الله بأنه خَلَع فقتلوه ، فقبل منهم مداراة ، وبعث عليهم هشامَ بن عبد الرحمن من قَرابته ، فاستبدّوا عليه، وفتكوا بابنه ، وتولّى كِبر ذلك كُرَيْب بن خَلدون ، واستقلّ بإمارتها .

وكان ابراهيم بن حجّاج بعد ما قُتل أخوه عبدُ الله ــ على ما ذكَرَهُ ابن سَعيد عن الحِجَاري ــ سَمَت نفسُه الى التَّفرد ، فظاهر ابْنَ حفصُون[1] أعظم ثوار الأندلس يومئذ ، وكان بمالَقَة وأعمالها الى رُنْدَة ، فكان له منه ردْء . ثم انصرف الى مُداراة كُرَيْب بن خَلدون وملابسته ، فردَفه في أمره ، وشَركَه في سلطانه ، وكان في

(١) هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذفونش القس . أول ثائر بالأندلس ، وهو الذي افتتح الخلاف بها ، وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٧٠ . وتوفي سنة ٣٠٦ وانظر ثورته في تاريخ ابن خلدون ٤ ـ ٢٨٦ وما بعدها .

كُرَيب تحامل على الرَّعية وتعصَّب ، فكان يتجَهَّم لهم ، ويغلظ عليهم ، وابن حَجَّاج يَسْلك بهم الرفق والتلطف في الشفاعة لهم عنده ، فانحرفوا عن كُريب الى ابراهيم . ثم دسَّ الى الأمير عبد الله يطلب منه الكتاب بولاية اشبيلية ، لتسكن اليه العامَّة ؛ فكتب اليه العهدَ بذلك . وأَطلع عليه عُرَفَاءَ البلد ، مع ما أشربوا من حُبِّه ، والنَّفرة عن كُرَيْب ، ثم أجمع الثورة ، وهاجت العامة بكُرَيْب فقتلوه ؛ وبُعث برأْسه الى الامير عبد الله ، واستقرَّ بإمارة اشبيلية .

قال ابن حَيَّان : وحصَّن مدينة قَرْمُونَة من أَعظم معاقل الأندلس ، وجعلها مُرتَبطا لخيوله ، وكان ينتقل بينها وبين اشبيلية . واتخذ الُجند ورتَّبهم طبقات ، وكان يصانع الأميرَ عبد الله بالأموال والهَدايا ، ويبعث اليه المَدَدَ في الصَّوائف . وكان مقصوداً مُمدَّحا ، قصده أهل البيوتات فوصلهم ، وَمدَحهُ الشعراء فأجازَهم ، وانتجعه أبو عمر بن عبد ربِّه صاحب العِقد[2] ، وقصدَهُ من بين سائر الثوار ، فعرَف حقه ، وأعظم جائزتَهُ .

وَلَم يزل بيت بني خَلدون بإشبيلية ــ كما ذكَرَهُ ابن حَيَّان وابن

---

(١) الصوائف جمع صائفة وهي غزوات المسلمين الى بلاد الروم . سميت صوائف لأنهم كانوا يغزون صيفاً تفاديا من شدة البرد والثلج (تاج العروس) .

(٢) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي (٢٤٦ ــ ٣٢٨ صاحب كتاب العقد الفريد ترجمته في الوفيات ٣٩/١ اليتيمة ٤١٢/١ معجم ياقوت ٦٧/٢ .

حزم وغيرهما ـ سائر أيام بني أمية الى أزمان الطوائف[١] ـ ، وانمحت عنهم الامارة بما ذهب لهم من الشوكة.

ولما علا كعب ابن عبّاد[٢] بإشبيلية ، واستبدّ على أهلها ، استوزر من بني خلدون هؤلاء ، واستعملهم في رتب دولته ، وحضروا معه وقعة الزلاّقة[٣] كانت لابن عبّاد وليوسف بن تاشفين[٤] على ملك الجلالقة ، فاستشهد فيها طائفة كبيرة من بني خلدون هؤلاء ، ثبتوا في الجولة مع ابن عبّاد فاستلحموا في ذلك الموقف. ثم كان الظهور للمسلمين ، ونصرهم الله على عدوّهم. ثم تغلب يوسف بن تاشفين والمرابطون على الأندلس ، واضمحلّت دولة العرب وفنيت قبائلهم.

سلفه بافريقية

ولما استولى الموحّدون[٥] على الأندلس ، وملكوها من يد

(١) يبتديء عصر ملوك الطوائف بالأندلس بنهاية الخلافة الأموية ، وينتهي بغلبة يوسف ابن تاشفين المرابطي عليهم جميعاً ، واستيلائه على الأندلس. انظر تاريخ ابن خلدون ٤/٣٣٦ ، وما بعدها.

(٢) أبو القاسم المعتمد محمد بن المعتضد بن عباد (٤٣١ - ٤٨٨) أكبر ملوك الطوائف بالاندلس ترجمته في : تاريخ ابن خلدون ٤/٣٤٤ وما بعدها.

(٣) وقعة الزلاقة هذه من المعارك ذات الاثر البعيد في الحياة الإسلامية بالاندلس ، ولذلك أكثر المؤرخون من الحديث عنها. انظر الاستقصا ١/١١١ - ١١٩.

(٤) انظر ترجمة يوسف بن تاشفين (٤١٠ - ٥٠٠) في الوفيات ٢/٤٨١.

(٥) تبتديء دولة الموحدين بالمغرب سنة ٥١٤ على يد مهدي الموحدين محمد بن تومرت وتنتهي سنة ٦٨٨ هـ. وامتد سلطانها الى الاندلس من سنة ٥٤٠ - ٦٠٩ هـ تقريبا انظر جذوة الاقتباس ص ٩٧ - وتاريخ أبي الفداء ٢/٢٤٣.

المرابطين ، وكان ملوكُهم : عبدَ المؤمن وبنيه . وكان الشَّيخ أبو حَفص كبير هِنْتَاتَة زعيم دولتهم[١] ، وولّوه على اشبيلية وغربِ الأندلس مرارا ، ثم ولوا ابنَه عبد الواحد عليها في بعض أيامهم ، ثم ابنَه أبا زكرياء كذلك ، فكان لِسَلَفِنا بإشبيلية اتّصال بهم ، وأهدَى بعضُ أجدادنا من قِبَل الأمهات ، ويُعْرَف بابن المحْتَسِب ، للأمير أبي زكرياء[٢] يحيى بن عبد الواحد بن أبي حَفص أيام ولايته عليهم ، جاريةً من سُبيِّ الجَلالِقَة ، اتخذها أمَّ وَلد ، وكان له منها ابنُه أبو يحيى زكريا وليُّ عهده الهالك في أيامه ، وأخواه : عُمر وأبو بكر ، وكانت تُلقَّب أمَّ الخلفاء . ثم انتقل الأمير أبو زكرياء الى ولاية إفريقية سِني العشرين والستمائة . ودعا لنفسه بها ، وخلع دعوة بني عبد المؤمن سنَة خَمْسٍ وعشرين . واستبدَّ بافريقية ، وانتقضت دولة الموحدين بالأندلُس ، وثار عليهم ابنُ هُود[٣] . ثم هلك واضطربت الأندلُس ،

---

(١) هو أبو حفص عمر بن يحيى بن محمد الهنتاتي، أول التابعين لمهدي الموحدين من بين قومه ، والمختص بصحابته ، ومن هنا انتظم في سلك العشرة السابقين الى دعوة ابن تومرت . وكان يسمى بين الموحدين بالشيخ . والى ابي حفص هذا تنتسب الدولة الحفصية بافريقية . وليس صحيحاً ما يتوهم من انها من ذرية ابي حفص عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين ، انظر ابن خلدون .

(٢) هو الامير ابو زكرياء يحيى بن عبد الواحد الحفصي . ملك جل افريقية ، وبايعه اهل الاندلس ، وأمّله اهل شرق الاندلس لصد هجوم ملكي أرغون وقشتالة ، فأوفدوا اليه كاتب ابن مرذنيش أبا عبد الله ابن الابار ، فانشده القصيدة السينية المشهورة :

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا ان السبيل الى منجاتها درسا

(٣) محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن هود الجذامي . انظر أخبار ثورته فيتاريخ ابن خلدون ٣٦١/٤ .

وتكالبَ الطّاغية عليها ، وردّدَ الغزوَ إلى الفُرنْتيرَة[1] ، بسيط قرطبة وإشبيلية إلى جَيّان ، وثار ابن الأحمر بغَرب الأندلس من حصن أرجُونَة ، يرجو التَّماسُك لما بقي من رَمق الأندلس . وفاوضَ أهل الشُّورَى يومئذ باشبيلية . وهم بنو الباجي ، وبنو الَجدّ ، وبنو الوزير ، وبنو سَيّدِ النَّاس ، وَبنو خَلدون . ودَاخلهم في الثوْرَة على ابن هود ، وأن يتجافوا للطاغية عن الفُرنْتِيرَة ، ويتمسَّكوا بالِجبال الساحلية وَأمصَارها المتوعِّرة ، مِن مالَقَة إلى غَرناطة إلى المَرِيَّة ؛ فلم يوافقوه على بَلدهم .

وكان مقدَّمهم أبو مروان الباجي ، فنابذَهم ابنُ الأحمر وخلع طاعة الباجي ، وبَايعَ مَرَّةً لابن هُود ، ومَرَّة لصَاحب مَرّاكش من بني عبد المؤمن ، ومرةً للأمير أبي زكرياء صاحب إفريقية . ونزل غرناطة ، واتّخذها داراً لملكِهِ ، وبقيت الفُرنْتِيرة وأَمصارها ضاحِيةً من ظلّ المُلك ؛ فخشِي بنو خَلدون سُوءَ العاقبة مع الطاغية ، وارتحلوا من إشبيلية إلى العُدوة ، ونزلوا سَبتة وأَجلبَ الطاغية على تلك الثغور ، فملك قُرْطَبَة ، وإشبيلية ، وقرْمُونة وجَيّان وما اليها ، في مدة عشرين سنة . ولما نزل بنو خَلدون سَبتة أصهر اليهم العزَفي[2] بأَبنائه

---

(١) الفرنتيرة هي : بسيطة قرطبة واشبيلية وطليطلة وجيان ، آخذة من جوف (شمال) الجزيرة من المغرب الى المشرق .

(٢) انظر أخبار بني العزفي في تاريخ ابن خلدون ٦/٢٢٧ ، ٧٧٧ .

وبناته ، فاختلط بهم ، وكان لَهُ معهم صِهْرٌ مذكور . وكان جدُّنا الحسن بن محمد ، وهو سِبط ابن المحْتَسِب ، قد أجاز فيمن أجاز معهم ؛ فذكر سوابقَ سلفه عند الأمير أبي زكرياء ؛ فقصَدَه وقدم عليه فأكرم قدومه . وارتحل الى المشرق ؛ فقضى فرْضه . ثم رجَع ولحق بالأمير أبي زكرياء على بُونَة ؛ فأكرمه ، واستقرّ في ظلّ دولته ، ومَرعى نِعمته ، وفرَضَ له الأرزاق ، وأقطع الاقطاع . وهلَك هنالك ؛ فدفن بِبُونة . وخلَّف ابنَه محمدا أبا بكر ؛ فنشأ في جوّ تلك النعمة ومرَعاها . وهلك الأمير أبو زكرياء بِبُونَة سنة سبع وأربعين ، وَوَلِيَ ابنُه المستَنصر محمَّد ؛ فأجرى جَدنا أبا بكر على ما كان لأبيه . ثم ضرب الدهر ضَرَبَانه ، وهلك المستنصر سَنة خمسٍ وسبْعِين ، وَوَلِيَ ابنُه يحيى ، وجاء أخوه الأمير أبو إسْحقَ من الأندلس ، بعد أن كان فرّ أمام أخيه المستنصر . فخلع يحيى ، واستقَلّ هو بملك إفريقية ، ودفع جدُّنا أبا بكر محمدا الى عَمل الأشغال في الدَّولة ، على سَنَن عظماء الموّحدين فيها قبلَه ؛ من الانفراد بولاية العمال ، وعزلهم وحُسبانهم على الجباية ، فاضطلع بتلك الرُّتْبة . ثم عقد السُّلطان أبو إسحقَ لابنه محمَّد ، وهو جدُّنا الأقرب ، على حجابة ولي عَهْدِه ابنه أبي فارس أيامَ

أقصَاه الى بِجَاية[١] . ثم استعفى جَدُّنا من ذلك فأعفـاه ، ورَجَـع الى الحضرة . ولما غلب الدَّعيُّ ابنُ أبي عمارة[٢] عـلى ملكهـم بتُونِس ، اعتَقَل جدَّنا أبا بَكر محمداً ، وصادره على الأموال ، ثمَّ قتله خنقـا في محبِسِه . وذهب ابنه محمد جَدُّنا الأقرب مع السلطان أبي إسحق وأبنائه الى بِجَاية ؛ فقبض عليه ابنُه أبو فارس ، وخرج في العساكر هو وإخوتُه لمدافعة الدَّعيِّ ابن أبي عمارة ، وهو يشبَّه بالفضل ابن المخلوع ، حتى اذا استلحموا بمَرْمَاجَنَّة خاص جَدُّنا محمد مع أبي حفص — ابن الأمير أبي زكرياء من الملحمة ، ومعهما الفَازَازي وأبو الحسين ابن سَيِّد النـاس ؛ فلحقوا بمَنْجاتهم من قلعة سِنَان . وكان الفازازي من صنائع المولى أبي حفص ، وكـان يؤثره عليهـم . فأمـا أبو الحسين ابن سَيِّد النـاس فاستنـكف من إيثـار الفازازي عليه ، بما كان أعـلى رتبة منه ببَلده إشْبِيلية ، ولحق بالمولى أبي زكرياء الأوسط بِتِلمْسـان[٣] ، وكان من شأنه ما ذكرناه . وأمـا محمد بن خَلدون فأقـام مع الأمير أبي حفص ، وسكن لايثار الفازازي . ولـما استولى أبو حفص على الأمر رعى له

---

(١) بجاية وتسمى الناصرية نسبة الى بانيها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري الصنهاجي - بناها في حدود سنة ٤٥٧ : مدينة بالجزائر تقع على ساحل البحر الأبيض وكانت قاعدة المغرب الأوسط. ياقوت ٦٢/٢ .

(٢) هو أحمد بن روق بن أبي عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة . تاريخ ابن خلدون والاحاطة ١٧٤/١ .

(٣) (Tlemcen) بكسرتين وسكون الميم وسين . وبعضهم يقول : تنمسان ، بالنون عوض اللام : مدينة مشهورة بالمغرب .

سابقته ، وأقطعه ، ونظمه في جملة القواد ومراتب أهل الحروب ، واستكفى به في الكثير من أهل ملكه ، ورشحه لحجابته من بعد الفازازي . وهلك ، فكان من بعده حافدُ أخيه المستَنصرِ أَبو عصيدة ، واصطفى لحجابته محمد بن إبراهيم الدبَّاغ كاتب الفازازي ، وجعل محمد ابن خلدون رديفاً في حجابته . فكان كذلك الى أن هلك السلطان ، وجاءت دولة الأمير خالد ، فأبقاه على حاله من التجلّة والكرامة ، ولم يستعمله ولا عقد له ، إلى أن كانت دولة أبي يحيى بن اللحياني ، فاصطنعه، واستكفى به عند ما نبضَت عروق التغلُّب للعرب ؛ ودفعه الى حماية الجزيرة من دلاج[1] ، أحد بطون سُليم الموطنين بنواحيها ؛ فكانت له في ذلك آثار مذكورة . ولما انقرضت دولة ابن اللحياني خرج الى المشرق ، وقضى فرضه سنة ثمان عشرة ، وأظهر التوبة والاقلاع ، وعاود الحج متنَفِّلاً سنة ثلاث وعشرين ، ولزم كِسْر بيته . وأبقى السلطان أبو يحيى عليه نعمتَه في كثير مما كان بيَدِهِ من الاقطاع والجراية ، ودعاه الى حجَابته مراراً ، فامتنع .

أخبرني محمد بن منصور بن مَزْنى[2] ، قال : لما هلك الحاجب محمد ابن عبد العزيز الكردي المعروف بالمِزْوَار ، سنة سبع وعشرين

(١) انظر بعض أخبار دلاج في تاريخ ابن خلدون .

(٢) كان ابن مزنى هذا صديقاً لابن خلدون . انظر العبر ٦/٨٨٨ - ٩٣٩ .

وسبعمائة ، استدعى السلطان جدّك محمد بن خلدون ، وأراده على الحجابة ، وأن يفوِّض إليه في أمره ، فأبى واستعفى ، فأعفاه ، وَوَامَرهُ فيمن يوليه حجابته ، فأشار عليه بصاحب الثغر : بجاية ، محمد بن أبي الحسين بن سَيِّد الناس ، لاستحقاقة ذلك بكفايته واضطلاعه ، ولقديم صحابة بين سلفهما بتونس ، وبإشبيلية من قبل . وقال له : هو أقدر على ذلك بِمَا هو عليه من الحاشية والدّوين[1] ، فعمل السلطان على إشارته ، واستدعى ابن سَيِّد الناس ، وولّاه حجابتَه . وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من تُونس يستعمل جدنا محمداً عليها ، وثوقاً بنَظرِه واستنامةً اليه ، الى أن هلك سنة سبع وثلاثين ، ونزع ابنُه ، وهو والدي محمد أبو بكر ، عن طريقة السيف والخدمة ، الى طريقة العلم والرِّباط ، لما نشأ عليها في حجر أبي عبد الله الزُّبَيْدي[2] الشهير بالفقيه ، كان كبيرَ تونس لعهده ، في العلم والفُتيا ، وانتِحال طرق الولاية التي ورثها عن أبيه حُسين وعمه حَسن ، الوليين الشَّهيرين . وكان جدنا رحمه الله قد لزمه من يوم نزوعه عن طريقه ، وألزمه ابنَه ، وهو والدي رحمه الله ، فقرأ وتفَقَّه ، وكان مقدّماً في صناعة العربية ، وله بصر بالشعِر وفنونِه . عَهدي بأهل الأدب

---

(١) الدوين : الأدنون الأخصون . (لسان العرب) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي (بضم الزاي ، نسبة الى قرية بساحل المهدية) توفي عام ٧٤٠ ﻫ (انظر رحلة ابن بطوطة ص ٦) .

يتحاكمون اليه فيه ، ويعرضون حوكهم عليه ، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة .

نشأته ومشيخته وحاله

أما نشأتي فاني وُلدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، ورَبيتُ في حجر والدي رحمه الله الى أن أيْفَعت وقرأْت القرآن العظيم على الأُستاذ المكتّب أبي عبد الله محمد بن سعد بن بُرّال[1] الانصاري ، أصله من جالية الأندلس من أعمال بَلَنْسِية ، أخذ عن مشيخة بَلَنسية وأعمالها ، وكان إماما في القراآت ، لا يُلحَق شأوه ، وكان من أشهر شيوخه في القراآت السبع أبو العباس أحمد بن محمد البَطَرْنِي[2] ، ومشيختُه فيها ، وأسانيده معْروفة . وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظي ، قرأته عليه بالقراآت السبع المشهورة إفراداً وجمعاً[3] في إحدى وعشرين خَتْمة ، ثُم جمعتُها في خَتْمةٍ

(١) برال : بضم البـاء الموحدة ، وفتح الراء المشددة ، هكذا قيده ابن خلدون بالقلم ، ومعاصره محمد بن ميمون البلوي الأندلسي بخطه بالقلم أيضاً .

(٢) البطرني ضبطه ابن خلدون بالقلم ، وابن ميمون البلوي ، بفتح الباء والطـاء المهملة وراء ساكنة بعدها نون ، نسبة الى بطرنة من اقليم بلنسية بشرق الأندلس . انظر كتاب البيان المغرب ٢٥٢/٣ .

(٣) الإفراد أن يتلى القرآن كله أو جزء منه برواية واحدة لأحد القراء السبعة أو العشرة المشهورين ، والجمع أن يجمع القارىء عند قراءة القرآن كله أو جزء منه بين روايتين فأكثر من الروايات السبع أو العشر المتواترة . ويسمى بالجمع الكبير ان استوفي القارىء سبع قراآت فأكثر ، والا سموه بالجمع الصغير . ولهم في صفة الجمع وحكمه ، من اباحة وتحريم ، خلاف معروف تجده في غيث النفع ص ٨ - ١٠) .

واحدةٍ أُخرى ، ثم قرأت برواية يعقوب[١] ختمة واحدة جمعاً بين الروايتَيْنِ عنه ؛ وعرضت عليه رحمه الله قصيدَتي الشاطبي[٢] ؛ اللاّمية في القراآت ، والرّائيّة في الرّسم ، وأخبرني بهما عن الأُستاذ أبي العبّاس البَطَرْنِي وغيره من شيوخه ؛ وعرضت عليه كتاب التّقصّي لأحاديث الموطأ لابن عبد البَر ، حَذَا بِه حَذْو كتابه التّمهيد على الموطأ ، مقتصِراً على الأحاديث فقط .

ودارَسْتُ عليه كتباً جَمَّة ، مثل كتاب التّسْهِيل لابن مالك[٣] ومختصر ابن الحاجب[٤] في الفِقه ، ولم أُكملها بالحفظ ، وفي خلال ذلك

---

(١) هو يعقوب بن اسحق بن زيد بن عبد الله الحضرمي البصري (١١٧ - ٢٠٥) أحد القراء العشرة ، وله قراءة مشهورة عنه، وهي احدى القراآت العشر، وقد رويت عنه من طريقين : الأولى رواية محمد بن المتوكل المعروف برويس (طبقات القراء ٢/٢٣٤ ، والثانية عن روح بن عبد المؤمن الهذلي (طبقات القراء ١/٢٨٥). والى ما ذكر يشير ابن خلدون بقوله « جمعاً بين الروايتين عنه».

(٢) هو ابو القاسم ، ويكنى أبا محمد أيضاً القاسم بن فيره (بكسر الفاء بعدها ياء آخر الحروف ساكنة ، ثم راء مشددة مضمومة بعدها هاء) بن خلف بن أحمد الشاطبي الرعيني رحل الى الشرق ، ودخل القاهرة ، وبها بمدرسة القاضي الفاضل ، نظم قصيدتيه "اللامية التي عرفت بالشاطبية ، وبحرز الأماني ، والرائية التي تعرف بالعقيلة . (طبقات القراء ٢/٢٠ ، سبكي طبقات ٤/٢٩٧ ديباج ص ٢٢٤) .

(٣) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي الجياني النحوي المشهور (٦٠٠ - ٦٧٢) وكتابه تسهيل الفوائد جمع - في ايجاز - قواعد النحو، ولذلك عني به أعلام النحو قراءة وشرحا واقراء وقد طبع بمكة سنة ١٣١٩ هـ . مرآة الجنان ٤/١٧٢ ، وبغية الوعاة ٣٥ .

(٤) عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب جمال الدين المصري (٥٧٠ - ٦٤٦) . له مختصر في الفقه المالكي يسمى المختصر الفقهي ، والفرعي ، والجامع بين الأمهات .

وقد تحدث ابن خلدون في آخر فصل الفقه من مقدمته عن مختصر ابن الحاجب الفقهي ، وعن تاريخ دخوله الى المغرب ، وأثره في دراسة الفقه المالكي هنالك ، وممن شرحه من علماء المغرب ، وعناية الفقهاء المغاربة به – بما لا يدع مجالا للريبة . وفيات الاعيان ١/٣٩٥ .

تعلّمت صناعة العربيةَ على والدي ، وعلى أُستاذِي تُونِس : منهم الشيخ أَبو عبد الله بن العربي الحَصَايري ، وكان إماماً في النحو وله شرحٌ مُستَوفىً على كتاب التَّسهيل . ومنهم أَبو عبد الله محمد بن الشَّواش الزَّرْزَالي . ومنهم أَبو العباس أحمد بن القَصَّار ؛ كان مُمتِعاً في صناعة النحو ، وله شرح علي قصيدة البُرْدة المشهورة في مدح الجَناب النبوي ، وهو حي لهذا العهد بتُونِس — .

ومنهم : امام العربية والأدب بتُونِس ، أبو عبد الله محمد بن بَحْر ؛ لازمت مجلسَه ، وأفدت عليه ، وكان بحراً زاخراً في علوم اللسان . وأشار عليّ بحفظ الشعر ؛ فحفظت كتاب الأشعار الستة ، والحماسة للأعلم[١] ، وشعر حَبِيب[٢] ، وطائفة من شعر المتنَبِّي[٣] ، ومن أشعار كتاب الاغاني . ولازمتُ أيضاً مجلس إمام المحدثين بتُونس ؛ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر بن سُلطان القَيْسي الوَادِيَاشي ، صاحب الرِّحلتين ؛ وسمعت عليه كتاب مُسلم بن الحَجَّاج ، الا فَوْتاً يسيراً من كتاب الصَّيد ؛ وسمعت عليه كتاب المُوَطَّأ من أوله الى آخره ،

---

(١) يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الشنتمري المعروف بالأعلم — وفيات ٢/٤٦٥ .

(٢) حبيب بن أوس الحارث الطائي أبو تمام (١٩٠ — ٢٢٦) : شاعر غني عن التعريف .

(٣) أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي الشاعر المعروف .

وبعضاً من الامهاتَ الخمس؛ وناولني[١] كتبا كثيرة في العربية والفقة ، وأجازني اجازة عـامة ، وأخبرني عن مشايخه المذكورين في بَرنامَجِه ؛ أَشهَرُهم بتُونس قاضي الجماعة أبو العباس أحمد بن الغَمَّاز الخزرجي .

وأخذت الفقه بتُونِس عن جمَاعة ؛ منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجَيَّاني ، وأبو القاسم محمد القصير ؛ قرأت عليه كتاب التَّهذيب لابي سَعيد البَرَادعي ؛ مختصَر المُدَوَّنة ، و كتاب المالكية ، وتفقَّهت عليه. و كنت في خِلال ذلك أنتَابُ مجلس شيخنا الامام ، قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام ، مع أخي محمد رحمة الله عليهما . وأفدت منه ، وسمعت عليه أثناء ذلك كتاب المُوَطَّأ للامام مالك ، وكانت له فيه طرق عالية ، عن أبي محمد بن هارون الطـائي قبل اختلاطه ــ الى غير هؤلاء من مَشيَخَة تُونس ، وكلّهم سمعت عليـه ، و كتب لي ، وأجازني ؛ ثم دَرَجوا كلُّهم في الطاعون الجارف .

وكان قدم علينا في جُملة السلطان أبي الحسن ، عند ما مَلَك افريقية سنة ثمـان وأربعين ، جمـاعةٌ من أهل العلم ، وكان يُلزِمهم شُهود مَجالِسه ويتجمَّل بمكانهم فيه : فمنهم شيخ الفُتيا بالمغرب ، وامـام مذهب مـالك ، أبو عبد الله محمد بن سليمان السَّطّي ؛ فكنت أنتـابُ

(١) المناولة في اصطلاح المحدثين : نوع من الإجـازة ، وهي أن يدفع الشيخ لطـالبه أصل سماعه ، أو فرعاً مقـابلا بأصله ، ويقول له قد أجزت لك في روايته عني (انظر كتب مصطلح الحديث) .

مجلسَه ، وأفدت عليه . ومنهم كاتب السلطان أبي الحسن ، وصاحب عَلامته التي توضع أسافل مكتوباته ، امام المحدثين والنُّحاة بالمغرب ، أبو محمد بن عبد المُهَيمن بن عبد المُهيمن الحَضْرمي ؛ لازمتُهُ ، وأخذت عنه ، سماعاً ، واجازة ، الامهاتِ الستّ ، وكتاب المُوَطّأ ، والسِّيَر لابن اسحق ، وكتاب ابن الصَّلاح في الحديث ، وكُتُباً كثيرة شذَّت عن حِفظي . وكانت بضاعته في الحديث وافرة ، ونِحْلَتُه في التقييد والحفظ كاملة، كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سفر؛ في الحديث والفقه ، والعربية ، والادب ، والمعقول ، وسائر الفنون ؛ مضبوطة كلها ، مقابَلة . ولا يخلو ديوان منها عن ثَبَتٍ بخط بعض شيوخه المعروفين في سَنَده الى مؤلفه ، حتى الفقه ، والعربية ، الغريبة الاسناد الى مؤلفيها في هذه العصور . ومنهم الشيخ أبو العبَّاس أحمد الزّوَاوِي ، امام المقرئين بالمغرب . قرأتُ عليه القرآن العظيم ، بالجمع الكبير بين القراآت السبع ، من طريق أبي عَمرو الدَاني ، وابن شُرَيْح[1] ، في خَتْمةٍ لم أُكْملها ، وسمعت عليه عِدّة كتب ، وأجازني بالاجازة العامة .

ومنهم شيخ العلوم العقلية ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي . أصله من تِلِمْسان ، وبها نشأ ، وقرأ كتب التَّعاليم ، وحذِق فيها .

(١) محمد بن شريح بن أحمد بن محمد أبو عبد الله الأشبيلي المقرىء (٣٨٨ - ٤٧٦) .

وأَظله الحصَار الكبير بِتلمْسان أعوام المائة السابعة ؛ فخرج منها ، وحجَّ . ولقي أعلام المشرق يومئذ ؛ فلم يأخذ عنهم ؛ لأنه كان مختلطاً بعارِض عرَض في عقله . ثم رجع من المشرق ، وأفاق ، وقرأ المنطق والأصلين ، على الشيخ أبي موسى عيسى بن الامام ؛ وكان قرأ بتُونس ، مع أخيه أبي زيد عبد الرحمن ، على تلَاميذ ابن زَيْتُون[1] الشهير الذكر ؛ وجاء الى تِلِمْسان بعلم كثير من المعقول والمنقول ، فقرأ الآبِلي على أبي موسى مِنهُما كما قلناه . ثم خرج من تِلِمْسان هارباً الى المغرب ، لان سلطانها يومئذ ، أبو حَمُّو من ولد يَغمِراسن بن زَيَّان ، كان يُكرِهه على التَّصرف في أعماله ، وضبط الجباية بحُسبانه ، ففرَّ الى المغرب ، ولحق بمرَّاكُش ، ولزم العالِم الشهير أبا العباس بنَ البَنَّاء[2] الشهير الذكر ، فحصَّل عنه سائر العلوم العَقلية ، وورِثَ مقامَه فيها وأرفع ، ثم صعِد الى جبال الهَسَاكِرة ، بعد وفاة الشيخ ، باستدعاء عليّ بن محمد بن تُرُومِيت ، ليقرأ عليه ، فأفاده . وبعد أعوام استنزله مَلِك المغرب ، السلطانُ أبو سَعيد[3] ، وأسكنَه بالبلد الجديد ، والآبِليّ معه .

(١) القاسم بن أبي بكر بن مسافر شهر بابن زيتون ، يكنى ابا القاسم (٦٢١ - ٦٩١) رحل الى المشرق ، واخذ عن علمائه ، ورجع الى تونس ، فتولى بها الإفتاء والقضاء ؛ وهو اول من اظهر تآليف فخر الدين الرازي بتونس ، حيث كان يقرئها . احمد بابا ص ٢٢٢ .

(٢) ابو العباس احمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي (٦٥٤ - ٧٢٤) يعرف بابن البناء العددي ؛ ولد بمراكش ، وتعلم بها ، وتوفي بها . الاستقصاء ٨٨/٢ .

(٣) انظر اخباره في تاريخ ابن خلدون .

ثم اختصَّه السلطان أبو الحَسَن ، ونظمه في جُملة العلماء بمجلسه ، وهو في خِلال ذلك يُعلِّم العلوم العقلية ، وَيبُثُّها بين أهل المغرب ، حتى حَذِق فيها الكثير منهم من سائر أمصارها ، وألحق الأصاغرَ بالأكابر في تعليمه . ولما قدم على تونِس في جملة السلطان أبي الحسن ، لزمته ، وأخذتُ عنه الاصلين ، والمنطق ، وسائر الفنون الحِكْمية ، والتَّعليمية ؛ وكان رَحِمهُ الله ، يشهد لي بالتَّبريز في ذلك.

وممن قدِم في جُمْلة السلطان أبى الحسن : صاحبُنا أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رِضوان المالَقي[1] . كان يكتب عن السلطان ، ويلازم خِدمةَ أبي محمد عبد المُهَيْمن رئيس الكتَّاب يومئذ ، وصاحب العَلامة التي توَضع عن السلطان أسفلَ المراسيم والمخاطبات ، وبعضها يضعُه السلطان بخطِّه . وكان ابن رِضوان هذا من مفاخر المغرب ، في بَراعة خطه ، وكثرة علمه ، وحُسْن سَمْته ، وإجادته في فقه الوثائق ، والبلاغة في التَّرسيل عن السلطان ، وحَوْك الشعر ، والخطابة على المنابر ؛ لانه كان كثيراً ما يصلِّي بالسلطان . فلما قدِم علينا بتونِس ، صحبتُه ، واغتبطت به ، وإن لم اتَّخِذه شيخاً ، لمقاربة السن ، فقد أفدت منه كما أفدت منهم . وقد مَدَحه صاحبنا أبو القاسم الرَّحوي شاعر تُونس في قصيدة على رَوِيِّ النون ، يَرغب منه تذكرة[2]

(١) انظر اخباره في العبر .
(٢) كذا بالأصل ، وفي نسخة طبع بولاق : يرغب منه ان يذكره لشيخه .

شيخه أبي محمد عبد المُهَيْمن في إيصال مدحه الى السلطان أبي الحسن، في قصيدته [١] على رَوِيِّ الباء، وقد تقدم ذكرها في أخبار السلطان. وذكر في مدح ابن رضوان أعلامَ العلماء القادمين مع السلطان وهي هذه :

عرفتُ زمـاني حين أنكرتُ عرفانِي
وأيقنتُ أن لا حظَّ في كَفِّ كيوانِ [٢]

وأن لا اختيارٌ في اختيار مُقوَّمٍ   وأن لا قِراعٌ بالقِران لأقرانِ [٣]

وأنَّ نظامَ الشَّكْلِ [٤] أكملَ نظمِهِ   لأضعفُ قاضٍ في الدَّليل برُجحانِ

وان افتقـار المرء في فقراتـه   ومن ثقله يُغْني اللبيبَ بأوزانِ

فمن بعد ما شِمتُ الخلابَ ولم أُرَعْ   لِهَشَّةِ راضٍ او لِشِرَّة غضْبانِ

ولم يُعْشِنِي للنـار لمعُ شعاعِها   فما كل نارٍ نارَ موسى بن عمرانِ

ولم يبقَ لي في الغَيْب من املٍ سوى   لقـاء ابن رضوانٍ وجنَّة رِضْوان

(١) كذا، وفي ب : في قصيدة.

(٢) كيوان : اسم زحل، وهو احد الكواكب السيارة.

(٣) مقوم الكوكب : موضعه (طوله) من فلك البروج (الدائرة الكسوفية)، والقران : اجتماع كوكبين سيارين في نقطة واحدة من فلك البروج، ويشير الرحوي الى ما يزعمه المنجمون من ان الكوكب اذا كان في موضع معين في فلك البروج، او اقترن بكوكب آخر في نقطة معينة، كان له اثر حسن. او سيء، في اعمال الانسان.

(٤) نظام الشكل : شكل الفلك، يريد وضعه في وقت معين، وهو مـا يعرف عندهم بالنصبة الفلكية. ونظام الشكل : كنـاية عن حسن دلالته. يقول : مهما انتظم الشكل فانه اضعف قاض في دلالة القران على رجحان عمل على آخر.

هنالك الفَيْتُ العُلا تنتمي الى أُناسٍ ضئيلٌ عندهم فخرُ غسَّانِ
وَأرْعيتُ من روض التأدب يانعاً وحُيِّيتُ من كنز العلوم بعِقيانِ
وَرَدتُ فلم تُجْدِب لديه رِيادَتي وَصَدَّقَ طرفي ما تلقته آذاني
فحسبُك من آدابه كلُّ زاخرٍ يُحيِّيك معسولاً بدُرٍّ ومَرْجانِ
يحيِّيك بالسِّلك الذي لم تُحِطْ به
طرُوسُ ابن سَهلٍ او سوالفُ بورانِ[1]
فقل بابِليٌّ إن يُنافِثْك لفظةً وفي وَشْيِه الأطراسَ قل هو صَنْعاني
خلائق لم تُخلَق سدًى بل تكمَّلَتْ بإسداء إنعام وإبلاء إحسانِ

ثم يقول في ذكر العلماء القادمين :

هم القومُ كلُّ القَوم، أما حلومُهم
فأرسخُ من طودَيْ ثَبير[2] وثَهْلانِ[3]
فلا طيشَ يَعرُوهم وأما علُومهم فأعلامها تهديك من غير نيران

(١) السالفة : جانب العنق ، وجعلوا كل جزء من العنق سالفة ، فقالوا : انها لوضاحة السوالف . (لسان العرب) .
وبوران : هي بنت الحسن بن سهل . تزوجها الخليفة المأمون، وأنفق في زفافها من الأموال ما أصبح مضرب المثل . وفيات الأعيان ١١٦/١ .
وابن سهل هو الحسن بن سهل السرخسي والد بوران، ووزير المأمون ؛ له في البلاغة مكانة . (وفيات ١٧٧/١) .
(٢) ثبير : جبل بظاهر مكة . (تاج العروس) .
(٣) ثهلان : جبل في بلاد بني نمير . (تاج العروس) .

بفقهٍ يَشيمُ الأصبحيُّ[1] صبَاحه وأشهبُ[2] منه يستدلُّ بشُهْبانِ
وحُسْنِ جدالٍ للخصوم ومنطقٍ يَجيئان في الأخفى بأوضح بُرْهانِ
سقت روضةَ الآداب منهم سحائبٌ سَحَبنَ على سَحبانَ[3] أذيالَ نِسْيانِ
فلم يُبْقِ نَأيُ ابن الامام شَماخةً على مُدُنِ الدُّنيا لأنف تِلِمْسان
وَبعدَ نوى السطّيِ لم تَسْطُ فَاسُهُ بفخرٍ على بَغْدان في عصر بَغْدانِ
وبالآبِلي استَسْقت الأرضُ وَبْلَهَا ومستوبَلٌ ما مالَ عنه لأظمانِ
وهامت على عبد المُهَيْمن تُونِسٌ وقد ظفِرت منه بوصْل وقُربانِ
ومـا علِقت منّي الضمائر غيْرَهُ وإن هويتُ كلاً يحبُّ ابن رضوانِ

وكتب هـذا الشاعر : صاحبُنـا الرَّحوي يُذَكِّر عبد المهيمن بذلك :

لِهِيَ النفسُ في اكتساب وسعيٍ وهو العُمْر في انتهـابٍ وَفَيِّ
وأرى الناسَ بين ساعٍ لرُشدٍ يَتوخّى الهُدَى وساعٍ لغَيِّ
وأرى العلمَ للبريّـة زينـاً فتزَيَّ منـه بأحسنِ زيِّ

---

(١) يريد الأصبحي مالك بن أنس الإمام المعروف ؛ لانتهاء نسبه الى ذي أصبح . (ديباج ص ١١ - ٣٠) .
(٢) هو أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داود الفقيه المالكي المصري وفيات الأعيان ٩٧/١ .
(٣) هو سحبان بن زفر بن اياس الوائلي ، يضرب به المثل في البيان ؛ أدرك الإسلام ، ومات سنة ٥٤ هـ . ترجمته في شرح ابن نباتة على رسالة ابن زيدون ص ٧٥ .

وأري الفضلَ قـدَ تجمَّع كُـلاًّ   في ابن عبد المُهَيمن الحضْرَمِيِّ

حـلَّ بالرتبـة العلية في حضْـرَةِ مَلْك سَامي العِمَادِ عَلِيِّ

قَلَـمٌ أوَسعَ الأقـاليم أمراً   فله قد أطـاع كلُّ عَصِيِّ

قَدَرٌ مـا يُفيد منـه احتِذارٌ   فبـأَيٍّ نراه يَقضِي بِـأيِّ

يَمنـحُ العِزَّ والعُـلا ويُوالي   بالعطـايا الجِسَامِ كلَّ وَلِيِّ

يَلجَـأُ الدَّارعون خوفـاً إليه   فهو يُزْرِي بالصَّارِم المَشْرَفِيِّ

هو اعلى الأقلامِ في كل عصرٍ   حيث يُنْمَى إلى الامـام عليِّ

حَلِيَتْ تلكُـمُ الرياسة منـهُ   بفَريـدٍ في كل معنًـى سَنِيِّ

سَالك في النِّظـام دُرّاً وَطوراً   نـاثر دُرَّه بنشرٍ وَطيِّ

بِـدَعٌ للبديع[1] تَرمي بحصْرٍ   ولصَـابي[2] بني بويـهِ بعِيِّ

وُيرى اخرسُ العراق لديـه   انـه بالشـآم كالأعْجَمِيِّ

وعلومٌ هي البُحُـور ولكـن   يَنثني الواردون منهـا برِيِّ

تَصدُر الأمة العظيمةُ عنهُ   بحديث مُجَـوَّد مَرْوِيِّ

وَبفقْـهٍ فيـه وحُسْن مقـالٍ   يضع النورَ في لِحَـاظ العَمِيِّ

وبنَحْـوٍ يُنْحِي على سِيبويَهٍ   بِبَيـانٍ في المُبْهَمَـات جَلِيِّ

---

(١) يريد ابا الفضل احمد بن الحسين الهمذاني ، بديع الزمان ، المتوفى سنة ٣٩٨ . (وفيات الاعيان ١/٤٧) .

(٢) ابو اسحق ابراهيم بن هلال الصابي الكاتب البليغ . وفيات ١/١٤ .

عَميَ الأخفشان عنه وسُدَّتْ ... عن خفاياه فِطْنَةُ الفَارِسيِّ

يَا اخا الحُكم في الأنام وإنّي ... لأنادِي ربَّ النَّدَى والنَّدِيِّ

بِنتُ فِكري تعرّضت لِحِماكم ... فالقِها راضِياً بوجه رَضِيِّ

تبتغي القربَ من مراقي الأماني ... والتّرَقّي للجانِبِ العَلَويِّ

فأَنِلْها مَرامَها نلتَ سهلاً ... كلَّ دانٍ تبغي وكلَّ قَصِيِّ

ثم كانت واقعة العرب على السلطان بالقَيْرَوان ، في فاتحة تسعٍ وأربعين ، فشُغِلوا عن ذلك ، ولم يظفر هذا الرَّحوي بطَلِبَتِه . ثم جاء الطاعون الجارف ، فطوى البِساط بما فيه ، وهلك عبد المهيمن فيمن هلك ، ودفن بمقبرة سلفنا بتونس ، لُخلة كانت بينه وبين والدي ، رحمه الله ، أيام قدومهم علينا .

فلما كانت واقعة القيْرَوان ، ثار أهل تُونس بمن كان عندهم من أشياع السلطان أبي الحسن ، فاعتصَمُوا بالقصَبَة دار الملك ، حيث كان ولدُ السلطان وأهلُه ، وانتقض عليه ابن تافراكين ، وخرج من القيْرَوان الى العرب ، وهم يحاصرون السلطان ، وقد اجتمعوا على ابن ابي دبوس ، وبايعوا له ، كما مرَّ في أخبار السلطان ، فبعثوا ابن تافْرَاكينْ الى تونس ، فحاصر القصَبة ، وامتنعَت عليه . وكان عبدُ المهيمن يوم ثورة أهل تونس ، ووقوع الهَيْعَة ، خرج من بَيْتِه الى دَارنا ، فاختفى عند ابي رحمه الله ، وأقام مختفياً عندنا نحواً من ثلاثة

أشهر . ثم نجا السلطان من القَيْرَوان الى سُوسَة ، وركب البحر الي تُونس ، وفرَّ ابن تافْراكين الي المشرق . وخرج عبد المهَيْمن من الاختفاء ، وأعاده السلطان الي ما كان عليه ، من وظيفة العَلاَمة والكتابة ، وكان كثيراً ما يخاطب والدي رحمه الله ويشكره على مُوالاته ، ومما كتب اليه وحفظتُه من خطِه :

لِحمدِ ذوي المكارم قد ثناني فمَالُ شكرهُ أبداً عنَاني
جزَى الله ابنَ خلدونٍ حياةً منعَّمةً وخُلداً في الجنان
فكم أولي ووَالى من جميل وبِرٍّ بالفِعال وبالّلسانِ
وراعى الحضْرَميَّةَ في الذي قد حبَا من ودّه ومن الحَنانِ
أبا بكر ثناءَكَ طولَ دهرى أُردِّد باللسان وبالجَنانِ
وعن علْياكَ ما امتدّت حياتي أكافح بالحُسام وبالسِّنانِ
فمنك أفدت خِلاً لستُ دَهري أرَى عن حبِّه أثْني عِنانِ

وهؤلاء الأعلام الذين ذكرهم الرَّحوي في شعره ، هم سبَاق الحلبة في مجلس السُّلطان أبي الحسن ، اصطفاهم لِصحابته من بين أهلِ المغرب . فأما ابنَا الامام[1] منهم فكانا اخوين من اهل بَرِشْك ، من اعمال تلمسان ، واسم اكبرهما : ابو زيد عبد الرحمن ، واسم الأصغر :

(١) انظر ترجمة ابني الامام في الديباج ص١٥٢ . وفي تاريخ ابن خلدون بعض اخبارهما .

ابو موسى عيسى ، وكان ابوهما اماما ببعض مساجد بَرِشْك ، واتهمه المتغلّب يومئذ على البلد زِيرِم[1] ابن حمَّاد ، بأن عنده وديعةً من المال لبعض اعدائه ، فطالبه بها ، فلاذ بالامتناع ، وبيَّته زِيرِم ، لينتزع المال من يده ، فدافعه وقُتل[2] وارتحل ابناه هذان الأخوان الي تونس في المئة السابعة، واخذا العلم بها عن تلاميذ ابن زَيتُون، وتفقها على اصحاب ابي عبدالله ابن شُعَيب الدُّكَّالي، وانقلبا الى المغرب بحظٍ وافر من العلم. وأقاما بالجزائر يَبُثَّان بها العلم، لامتناع بَرِشْك عليهما من أجل [ضَرَر] زِيرِم المتغلِّب عليها ، والسلطان ابو يعقوب يومئذ ، صاحب المغرب الأقصى من بني مَرِين ، جاثم على تِلِمْسَان يحاصرها الحصارَ الطويل المشهور[3] ، وقد بثَّ جيوشه في نواحيها ، وغلب على الكثير من أعمالها وأمصارها، وملك عمل مَغْراوة بشَلف ، وحاضرته ملْيانة ، فبعث عليها الحسَن بن عليِّ ابن ابي الطَّلاق من بني عَسكر ، وعليّ بن محمَّد الخيري من بَني وَرْتاجن ، ومعهما ـ لضبط الجباية واستخلاص الأموال ـ الكاتبُ منديل بن محمَّد الكِنَاني ، فارتحل هذان الأخوان يومئذ من الجزائر ،

---

(١) اسمه زيري بالياء ، فتصرفت العامة فيه ، وصار زيرم بالميم . وانظر اخباره في تاريخ ابن خلدون .

(٢) وقد انتقم لهذا الوالد ابنه الاكبر ، ابو زيد عبد الرحمن . ـ العبر .

(٣) دام هذا الحصار ثمانية اعوام ، وثلاثة اشهر . انظر اخباره ، وما جرّه على اهل تلمسان من محن ، في العبر .

واحتلاً بِملِيَانة ، فحَلِيَا بعيْن منديل الكِناني ، فقرَّبهما واصطفاهما ، واتَّخذهما لتعليم ولده محمَّد . ثم هلك يوسف بن يعقوب سلطان المغرب ، بمكانه من حصار تِلِمْسان ، سنة خمس وسبعمائة[1] على يد خصيٍ من خصيانه ؛ طعنه فأشواه ، وهلك . وقام بالمُلك بعده حافِدُه ابو ثابت ، بعد خطوب ذكرناها في أخبارهم ، ووقع بينه وبين صاحب تلمسان يومئذ أبي زَيَّان محمد بن عثمان بن يَغْمَراسن ، وأخيه أبي حَمُّو ، العهدُ المتأكدُ على الافراج عن تِلِمْسان ، وردِّ أعمالها عليهم ، فوفّى لهم بذلك ، وعاد الى المغرب . وارتحل ابن أبي الطَّلاق ، والخِيِّري ، والكِناني من مليانة راجعين الى المغرب . ومَرُّوا بتِلِمْسان ، ومع الكِناني هذان الأخوان ؛ فأوصلهما الى أبي حَمُّو ، وأثنى عليهما . وعرَّفه بمقامهما في العلم ؛ فاغتبط بهما ابو حَمُّو ، واختطَّ لهما المدرسة المعروفة بهما بتِلِمْسان . وأقاما عنده على هَدْي أهل العلم وسَنَنهم . وهلك ابو حَمُّو ؛ فكانا كذلك مع ابنه أبي تاشفين الى ان زحف السلطان ابو الحسن المريني الى تلمسان ، وملكها عنوةً ، سنة سبع وثلاثين . وكانت لهما شُهرة في أقطار المغرب ، أثبتَتْ لهما في نفس السلطان عقيدةً صالحة ؛ فاستدعاهما لحين دخوله ، وأدْنى مجلسَهما ، وأشاد بتكرِمتهما ، ورفع محلَّهما على أهل طَبقتهما . وصار يُجمِّل بهما مجلسه متى مَرَّ بتِلِمْسان ، او

(١) في العبر م٧ : « آخر سنة ست » ، وقد اشار ابن حجر ، في الدرر الكامنة ٤/٤٨٠ ، الى هذا الخلاف ، واعتمد – نقلا عن الإحاطة – انه قتل سنة ٧٠٦ .

وَفدا عليه في الأوقات التي يَفِد فيها أَعيانُ بلدهما. ثم استنفرهما للغزو ، وَحضرا معه واقعة طَرِيف ، وعادا الى بلدهما. وتوفي أبو زيد منهما إثر ذلك ، وبقي اخوه ابو موسى مُتَبَرِّئاً ما شاء من ظِلال تلك الكرامة .

ولما سار السلطان ابو الحَسَن الى إفْرِيقِّيَة سَنة ثمان واربعين ، كما مرَّ في أَخباره استَصحَب أَبا موسى بنَ الامام معه مُكرَّماً مُوَقراً ، عالي المَحل ، قريب المجلس منه . فلما استولى على إفريقيَة ، سرّحه الى بَلَده ، فاقام بها يسيراً ، وهلَك في الطاعون الجارف سنة تسع واربعين . وبقي أعقابُهُما بتِلِمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة ، ومُتَوَقّلين قُللها طَبَقاً عن طَبَق الى هذا العهد .

واما السَّطِّي ، واسمه محمد بن عليّ بن سُليمان ، من قبيلة سَطَّة ، من بطون أوْرَبة بنَواحي فاس. نزل ابوه سُليمان مدينة فاس ، ونشأ محمد بها واخذ العلم عن الشيخ ابي الحسن الصُّغَيِّر [١] إمام المالكية بالمغرب ، والطَّائر الذِكر ، وقاضي الجماعة بفاس ، وتفقه عليه . وكان احفظ الناس لمذهب مالك ، وأفقههم فيه . وكان السلطان ابو الحَسَن لدينه وَسَراوته ، وبعد شأوه في الفضل ، يتشوّف الى تَنويه مجْلسه بالعلماء ،

---

(١) هو علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي ابو الحسن ، يعرف بالصغير (مصغراً) الاستقصا ٨٨/٢ . ولابن خلدون رأي في أبى الحسن هذا . انظره في العبر .

واختار منهم جماعةً لصحابته ومُجالسته. كان منهم هذا الامام محمد بن سليمان. وقدم علينا بتُونس في جملته، وشهدنا وفورَ فضائله. وكان في الفقه من بيتها لا يُجارى، حفظاً وفهما، عهدي به وأخي محمّد رحمه الله يقرأ عليه من كتاب التَبْصرة لابي الحسن اللّخْمي، وهو يُصحّحه عليه من املائه وحفظه، في مجالسَ عديدة. وكذا كان حالُه في اكثر ما يُعاني حملَهُ من الكتب. وحضر مع السلطان ابي الحسن، واقعةَ القيروان، وخلص معه الى تونس، واقام بها نحواً من سنتين. وانتقَض المغرب على السُّلطان، واستقلّ به ابنُه ابو عِنان. ثم ركب السلطان ابو الحسن في اساطيله من تونس آخرَ سنة خمسين، ومرّ ببِجَايَة، فادركه الغرَق في سواحلها، فغرقت اساطيله، وغرق اهلُه، واكثرُ من كان معه من هؤلاء الفُضَلاء وغيرهم. وألقاه البحر ببعض الجزر هنالك، حتى استنقذه منه بعضُ اساطيله، ونجا الى الجزائر بعد انْ تلِف موجوده، وهلكَ الكثيرُ من عِياله واصحابه، وكان من امره ما مرّ في اخباره.

واما الآبِليّ [١] واسمُه محمَّد بن إبراهيم، فنشَؤه بتِلِمْسان، واصله من جالية الاندلس، من أهل آبِلة، من بلاد الجوْف [٢] منها، اجاز

(١) محمد بن ابراهيم الآبلي هذا، من اخص اساتذة ابن خلدون، وهو – فيما تحدثت به المراجع – عالم ذو مكانة بعيدة المدى في الثقافة الاسلامية بالمغرب.

(٢) المراد بالجوف، الشمال في لغة المغاربة والاندلسيين. تاريخ ابن خلدون م ٤ الاستقصا ٨٧/٢.

ابوه وعمّه احمد ، فاستخدمهم يغمراسن بن زيّان ، وولده في جندهم ، واصهر ابراهيم منهما الى القاضي بتلمسان محمّد بن غلبون في ابنته ، فولدت له محمّداً هذا . ونشأ بتلمسان في كفالة جده القاضي ؛ فنشأ له بذلك ميل الى انتحال العلم عن الجندية التي كانت منتحل ابيه وعمّه . فلما يفع وادرك ، سبق الى ذهنه محبّة التّعاليم ؛ فبرع فيها ، واشتهر . وعكف الناس عليه في تعلّمها وهو في سنّ البلوغ . ثم اطلّ السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان ، وجثم عليها يحاصرها . وسيّر بعوثه الى الاعمال ؛ فافتتح اكثرها . وكان ابراهيم الآبلي قائداً بهنين ؛ مرسى تلمسان في لمّة من الجند . فلمّا ملكها يوسف بن يعقوب ، اعتقل من وجد بها من شيع ابن زيّان ، واعتقل ابراهيم الآبليّ فيهم . وشاع الخبر في تلمسان بأنّ يوسف بن يعقوب يسترهن أبناءهم ويطلقهم ؛ فتشوّف ابنه محمد الى اللّحاق به ، من اجل ذلك . واغراه اهله بالعزم عليه ؛ فتسوّر الاسوار ، وخرج الى ابيه ؛ فلم يجد خبر الاسترهان صحيحاً . واستخدمه يوسف بن يعقوب قائداً على الجند الاندلسيين بتاوريرت ، فكره المقام على ذلك ، ونزع عن طوره ، ولبس المسوح ، وسار قاصداً الحجّ . وانتهى الى

رباط العُبّاد [1] مختفياً في صُحبة الفقراء ؛ فوجد هنالك رئيساً من كَرْبَلا، [2] ثم من بني الحُسَين ، جاء الى المغرب يروم اقامة دعوتهم فيه ، وكان مُعقَّلًا ؛ فلما رأى عساكر يوسف بن يعقوب، وشدّة هَيْبَتِه غلب عليه اليأس من مَرامه ، ونَزَع عن ذلك ، واعتزم الرُّجوع الى بَلده ، فسَار شيخُنا محمد بن ابراهيم في جُملته .

قال لي رحمه الله : وبعد حين انكشف لي حاله ، وما جاء له ، واندرجتُ في جملة أصحابه وتابعه . قال : وكان يتلقّاه في كل بلدٍ من أصحابه وأشياعه وخَدَمه مَن يأتيه بالأزواد ، والنَّفقات من بَلده ، الى ان ركِبنا البحْر من تُونس الى الاسكندرية . قال : واشتَدّت عليّ الغُلْمَة في البحر ، واستَحْيَيْتُ من كثرة الاغتسال ؛ لمكان هذا الرّئيس ؛ فأشار عليّ بعضُ بِطانته بشُرب الكافور ؛ فاغترفتُ مِنه غُرفةً ، فشربتُها فاختلطت . وقدِم الديار المصرية على تلك الحال ، وبها يومئذ تَقِيّ الدِّين بن دَقيق العِيد ، وابن الرِّفْعة ، وصَفِيّ الدين الهِنديّ ، والتّبريزيّ ، وابن البَديع ، وغيرهُم من فُرسان المعْقول والمنقول . فلم يَكن قُصاراه إلا تمييز اشخاصهم ، اذا ذكرهم لنا ؛

---

(١) مرتفع جميل خارج مدينة تلمسان ، كان مدفن الأولياء والصلحاء والعلماء . وهناك موضعان عرفا باسم « العباد » ؛ أحدهما يسمى العباد الفوقي ، وكان بعيداً نوعاً ما عن المدينة ، والثاني العباد السفلي ، وكان بباب الجياد من أبواب تلمسان .

(٢) هو الموضع الذي قتل فيه الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وقد أطلق اليوم اسم كربلاء على لواء كامل من ألوية العراق . ياقوت ٢٢٩/٧ .

لما كان به من الاختلاط. ثم حجّ مع ذلك الرئيس ، وسار في جملته الى كرْبَلاء ؛ فبعث معه من أصحابه من أوصله الى مأمنه من بلاد زوَاوَة [١] من اطراف المغرب . وقال لي شيخُنا رحمه الله : كان معي دنانير كثيرة تَزَوَّدْتها من المغرب ، واستبطنتها في جُبَّة كنت ألبسُها؛ فلما نزل بي ما نزل انتزَعها منّي حتى اذا بعث اصحابه يشيّعونني الى المغرب ، دفعها اليهم ، حتى اذا اوصلوني الى المأْمن ، أعطوني اياها، وأشهدوا عليّ بها في كتاب حملوه معهم اليه كما امرهم . ثم قارَن وصول شيخنا الى المغرب مَهْلِك يوسف بن يعقوب وخلاص اهل تِلِمْسَان من الحصار ؛ فعاد الى تِلِمْسَان ، وقد افاق من اختلاطه ، وانبَعَثت همته الى تعلّم العلم . وكان مائلًا الى العقليات ؛ فقرأ المنطق على ابي موسى ابن الامام ، وجملة من الأصلَيْن ، وكان ابو حَمُّو [٢] صاحب تِلِمْسَان يومئذ قد استفحل ملكُه ، وكان ضابطاً لاموره ، وبَلغه عن شيخنا تقدُّمُه في علم الحساب؛ فدفعه الى ضَبط أموالهومُشارفة عُمَّاله . وتفادى شيخُنا من ذلك ؛ فأكرَهَه عليه ؛ فأعمل الحيلة في

(١) زواوة بفتح الزاي: بطن من بطون البربر البتر، ويرجح ابن خلدون–تبعاً لابن حزم– أنها من كتامة ، وكان موطنها ، حسب ما حدده ، الجبال العالية التي بنواحي بجاية ، والتي بينها وبين تدلس . وباسم هذه البطون تسمى الأمكنة التي تنزلها ، حال اقامتها ، وبعد ما ترحل ؛ ولهذا يقع اسم القبيلة الواحدة على أمكنة متعددة . انظر العبر ٨٨/٦ ، ١٨١ ، ١٩٢، تاج العروس ١٦٦/١٠ ، ١٦٧ .

(٢) هو أبو حمو موسى بن يوسف الزياني ، من ملوك تلمسان ، بني عبد الواد . انظر الاستقصا ١٠٣/٢ وما بعدها .

الفرار منه، ولحق بفاس ايام السلطان ابي الربيع [1]. وبعث فيه ابو حمّو؛ فاختفى بفاس عند شيخ التّعاليم من اليهود، خلّوف المَغيلي؛ فاستوفى عليه فنونها، وحذق. وخرج متوارياً من فاس؛ فلحق بمرّاكش، أعوام العشر والسّبع مائة. ونزل على الامام ابي العباس بن البنّاء شيخ المعقول والمنقول، والمبرّز في التصوف علماً وحالا؛ فلزمه، واخذ عنه. وتضلّع من علم المعقول والتعاليم والحكمة. ثم استدعاه شيخ الهساكرة عليّ بن محمد بن تروميت ليقرأ عليه، وكان ممرّضاً في طاعته للسلطان؛ فصعد إليه شيخنا وأقام عنده مدّة؛ قرأ عليه فيها وحصّل. واجتمع طلبة العلم هنالك على الشّيخ، فكثرت إفادته، واستفادته، وعليّ بن محمد في ذلك على تعظيمه، ومحبّته، وامتثال إشارته؛ فغلب على هواه، وعظمت رياسته بين تلك القبائل. ولما استنزل السلطان أبو سعيد عليّ بن تروميت من جبله، نزل الشّيخ معه، وسكن بفاس. وانثال عليه طلبة العلم من كل ناحية؛ فانتشر علمه، واشتهر ذكره؛ فلمّا فتح السلطان أبو الحسن تلمسان ولقي أبا موسى بن الامام، ذكره له بأطيب الذكر، ووصفه بالتّقدّم في العلوم. وكان السلطان معنياً بجمع العلماء لمجلسه، كما ذكرنا. فاستدعاه من مكانه بفاس، ونظمه في طبقة

---

(١) هو سليمان بن عبد الله بن أبي يعقوب بن يوسف بن عبد الحق المريني، يكنى أبا الربيع. توفي سنة ٧١٠ هـ.

العلماء بمجلسه ، وعكف على التدريس والتعليم ، ولازم صحابة السلطان ، وحضر معه واقعة طريف ، وواقعة القيروان بإفريقية . وكانت قد حصلت بينه وبين والدي رحمه الله صحابة ، كانت وسيلتي إليه في القراءة عليه ؛ فلزمت مجلسه ، وأخذت عنه . وافتتحت العلوم العقلية بالتعاليم . ثم قرأت المنطق ، وما بعده من الأصلين ، وعلوم الحكمة . وعرض أثناء ذلك ركوب السلطان أساطيله من تونس إلى المغرب ، وكان الشيخ في نزلنا وكفالتنا ، فأشرنا عليه بالمقام ، وثبطناه عن السفر ؛ فقبل ، وأقام . وطالبنا به السلطان أبو الحسن ؛ فأحسنا له العذر . وتجافى عنه ، وكان من حديث غرقه في البحر ما قدمناه . وأقام الشيخ بتونس ، ونحن وأهل بلدنا جميعاً نتساجل في غشيان مجلسه ، والأخذ عنه ؛ فلما هلك السلطان أبو الحسن بجبال هنتاتة[1] ، وفرغ ابنه أبو عنان[2] من شواغله ، وملك تلمسان من بني عبد الواد ؛ كتب فيه يطلبه من صاحب تونس ، وسلطانها يومئذ ابو إسحق[3] إبراهيم بن السلطان أبي يحيى ، في كفالة

(١) درج ابن خلدون على ضبط « هنتاتة » بالقلم ، بكسر الهاء ، وسكون النون ، وفتح التاء الفوقية ، بعدها ألف ممدودة ، ثم تاء مفتوحة بعدها هاء للتأنيث . وفي شذرات الذهب لابن العماد ٣٤٥/٦ ، وصبح الأعشى ١٣٤/٥ : أنها بفتح الهاء . وبقية الضبط متفق عليه بينهم .

(٢) هو فارس المكنى بأبي عنان بن أبي الحسن المريني ؛ كان يلقب بالمتوكل . ثار على أبيه ، وملك المغرب الأقصى ، وبجاية ، وقسنطينة ، وتلمسان ، وتونس ، وتوفي سنة ٧٥٩ .

(٣) أبو اسحق ابرهيم بن ابي بكر بن يحيى بن ابراهيم .

شيخ الموحدين أبي محمد بن تافراكين ؛ فأسلمه إلى سفيره ، وركب معه البحر في أسطول السلطان الذي جاء فيه السفير . ومر ببجاية ، ودخلها ، وأقام بها شهراً ، حتى قرأ عليه طلبة العلم بها مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه ، برغبتهم في ذلك منه ومن صاحب الأسطول . ثم ارتحل ، ونزل بمرسى هنين وقدم على السلطان بتلمسان ، وأحله محل التكرمة ، ونظمه في طبقة أشياخه من العلماء . وكان يقرأ عليه ، ويأخذ عنه ، إلى أن هلك بفاس ، سنة سبع وخمسين وسبعمائة . وأخبرني رحمه الله أن مولده بتلمسان سنة إحدى وثمانين وستمائة .

وأما عبد المهيمن كاتب السلطان أبي الحسن ، فأصله من سبتة ، وبيتهم بها قديم ، ويعرفون ببني عبد المهيمن ؛ وكان أبوه محمد قاضيها أيام بني العزفي . ونشأ ابنه عبد المهيمن في كفالته ؛ وأخذ عن مشيختها . واختص بالأستاذ أبي إسحق الغافقي [1] . ولما ملك عليهم الرئيس أبو سعيد ، صاحب الأندلس ، سبتة ونقل بني العزفي ، مع جملة اعيانها الى غرناطة ، ونقل معهم القاضي محمد بن عبد المهيمن ، وابنه عبد المهيمن ؛ فاستكمل قراءة العلم هنالك واخذ عن ابي جعفر بن الزبير [2]

(١) ابراهيم بن أحمد بن عيسى الأشبيلي ابو اسحق ؛ عرف بالغافقي . دخل سبته ، وولي القضاء بها . وتوفي سنة ٧١٦ هـ . الدرر الكامنة ١/١٣ .

(٢) أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفي ، أبو جعفر .

ونظرائه، وتقدَّم في معرفة كتاب سِيبَوَيه، وبَرَّز في علوِّ الاسناد، وكثرة المشيخة. وكَتَب له اهل المغرب والاندلس والمشرق، فاستكتبه رئيس الاندلس يومئذ، الوزير ابو عبدالله بن الحَكيم[١] الرُّندي، المستَبِدّ على السلطان المخلوع[٢] من بني الاحمر، فكتب عنه، ونظمه في طبقة الفُضلاء الذين كانوا بمَجلِسه، مثل المحدّث الرحَّالة ابي عبدالله بن رُشَيْد الفِهْري[٣]، وأبي العبَّاس احمد بن (...) العَزَفيّ[٤]، والعالم الصُّوفي المتجرِّد، ابي عبدالله محمد بن خَميس[٥] التِّلِمْساني، وكانا لا يُجارَيان في البلاغة والشِّعر — الى غير هؤلاء ممن كان مختصاً به؛ وقد ذكرهم ابن الخطيب في تاريخ غرناطة. فلما نُكب الوزير ابن الحكيم، وعادت سبتة الى طاعة بَني مَرِين، عاد عبد المهيمن اليها واستقرَّ بها. ثم وليّ السلطان ابو سَعيد، وغَلب عليه ابنُه ابو عليّ، واستبدّ بحمل الدَّولة. تشوَّفَ الى استدعاء

(١) هو الوزير الشاعر محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم، أبو عبد الله الرندي، شهر بابن الحكيم، الاحاطة ٢/٢٧٨ — ٣٠٤

(٢) محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، يكنى أبا عبد الله؛ ثالث ملوك بني الأحمر (٦٥٥ — ٧١٣) وهو الذي بنى مسجد الحمراء الأعظم بغرناطة.

(٣) أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد ... بن رشيد (مصغرا) الفهري السبتي. محدث رحالة شهير.

(٤) هكذا بياض في الاصل، ولا يوجد بياض في ب. ولعل ابن خلدون ترك الفراغ ليضع فيه آباء أبي العباس العزفي، فمات قبل أن يفعل. وهي — كما في نيل الابتهاج وغيره — أحمد بن محمد ابن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي عزفة اللخمي.

(٥) ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد.. الحجري، التلمساني، الشاعر. توفي قتيلا في سنة ٧٠٨ وله نيف وستون سنة.

الفضلاء ، وتجمَّل الدولة بمكانهم ؛ فاستقدم عبدَ المُهَيْمن من سَبتَة ، واستكتبه سنة أثنتي عشرة. ثم خالف على ابيه سنة اربع عشرة ، وامتنع بالبلد الجديد ، وخرج منها الى سِجِلْمَاسَة بصُلح عقده مع ابيه ؛ فتمسَّك السلطان أبو سَعيد بعبد المُهَيْمن ، واتخذه كاتباً ، الى ان دفعه لرياسة الكتَّاب ، ورسْم علامته في الرسائل والاوامر ؛ فتقدم لذلك سنة ثمانَ عشرة ، ولم يزل عليها سائرَ ايام السلطان ابي سَعيد وابنه ابي الحَسَن . وسار مع ابي الحسن الى إفريقية ، وتخلَّف عن واقعة القَيْروان بتُونِس ؛ لما كان به من علّة النَّقرِس . فلما كانت الهَيْعَة بتونس ، ووصل خبر الواقعة ، وتحيَّز اشياع السلطان الى القَصبة ، مع حُرَمه ، تسرَّب عبد المُهَيْمن في المدينة ، منتَبذاً عنهم ، وتوارى في بيتنا ، خشيةَ ان يُصاب معهم بمكروه . فلما انجلت تلك الغَيابَة ، وخرج السلطان من القَيْروان الى سُوسَة ، وركب منها البحر الى تُونس ، اعرض عن عبد المَهيمن ، لِما سَخِط غيْبته عن قومه بالقَصَبة ، وجعل العَلامة لابي الفضل ابن الرئيس عبدالله بن ابي مَدْيَن [1] ، وقد كانت مقصورةً من قبلُ على هذا البيت ، واقام عبد المهيمن عُطْلًا من العمل مدة اشهر . ثم اعتبه السلطان ، ورضي عنه ، واعاد اليه العَلامة

(١) عبد الله بن ابي مدين شعيب العثماني . نجم – من بيت ابي مدين – في خدمة بني مرين ؛ فقلدوه الحجابة ، ورياسة الكتاب . ولد بقصر كتامة ، ونشأ بمكناسة ، وتعلم بها .

كما كان ، وهلك لأيام قلائل بتُونس في الطاعون الجارف سنة تسع واربعين . ومولدُه سنة خمس وسبعين من المائة قبلها ، وقد استوعب بن الخطيب التعريف به في تاريخ غرناطة فلطالعه هنالك من أحبّ الوقوف عليه.

واما ابن رِضْوان [1] الذي ذكره الرَّحَوي في قصيدته ، فهو ابو القاسم عبدالله بن يوسف بن رِضوان النجاري ؛ اصله من الأندَلُس نشأ بمالقة ، واخذ عن مشيَختها ، وحذق في العربية والأدب ، وتفنَّن في العلوم ، ونظم ونثر ، وكان مُجيداً في التَّرسيل ، ومُحسِناً في كِتابة الوثائق . وارتحل بعدَ واقعة طريف ، ونزَل بسَبتة ، ولقِي بها السلطان ابا الحسن ، ومدحه ، وأجازه ، واختصّ بالقاضي إبراهيم بن ابي يحيى [2] ، وهو يومئذ قاضي العَساكر ،وخطيبُ السلطان ، وكان يستنيبُه في القضاء والخطابة ، ثم نظمه في حَلْبَة الكتَّاب بباب السلطان . واختصّ بخدمة عبد المُهَيْمن رئيس الكتَّاب والأخذ عنه ، الى ان رحلَ السلطان الى إفريقية ، وكانت واقعةُ القَيْروان ، وانحصر بقَصَبة تُونس مَن انحصَر بها ؛ من اشياعه مع اهله وحُرَمه . وكان السلطان قد تخلّف ابنَ رِضوان هذا بتُونس في بعض خدَمه ، فجَلّى عند الحصار فيما عرض لهم من المكاتبات . وتولّى

(١) انظر ترجمة ابن رضوان هذا ، في الاستقصاء ٢/١٢٣ .

(٢) ابراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي التـازي أبو اسحق ؛ يعرف بابن أبي يحيى المتوفى بعد سنة ٧٤٨ . الإحاطة ١/٢١٧ .

كِبر ذلك ، فقام فيه احسن قيام ، الى ان وصل السلطان من القيروان ، فرعى لهُ حقَّ خدمته ، تأنيساً ، وقُرباً ، وكثرة استعمال ، الى ان ارتحل من تُونس في الأسطول ، الى المغرب سنة خمسين كما مرَّ . واستخلف بتُونِس ابنَه ابا الفضل وخلَّف ابا القاسم بن رِضوان كاتباً له ؛ فاقام كذلك اياماً. ثم غلَبهم على تُونس سُلطان الموحِّدين الفضلُ ابن السلطان ابي يحيى . ونجا ابو الفضل الى ابيه ، ولم يُطِق ابنُ رضوان الرِّحلة معه ؛ فاقام بتونس حولاً ، ثم ركب البحر الى الأندَلُس ، واقام بالمَريَّة مع جُملةٍ من هنالك من اشياع السلطان أبي الحسن ؛ كان فيهم عامر بن محمد بن عليّ شيخ هِنتَاته ، كافلاً لحرَم السلطان ابي الحسن ؛ وابنِه . اركبهم السفينَ معه من تُونِس عندما ارتحلَ ؛ فخلَصوا الى الأندلس ، ونزلوا بالمَريَّة ، واقاموا بها تحت جرَاية سلطان الأندلس ؛ فلحِق بهم ابنُ رضوان ، واقام معهم . ودعاه ابو الحجَّاج [1] سلطان الأندلس الى ان يستكتبه فامتنع ، ثم هلك السلطان ابو الحسن ، وارتحل مُخلَّفه الذين كانوا بالمَريَّة . ووفَدوا على السلطان ابي عِنَان . ووفَد معهم ابن رضوان ؛ فرَعى له وسائله في خِدمة ابيه ، واستكتبه ، واختصَّه بشهود مجلسه ، مع طلبَة العلم بحضرته . وكان محمد بن ابي عمرو يومئذ رئيس الدولة ،

(١) هو سابع ملوك بني الاحمر . ابو الحجاج يوسف بن اسماعيل ابن الاحمر . (٧١٨– ٧٥٥) ولي الملك سنة ٧٣٤ .

ونَجِيّ الخلوة، وصاحب العَلامة، وحُسبان الجباية والعساكر، قد غَلب على هوَى السلطان، واختصّ به؛ فاستخدم له ابنَ رضوان حتى علِق منه بذمّه. ولاية وصحبة، وانتظاماً في السَّمَر، وغِشيان المجالس الخاصَّة، وهو من ذلك يُدنيه من السلطان. ويُنفِق سوقه عنده، ويستكفي به في مواقف خدمته إذا غاب عنها لما هو أهمّ؛ فحَلي بعين السّلطان، ونفقت عنده فضائلُه. فلمَّا سار ابن أبي عَمرو في العساكر إلي بجَايَة، سنة أربع وخمسين، انفرد ابن رِضوان بقلم الكتاب عن السلطان. ثم رجع ابن أبي عَمرو، وقد سخطه السلطان؛ فأقصاه الى بجَايَة وولّاه عليها، وعلى سائر أعمالها، وعلى حرب الموحّدين بقُسَنْطينة. وأفرد ابنَ رضوان بالكتابة، وجعل إليه العَلامة، كما كانت لابن أبي عَمرو، فاستقلّ بها، موفّر الاقطاع، والاسهام، والجاه. ثم سَخِطه آخر سبع وخمسين، وجعل العَلامة لمحمد بن أبي القاسم بن أبي مَدْيَن، والانشاء والتوقيع لأبي إسحق إبراهيم بن الحاج الغرناطي[1]. فلما كانت دولة السلطان أبي سَالم[2]، جعل العَلامة لعليّ بن محمد بن سعود[3] صاحب ديوان العساكر،

(١) ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم... النميري أبو اسحق؛ يعرف بابن الحاج ولد سنة ٧١٣، وكان حياً في سنة ٧٦٨. احاطة ١٩٣/١ — ٢١٠.

(٢) أبو سالم هذا هو ابراهيم بن السلطان أبي الحسن، وأخو السلطان أبي عنان فارس. تفصيل أخباره في تاريخ ابن خلدون.

(٣) هو علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن سعود الخزاعي، يكنى أبا الحسن أصله من الأندلس من بيت علم، وقدم أبوه تلمسان. كان فقيهاً أديباً لغوياً.

والانشاء والتوقيع والسر لمؤلف الكتاب عبد الرحمن بن خلدون . ثم هلك أبو سالم سنة اثنتين وستين ، واستبد الوزير عمر بن عبد الله [1] على من كفله من أبنائهم ، فجعل العلامة لابن رضوان ، سائر أيامه ، وقتله عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن ، واستبد بملكه ، فلم يزل ابن رضوان على العلامة ، وهلك عبد العزيز ، وولي ابنه السعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن غازي [2] بن الكاس ، وابن رضوان على حاله ؛ ثم غلب السلطان أحمد على الملك ، وانتزعه من السعيد ، وأبي بكر بن غازي ، وقام بتدبير دولته محمد بن عثمان بن الكاس ، مستبداً عليه ، والعلامة لابن رضوان ، كما كانت ، الى أن هلك بأزمور في بعض حركات السلطان أحمد الى مراكش ، لحصار عبد الرحمن بن بويفلوسن ابن السلطان أبي علي سنة (. . . . .) [3] .

وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من فضلاء المغرب وأعيانه ، هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس ، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق ، وتخطت النكبة منهم آخرين الى أن استوفوا ما قدر من آجالهم . فمن حضر معه بإفريقية من العلماء ،

---

(١) الوزير عمر بن عبد الله ، من الوزراء الذين كان لهم الأثر البارز في تصريف شؤون الدول بالمغرب ؛ واخباره ذكرت مفصلة في العبر م ٧ .

(٢) الوزير ابو بكر بن غازي هذا ؛ كان له صيت وسطوة ايام بني مرين ، وكانت له كذلك صلة بلسان الدين ابن الخطيب ، عند ما انتقل الى المغرب . انظر تاريخ ابن خلدون م ٧ .

(٣) كذا بياض بالأصل ، ولم نعثر في المراجع التي بين ايدينا على هذه السنة .

شيخُنا أبو العبَّاس أحمد بن محمد الزَّوَاوي ، شيخ القراءات بالمغرب؛ أخذ العلم والعربية عن مَشيَخة فاس ، وروى عن الرَّحالة أبي عبد الله محمد بن رُشيد ، وكان إماماً في فن القراءات وصاحبَ ملَكة فيها لا تُجَارَى . وله مع ذلك صوت من مزامير آل داود[1] ، وكان يصلّي بالسلطان التَّرَاويح ، ويقرأ عليه بعضَ الأحيان حِزبه .

وممَّن حضر معه بإفريقية ، الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن الصبَّاغ من أهل مكْنَاسَة . كان مبرِّزا في المنقول والمعقول ، وعارفا بالحديث[2] وبرجاله ، وإماماً في معرفة كتابِ الموطأ وإقرائه ؛ أخذ العلوم عن مَشيَخَة فاس ، ومِكْنَاسة ، ولقي شيخنا أبا عبد الله الآبِلِيّ ، ولازَمَه ، وأخذ عنه العلوم العقلية ؛ فاستنفدَ بَقِية طَلَبِه عَليه ، فبرَّز آخرا ؛ واختاره السلطان لمجلسه ، فاستدعاه ، ولم يزَل معه إلى أن هلك غريقاً في ذلك الأسطول[3] .

ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النُّور ، من أعمال نَدرُومَة ، ونسبُه في صِنهَاجة كان مبرِّزاً في الفِقه على مذهب

(١) ورد في حديث لأبي موسى الأشعري ، أنه كان يقرأ ، فسمعه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أعطيت مزماراً من مزامير آل داود ؛ يكنى عن حسن صوته . تاج العروس ٣٤٠/٣ .

(٢) يقولون انه أملى في مجلس درسه ، على حديث : «يا أبا عمير ، ما فعل النغير» أربعمائة فائدة . الاستقصاء ٨٤/٢ .

(٣) يكرر ابن خلدون قوله في هذا الحادث لفدح المصاب فيه ، فلقد كانت قطع الأسطول نحو ستمائة قطعة ، غرقت كلها ، وهلك فيها من أعلام المغرب نحو أربعمائة . الاستقصا ٨٤/٢ .

الامام مالك بن أنَس ، تفقَّه فيه على الأخوَيْن أبي زيد ، وأبي موسى ابنَي الامام ، وكان من جِلَّة أصحابهما .

ولما استولى السلطان أبو الحَسَن على تِلِمْسان ، رفَع من مَنزِلة ابنَي الامام ، واختصَّهما بالشُّورَى في بلدِهما . وكان يَستكثر من أهل العلم في دولته ، ويُجْري لهم الأرزاق ، ويَعْمُر بهم مجلسَه ؛ فطلب يومئذ من ابن الامام أن يختار له من أصحابه من يَنظِمه في فُقهاء المجلس ؛ فأشاروا عليه بابن عَبد النُّور هذا ؛ فأدناه ، وقرَّب مجلسَه ، وولاه قضاءَ عسكره ، ولم يزَل في جُملته الى أن هلكَ في الطاعون بتُونس سنة تسع وأربعين . وكان قد خلّف بتلمسان أخاه عليا رفيقَه في دروس ابن الامام ، إلاَّ أنه أقصر باعاً منه في الفقه . فلما خَلَع السلطان أبو عِنَان طاعة أبيه السلطان أبي الحَسَن ، ونهض الى فاس ، استنفَره في جُملته . وولاه قضاء مِكْنَاسة ؛ فلم يزل بها ، حتى إذا تغلَّب عُمَر بن عبد الله على الدّولة كما مر ، نَزَع الى قضاء فرضه ؛ فسرَّحه . وَخرج حاجاً سنة أربع وستين ؛ فلما قدم على مكَّة ، وكان به بقيةُ مرَض ، هلكَ في طواف القُدوم . وأوصى أميرَ الحاج على ابنه محمد ، وأن يُبلِّغ وصيته به للأمير المتغلب على الديار المصرية يومئذ ، يَلْبُغا الخاصِكي[1] ؛ فأحسَن خلافَته فيه ، وولاه من وظائف الفقهاء ما سدَّ به خَلّتَه ، وصان عن

---

(١) هو الأمير المعروف يلبغا بن عبد الله الخاصكي الناصري . تناهت اليه الرياسة ، ولقب نظام الملك ، وبلغت عدة مماليكه ثلاثة آلاف .

سؤال الناس وجهه؛ وكان له ـ عفا الله عنه ـ كَلَفٌ بعمل الكيمياء، تابعاً لمن غلط في ذلك من أمثاله. فلم يزل يُعاني من ذلك ما يورِّطه مع النَّاس في دينه وعِرْضِه، الى أن دعته الضرورة للترُّحل عن مصر، ولحِق ببغداد. وناله مثل ذلك؛ فلحِق بمارِدِين، واستقر عندَ صاحبها، وأحسن جِوَاره، الى أن بلغنا بعدَ التسعين أنه هالك هنالك حتْفَ أنفه، والبقاء لله وحدَه.

ومنهم شيخ التَّعَاليم أبو عبد الله محمد بن النَّجَّار[1] من أهل تِلِمْسان؛ أخذ العلم ببلده عن مشيختها، وعن شيخنا الآبِلي، وبرَّز عليه. ثم ارتحل الى المغرب، فلقي بسبتة إمامَ التعاليم، أبا عبد الله محمد ابن هِلَال شارح المِجِسْطِي في الهَيْئة، وأخذ بمراكُش عن الامام أبي العباس بن البَنَّاء، وكان إماماً في عُلوم النِّجامة وأحكامها، وما يتعلَّق بها، ورجع الى تِلِمْسان بعلم كثير، واستخلصته الدَّولة. فلما هلك أبو تاشفين، وملكَ السلطانُ أبو الحسن، نَظَمه في جُملته وأجرى له رِزقه، فحضر معه بإفريقية، وهلك في الطاعون.

ومنهم أبو العباس أحمد بن شُعَيْب[2] من أهل فاس؛ بَرَع في اللِّسان، والأدب، والعلوم العقلية، من الفلسفة، والتعاليم، والطب،

---

(١) هو محمد بن علي بن النجار التلمساني أبو عبد الله.

(٢) هو احمد بن شعيب الجزنائي التازي نزيل فاس. كتب لابي الحسن المريني، وتوفي بتونس سنة ٧٥٠.

وغيرها ؛ ونظمه السلطان أبو سَعيد في حَلْبة الكُتَّاب ، وأجرى عليه الرّزق مع الأطِبّاء ؛ لتقدُّمه فيهم ؛ فكان كاتبه ، وطبيبَه ؛ وكذا مع السلطان أبي الحسن بعدَه ؛ فحضر بإفريقية ، وهلك بها في ذلك الطاعون . وكان له شعْر سَابقَ به الفحُول من المتقدمين والمتأخرين ، وكانت له إمامة في نقد الشعر ، وبصَرٌ به ؛ ومما حضرني الآن من شعره :

دارُ الهوى نَجدٌ وساكنُها ... أَقصى أماني النَّفس من نجْدِ
هل بَاكرَ الوَسْمِيُّ ساحتها ... واستَنَّ في قِيعانها الجُردِ
أَو بات معتلُّ النَّسيم بها ... مُستَشْفِياً بالبَان والرَّند
يتلو أحاديث الذين هُمُ ... قَصْدي وإن جاروا عن القصدِ
ايام سُمْرُ ظلالها وَطني ... منها وزُرْقُ مِياهها وِردي
ومَطارحُ النّظرات في رَشإٍ ... أَحْوَى المدامع أهيَف القَدِّ
يَرنو إلَيْكَ بعيْنِ جَازيةٍ ... قُتِل المحِبُّ بها على عَمْدِ
حتى أَجدَّ بهم على عَجَل ... رَيْثُ الخطوب وعاثِر الجَدِّ
فُقِدوا فلا وابيك بعدَهم ... ما عِشتُ لا آسَى على الفقْدِ
وغَدوا : دفيناً قد تضمَّنه ... بطن الثَّرى وقرارة اللَّحدِ
ومشرَّدا من دون رُؤيته ... قُذُفُ النَّوى وتَنُوفة البُعْدِ

أَجرى عليَّ العيشُ بعدَهمُ ... أَنّي فقَدتُ جميعَهم وَحدي
لا تَلحني يا صاحِ في شَجَن ... أَخفيتُ منه فوق ما أُبدي
بالغَرْب لي سَكن تأوَّبني ... من ذِكره سُهْدٌ على سُهْدِ
فرخان قد تُرِكا بِضَيْعَةٍ ... زُوِيَتْ عن الرِّفْداء والرِّفْدِ

ومنهم صاحبنا الخطيب ابو عبدالله بن أحمد بن مَرزُوق [1] ؛ من اهل تِلْمِسان ، كان سلفه نُزَلاء الشيخ أبي مَدْين بالعُبَّاد ، ومتوارثين خدْمة تُربته ، من لدُن جدِّهم خادِمِه في حياته . وكان جدُّه الخامس او السادس ، واسمه ابو بكر بن مَرزوق ، معروفاً بالوِلاية فيهم . ولما هلك دفَنَه يَغْمَراسَن [2] بنُ زَيَّان ، سلطان تِلْمسان من بَني عبد الوَاد ، في التُّربة بقصره ، ليُدفَنَ بإزائه ، متى قُدِّر بوفاته . ونشأ محمد هذا بتلمسان . ومولدُه ـ فيما اخبرني ـ سنة عشر وسبعمائة [3] وارتحل مع ابيه الى المشرق . وجاور ابوه بالحرَمَيْن الشَّريفين ، ورجع هو الى القاهرة ؛ فاقام بها . وقرأ على

(١) ابن مرزوق هذا ، من بيت علم معروف .

(٢) يغمراسن هذا هو ابن زيان بن ثابت بن محمد ، من بني عبد الواد ، كان من أشدهم بأساً ، وكانت له في النفوس مهابة . ولي الملك سنة ٧٣٣ ، ودان له المغرب الأوسط وتلمسان .

(٣) تاريخ مولد ابن مرزوق ، كما ذكره ابن خلدون ، يخالف ما ذكره ابن الخطيب في الإحاطة حيث يقول انه ولد سنة ٧١١ هـ .

بُرهان الدين الصَّفاقُسي[1] المالكي واخيه . وبرع في الطِّبِّ والرواية ، وكان يُجيد الخطَّين ؛ ثم رجع سنةَ خمس وثلاثين الى المغرب ، ولقِيَ السُّلطان ابا الحَسَن بمكانه في تِلِمْسان ، وقد شيد بالعُبّاد مَسجدا عظيماً ؛ وكان عمُّه محمد بن مَرْزوق خطيباً به على عادتهم بالعُبّاد . وتُوفي ، فولّاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمِّه . وسمِعَه يخطب على المِنْبَر ، ويُشيدُ بذكره ، والثناء عليه ؛ فحَلِي بعينه ، واختصَّه ، وقرَّبه ، وهو مع ذلك يلازم مجلس الشيخين ابني الامام ، ويأخذ نفسَه بلِقاء الفُضلاء ، والأكابر ، والأخذ عنهم ؛ والسلطانُ في كل يوم يزيده رُتبة ؛ وحضر معه واقعة طَريف التي كان فيها تمحيصُ المسلمين ؛ فكان يستعمله في السِّفارة عنه الي صاحب الأندلس . ثم سَفَر عنه ، بعدَ ان مَلك افريقية ، الى ابن أُدفونش ملِك قَشْتَاله[2] في تقرير الصُّلح ، واستِنْقاذ أبي عمر تاشفين . كان أُسر يومَ طريف؛فغاب في تلك السفارة عن واقعه القَيروان . ورجَع بأبي تاشفين مع طائفة من زعماء النَّصرانية ، جاءوا في السِّفارة عن مَلِكهم ، ولَقِيَهم خَبَرُ واقعة القَيروان ، بقُسَنْطِينة ، من بلاد افريقية ، وبها عامل السلطان وحاميته ، فثار اهل قُسَنْطِينة بهم جميعاً ، ونهبوهم ، وخطبوا للفضل

(١) ابراهيم بن محمد بن ابراهيم القيسي الصفاقسي برهان الدين صاحب كتاب «اعراب القرآن». ألفه بالاشتراك مع أخيه شمس الدين محمد . ديباج ص ٩٢ .

(٢) مملكة قشتالة تقع في جنوب مقاطعة مدريد ، وكانت تشمل كلا المقاطعتين : « كوانكا » التي تقع في الجنوب الشرقي لمقاطعة مدريد ، و « توليدو » الواقعة في الجنوب ، والجنوب الغربي لمقاطعة مدريد أيضاً .

ابن السلطان أبي يحيى ، وراجعوا دعوة الموحِّدين ، واستدعوه فجاء اليهم ، وملك البلد . وانطلق ابن مَرْزوق عائداً الى المغرب ، مع جماعة من الاعيان ، والعُمَّال والسفراء عن الملوك . ووفد على السلطان ابي عِنَان بفاس مع أمّه حظية أبي الحسَن وأثيرته . كانت راحلة اليه ، فأدركها الخبر بقُسَنْطِينة . وحضرت الهَيْعَة . واتصل بها الخبر بتوثُّب ابنها ابي عِنان على مُلْك ابيه ، واستيلائه على فاس ؛ فرجعت اليه ، وابنُ مَرزوق في خدمتها ، ثم طلب اللَّحاق بتِلِمْسان ؛ فسرَّحوه اليها ، واقام بالعُبَّاد مكان سلفه . وعلى تِلِمْسان يومئذ ابو سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يَغْمُراسن بن زيَّان ، قد بايع له قبيلهُ بنو عبد الواد بعد واقعة القَيروان بتونس ، وابن تافراكين يومئذ مُحاصِرٌ للقصَبة ، كما مر في أخبارهم . وانصرفوا الى تلِمْسان ، فوجدوا بها ابا سعيد عثمان بن جرَّار ، من بيت ملوكهم ، قد استعمله عليها السلطان ابو عِنَان ، عند انتقاضه على ابيه ، ومسيره الى فاس ؛ فانتقض ابن جرَّار من بعده ، ودعا لنفسه ، وصمد اليه عثمان بن عبد الرحمن ومعه اخوه ابو ثابت وقومُهما ، فملكوا تِلِمسَان من يد ابن جرَّار ، وحبسوه ثم قتلوه ؛ واستبد ابو سعيد بمُلك تِلِمسان ، واخوه ابو ثابت يُرادفه . وركب السلطان ابو الحسن البحر من تونس ، وغرِق أسطوله ، ونجا هو الى الجزائر ، فاحتلَّ بها ، واخذ في الحشد الى تِلِمسان ؛ فرأى ابو سعيد ان

يكفّ غربه عنهم، بمواصلة تقع بينهما، واختار لذلك الخطيبَ ابنَ مرزوق؛ فاستدعاه وامرّ اليه بما يلقيه عنه للسلطان أبي الحسن، وذهب لذلك على طريق الصَّحراء. واطّلع ابو ثابت وقومُهم على الخبر، فنكروه على ابي سعيد، وعاتبوه، فأنكر، فبعثوا صغير ابنَ عامر في اعتراض ابن مرزوق، فجاء به، وحبسوه اياماً. ثم أجازوه البحرَ الى الاندلس؛ فنزل على السلطان ابي الحجّاج بغرناطة، وله اليه وسيلة منذُ اجتماعه به بمجلس السلطان ابي الحسن بسَبْتة إثر واقعة طريف؛ فرعى له ابو الحجاج ذِمّة تلك المعرفة، وادناه واستعمله في الخطابة بجامعه بالحمراء؛ فلم يزل خطيبَه الى ان استدعاه السلطان ابو عِنان سنة اربع وخمسين بعد مَهلك أبيه، واستيلائه على تِلِمْسان وأعمالها؛ فقَدِم عليه ورَعى له وسائله، ونظمه في أكابر أهل مجلسه. وكان يقرأ الكتاب بين يديه في مجلسه العِلمي، ويُدرّس في نوبته مع مَن يُدرّس في مجلسه منهم. ثم بعثه الى تُونس عامَ مَلكَها سنة ثمان وخمسين؛ ليخطب له ابنة السلطان أبي يحيى، فردّت تلك الخِطبَة واختفت بتُونس. ووُشي إلى السلطان أبي عِنان أنه كان مطّلعاً على مكانها، فسخطه لذلك، ورجع السلطان من قُسَنْطِينة؛ فثار أهل تُونس بمن كان بها من عمّاله وحاميته. واستقدموا أبا محمد بن تافراكين من المَهْدِية، فجاء، وملك البلد. ورَكب القومُ الأُسطول، ونزلوا بمَراسي تِلِمْسان. وأوعزَ

السلطان [أبو عِنان] باعتقال ابن مَرْزوق، وخَرج لذلك يَحْيي بن شُعَيب من مقدَّمي الجَنادِرَة[1] ببابه، فلقيه بتاَسالة، فقيَّده هنالك. وجاء به، فأحضره السلطان وقرَّعه، ثمَّ حبَسه مُدَّة، وأطلقه بين يدي مَهلِكه؛ واضطربت الدولة بعد موت السلطان أبي عِنان، وبايع بنو مَرين لبعض الأعياص من بني يعقوب بن عبد الحق. وحاصروا البلد الجديد، وبها ابنه السَّعيد، ووزيره المستبِد عليه، الحسَن بن عُمَر؛ وكان السلطان أبو سالم بالأندلس، غرَّبه إليها أخوه السلطان أبو عِنان، مع بَني عمهم، ولدِ السلطان أبي عليّ بعد وفاة السلطان أبي الحسن، وحصُولهم جميعاً في قبْضته. فلما تُوفّي، أراد أبو سالم النهُوض لمُلْكه بالمغرب، فمنَعه رضْوان القائم يومئذ بمُلْك الأندلس، مستبداً على ابن السلطان أبي الحَجَّاج، فلحِق هو بإشبيلية، من دار الحرب، ونزَل على بطْرُه[2]، ملِكهم يومئذ، فهيَّأ له السَّفين، وأجازه إلى العُدْوَة، فنزل بجَبل الصَّفيحَة، من بلاد غُمارة، وقام بدَعوته بَنُو مثنى، وبنو منير أهل ذلك الجَبل منهم، حتَّى تم أمره، واستولى على ملكه؛ في خبر طويل، ذكرناه في أخبار

---

(١) يريد بالجنادرة رجال الشرطة! والمفرد: جاندار الذي يتكون من كلمتين فارسيتين: جان، ومعناها: سلاح، ودار معناها ممسك.

(٢) اصطلح ابن خلدون على كتابة «بطره» بطاء، فوقها نقطتان، اشارة الى ان نطقها بين الطاء والتاء؛ وقد اشار الى الطريق التي اتبعها في رسم مثل هذا الحرف – مما خرج نطقه عن النطق العربي الخالص – في اول المقدمة.

دولتهم. وكان ابن مرزوق يداخله، وهو بالأندلس، ويستخدم له، ويفاوضه في أموره، وربما كان يكاتبه، وهو بجبل الصفيحة، ويداخل زعماء قومه، في الأخذ بدعوته. فلما ملك السلطان أبو سالم، رعى له تلك الوسائل أجمع، ورفعه على الناس، وألقى عليه محبته، وجعل زمام الأمور بيده، فوطئ الناس عقبه، وغشي أشراف الدولة بابه، وصرفوا الوجوه إليه؛ فمرضت لذلك قلوب أهل الدولة، ونقموه على السلطان، وتربصوا به، حتى توثب عمر بن عبد الله بالبلد الجديد، وافترق الناس عن السلطان. وقتله عمر بن عبد الله آخر اثنتين وستين، وحبس ابن مرزوق وأغرى به سلطانه الذي نصبه؛ محمد بن عبد الرحمن بن أبي الحسن، فامتحنه، واستصفاه، ثم أطلقه، بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله، فمنعه منهم. ولحق بتونس، سنة أربع وستين، ونزل على السلطان أبي إسحق، وصاحب دولته المستبد عليه، أبي محمد بن تافراكين، فأكرموا نزله، وولوه الخطابة، بجامع الموحدين بتونس. وأقام بها، الى أن هلك السلطان أبو إسحق سنة سبعين، وولي ابنه خالد. وزحف السلطان أبو العباس، حافد السلطان أبي يحيى، من مقره بقسنطينة الى تونس، فملكها، وقتل خالداً، سنة اثنتين وسبعين.

وكان ابن مرزوق يستريب منه، لما كان يميل، وهو بفاس،

مع ابنِ عمّه أبي عبد الله محمد ، صاحب بِجَاية ، ويُؤْثره عند السلطان أبي سالم عليه ؛ فعزَله السلطان أبو العباس عن الُخطبة بتُونِس ؛ فوَجَمَ لها ، وأجمع الرِّحلة الى المَشرق . وسَرَّحه السلطان ، فركِب السَّفين ، ونزَل بالاسكندرية ؛ ثم ارتحَل الى القاهرة ، ولقِي أهل العلم ، وأمَراء الدّولة ، ونفَقت بضائعُه عندهم ، وأوصلوه الى السلطان ، وهو يومئذ الأشْرف[1] . فكان يَحضُر مجلسَه ، وولَّوه الوظائف العِلْمية ، وكان ينتجع منها مَعاشه . وكان الذي وصل حَبْله بالسلطان إسْتدَّاره[2] محمد بن أَقبُغا آص[3] ، لقِيه أولَ قُدومه ، فحَلي بعينه ، واستظرف جُملته ، فسَعَى له ، وأنجَحتْ سِعايتُه ، ولم يَزَل مُقيماً بالقاهرة ، موقَّر الرُّتبة ، معروفَ الفضيلة ، مرشَّحاً لقضاء المالكية ، ملازماً للتدريس في وظائفه ، إلى أن هَلك سنةَ إحدى وثمانين .

هذا ذكرُ من حَضَرنا من جُملة السلطان أبي الحسن ، من أشياخنا ، وأصحابنا ؛ وليس موضوع الكتاب الاطالة فلنقتصر على هذا القَدر ، ونرجع الى ما كنَّا فيه من أخبار المؤلف .

---

(١) السلطان الأشرف : هو ابو المفاخر شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون (٧٥٤ ـ ٧٧٨) تولى الملك سنة ٧٦٤ ﻫ ترجمته في تاريخ ابن خلدون م ٥ .

(٢) الإستدّار . بكسر الهمزة : لقب للذي يتولى قبض مال السلطان. وهذا اللفظ مركب من استذ ، ومعناهـا الأخذ ، ودار ومعناها الممسك ، فأدغمت الذال المعجمة في الدال فصارت استدّار . وكتابتها « أستاذ دار » ، خروج بها عـن رسمها الصحيح ، ومن الخطأ توهم ان « استاذ » و « دار » كلمتان عربيتان . وانظر صبح الاعشى ٥/٤٥٧ .

(٣) هو الأمير ناصر الدين محمد بن أقبغا آص المتوفى سنة ٧٩٥ ﻫ .

ولاية العلامة بتونس ، ثم الرحلة بعدها الى المغرب ، والكتابة عن السلطان أبي عنان

لم أزَلْ منذ نشأت ، وناهزت ُمكبًّا على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنقِّلاً بين ُدروس العلم وحلقاته ، إلى أن كان الطاعون الجارف ، وذهب بالأعيان ، والصُّدور ، وجميع المَشْيَخَة ، وهلَكَ أبوايَ ، رحمهما الله . ولزِمتُ مجلسَ شيخنا أبي عبد الله الآبِليّ ، وعكفتُ على القراءة عليه ثلاثَ سنين ، الى أن شَدَوتُ بعضَ الشّيء ؛ واستدعاه السلطان أبو عِنَان ، فارتحَل إليه ، واستَدعاني أبو محمَّد بن تافْراكين ، المُسْتبِدُّ على الدّولة يومئذ بتُونِس ، الى كِتابة العَلامة عن سلطانه أبي إسحق . وقد نَهضَ إليهم من ُقسَنْطينة صاحبُها الأمير أبو زيد ، حافِدُ السلطان أبي يَحْيى في عساكره ، ومعَه العرب أولادُ ُمهَلهِل الذين استنجدُوه لذلك ؛ فأخرج ابنُ تافْراكين سلطانَه أبا إسحق مع العرب ، أولاد أبي اللّيل ، وبَثّ العطاء في عسكره ، وعَمَّر له المراتب والوظائف . وتعلّل عليه صاحبُ العَلامة أبو عبد الله محمد بن ُعمَر بالاستزادة من العطاء ؛ فعَزَله ، وأدَالَنِي منه ؛ فكتبتُ العَلامة للسلطان ، وهي وضع « الحمد لله والشُّكر لله » ، بالقَلَم الغليظ ، مما بين البسْملة وما بعدها ، من مخاطبةٍ أو مرسوم ؛ وخرجت معهم أولَ سنة ثلاث وخمسين . وقد كنت

منطوياً على مفارقتهم ، لما أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي ، وعطلتي عن طلب العلم . فلما رجع بنو مرين الى مراكزهم بالمغرب ، وانحسر تيّارهم عن إفريقية ، وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابة وأشياخ ، فاعتزمت على اللحاق بهم . وصدّني عن ذلك أخي وكبيري محمّد ، رحمه الله ؛ فلما دعيت إلى هذه الوظيفة ، سارعت الى الاجابة ، لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب ، وكان كذلك ؛ فإنا لما خرجنا من تونس ، نزلنا بلاد هوارة ، وزحفت العساكر بعضها إلى بعض ؛ بفحص مرّماجنّة ، وانهزم صفّنا ، ونجوت أنا الى أُبة ؛ فأقمت بها عند الشيخ عبد الرحمن الوشتاتي ، من كبراء المرابطين . ثم تحولت الى تبسّة ، ونزلت بها على محمد بن عبدون ، صاحبها ؛ فأقمت عنده ليالي حتى هيأ لي الطريق ، وبذرق[1] لي مع رفيق من العرب ، وسافرت الى قفصة ، وأقمت بها أياماً أترصد الطريق ، حتى قدم علينا بها الفقيه محمّد بن الرئيس منصور بن مزني ، وأخوه يوسف يومئذ صاحب الزّاب . وكان هو بتونس ، فلما حاصرها الامير أبو زيد ، خرج إليه ، فكان معه . ثم بلغهم الخبر بأن السلطان أبا عنان ملك المغرب ، نهض الى تلمسان ؛ فملكها ، وقتل سلطانها ، عثمان بن عبد الرحمن ، وأخاه أبا ثابت ، وأنه انتهى الى المديّة ، وملك بجاية من

(١) البذرقة : الخفارة ، ويقال لها العصمة ؛ لانها يعتصم بها . والكلمة معربة .

يد صاحبها ، الأمير أبي عبد الله من حَفَدَة السلطان أبي يحيى ، راسله عندَ ما أطلّ على بَلده ؛ فسار إليْه ، و نزَل له عنها ، وصار في جُملته ، وولّى أبو عِنان على بِجايَة عُمَر بن علي شيخ بني وَطّاس ، من بَني الوزير شُيوخهم . فلما بلغ هذا الخبر ، أجفَل الأميرُ عبد الرحمن من مكانه على حِصار تُونِس ، ومرّ بقَفْصَة ، فدَخل إلينا محمد بن مُزْني ذاهباً إلى الزّاب ؛ فرافقْتُه إلى بَسكرة ، ودخلت الى أخيه هنالك . ونزل هو ببعض قُرى الزّاب تحت جِراية أخيه ، الى أن انصرم الشّتاء .

وكان أبو عِنان لمّا ملك بِجاية ، ولّى عليها عُمَر بن علي بن الوزير ، من شيوخ بني وَطّاس ، وجاء[1] فارِح ، مولى الأمير أبي عبد الله لنقل حُرَمه ووَلده ، فداخل بعضَ السفهاء من صَنْهاجَة[2] في قتل

(١) جاء في الاستقصا ٣/١٨٤ و ١٨٥ . في بيان هذا الحادث :

« وكان أبو عبد الله الحفصي قد استصحب معه في وفادته على السلطان أبي عنان حاجبه فارحاً ، مولى ابن سيد الناس . فلما نزل للسلطان عن بجاية ، نقم فارح عليه ذلك ، وأسرها في نفسه الى ان بعث الحفصي المذكور مع الوطاسي لينقل حرمه ، ومتاعه ، وماعون داره الى المغرب ؛ فانتهى الى بجاية . وبينما هو يحاول ما أرسل في شأنه ، شكا اليه الصنهاجيون سوء ملكة بني مرين ؛ فنجع كلامهم فيه ونفث لهم بما عنده من الضغن ، ودعاهم الى الثورة بالمرينيين ، والدعوة الى الحفصيين ؛ فاجابوه الى ذلك وتواعدوا للفتك بعلي بن عمر الوطاسي بمجلسه من القصبة وتولى كبرها منصور بن ابراهيم بن الحاج من مشيختهم وباكره في داره على عادة الأمراء . ولما أكب عليه ليلثم أطرافه ، طعنه بخنجره ، ثم ولج عليه الباقون فاستلحموه ، وذلك في ذي الحجة من سنة ٧٥٣ ... الخ »

(٢) صنهاجة بكسر الصاد ، والمعروف في المغرب فتحها : قبائل كثيرة من البربر في المغرب . وانظر تاج العروس ٢/٦٧ .

عُمَر بن علي ؛ فقَتَله في مجلسه . ووثب هو على البلد ، وبعَث الى الأمير أبي زيد ، يستدعيه من قُسنْطِينَة ؛ فتمشت رجالات البلد فيما بينَهم خشيةً من سطوة السلطان . ثم ثاروا بفارح فقتلوه ، وأعادوا دعوة السلطان كما كانت . وبعثوا عن عامل السلطان بتدْلس ، يَحْيَا تَنْ بن عمر بن عبد المؤمن ، شيخ بني ونكاسن من بني مَرِين ؛ فملَّكوه قيادهم . وبعثوا الى السلطان بطاعتهم ؛ فأخرج لوقته حاجبه محمد بن أبي عمرو ، وأكثف له الجند ، وصرَف معه وجوه دولته وأعيان بِطانته . وارتحلتُ أنا من بَسْكَرَة ، وافداً على السلطان أبي عِنان بتِلمْسان ، فلقيتُ ابن أبي عَمرو بالبَطْحاء ، وتلقَّاني من الكرامة بما لم أحتسبه ، وردّني معه الى بِجَايَة ، فشهدت الفتح . وتسايلَت وفود إفريقية إليه ؛ فلما رجع السلطان ، وفدتُ معهم ، فنالني من كرامته وإحسانه ما لم أحتسِبْه ، إذ كنت شاباً لم يطرّ شاربي . ثم انصرفتُ مع الوفود ، ورَجع ابن أبي عَمْرو الى بِجَايَة ؛ فأقمت عنده ، حتى انصرَم الشتاء من أواخر أربع وخمسين ؛ وعاد السلطان أبو عِنَان الى فَاس ، وجمع أهل العِلم للتَّحليق بمجلسه ، وجرَى ذِكري عنده ، وهو ينتقي طلبة العلم للمذاكرة في ذلك المجلس؛ فأخبره الذين لقيتُهم بتُونس عنّي ، ووَصفوني له ؛ فكتب الى الحاجب يَستقدِمُني ، فقدِمت عليه ، سنةَ خمس وخمسين ، ونظمَني في أهل مجلسه العِلمي ، وألزَمني شُهود الصَّلوات معَه ؛ ثم استعملَني في كتابتِه ، والتوقيع بين يَديه ، على

كُره مني ، إذ كنت لم أعهد مثلَه لسَلفي . وعكَفت على النَّظَر ، والقراءة ، ولقاء المشْيَخة ، من أهل المغرب ، ومن أهل الأندلس ، الوافدين في غَرض السِّفارة ؛ وحصلتُ من الافادة منهم على البُغْيَة .

وكان في جُملته يومئذ الأستاذ أبو عبد الله محمد بن الصفَّار ، من أهل مَرّاكُش إمام القراءات لوقته ؛ أخذ عن جماعة من مَشيخَة المغرب ، كبيرُهم شيخُ المحدثين الرّحالة أبو عبد الله محمد بن رُشَيْد الفِهْريّ ، سَنَد أهل المغرب ، وكان يُعارض السلطانَ القرآنَ برواياته السَّبع الى أن توّفي . ومنهم : قاضي الجماعة بفاس ، أبو عبد الله محمد المَقَّريّ[1] ، صاحبنا ، من أهل تِلمْسان . أَخذ العِلم بها عن أبي عبد الله محمد السَّلاوي ، ورَدَ عليها من المغرب خِلواً من المعارف . ثم دعته همته الى التحلّي بالعلم ، فعكف في بيته على مُدارسة القرآن ، فحفظه ، وقرأه بالسَّبع . ثم عكَف على كتاب التسهيل في العربية ، فحفِظه ثم على مختصرَي ابن الحاجب في الفقه ، والأصول ، فحفظهما ، ثم لزِم الفقيه عِمْران المشَدّالي[2] من تلاميذ أبي علي ناصر الدّين[3] وتفقّه عليه ،

(١) أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر المقري (بتشديد القاف المفتوحة نسبة الى مقرة ، أو بسكون القاف . والميم في الحالتين مفتوحة) وهو جد صاحب النفح . ترجمته في الاحاطة ٢/١٣٦ .

(٢) هو أبو موسى عمران المشدالي ، بفتح الميم ، والشين ، وتشديد الدال المفتوحة .

(٣) أبو علي ناصر الدين المشدالي ، منصور بن أحمد بن عبد الحق : فقيه معروف

وبرّز في العلوم ، الى حيث لم تُلحق غايته . وبنى السلطان أبو تاشفين مدرسته بتلمسان ، فقدّمه للتدريس بها ، يضاهي به أولاد الامام. وتفقّه عليه بتلمسان جماعة ، كان من أوفرهم سهماً في العلوم أبو عبد الله المقّري هذا :

ولما جاء شيخنا أبو عبد الله الآبلي الى تلمسان ، عند استيلاء السلطان أبي الحسن عليها ، وكان أبو عبد الله السّلاوي قد قُتل يوم فتح تلمسان ، قتله بعض أشياع السلطان ، لذنب أسلفه في خدمة أخيه أبي علي بسجلماسة ، قبل انتحاله العلم ، وكان السلطان يعتدّه عليه ، فقُتل بباب المدرسة ، فلزم أبو عبد الله المقّري بعده مجلس شيخنا الآبلي ، ومجالس ابني الامام ، واستبحر في العلوم وتفنّن. ولما انتقض السلطان أبو عنان ، سنة تسع وأربعين وخلع أباه ، ندبه الى كتاب البيعة ، فكتبها وقرأه على الناس في يوم مشهود. وارتحل مع السلطان الى فاس ، فلما ملكها ، عزل قاضيها الشيخ المُعمّر أبا عبد الله بن عبد الرزّاق وولّاه مكانه ، فلم يزل قاضياً بها ، الى أن سخطه لبعض النزعات الملوكية ، فعزله وأدال منه بالفقيه أبي عبد الله الفشتالي[1] آخر سنة ستّ وخمسين ، ثم بعثه في سفارة الى

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الفشتالي القاضي بفاس ، كان بيته معموراً بالجود والخير والصلاح ، وكان أبو عبد الله هذا أحد أعلام المغرب . الإحاطة ١٣٣/٢ .

الأندلس ، فامتنع من الرجوع . وقام السلطان لها في ركائبه ، ونكر على صاحب الأندلس ابن الأحمر تمسّكه به ، وبعث إليه فيه يستقدمه ، فلاذ منه ابن الأحمر بالشفّاعة فيه ، واقتضى له كتاب أمان بخط السلطان أبي عنان ، وأوفده مع الجماعة من شيوخ العلم بغرناطة ، ومنهم : القاضيان بغرناطة ، شيخنا أبو القاسم الشّريف السّبتي[1] ، شيخ الدنيا جلالةً وعلماً ووقاراً ، ورياسةً ، وإمام اللسان حوْكاً ونقداً ، في نظمه ونثره . وشيخنا الآخر أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البلّفيقي[2] من أهل المريّة ، شيخ المحدّثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء بالأندلس ، وسيد أهل العلم باطلاق ، والمتفنّن في أساليب المعارف ، وآداب الصّحابة للملوك فمن دونهم ؛ فوفدا به على السلطان شفيعَيْن على عظيم تشوّقه للقائهما ؛ فقُبِلت الشفاعة ، وأنجحت الوسيلة .

حضرتُ بمجلس السلطان يوم وَفادتهما ، سنة سبع وخمسين ، وكان يوماً مشهوداً . واستقر القاضي المَقّريّ في مكانه ، بباب السلطان ، عُطلاً من الولاية والجراية . وجرت عليه بعد ذلك محنة من السلطان ،

(١) محمد بن احمد ... بن عبد الله الحسني السبتي الشهير بالشريف الغرناطي ، ابو القاسم ٦٩٧-٧٦٠

(٢) أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البلفيقي (٧٠٨ - ٧٧٠) (بموحدة ولام مشددة وفاء مكسورات ، وقاف بعد مثناة من تحت) ، هكذا ضبطه في طبقات القراء ، وقيده ابن خلدون بفتح الباء وتشديد اللام المفتوحة . طبقات القراء ٢/٢٣٥ .

بسبب خصومة وقعت بينه وبين اقاربه ؛ امتنع من الحضور معهم عند القاضي القشتالي ؛ فتقدّم السلطان الى بعض اكابر الوزعة ببابه ، بأن يسحبه الى مجلس القاضي ؛ حتى انفذ فيه حكمه ؛ فكان الناس يعدّونها محنة . ثم ولاه السلطان ، بعد ذلك ، قضاء العساكر في دولته ، عندما ارتحل الى قسنطينة . فلما افتتحها ، وعاد الى دار ملكه بفاس آخر ثمانٍ وخمسين ، اعتلّ القاضي المقّري في طريقه ، وهلك عند قدومه بفاس .

ومنهم صاحبنا الامام العالم الفذّ ، فارس المعقول والمنقول ، وصاحب الفروع والاصول ، ابو عبدالله ، محمد بن احمد الشريف الحسني ، ويعرف بالعلْوي ، نسبة الى قرية من اعمال تلمسان ، تسمى العلْوين ؛ وكان اهل بيته لا يدافعون في نسبهم . وربما يغمز فيه بعض الفجرة ، ممن لا يزعه دينه ، ولا معرفته بالأنساب ، فيُعدّ من اللّغو ، ولا يلتفت اليه . نشأ هذا الرجل بتلمسان ، واخذ العلم عن مشيختها ، واختصّ باولاد الامام ، وتفقّه عليهما في الفقه ، والاصول والكلام ؛ ثم لزم شيخنا ابا عبدالله الآبليّ . وتضلّع من معارفه ؛ فاستبحر ، وتفجّرت ينابيع العلوم من مداركه ؛ ثم ارتحل الى تونس في بعض مذاهبه ، سنة اربعين ، ولقي شيخنا القاضي ابا عبدالله بن عبدالسّلام ، وحضر مجلسه ، وافاد منه ، واستعظم رتبته في العلم . وكان ابن عبد

السلام يُصغي اليه ويؤثِر محلَّه ، ويعرف حقه ، حتى لزعموا انه كان يَخلو به في بيته ، فيقرأ عليه فصْل التَّصوف من كتاب الاشارات لابن سينا ، بما كان هو قد احكم ذلك الكتاب على شيخنا الآبِلي ؛ وقرأ عليه كثيراً من كتاب الشفاء لابن سينا ، ومن تلاخيص كتب أرِسْطُو [1] لابن رشد ، ومن الحساب والهَيْئة ، والفرائض ، علاوة على ما كان يحمله من الفقه والعربية وسائر علوم الشَّريعة . وكانت له في كتب الخلافيات يد طولى ، وقَدَم عالية ، فعَرف له ابن عبد السلام ذلك كله ، واوجب حقَّه وانقلب الي تِلِمسان ؛ وانتصب لتدريس العِلم وبثِّه ، فملأ المغرب معارفَ وتلاميذ ، الى ان اضطرب المغرب ، بعد واقعة القَيروان ؛ ثم هلك السلطان ابو الحسن ، وزحف ابنُه ابو عِنَان ، الى تِلِمسان ؛ فملَكها ، سنة ثلاث وخمسين ؛ فاستخلص الشريفَ ابا عبدالله ، واختاره لمجلسه العلمي ، مع من اختار من المَشْيَخة . ورحَل به الي فاس ؛ فتبرَّم الشريف من الاغتراب ، وردَّد الشَّكوى ؛ فأحفظ السلطان بذلك ، وارتابَ به . ثم بلغَه اثناء ذلك ان عثمان بن عبدالرحمن ، سلطان تِلِمسان ، اوصاه على وَلدِه ، وأودَع له مالاً عندَ بعض الاعيان من اهل تِلمْسان ، وان الشَّريف مطَّلِع على ذلك ؛ فانتزع الوديعَة ، وسَخِط الشَّريف بذلك ونَكَبه ، واقام

(١) هكذا رسمه ، وضبطه بالقلم ابن خلدون .

في اعتقاله اشهراً ، ثم اطلقه اولَ ست وخمسين واقصاه ، ثم أعتَبه بعدَ فتح قُسَنطينَة واعاده الى مجلِسِه ، الى ان هلك السلطـان ، آخر تِسع وخمسين .

وملك ابو حَموُّ بن يوسف بن عبد الرحمن تِلمْسان من يد بني مَرِين ، واستدعى الشريفَ من فاس ؛ فسرَّحه القـائم بالامر يومئذ ، الوزير عُمَر بن عبدالله ؛ فانطلق الى تِلمْسان . وتلقَّاه ابو حمُّو براحتَيه ، واصهر له في ابنته ، فزوَّجها اياه ، وبَـنى له مدرسةً جعل في بعض جوانبها مَدفـن ابيه وعمِّـه . واقام الشريف يُدرِّس العلم الى ان هلك سنة احدى وسبعين . واخبرني رحمه الله ، ان مَولده سنة عشر .

ومنهم صاحبنا الكاتب القاضى ابو القاسم محمد بن يحيى البَرْجي [1] من بَرْجَـة [2] الاندلُس . كان كاتبَ السلطان ابي عِنَان ، وصاحبَ الانشاء والسِرّ في دولته ، وكان مختصاً به ، واثيراً لديه . واصله من بَرْجَـة الاندلس ، نشأ بها ، واجتهَد في العِلم والتَّحصيل ، وقرأ ، وسمع ، وتفقَّه على مَشْيَخة الاندلس ، واستبحَـر في الادب ، وبرّز في النَّظم والنثر . وكان لا يُجارَى في كرَم الطِّباع ، وحسن المعاشَرة ، ولين

(١) أبو القاسم محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن علي بن ابراهيم الغساني البرجي الغرناطي المتوفى سنة ٧٨٦ ﻫ . الإحاطة ٢/٢١٥ وما بعدها .

(٢) برجة : مدينة بشرقي الأندلس ، من اقليم المرية ، وقد انتقل غالب أهلهـا ، بعد استيلاء المسيحيين عليها ، الى مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، تاج العروس (برج) . ياقوت ٢/١١٣ .

الجانب ، وبَذْل البِشر ، والمعروف ؛ وارتحـل الى بِجَايَة في عشر الاربعين والسبعمائة ، وبهـا الامير ابو زكرياء ابن السلطان ابي يحيى ، منفرداً بملكهـا ، على حينَ أقفرت من رسم الكتابـة والبَلاغة ؛ فبادرت اهل الدّولة الى اصطفائه ، وايثـاره بخُطَّة الانشاء ، والكتـابة عن السلطان الى ان هلك الامير ابو زكرياء ، ونُصِب ابنه محمد مكانه ، فكتَب عنه على رَسْمه ؛ ثم هلك السلطان أبو يَحيَى ، وزَحف السلطان أبو الحسَن الى إفريقية ، واستولى على بِجَـاية ، ونقل الأمير محمدا بأهله وحاشيته الى تِلمْسان ، كما تقدم في أخبـاره . فنزَل أبو القاسم البَرْجي تِلِمْسان وأقام بها ، واتّصل خبرُه بـأبي عِنَان ، ابن السلطـان أبي الحسن ، وهو يومئذ أميرُهـا . ولقيَه ، فوقع من قلبه بمكان ، الى أن كانت واقعة القَيْرَوان .

وخلع أبو عِنَـان ، واستبدّ بالأمر ؛ فاستكتبه وحمَله معـه الى المَغرب ، ولم يَسْمُ به الى العَلاَمة ، لأنه آثر بها محمّد بن أبي عَمْرو ؛ بما كان أبوه يعَلِّمه القرآن والعِلم . ورَبِيَ محمّد بداره ، فولّاه العَلامـة ، والبَرْجيّ مُرادف له في رِيَاستـه ، الى أن انقرضوا جميعـاً . وهلك السلطان أبو عِنَان ، واستولى أخوه أبو سَالم على مُلك المغرب وغلبَ ابنُ مَرزوق على هواه كما قدمنـاه ؛ فنقَل البَرْجي من الكِتـابة ، واستعمله في قضاء العسَاكر ؛ فلم يزَل على القضَـاء ، الى أن هلك سنة

(. . .) وثمانين[1] . وأخبرني رحمه الله أن مولده سَنة عشر .

ومنهم : شيخنا المعمَّر الرَّحالة أبو عبد الله محمد بن عبد الرَّزاق ، شيخ وقته جلَالةً وتربيةً وعلماً وخِبرةً بأهل بلده ، وعظمةً فيهم . نشأ بفَاس ، وأخذ عن مَشيختها . وارتحل الى تُونِس ؛ فلقِي القاضيَ أبا إسحق بن عبد الرفيع ، والقاضي أبا عبد الله النَّفْزَاوي ، وأهلَ طبقتها . وأخذ عنهم ، وتفقه عليهم ، ورجع الى المغرب . ولازَم سَنَن الأكابر والمشايخ ، الى أن ولّاه السلطان أبو الحسن القضاء بمدينة فاس ؛ فأقام على ذلك ، الى أن جاء السلطان أبو عِنَان من تِلِمْسان ، بعد واقعة القيْرَوان ، وخلعِه أباه ؛ فعزله بالفقيه أبي عبد الله المَقَّري ، وأقام عُطلا في بيته .

ولما جمع السلطان مَشيَخة العلم للتَّحليق بمجلسه ، والافادة منهم ، استدْعى شيخَنا أبا عبد الله بن عبد الرزاق ؛ فكان يأخذ عنه الَحديث ، ويقرأ عليه القرآن برواياته ، في مجلسٍ خاصّ الى أن هلك ، رحمه الله ، بين يدي مَهْلَك السلطان أبي عِنَان . الى آخرين ، وآخرين ، من أهل المَغرب والأندلس ، كلُّهم لقيتُ وذاكرتُ وأفدتُ منه ، وأَجازني بالاجازة العامة .

(١) كذا بياض بالأصل وفي نيل الابتهاج ص ٢٦٧ ، نقلا عن ابن خلدون « . . . الى أن هلك بعد الثمانين وسبعمائة » ، ونقل أيضاً عن « فهرسة » السراج أنه توفي سنة ٧٨٦ هـ .

حدوث النكبة من السلطان ابي عنان

كان اتصالي بالسلطان أبي عِنَان، آخر [سنة] ست وخمسين؛ وقرّبني وأدناني، واستعملني في كتابته، حتى تكدّر جوِّي عنده بعد أن كان لا يُعبَّر عن صَفائه؛ ثم اعتل السلطان، آخر سبع وخمسين، وكانت قد حصلت بيني وبين الأمير محمد صاحب بِجَاية من الموحدين مداخلة، أحكَمها ما كان لسلَفي فى دولتهم. وغفلتُ عن التحفُّظ في مثل ذلك، من غَيْرة السلطان؛ فما هو إلا أن شُغل بوَجعِه، حتى أنمَى إليه بعض الغُواة، أن صاحب بجاية، مُعتمِل في الفِرار ليَسترجع بَلده، وبها يومئذ وزيرُه الكبير، عبد الله بن علي؛ فانبعث السلطان لذلك، وبادر بالقبض عليه. وكان فيما أُنمِي إليه، أني داخلتُه في ذلك؛ فقبض عليّ، وامتَحنني وحبَسني، وذلك في ثامنَ عشرَ صفر، سنة ثمان وخمسين. ثم أطلق الأمير محمداً، وما زلتُ أنا في اعتقاله، الى أن هلك. وخاطبتُه بين يدي مَهْلكه، مستعطِفاً بقصيدة اولُها:

على أيِّ حالٍ للّيالي أعاتبُ وأيَّ صُروف للزّمان أُغالبُ
كفَى حزَناً انّي على القرب نازح وانّي على دَعوى شهُوديَ غائبُ
وأنّي على حكْم الحوادث نازلٌ تسالمني طَوراً وطوراً تُحاربُ

ومنها في التشوّق :

سَلوتُهمُ إلا ادِّكارَ مَعاهدٍ لها في اللّيالي الغابرات غرائبُ
وإنّ نسيمَ الريح منهم يَشُوقُني اليهم وتُصبِيني البُروق اللواعبُ

وهي طويلة ، نحو مائتين بيتاً ، ذهبت عن حفظي ، فكان لها منه مَوْقع ، وهَشّ لها . وكان بتلمسان فوَعد بالافراج عني عند حلوله بفاسٍ ، ولخمسِ ليال من حُلوله طرَقه الوجع . وهلك لخمس عشرة ليلة ، في رابع وعشرين ذي الحجة خاتم تسع وخمسين . وبادر القائم بالدولة ، الوزير الحسن بن عُمَر الى اطلاق جماعة من المعتقَلين ، كنتُ فيهم ، فخلع عليّ ، وحملني (١) ، واعادني الى ما كنت عليه . وطلبت منه الانصراف الى بلادي ، فابَى عليّ ، وعاملني بوجوه كرامته ، ومذاهب احسانه ، الى ان اضطَرب امرُه ، وانتقض عليه بنو مَرين ، وكان ما قدّمناه في اخبارهم .

الكتابة عن السلطان ابي سالم في السر والانشاء

ولما اجاز السلطان ابو سالم من الأندلُس لطلب مُلكه ، ونزَل بجَبَل الصَّفيحَة من بلاد غُماره . وكان الخطيب ابن مَرْزوق بفاس ، فبثّ دعوتَه سراً ، واستعان بي على امره ، بما كان بيني وبين اشياخ

(١) حمله : أعطاه ظهراً يركبه . (لسان العرب) .

بني مَرين من المحبَّة والائتلاف ؛ فحَملت الكثير منهم على ذلك ، واجابوني اليه ، وانا يومئذ اكتب عن القائم بامر بَني مَرين مَنصور ابن سليمان بن مَنصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق ، وقد نصبوه للمُلْك ، وحاصروا الوزير الحسن بن عُمَر ، وسلطانَه السَّعيد ابن ابي عِنَان ، بالبلد الجديد . فقصدني ابنُ مَرزوق في ذلك ، واوصل اليّ كتاب السلطان أبي سالم . بالحض على ذلك ، وإجمال الوعد فيه . والقى عليّ حمله ؛ فنهَضت به ، وتقدمت الى شيوخ بني مَرين ، وامراء الدولة بالتحريض على ذلك ، حتى اجابوا ، وبعث ابنُ مَرزوق الى الحسن بن عُمَر ، يدعو الى طاعة السلطان ابي سالم ، وقد ضَجِر من الحصار ؛ فبادر الى الاجابة . واتفق رأي بَني مَرين على الانفضاض عن مَنصور بن سُليمان ، والدخول الى البلد الجديد ؛ فلما تم عقدُهم على ذلك نزعتُ الى السلطان ابي سالم في طائفة من وجوه اهل الدولة ، كان منهم محمد بن عثمان بن الكاس ، المستبدّ بعد ذلك بمُلك المغرب على سلطانه ، وكان ذلك النُّزوع مبدأَ حظِّه ، وفاتحةَ رياسته ، بسِعايتي له عند السلطان . فلما قدِمتُ على السلطان بالصَّفِيحة ، بما عِندي من اخبار الدولة ، وما اجمعوا عليه من خَلْع منصور بن سليمان ، وبالموعد الذي ضَربوه لذلك ، واستحثثته . فارتحل ، ولقِيَنا البشيرُ بإجفال منصور ابن سليمان ، وفراره الى نواحي بادِس ، ودخول بَني مَرين الى البلد الجديد ، وإظهار الحسن بن عُمَر دَعوةَ السلطان ابي سالم . ثم لقِيَتنا ،

بالقصر الكبير ، قبائلُ السلطان ، وعساكرُه ، على راياتهم ، ووزيرُ مَنصورِ بن سليمان ، وهو مسعود بن رَحُّو بن مَاسَايْ ؛ فتلقَّاه السلطان بالكرامة كما يجب له ، واستوزره نائباً للحسَن بن يوسف بن علي بن محمد الورْتاجني السابق الي وزارته ، لَقِيَه بسَبْتَه [1] ، وقد غرَّبه منصور بن سليمان الى الاندلس ، فاستوزره واستكفاه .

ولمَّا اجتمعت العساكر عنده بالقَصْر ، صعِد الى فاس . ولقيَه الحسن بن عُمَر بظاهرها ؛ فاعطاه طاعته ، ودخل الى دار مُلكه وانا في رِكابه ، لخمسَ عشْرةَ ليلةً من نزوعي اليه ، مُنتَصفَ شعبانِ ستين وسبعمائة ؛ فرعى لي السابقة ، واستعملني في كتابة سره ، والترسيل عنه ، والانشاء لمخاطباته. وكان اكثرها يَصدُر عني بالكلام المرسل ، ان يُشاركني احد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع ، لضَعف انتحالها ، وخفاء العالي منها على اكثر الناس ، بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ ، وكان مسْتَغْرَباً عندهم بين اهل الصناعة .

ثم اخذت نفسي بالشعر ، فانثال عليَّ منه بحور ، توسطت بين الاجادة والقصور ، وكان مما انشدته اياه ، ليلة المولد النبوي من سنة اثنتين وستين وسبعمائة :

(١) في مكان آخر أنه لقيه بطنجة . مع تفصيل هذا الحديث أيضاً .

أسرفن في هجري وفي تعذيبي وأطلن موقف عبرتي ونحيبي[1]
وأبين يوم البين وقفة ساعة لو داع مشغوف الفؤاد[2] كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا قلبي رهين صبابة[3] ووجيب[4]
غربت ركائبهم ودمعي سافح فشرقت بعدهم بماء غروب[5]
يا ناقعاً بالعتب غلة شوقهم[6] رحماك في عذلي وفي تأنيبي
يستعذب الصب الملام وإنني ماء الملام لدي غير شروب[7]
ماهاجني طرب ولا اعتادا الجوى لولا تذكر منزل وحبيب
أهفو الى الأطلال كانت مطلعاً للبدر منهم او كناس ربيب[8]
عبثت بها أيدي البلى وتردّدت في عطفها للدهر اي خطوب
تبلى معاهدها وإن عهودها ليجدها وصفي وحسن نسيبي
واذا الديار تعرضت لمتيم هزته ذكراها الى التشبيب
إيه عن الصبر الجميل فإنه ألوى[9] بدين فؤادي المنهوب

(١) النحيب : البكاء .
(٢) مشغوف الفؤاد : مريضه .
(٣) الصبابة : الشوق .
(٤) الوجيب : الاضطراب والخفقان .
(٥) الغروب : الدموع حين تخرج من العين .
(٦) نقع الماء غلته : أروى عطشه .
(٧) الشروب : الذي يشرب ، وفي الإحاطة : الشريب ؛ وهو العذب .
(٨) الربيب : ولد الظبي .
(٩) ألوى بالدين : مطل به . وقد ورد هذا البيت في ب :
ايه على الصبر الجميل فانه ألوى بـ ـرين فؤادي المنهوب

لم أنسَها والدّهرُ يَثني صَرفَه ... ويغُضُّ طَرْفَيْ حاسدٍ ورقيبِ

والدّارُ مونِقةٌ محاسنُها بما ... لبِسَتْ من الايام كلَّ قشيبِ

يا سائقَ الأظعان يعتَسِفُ الفَلا[1] ... ويواصلُ الاسْآدَ[2] بالتّأويبِ[2]

متهافتاً عن رَحل كلِّ مُذلَّلٍ[3] ... نشوانَ من أينٍ[4] ومسِّ لُغوبِ[5]

تَتجاذبُ النّفحاتُ فضْلَ ردائه ... في مُلتقاها من صَباً وجَنوبِ

إن هام من ظَمأ الصَّبابة صَحْبُه ... نهلوا بمَوْرد دمعِهِ المسْكوبِ

او تعترض مَسْراهم سُدَفُ الدُّجى ... صدَعوا الدُّجى بغرامه المشْبوبِ

في كلِّ شِعبٍ مُنْيَةٌ من دونها ... هَجْرُ الأماني او لقاءُ شَعُوبِ[6]

هلاّ عطَفتَ صُدورهنَّ الى التي ... فيها لُبانةُ أعيُنٍ وقلوبِ

فتؤمَّ من اكناف يثربَ مأمَناً ... يكفيك ما تخشاه من تثْريبِ

حيثُ النُّبوّةُ آيُها مجلوّةٌ ... تتلو من الآثار كلَّ غريبِ

سرٌّ عجيبٌ لم يُحَجِّبه الثرى ... ما كان سرُّ الله بالمحجوبِ

ومنها بعدَ تعديد معجزاته [صلى الله عليه وسلم] ، والاطناب في مدحه :

---

(١) الفلا ، جمع فلاة ، وهي الأرض لا ماء فيها .

(٢) الإسآد : سير الليل كله لا تعريس فيه ، والتأويب : سير النهار لا تعريج فيه . وانظر اختلافهم في تفسير الإسآد والتأويب في لسان العرب : (سأد) .

(٣) المذلل من الدواب : السهل الانقياد .

(٤) الأين الاعياء .

(٥) اللغوب : التعب .

(٦) شعوب كرسول : المنية .

إنّي دعوتُك واثقاً باجابتي | يا خيرَ مدعُوٍّ وخيرَ مُجيبِ
قصَّرتُ في مَدحي فإنْ يَكُ طيِّباً | فبما لذكركَ من أريج الطِّيبِ
ماذا عسَى يَبغي المُطيلُ وقد حوى | في مدحكَ القرآنُ كلَّ مُطيبِ [١]
يا هل تُبلِّغني اللّيالي زورةً | تُدني اليَّ الفوزَ بالمَرغوبِ
أمحُو خطيئاتي بإخلاصي بها | وأحُطُّ أوزاري وإصرَ ذُنوبي
في فتيةٍ هجروا المُنى وتعوَّدوا | إنضاءَ كلِّ نجيبةٍ ونَجيبِ
يَطوي صحائفَ ليلِهم فوقَ الفلا | ماشئتَ من خَببٍ ومن تقريبِ [٢]
ان رنَّمَ الحادي بذكركَ ردَّدوا | انفاسَ مُشتاقٍ اليكَ طَروبِ
او غرَّدَ الرَّكبُ الخليُّ بطَيبةٍ | حَنُّوا لمَغْناها حنينَ النِّيبِ [٣]
ورثوا اعتساف البيد عن آبائهم | إرثَ الخلافة في بني يعقوبِ
الطَّاعنين الخيلَ وهي عوابسٌ | يغشى مُثارُ النَّقعِ كلَّ سَبيبِ [٤]
والواهبين المُقرَباتِ [٥] صوافناً [٦] | من كلِّ خوَّارِ [٧] العِنانِ لَعُوبِ
والمانعين الجارَ حتى عرضُه | في مُنتدى الاعداء غيرُ مَعيبِ
تُخشى بوادرُهم ويُرجى حِلمُهُم | والعزُّ شيمةُ مُرتجى ومَهيبِ

(١) يشير الى الآية : « وانك لعلى خلق عظيم » آية ٦٨ / من سورة الأنعام .
(٢) الخبب : نوع من العدو، وهو خطو فسيح دون العنق . والتقريب : العدو دون الاسراع.
(٣) النيب : جمع ناب ، وهي الناقة المسنة .
(٤) السبيب : شعر الناصية والعرف من الفرس ، أو هو الخصلة من الشعر .
(٥) المقربات من الخيل : التي تقرب وتكرم ، ولا تترك لئلا يقرعها فحل لئيم . لسان العرب .
(٦) الصافن من الخيل : القائم على ثلاث قوائم ، والجمع صوافن ، وصافنات . لسان العرب .
(٧) فرس خوار : لين المعطف ، وذلك مما يستحسن فيه .

ومنها في ذكر اجازته البحر ، واستيلائه على مُلْكه :

سائل بهطا مي العُباب[1] وقد سرى ... تُزجيه ريحُ العزم ذاتُ هبوبِ
تَهديه شُهْب أَسِنَّة وعزائم ... يصدعْن ليل الحادث المرهوبِ
حتى انجَلت ظُلَم الضَّلال بسعْيه ... وسطا الهدى بفريقها المغلوبِ
يابن الألى شادوا الخلافةَ بالتُّقى ... واستأثروك بتاجها المَغْصوبِ
جمعوا لحفظ الدِّين ايَّ مناقبٍ ... كَرُموا بها في مَشهدٍ ومغيبِ
لله مَجدُك طارفاً او تالداً ... فلقد شهدنا منه كل عجيبِ
كم رهبةٍ او رغبةٍ بك والعُلى ... تُقتاد بالترغيب والترهيبِ
لا زلتَ مسروراً بأشرف دَولةٍ ... يبدو الهُدى من أُفْقها المَرقوبِ
تُحْيي المعالي غادياً او رائحاً ... وجَديدُ سَعدِك ضامنُ المطلوبِ

ومن قصيدةٍ خاطبته بها عند وصول هَدية مَلِك السودان اليه ، وفيها الحيوانُ الغريبُ المسمى بالزَّرافة :

قَدَحَتْ يدُ الاشواق من زندي ... وهفَتْ بقَلبي زَفْرَة الوجْدِ
ونبذتُ سُلواني على ثقَة ... بالقُرب فاستبدلتُ بالبعدِ
ولَرُبَّ وَصْلٍ كنتُ آمُله ... فاعتَضتُ منه بمُؤلِم الصَّدِّ
لا عَهدَ عند الصَّبر اطلبه ... إنَّ الغرام اضاع من عهدي

---

(١) طما البحر : ارتفع موجه .

يلحي العذول فما أعنفه وأقول ضل فأبتغي رشدي
واعارض النفحات أسألها برد الجوى فتزيد في الوقد
يهدي الغرام الى مسالكها لتملّي بضعيف ما تهدي
يا سائق الأظعان معتسفاً طي الفلاة لطية الوجد
أرح الركاب ففي الصبا نبأ يغني عن المستنة الجرد[1]
وسل الربوع برامة[2] خبراً عن ساكني نجد وعن نجد
ما لي تلام على الهوى خلقي[3] وهي التي تأبى سوى الحمد
لأبيت الا الرشد مذ وضحت بالمستعين معالم الرشد
نعم الخليفة في هدى وتقى وبناء عز شامخ الطود
نجل السراة الغر شأنهم كسب العلى بمواهب الوجد

ومنها في ذكر خلوصي اليه، وما ارتكبته فيه:

لله مني إذ تأوبني ذكراه وهو بشاهق فرد
شهم يفل بواتراً قضباً وجموع أقيال أولي أيد
أوريت زند العزم في طلبي وقضيت حق المجد من قصدي
ووردت عن ظمأ مناهله فرويت من عز ومن رفد

---

(١) استن في عدوه: ذهب على وجهه. وفرس أجرد: قصير الشعر.

(٢) رامة، يطلق على مكانين: على منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة الى مكة؛ وعلى قرية من قرى بيت المقدس. ياقوت ٢١٢/٤.

(٣) يؤنث ابن خلدون كلمة «خلق» ذهاباً منه الى معنى السجية.

هي جَنَّةُ المأوى لمن كلِفَتْ ... آمالُه بطِلابِ المجْدِ
لو لمْ أُعلَّ بورْدِ كوثرِها ... ما قلتُ هذي جَنَّةُ الخُلْدِ
مَن مُبلِغٌ قومي ودونَهم ... قُذُفُ النوى[1] وتنوفَةُ البُعْدِ[2]
أني أَنِفْتُ على رجائهمُ ... وملَكتُ عِزَّ جميعِهم وَحْدي

∴

ورقيمَةِ الأعطافِ حاليةٍ ... مَوشِيَّةٍ بوشائعِ البُرْدِ
وَحْشِيَّةِ الأنسابِ ما أنِسَتْ ... في مُوحِشِ البَيْداءِ بالقودْ
تسمو بجيدٍ بالغٍ صعداً ... شرفَ الصُّروح بغيرِ ما جَهْد
طالت رؤوس الشَّامخات به ... ولربَّما قصُرَت عن الوَهْد
قطَعتْ إليك تنائفاً وصلت ... إسْآدَها بالنَّصِّ والوَخْدِ[3]
تَخْدي على استِصْعابِها ذُلُلاً ... وتَبِيت طوْعَ القِنِّ والقِدِّ[4]
بسُعودِكَ اللائي ضَمِنَّ لنا ... طولَ الحياةِ بعيشةٍ رَغْد
جاءتْكَ في وَفْدِ الأحابِشِ لا ... يَرجُون غيرَكَ مُكرِمَ الوَفْد
وافوكَ أنضاءً[5] تُقَلِّبُهم ... أيدي السُّرَى بالغَوْرِ والنَّجْد

---

(١) ناقة قذوف : متقدمة في سيرها على الابل ، والنوى : البعد .
(٢) التنوفة : القفر من الأرض ، والتي لا ماء فيها ، والجمع تنائف .
(٣) النص : التحريك حتى تستخرج من الناقة أقصى سيرها . والوخد : ضرب من سير الابل ، وهو سعة الخطو في المشي .
(٤) تخدي : تسرع . والقن : العبد . والقد بالكسر : سير يقد من جلد غير مدبوغ .
(٥) جمع نضو : وهو المهزول .

كالطَّيْفِ يستقري مضاجِعَه أو كالحسام يُسَلُّ من غِمْد
يُثنون بالحسنى التي سبقت من غير إنكارٍ ولا جَحْد
ويرَوْن لحظَك مِن وِفادتِهم فخراً على الأتراك والهند
يا مُستعيناً جلّ في شرف عن رتبة المنصور والمهدي
جازاك ربُّك عن خليقته خيرَ الجزاء فنِعْم ما يُسْدي
وبقِيتَ للدنيا وساكنها في عِزَّةٍ أبداً وفي سَعْد

وأنشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيراً، لم يحضرني الآن شيء منه.

ثم غلب ابن مرزوق على هواه، وانفرد بمُخالطته، وكَبَح الشَّكائمَ عن قُربه؛ فانقبضتُ، وقصَّرتُ الخطْو، مع البقاء على ما كنت فيه من كتابة سرِّه، وانشاء مخاطباته ومراسمه.

ثم ولاّني آخرَ الدولة «خُطَّة المظالم»، فوفّيتُها حقها، ودَفعتْ للكثير مما أرجو ثوابه. ولم يزل ابنُ مرزوق آخذاً في سعايته بي وبأمثالي من أهل الدَّولة، غَيْرة ومُنافسة، الى أن انتقض الأمرُ على السلطان بسببه. وثار الوزير عُمَر بن عبد الله بدار المُلْك؛ فصار إليه الناس، ونَبذوا السلطان وبيعتَه، وكان في ذلك هلاكُه، على ما ذكرناه في أخبارهم.

ولما قام الوزير عُمَر بالأمر ، أقرّني على ما كنت عليه ، ووفّر إقطاعي ، وزاد في جِرايتي ؛ وكنت أسمو ، بطُغيان الشباب ، الى أرفعَ ممّا كنتُ فيه ، وأدِلّ في ذلك بسابقة مودّة معه ، منذ أيام السلطان أبي عِنان ، وصِحابة استحكم عقدُها بيني وبينه ، وبين الأمير أبي عبد الله صاحب بِجَاية ، فكان ثالثَ أثافينا ، ومَصقلةُ فُكاهتِنا . واشتدّت غَيرة السلطان لذلك كما مرّ ، وسطا بنا ، وتغافل عن عُمَر بن عبد الله لمكان أبيه من ثغر بِجَاية ؛ ثم حملني الادلال عليه أيامَ سلطانه ، وما ارتكَبه في حقِّي من القصور بي عما أسمُو إليه ، الى أن هجرتُه ، وقعدت عن دار السلطان ، مُغاضِباً له ؛ فتنكَّر لي ، وأقطَعني جانباً من الاعراض ؛ فطلبتُ الرِّحلة الى بَلدي بإفريقية . وكان بنو عبد الواد قد راجعوا مُلْكَهم بتِلِمْسان ، والمغرب الأوسط ، فمنَعني من ذلك ، أن يغتبط أبو حمّو صاحبُ تِلمْسان بمكاني ، فأقيم عنده . ولجّ في المَنْع من ذلك ، وأبيْت انا إلاّ الرِّحلة ؛ واستجَرت في ذلك برَديفه وصديقه ، الوزير مسعود بن رَحّو بن ماساي ، ودخلتُ عليه يومَ الفِطْر ، سنة ثلاث وستين . فأنشدته :

هَنيئاً بصوم لا عَداه قَبولُ وبُشْرى بِعيدٍ أنت فيه مُنيلُ
وهُنّئْتَها من عِزّةٍ وسَعادةٍ تتابَعُ اعوامٌ بها وفُصولُ

سقى الله دهراً أنت إنسانُ عينِهِ ولا مسَّ ربعاً في حماكَ مُحُولُ
فعصرُكَ ما بين الليالي مواسمٌ لها غُررٌ وضّاحةٌ وحُجُولُ
وجانبكَ المأمولُ للجود مشرَعٌ يحوم عليه عالمٌ وجَهُولُ
عساكَ، وإن ضَنَّ الزمان منوِّلي فرسمُ الأماني من سِواكَ مُحيلُ
أجرْني فليسَ الدهرُ لي بمُسالمٍ إذا لم يكن لي في ذُراكَ مَقِيلُ
وأولِني الحُسنى بما أنا آملٌ فمثلكَ يولي راجياً ويُنيلُ
ووالله ما رُمتُ الترحّلَ عن قِلًى ولا سخْطَةً للعيْش فهْو جَزيلُ
ولا رَغبةً عن هذه الدار إنّها لظِلٌّ على هذا الأنام ظَليلُ
ولكن نأى بالشّعب عني حبائبٌ شجاهنّ خطْبٌ للفراق طويلُ
يَهيج بهنّ الوجْدُ أني نازحٌ وأن فؤادي حيث هن حُلولُ
عزيزٌ عليهن الذي قد لقيتُه وأن اغتِرابي في البلاد يطولُ
توارتْ بأنبائي البقاعُ كأنّني تخطّفْتُ أو غالتْ ركابيَ غُولُ
ذكرتُك يا مَغنَى الأحبّة والهوى فطارت بقلبي أنّةٌ وعويلُ
وحَيّيتُ عن شوق رُباكَ كأنّما يُمثَّلُ لي نؤْيٌ بها وطلولُ
أأحبابنا والعهدُ بيني وبينكم كريمٌ وما عهد الكريم يحولُ
إذا أنا لم تُرضِ الحمولَ مدامعي فلا قرّبتْني للّقاء حمولُ
إلامَ مُقامي حيثُ لم تَرِد العُلى مُرادي ولم تُعطِ القيادَ ذلولُ

أجاذب فضلَ العُمْر يوماً وليلةً وساءَ صباحٌ بينها وأصيلُ
ويذهبُ بي ما بين يأسٍ ومطمعٍ زمانٌ بنَيْل المعلُوات بَخيلُ
تُعلِّلني عنه أمانٍ خوادعٌ ويؤنسني ليَّانُ منه مَطولُ
اما لليالي لا تردُّ خطوبَها ففي كبدي من وقْعِهنّ فُلولُ
يروِّعني من صرفها كلُّ حادثٍ تكاد له صُمُّ الجبالِ تزولُ
أداري على الرغم العِدى لا لِريبةٍ يصانعُ واشٍ خوفَها وعَذُولُ
واغدُو بأشجاني عليلًا كأنّما تجود بنفسي زفرة وغليلُ
وإني وإن اصبحت في دار غربةٍ تُحيل الليالي سلْوتي وتُديلُ
وصدَّتنيَ الأيام عن خيرِ منزلٍ عهدت به ان لا يُضام نزيلُ
لأعلم ان الخيرَ والشرَّ ينتهي مَداه وأن الله سوف يُديلُ
وأني عزيز بابن ماساي مُكثِرٌ وإن هان انصارٌ وبانَ خليلُ

فاعانني الوزير مسعود عليه ، حتى اذِن لي في الانطلاق على شَريطة العُدول عن تِلِمْسان ، في ايّ مَذهب اردت ، فاختَرت الأندَلُس ، وصرفت ولَدِي وأمَّهم الى اخوالهم ، اولادِ القائد محمد ابن الحكيم بقُسَنْطينَةَ ، فاتحَ اربع وستين . وجعلتُ انا طَريقي على الأندَلُس ، وكان سلطانُها ابو عبدالله المَخلوع ، حينَ وفد على السلطان ابي سالم بفاس ، وأقام عندَه ، حصلت لي معه سابقة وصلة

ووسيلة خدمة، من جهة وزيره ابي عبدالله بن الخطيب[1]، وما كان بيني وبينه من الصحابة، فكنت اقوم بخدمته، وأعتمل في قضاء حاجاته في الدولة. ولما اجاز، باستدعاء الطاغية لاسترجاع ملكه، حين فسد ما بين الطاغية وبين الرئيس المتوثب عليه بالأندلس من قرابته، خلفته فيمن ترك من عياله وولده بفاس، خير خلف؛ في قضاء حاجاتهم، وإدرار أرزاقهم، من المتولين لها، والاستخدام لهم. ثم فسد ما بين الطاغية وبينه، قبل ظفره بملكه، برجوعه عما اشترطه له؛ من التجافي عن حصون المسلمين التي تملكها بإجلابه؛ ففارقه الى بلد المسلمين، ونزل بأسجة[2]. وكتب الى عمر بن عبد الله يطلب مصراً ينزله، من أمصار الأندلس الغربية، التي كانت ركاباً لملوك المغرب في جهادهم. وخاطبني أنا في ذلك، فكنت له نعم الوسيلة عند عمر، حتى تم قصده من ذلك. وتجافى عن رندة واعمالها؛ فنزلها وتملكها، وكانت دار هجرته، وركاب فتحه؛ وملك منها الأندلس اواسط ثلاث وستين، واستوحشت انا من عمر، إثر ذلك كما مر. وارتحلت إليه، معولا على سوابقي عنده، فغرب في المكافأة كما نذكر ان شاء الله تعالى.

(١) لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب (٧١٣ – ٧٧٦) بروكلمن ٢/٢٦٢.

(٢) أسجة قيدها ابن خلدون بالقلم، بفتح الهمزة، وكسر السين المخففة، تقع في الجنوب الغربي على بعد نحو ٥٤ كيلو متراً. ويقال لها أيضاً استجة، وتحت هذا الاسم تجدها في ياقوت ١: ٢٢٤

الرحلة الى الاندلس

ولمّا أجمعت الرِّحلة الى الأندَلُس ، بعثتُ بأهلي ووَلَدِي الى أخوالهم بقُسَنْطِينة ، وكتبتُ لهم الى صاحبها السلطان ابي العبَّاس من حَفَدَة السلطان ابي يحيى ، وأني امرّ على الأندلُس ، وأُجيزُ اليه من هُنالك . وسرت الى سَبْتَة فُرضَة المَجاز ، وكبيرُها يومئذ الشَّريف ابو العباس احمد بن الشريف الحَسَني ، ذو النسب الواضح ، السالم من الرِّيبة عند كافة اهل المغرب ؛ انتقَل سلفه الى سَبْتَة من صَقَلية[1] ، وأكرَمَهم بنو العَزَفيِّ اولاً وصاهروهم . ثم عظُم صيتُهم في البَلَد ، فتنكَّروا لهم . وغرَّبهم يحيى العَزَفيّ آخرُهم الى الجزيرة ؛ فاعترضتهم مراكب النَّصارى في الزُّقاق[2] ؛ فأسروهم . وانتدب السلطان ابو سعيد الى فديَتهم ، رعايةً لشَرَفهم ؛ فبعث الى النصارى في ذلك فأجابوه . وفادَى هذا الرجلَ واباه على ثلاثة آلاف دينار ، ورجعوا الى سَبْتَة . وانقرض بنو العَزَفيّ ودَولتهم ، وهلك والدُ الشريف ، وصار هو الى رياسة الشُّورى . ولمَّا كانت واقعة القَيْروان ، وخلع ابو عنان اباه ، واستولى على المَغرب ، وكان بسَبْتَة عبدُ الله بن علي الوزير ، والياً من قِبَل السلطان ابي الحسن ؛ فتمسك بدعوته ، ومال اهلُ

---

(١) بفتح الصاد والقاف ، أو بكسرهما ، واللام مكسورة مشددة على كلا القولين . فتحت سنة ٢١٢ تاج العروس ٧/٤٠٤ وياقوت ٥/٣٧٣ — ٣٧٧ .

(٢) الزقاق: هو المضيق الذي بين طنجة وجبل طارق، وعرض البحر هناك نحو سبعة عشر ميلاً.

البلد الى السلطان ابي عنان. وبثّ فيهم الشريف دعوته؛ فثاروا بالوزير وأخرجوه ، ووفدوا على ابي عنان . وأمكنوه من بلدهم؛ فولّى عليها من عظماء دولته سعيدَ بن موسى العَجِيسي ؛ كافل تربيته في صغره . وافرد هذا الشريف برياسة الشّورى في سَبْتَة ؛ فلم يكن يُقطع امرٌ دونه . ووفد على السلطان بعضَ الايام ، فتلقّاه من الكرامة بما لا يشاركه فيه احد من وفود الملوك والعُظماء . ولم يزل على ذلك سائر ايام السلطان وبعدَ وفاته . وكان معظّما وقورَ المجلس ، هشّ اللِّقاء، كريمَ الوفادة ، متحلِّياً بالعِلم والادب ، منتحِلًا للشِّعر ، غاية في الكرم وحُسن العهد ، وسذاجة النفس . ولمّا مررتُ به سنة اربع وستين ، انزلني ببيْته ازاء المسجد الجامع، وبلوْت منه ما لا يُقدَّر مثلُه من الملوك ، واركبني الحرّاقة[1] ليلة سفري ؛ يُباشر دحرجتَها الى الماء بيده ، إغراباً في الفَضْل والمُساهمة . وحطَطتُ بجبل الفتح[2] وهو يومئذ لصاحب المغرب . ثم خرجتُ منه الى غرناطة ، وكتبتُ الى السلطان ابن الأحمَر ووزيره ابن الخطيب بشأني . وليلة بتُّ بقرب غرناطة على بَريدٍ[3] منها ، لقِيَني كتابُ ابن الخطيب يهنّئني بالقدوم ويؤنسُني ، ونصّه :

(١) الحراقة : نوع من السفن الصغيرة كان يستعمل للنزهة . السلوك للمقريزي ص ٣٠٦ .

(٢) جبل الفتح : هو جبل طارق بن زياد . وهو المسمى اليوم Gibraltar

(٣) البريد : أربعة فراسخ ؛ والفرسخ : اثنا عشر ميلا . تاج العروس ٢/٣٩٨ .

حللت حلول الغيث بالبلد المحل على الطائر الميمون والرحب والسهل
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه من الشيخ والطفل المهدأ[١] والكهل
لقد نشأت عندي للقياك غبطة تنسي اغتباطي بالشبيبة والاهل
وودي لا يحتاج فيه لشاهد وتقريري المعلوم ضرب من الجهل

أقسمت بمن حجت قريش لبيته ، وقبر صرفت ازمة الاحياء لميته[٢] ، ونور ضربت الامثال بمشكاته وزيته[٣] . لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمنية السنية ، والعارفة الوارفة[٤] ، واللطيفة المطيفة ، بين رجع الشباب يقطر ماء ، ويرف[٥] نماء ، ويغازل عيون الكواكب ، فضلاً عن الكواعب ، إشارة وإيماء ، بحيث لا الوخط يلم بسياج لمته ، أو يقدح ذباله في ظلمته ، أو يقوم حواريه في ملته ، من الأحابش وأمته . وزمانه روح وراح ، ومغدى في في النعيم ومراح ، وقصف صراح ، ورقى وجراح ، وانتخاب واقتراح ، وصدور ما بها إلا انشراح ، ومسرات تردفها أفراح ؛

(١) هدأت المرأة الصبي : سكنته لينام .
(٢) في القرآن : « انك » ميت وانهم ميتون » وبهامش طبعة بولاق . العبر م ٧ ص ٤١١ شرح لا معنى له ، أعرضنا عن ذكره .
(٣) يشير الى الآية : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » . الآية ٣٥ من سورة النور .
(٤) العارفة العطية . والوارفة : المتسعة .
(٥) يقال : الشيء يرف اذا كثر ماؤه من النعمة والغضاضة .

وبيْن قُدومك خليع الرّسن ، مُمتّعا ــ والحمد لله ــ باليقَظة والوسن ، محكَّما في نُسْك الجُنيْد[١] أو فتْك الحسَن[٢] ، مُمتّعا بظرْف المَعارف ، مالئاً أكُفَّ الصَّيارف ، ماحياً بأنوار البراهين شُبَه الزّخارف ــ لمَا اخترت الشَّباب وإن شاقني زمنُه ، وأعيـاني ثمنه ، وأجْرت سحاب دمعي دمنُـه . فالحمد لله الذي رقى جُنون اغترابي ، وملّكني أزمّـة آرابي ، وغَبّطَني بمائي وتُرابي ، ومَألف أتْرابي ، وقد أغصَّني بلـذيذ شَرابي ، ووقّع على سُطوره المعتَبرة إضْرابي . وعجّلتُ هذه مُغَبِطة بمُناخ المَطِيَّة ، ومنتهَى الطِّية[٣] ، ومُلْتَقَى للسُّعود غير البَطيَة ، وتهنّي الآمالِ الوثيرة الوطِـية . فما شئتَ من نفُوسٍ عاطشة الى رِيـك ، متجمّلة بزِيـك ، عـاقلة خُطـا مَهريّك ؛ ومَوْلى مَكارمُه نَشيدة أمثالك ، ومَظانُّ مثـالك ، وسَيُصَدّق الخبَرَ ما هُنالك ، ويَسع فضلُ مجدِك في التخلّف عن الاصحار[٤] ، لا ، بل للقاء من وراء البِحار ، والسَّلام .

ثم أصبحتُ من الغَد قادماً على البلـد ، وذلك ثامنَ ربيع الأول

---

(١) هو أبو القـاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد ، سيد الصوفية وامامهم . توفي سنة ٢٩٧ أو ٢٩٨ . طبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٨ – ٣٧ .

(٢) يريد أبا نواس : الحسن بن هانيء بن الجراح الحكمي ، الشاعر المـاجن المعروف (١٤٥ – ٢٠٠) .

(٣) الطيه : الوجه والقصد .

(٤) الإصحار : الخروج الى الصحراء . يعتذر عن تخلفه عن الخروج للقياه بعيداً عن المدينة .

عامَ أربعةٍ وستّين ، وقد اهتزّ السلطان لقُدومي ، وَهيأ لي المنزِل من قصوره ، بفرشه وما عُونه ، وأركب خاصّتَه للقَّائي ، تحَفِّيا وبِرًّا ، ومُجازاة بالُحسنى ؛ ثم دخلتُ عليه فقابلني بما يُناسب ذلِك ، وخلع عليّ وانصرفت . وخرج الوزيرُ ابن الخطيب فشَيَّعني الى مكان نُزُلي ؛ ثم نظَمني في عِلية أهل مَجاسِه ، واختصَّني بالنَّجِيّ في خَلوته ، والمُوَاكبة في رُكوبِه ، والمُوَاكلَة والمُطَايبة والفكاهـة في خَلَوات أُنسه ؛ وأقمتُ على ذلك عندَه ؛ وسَفَرتُ عنه سنة خمس وستّين الى الطاغية ملِك قَشْتالة يومئذ ؛ بِتْرُه بن الهَنْشُه بن أذْفُونشْ ، لإتمام عَقدَ الصلح ما بينه وبين ملوك العُدْوَة ، بهدِيّة فاخرة ، من ثياب الحرير ، والجياد المقربات[1] بمراكب الذهب الثَّقيلة؛ فلقِيت الطاغية بإشبيلية ، وعاينت آثار سَلَفي بها ، وعاملني من الكرامة بما لا مَزِيد عليه ، وأظهر الاغتباط بمكاني ، وعلِم أوَّليَّة سَلفنا بإشبيلية . وأثنى عليّ عندَه طبيبُه إبراهيم بن زَرْزَرَ اليهودي ، المُقدَّم في الطبّ والنّجامة ، وكان لقِيَني بمَجلس السلطان أبي عِنَان ، وقد استَدعاه يَستطِبُّه ، وهو يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندُلس . ثمّ نَزَع ــ بعد مَهلِك رضوان القائم بدولتهم ــ الى الطاغية ؛ فأقام عِندَه ، ونظَمه في أطِبَّائه . فلمَّا قَدِمتُ أنا عليه ، أثنى عليّ عنده ، فطلب الطاغية منِّي حينئذٍ المُقام عندَه ،

(١) المقربات : التي تقرب ، ولا تترك بعيداً لئلا يقرعها فحل غير جيد ، يفعلون ذلك ليحفظوا لها النسب الحر .

وأن يرُدّ عليَّ تُراثَ سلفي بإشبيليـة ، وكان بيد زُعمـاء دولتِه ، فتفاديْتُ من ذلك بما قبله . ولم يزلْ على اغتباطه الى أن انصرفت عنه؛ فزوّدني وحملني[1] ، واختصَّني ببغلة فارهةٍ ، بمركب ثقيل ولِجـام ذهبيَّين ، أهديتُهما الى السُّلطان ، فأقطَعني قرية إلبيرة من أراضي السّقي بمرْج غرناطة ، وكتَب بها منشوراً كان نصه[2] :

ثمّ حضَرتُ المولدَ النَّبويَّ لخامِسَةِ قُدومي ، وكان يحْتفل في الصَّنيع[3] فيها والدَّعوة[4] ، وإنشاد الشعراء ، اقتداءً بملوك المغرب ، فأنشَدتُه ليْلتئـذ :

حيّ المعاهدَ كانت قبلُ تُحيِيني بواكِف[5] الدَّمع يُرويها ويُظْميني

إن الأُلى نزحت داري ودارُهمُ تحمَّـلوا القلبَ في آثارهم دُوني

وقفت أنشُد صبْراً ضاع بعدَهم فيهمْ وأسأل رسماً لا يُناجيني

أمثِّل الرَّبعَ من شوق فألْثِمُهُ وكيفَ والفِكرُ يدنيه ويُقصيني

ويَنهَب الوجدُ منِّي كلَّ لؤلؤةٍ مـا زال قلبي عليهـا غيرَ مأمون

---

(١) أعطاني ظهراً لأركبه .

(٢) بياض في جميع الاصول ، ولعل ابن خلدون ترك هذا البياض ليثبت نص هذا المنشور ، فعاجلته المنية قبل ان يتيسر له ذلك .

(٣) الصنيع ، والصنيعة : ما اصطنعته من خير او شر .

(٤) الدعوة بالفتح في اكثر كلام العرب : طلبك الناس للطعام ، وعند قبيلة الرباب : الدعوة ، بكسر الدال في الطعام . وانظر كتب اللغة .

(٥) وكف الدمع : سال .

سقَتْ جفوني مغَانيَ الرَّبعِ بعدَهمُ فالدَّمعُ وقفٌ على أطلالهِ الجونِ (١)

قد كان للقلبِ عن داعي الهوى شُغُلٌ لو أنَّ قلبي الى السُّلوانِ يدعوني

أحبابنا هل لِعَهْدِ الوصل مُدَّكرٌ منكُمْ وهل نسمةٌ عنكم تُحَيِّيني

مالي وللطَّيفِ لا يَعتادُ زائرُه (٢) وللنَّسيم عليلًا لا يداويني

يا أهلَ نجدٍ وما نَجْدٌ وساكنُها حُسْناً سوى جنَّةِ الفِرْدَوسِ والعِينِ (٣)

أعندكم انني ما مرَّ ذكركمُ الا انثنيتُ كأن الرَّاحَ تَثنيني

أصبُو الى البرق من انحاء ارضِكُمُ شوقا ولولا كمُ ما كان يُصبيني

يا نازحاً والمنى تُدنيه من خَلَدي (٤) حتى لأحسِبُه قُرباً يناجيني

أسلى هواكَ فؤادي عن سِواكَ وما سِواكَ يوماً بحالٍ عنكَ يُسليني

ترى الليالِيَ أنستك ادِّكارِيَ يا من لم تَكن ذِكرَهُ الايامُ تنسيني

ومنها في وصف الايوان الذي بناه لجلوسه بين قصوره :

يا مصْنَعاً شيَّدَت منه السُّعود حمىً لا يَطْرُق الدهر مَبْناه بتَوْهينِ

صَرْحٌ يحَار لديه الطرف مُفتَتِناً فيما يروقكَ من شكلٍ وتَلْوينِ

---

(١) الجون : السود .

(٢) لايزور مرة بعد الأخرى .

(٣) جمع عيناء ؛ وهي الواسعة العين من النساء .

(٤) الخلد : البال .

بُعْداً لايوان كسرى[1] إنّ مشورك[2] السامي لأعظم من تلك الأواوين
ودع دمشق ومغناها فقصرك ذا «أشهى الى القلب من ابواب جيرون»[3]

ومنها في التعريض[4] بمنصرفي من العدوة :

مَن مبلغ عنّي الصحب الألى تركوا ودّي وضاع حماهم اذ اضاعوني
أني أويتُ من العليا الى حرم كادت مغانيه بالبشرى تحيّيني
وأنني ظاعناً لم ألق بعدهم دهراً أشاكي ولا خصماً يشاكيني
لا كالتي اخفرت عهدي لياليَ اذ أقلّب الطرف بين الخوف والهون

. . . .

سقياً ورعياً لأيامي التي ظفرتْ يداي منها بحظٍّ غير مغبونِ
ارتادُ منها ملياً لا يماطلني وعداً وارجو كريماً لا يعنّيني
وهاك منها قوافٍ طيّها حِكَم مثلُ الازاهر في طيّ الرياحين

(١) هو الإيوان الذي كان بمدائن كسرى . شاهده ياقوت ، ووصفه في معجم البلدان ٣٩٤/١ وما بعدها . وللبحتري فيه القصيدة السينية المشهورة .

(٢) المشور في الاصطلاح المغربي والأندلسي : المكان الذي يجلس فيه السلطان فمن دونه من الحكام للحكم . ولا تزال الكلمة مستعملة في هذا المعنى بالمغرب .

(٣) موضع من متنزهات دمشق أكثر الشعراء من ذكره . ياقوت ١٩١/٣ ، تاج العروس ١١٦/٣ . والشطر الثاني مضمن من شعر أبي قطيفة .

(٤) يعني بهذه الابيات صديقه الوزير عمر بن عبدالله ، ويعرض فيها بما عامله به من الوحشة وقد قدم بعض القول في ذلك .

تلوح ان جُلِيَت دراً وإن تُلِيَت تثني عليكَ بانفاس البساتين
عانيتُ منها بجُهدي كلَّ شاردةٍ لولا سعودكَ ما كادت تواتيني
يُمانع الفكرَ عنها ما تَقسَّمَه من كل حزنٍ بطيِّ الصدر مكنون
لكن بسَعدكَ ذلَّت لي شواردها فرُضتُ منها بتَحبير وتزيين
بُقِّيتَ دهركَ في أمنٍ وفي دَعَةٍ ودام مُلكك في نصر وتمكين

وأنشدته سنة خمس وستين في إعذار[1] ولده، والصَّنيع الذي احتَفَل لهم فيه، ودعا اليه الجَفَلى من نواحي الاندلس، ولم يحضُرني منها الا ما اذكره:

صحا الشوق لولا عَبرة ونحيبُ[3] وذكرى تُجِدُّ الوجد حين تثوب[4]
وقلب أبى إلاَّ الوفاءَ بعَهده وان نزحت دار وبانَ حبيب
ولله مني بعد حادثة النَّوى فؤاد لتذكار العهود طَروب
يؤرِّقه طَيْف الخيال اذا سرى وتُذكي حَشاه نفحة وهُبوب
خليليَّ إلا تُسعدا فدعا الاسى فإني لما يدعو الاسى لمُجيبُ
أَلِمَّا على الاطلال يقْضِ حقوقَها من الدمع فيَّاضُ الشِّؤون سَكوبُ

(١) الاعذار : الختان ، ثم اطلق على طعام الختان .
(٢) الجفلى ، بفتحات : ان تدعو الناس الى طعامك دعوة عامة .
(٣) النحيب : البكاء .
(٤) تثوب ، وفي ب : تئوب ؛ والمعنى فيهما : ترجع وتعود .

ولا تعْذُلاني في البكاء فإنَّها ... حُشاشةُ نفسي في الدموع تذوب

ومنها في تقدُّم ولده للاعذار من غير نُكول [١] :

فيَمَّمَ منه الحفلَ لا متقاعِسٌ ... لخَطبٍ ولا نِكْسٌ [٢] اللِّقاء هيوب
وراح كما راح الحسام من الوغى ... تروق حِلاه والفِرنْد [٣] خضيب
شواهدُ اهدتهنَّ منك شمائل ... وخُلْقٌ بصَفْو المجد منك مَشوب

ومنها في الثناء على ولديه :

هما النَّيِّران الطالعان على الهُدى ... بآيات فتحٍ شأنهنَّ عجيبُ
شِهابان في الهيْجا غمامان في النَّدى ... تسُحُّ المعالي منهما وتَصوبُ
يدان لبسط المكرُمات نَماهما ... الى المجد فيَّاضُ اليدين وهوبُ

وأنشدته ليلة المولد الكريم من هذه السنة :

أبى الطيف ان يعتاد الا توهُّما ... فَمَن لي بأن القى الخيال المسلِّما
وقد كنتُ استهديه لو كان نافعي ... وأستمطر الاجفان لو تنقع الظما [٤]
ولكن خيال كاذب وطماعة [٥] ... تعلِّل قلباً بالاماني متيَّما

(١) النكول : التأخر والجبن .
(٢) النكس : الرجل الضعيف ، والمقصر عن غاية النجدة والكرم .
(٣) الفرند : السيف .
(٤) تروي العطش .
(٥) الطماعة : الطمع .

ايا صاحبي نجواي والحبُّ لوعة تبيح بشكواها الضمير المكتّما
خذا لفؤادي العهد من نفَس الصَّبا وظبي النَّقا[1] والبان من اجرع الحمى[2]
ألا صنَع الشوق الذي هو صانع فحي مقيم أقصر الشوق او سما
وإني ليدعوني السلوُّ تعلّلا وتنْهاني الأشجان أن اتقدّما
لمن دِمن اقفَرن الاّ هواتفاً[3] تردِّد في اطلالهنَّ الترنُّما
عرفت بُهاسيمَا[4] الهوى وتنكَّرتْ فعُجتُ على آياتها متوسِّما
وذو الشَّوق يعتاد الربوع دوارِساً ويعرف آثار الديار توهما
تأوّبني[5] والليل بيني وبينه وميض بأطراف الثنايا تضرّما
أجدَّ لِيَ العهدَ القديم كأنّه اشار بتذكار العُهود فأفهَما
عجبتُ لمرتاع الجوانح خافق بكَيتُ له خلف الدجى وتبسّما
وبتُّ أروِّيه كؤوس مدامعي وبات يعاطيني الحديث عن الحمى
وصافحتُه عن رسم دارٍ بذي الغَضا[6] لبستُ بها ثوبَ الشبيبة مُعلَما
لعَهدي بها تدني الظِّباء اوانساً وتُطلع في آفاقها الغِيد أنجُما

(١) النقا : الكثيب من الرمل .
(٢) الاجرع : الارض الرملة السهلة المستوية . — لسان العرب .
(٣) هتفت الحمامة : ناحت ، وهي هاتفة ، والجمع هواتف .
(٤) سيما الهوى : علامته .
(٥) اتاني ليلا .
(٦) الغضا : شجر ، وخشبه من اصلب الخشب ، ولهذا يكون في فحمه صلابة .

أحِنُّ اليها حيث سار بيَ الهوى   وأُنجِد رحلي في البلاد وأُتهما[1]

ولما استقر القرار ، واطمأنت الدار ، وكان من السلطان الاغتباط والاستئثار وكثُر الحنين الى الاهل والتذكار ، أمرَ باستقدام اهلي من مطرح اغترابهم[2] بقُسَنْطينة ؛ فبعث عنهم مَن جاء بهم الى تِلِمسان . وامر قائد الاسطول بالَمريَّة ؛ فسار لاجازتهم في اسطوله ، واحتلوا بالَمرية . واستأذنتُ السلطان في تلقِّيهم ، وقدمتُ بهم على الحضرة ، بعد ان هيأتُ لهم المنزل والبستان ، و دِمنَة الفَلْح ، وسائر ضرورات المعاش .

وكتب الوزير ابن الخطيب عندما قاربت الحضْرة ، وقد كتبتُ اليه استأذنه في القدوم ، وما أعتمده في احواله :

سيدي ، قَدِمتَ بالطَّير الميامين ، على البَلد الامين ، واستضفت الرِّفاء الى البنين ، ومُتِّعت بطول السنين . وصلتني البراءة[3] المعربة عن كَثَب اللقاء ، ودنوِّ المزار ، وذهاب البُعد ، وقرب الدار ؛ واستفهَم سيدي عمَّا عندي في القدوم على المخدوم ، والحقُّ ان يتقدم

---

(١) انجد ، واتهم : دخل نجداً ، وتهامة .

(٢) مطرح الاغتراب : المكان البعيد عن الاهل والعشيرة .

(٣) البراءة في مصطلح المغاربة والاندلسيين : الرسالة كيفما كان موضوعها . ولا يتقيدون فيها بالمعنى اللغوي للبراءة .

سيدي الى الباب الكريم ، في الوقت الذي يجد المجلس الُجمهوري لم يُفِضْ حَجيجُه[١] ، ولا صَوَّح[٢] بهيجه، ويصل الاهل بعده الى المحل الذي هيأته السعادة لاستقرارهم ، واختاره اليُمن قبل اختيارهم . والسلام .

ثم لم يلبث الاعداء واهل السِّعايات ان خيَّلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان ، واشتماله علي ، وحرَّكوا له جوادَ الغَيْرة فتنَكَّر . وشَمِمْتُ منه رائحة الانقباض ، مع استبداده بالدولة ، وتحكُّمِه في سائر احوالها ؛ وجاءتني كتب السلطان ابي عبدالله صاحب بجاية ، بانه استولى عليها في رمضان خمسٍ وستين . واستدعاني اليه ؛ فاستأذنت السلطان ابن الاحمر في الارتحال اليه . وعمَّيْتُ عليه شأن ابن الخطيب ابقاء لمودته ؛ فارتَمَض[٣] لذلك ، ولم يَسَعْه الا الاسعاف ، فودَّع وزوَّد ، وكُتِب لي مرسوم بالتشييع من املاء الوزير ابن الخطيب نصُّه :

هذا ظهير كريم ، تضمن تشييعاً وترفيعاً ، وإكراماً وإعظاماً ، وكان لعَمَل الصَّنيعة ختاماً ، وعلى الذي احسن تماماً ، وأَشاد للمعتمد

(١) الافاضة : الدفع في السير بكثرة . والحجيجُ : جمع حاج ؛ يزيد قبل ان يتفرق رواد المجلس السلطاني من اهل الدولة .
(٢) صوّح النبت : تم يبسُه .
(٣) ارتمض لكذا : حزن ، وارتمض بكذا : اشتد قلقُه .

به[١] بالاغتباط الذي راق قَسَاما[٢] وتوفّر اقساما ، واعلن له بالقبول إن نوى بعد النَّوى رجوعاً او آثر على الظعَن المزَمع مُقاماً .

أمرَ به ، وأمضى العمل بمقتضاه وحسْبِه ، الأميرُ عبد الله محمد بن مولانا أمير المسلمين أبي الحجَّاج بن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر ، أيّد الله أمرَه ، وأعزّ نصره ، وأعلى ذكرَه ، للوليّ الجليس ، الحظيّ المكين ، المقرَّب الأودّ الأحبّ ، الفقيه الجليل ، الصدر الأوحد ، الرَّئيس العَلم ، الفاضل الكامل ، المرفَّع الأسمى ، الأظهر الأرضى ، الأخلص الأصفى ، أبي زيد عبد الرحمن بن الشيخ الجليل ، الحسيب الأصيل ، الفقيه المرفَّع المعظم ، الصَّدْر الأوحد الأسنى ، الأفضل الأكمل ، الموقّر المبرورِ ، أبي يحيي أبي بَكر ، ابن الشيخ الجليل الكبير ، الرفيع الماجد ، القائد الحظيّ ، المعظَّم الموقّر ، المبرور المرحوم ، أبي عبد الله بن خَلْدون . وصل الله له أسباب السعادة ، وبلّغه من فضله أقصى الارادة ؛ أعلن بما عنده ، أيده الله ، من الاعتقاد الجميل في جانبه المرفّع ، وإن كان غنيًّا عن الاعلان ، وأعرب عن معرفته بمقداره ، في الحُسَباء العلماء الرؤَساء الأعيان ، وأشاد باتّصال رضاه عن مقاصده البَرَّة وشِيَمه الحِسان ، من لَدُن وَفد بابَه ، وفادة

(١) كذا بالاصول . والعبارة مضطربة . ولم نعثر في المراجع التي بين ايدينا على تصويبها .
(٢) القَسَام : الجمال والحسن .

العزِّ الراسخ البُنيان ، وأقام المُقام الذي عيَّن له رِفْعةَ المكان ، وإجلالَ الشان ، إلى أن عزَم على قصد وطنه ، أبلغه الله ذلك في ظلِّ اليُمْن والأمان ، وكفالة الرَّحمن بعدَ الاغتباط المُرْبي على الخَبر بالعِيان ، والتمسُّك بجِواره بجُهْد الامكان ، ثم قَبول عُذره بما جُبلت الأنفس عليه من الحنين الى المعاهد والأوطان . وبعد أن لم يَدْخر عنه كرامةً رفيعَة ، ولم يَحْجُب عنه وجهَ صنيعة ، فولّاه القيادة والسِّفارة ، وأحلّه جليساً معتَمداً بالاستشارة ، وألبَسه من الحُظوة والتقريب أبهَى الشارة ، وجعَل محلَّه من حضرته مقصوداً بالمِثْل معنِيًّا بالاشارة ، ثم أصحَبه تشيعاً يشهد بالضَّنانة بفِراقه ، ويجمع له برَّ الوجهة من جميع آفاقه ، ويجعله بيده رَتيمَة خِنْصِر[١] ، ووثيقةَ سامع أو مُبصِر ؛ فمهما لوى أخْدعه[٢] الى هذه البلاد بعد قضاء وَطرِه ، وتملِّيه من نهْمَة[٣] سفَره ، أو نزع به حُسنُ العهد وحنين الوُدِّ ، فصَدْرُ العناية به مشروح ، وبابُ الرضا والقَبول مفتوح ، وما عَهِده من الحُظوة والبِرِّ ممنوح . فما كان القصدُ في مثله من إمجاد الأولياء ليتحوَّلَ ، ولا الاعتقادُ الكريم ليتبدَّلَ ، ولا الأخيرُ من الأحوال

(١) الرتيمة : الخيط الذي يشد في الأصبع لتستذكر به الحاجة .

(٢) الأخدعان : عرقان في موضع الحجامة من العنق ، والواحد أخدع ؛ يكنى بلي الأخدعين عن العودة الى هذه البلاد .

(٣) النهمة : الحاجة ، وبلوغ الهمة في الشيء .

لينسخَ الأول . على هـذا فليطوِ ضميرَه ، وليَرِدْ متى شاءَ نَميرَه[١] ، ومن وقف عليـه من القُوّاد والأشياخ والخُدّام ، بَرّاً وبحراً ، على اختلاف الخُطَط والرُّتب ، وتبـايُن الأحوال والنِّسب ، أن يعرفوا حقّ هذا الاعتقاد ، في كل ما يحتاج إليه من تشييع ونزول ؛ وإعانة وقَبول ، واعتناء موصول ، الى أن يكمُل الغرض ، ويؤدّى من امتثال هذا الأمر الواجبُ المُفترَض ، بحول الله وقوته .

وكُتب في التاسعَ عشرَ من جمادَى الأولى عامَ ستة وستين وسبع مائة .

وبعدَ التاريخ العَلامةُ بخط السلطان ، ونصُّها : « صح هذا » .

الرحلة من الاندلس الى بجاية ، وولاية الحجابة بها على الاستبداد

كانت بجايةُ ثَغراً لافريقية في دولة بني أبي حفْص من الموحّدين . ولمـا صار أمرهم للسلطـان أبي بكر بن يحيى منهم ، واستقلّ بمُلك إفريقية ، ولّى في ثَغر بجاية ابنَه الاميرَ أبا زكرياء ، وفي ثَغر قُسنْطينة ابنَه الأميرَ أبا عبد الله . وكان بنو عبد الواد ملوكُ تِلِمْسَان والمغرب الأوسط ، ينازعونه في أعماله ، ويُجَمّرون[٢] العساكر على بِجاية ،

---

(١) النمير من الماء : الزاكي ، الناجع .

(٢) جمر الجيش : جمعه . وهي كلمة يستعملها ابن خلدون كثيراً .

ويُجْلِبون على قُسَنْطِينة ، الى أن تمسَّك السلطان أبو بكر بذمّةٍ من السلطان أبي الحسن ، ملِك المغرب الأقصى من بني مَرين ، وله الشّفوف على سائر ملوكهم . وزحف السلطان أبو الحسن الى تِلِمْسان ؛ فأخذ بمخنَّقها سنتَيْن أو أزيد ، وملكها عَنْوة ، وقتل سلطانها أبا تاشفين ، وذلك سنة سبع وثلاثين . وخفّ ما كان على الموحّدين من إِصْر[1] بني عبد الواد ، واستقامت دولتُهم . ثم هلك أبو عبد الله محمد بن السلطان أبي يحيى بقُسَنْطِينة سنة أربعين ، وخلَّفَ سبعةً من الولد ، كبيرُهم أبو زيد عبدُ الرحمن ، ثم أبو العباس أحمد ، فولّي الأميرَ أبا زيد مكان أبيه ، في كفالة نَبِيل مولاهم . ثم تُوفّي الأميرُ أبو زكرياء ببِجاية سنة ست وأربعين ، وخلّف ثلاثةً من الولد ، كبيرُهم أبو عبد الله محمد ، وبعث السلطانُ أبو بكر ابنَه الأمير أبا حفْص عليها ؛ فمال أهلُ بجاية الى الأمير أبي عبد الله بن أبي زكرياء ، وانحرفوا عن الأمير عُمرَ وأخرجوه . وبادر السلطان فرقَع هذا الخرْق ، بولاية أبي عبد الله عليهم كما طلبوه . ثم توفي السلطان أبو بكر مُنتصَفَ سبع وأربعين ، وزحف أبو الحسن الى إفريقية فملَكها ، ونقل الأمراء من بِجاية وقُسَنْطينة الى المغرب . وأقطع لهم هنالك ، الى أن كانت حادثة القَيْرَوان ، وخلع السلطان أبو عِنَان أباه . وارتحل من

(١) الإصر : الأمر الذي يثقل حمله .

تِلِمْسان ، الى فـاس ؛ فنقّل معـه هؤلاء الأمراء ، أهلَ بِجـاية وقُسَنْطِينـة ، وخلطهم بنفسه ، وبالغ في تكرمتهم . ثم صرفهم الى ثغورهم : الأميرَ أبا عبد الله أوّلاً ، وإخوته من تِلِمْسان ، وأبا زيد وإخوته من فاس ، ليستبِدّوا بثغورهم ، ويُخذّلوا الناس عن السلطان أبي الحسن ؛ فوصلوا الى بلادهم ، وملكوها بعد أن كان الفضلُ بن السلطان أبي بكر قد استولى عليها من يد بني مَرين ؛ فانتزعوها منه . واستقرّ أبو عبد الله ببجاية ، حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بجبال المصَامِدة ، وزحف أبو عِنَان الى تِلِمْسان سنة ثلاث وخمسين ؛ فهزَم ملوكَها من بني عبد الواد ، وأبـادَهم ، ونزل المديّة ، وأطلّ على بجـاية . وبادر الأميرُ أبو عبد الله للقـائه ، وشكا إليه مـا يلقاه من زَبُون[1] الجُنْد والعرب ، وقلّةِ الجِبـاية . وخرج له عن ثَغر بجـاية فملكها ، وأنزل عُمّاله بها . ونقل الأميرَ أبا عبد الله معه الى المغرب ؛ فلم يزل عنده في حِفَاية[2] وكرامة . ولما قدِمتُ على السلطان أبي عِنان آخر خمس وخمسين واستخلصني ، نبضَتْ عُروق السّوابق بين سلَفي وسلَف الأمير أبي عبد الله ، واستدعـاني للصِّحابة فأسرعت ، وكان السلطانُ أبو عِنَان شديد الغَيْرة من مثل ذلك . ثم كثر المنـافسون ، ورفعوا الى السلطان ، وقد طرَقه مرضٌ أرجفَ له الناس ؛ فرفعوا له

(١) يستعمل ابن خلدون الزبون اسما بمعنى الحرب .
(٢) الحفاية : المبالغة في الإكرام ، كالحفاوة .

أن الأمير أبا عبد الله اعتزَم على[1] الفرار الى بِجَـاية ، وأني عاقدتُه على ذلك ، على أن يُوَلِّيَني حِجَابتَه ؛ فانبعثَ لها السلطان ، وسَطا بنا ، واعْتقَلني نحواً من سنتَيْن الى أن هلك . وجـاء السلطـانُ أبو سالم ، واستولى على المغرب ، ووَليتُ كتابة سرِّه . ثم نهض الى تلِمْسان ، وملكها من يد بني عبد الواد ، وأخرج منها أبا حَمُّو موسى بن يوسف ابن عبد الرحمن بن يَحيى بن يَغَمْرِاسن ، ثم اعتزم عـلى الرجوع الى فاس ، وولّي على تِلمسان أبا زيّان محمد بن أبي سعيد عثمان بن السلطان أبي تَاشِفِين ، وأمدَّه بالأموال والعساكر من أهل وطنـه ، ليدافعَ أبا حَمُّو عن تِلِمْسان ، ويكونَ خالصةً له . وكان الأمير أبو عبد الله صاحب بِجَاية معه كما ذكرناه ، والأمير أبو العباس صاحب قُسَنْطِينة ، بعد أن كانَ بنو مَرين حاصروا أخاه أبا زيد بقُسَنْطينة أعواماً تباعا . ثم خرج لبعض مذاهبه الى بُونَة ، وترك أخاه أبا العباس بها ؛ فخَلعه ، واستبدَّ بالأمر دونه . وخرج الى العساكر المجمَّرة عليها من بني مَرين ؛ فهزمهم ، وأثخَن فيهم . ونهض السلطان إليه من فـاس ، سنةَ ثمـان وخمسين ؛ فتبرأَ منه أهـل البلد وأسلموه ؛ فبعثه الى سَبْتَةَ في البحر ، واعتقله بها ، حتى إذا مَلَك السلطان أبو سالم سَبْتَةَ عند إجازته من الأندلس سنة ستين ، أطلَقه من الاعتقال ، وصحِبه الى دار مُلكه ،

(١) اعتزم على الشيء : أراد فعله ، كعزم عليه .

ووَعده بردّ بلده عليه .

فلما ولّى ابا زيّان على تِلِمْسان، أشار عليه خاصّتُه ونصحاؤه، بأن يبعث هؤلاء الموحِّدين إلى ثغورهم : فبعث أبا عبد الله إلى بِجَاية، وقد كان مَلَكَها عَمُّه أبو إسحق صاحب تونس ، ومكفولُ ابن تافْراكين من يَد بني مرين ؛ وبعث أبا العباس إلى قُسَنْطينة ، وبها زعيم من زعماء بني مَرِين . وكتب إليه السلطان أبو سالم أن يفرج له عنها ، فملكها لوقته . وسار الأمير أبو عبد الله إلى بِجَاية ، فطال إجْلابُه عليها ، ومعاودتُه حصارَها . ولجّ [1] أهلُها في الامتناع منه مع السلطان أبي إسحق . وقد كان لي المقام المحمود في بعث هؤلاء الأمراء إلى بلادهم . وتولّيت كِبْر [2] ذلك مع خاصة السلطان أبي سالم وكبار أهل مجلسه ، حتى تمّ القصد من ذلك . وكتب لي الأمير أبو عبد الله بخَطِّه عهداً بولاية الحِجابة متى حصل على سلطانه ؛ ومعنى الحِجابة — في دولنا بالمغرب — الاستقلالُ بالدولة ، والوساطةُ بين السلطان وبين أهل دولته ، لايشاركه في ذلك أحد . وكان لي أخ اسمه يحيى [3] أصغرُ مني ، فبعثتُه مع الأمير أبي عبد الله حافظاً للرسم ، ورَجعتُ مع السلطان إلى فاس . ثم كان

(١) لج : تمادى في الخصومة .
(٢) الكبر : معظم الشيء ، والشرف .
(٣) قتل يحيى بن خلدون هذا في سنه ٧٨٠ ، بأمر ابي تاشفين بن ابي زيان ؛ وكان مؤرخاً ، وأديباً ؛ ويأتي في كلام ابن الخطيب ثناء على كتابته الأدبية . له كتاب : «بغية الرواد، في اخبار بني عبدالواد» .

ماقدَّمتُه من انصرافي الى الاندلس والمُقام بها ، إلى أن تنكَّر الوزير ابنُ الخطيب ، وأظلم الجوُّ بيني وبينَه .

وبيْنا نحن في ذلك ، وصل الخبر باستيلاء الأمير أبي عبد الله على بِجَاية من يَد عمِّه ، في رمضان سنة خمسٍ وستين ؛ وكتب الأمير أبو عبد الله يستقدمُني ، فاعتزمت على ذلك ، ونَكِر السلطان أبو عبد الله ابنُ الأحمر ذلك منِّي ، لايظنُّه لسوى ذلك ، إذ لم يطَّلع على ما كان بَيْني وبين الوزير ابن الخطيب ، فأمضَيْتُ العَزْم ، ووَقَع منه الاسعاف ، والبرُّ والالطاف . وركبت البحر من ساحل المَرِيَّة ، منتصَفَ ست وستين . ونزلتُ بِجَاية لخامسةٍ من الاقلاع ، فاحتفل السلطان صاحبُ بِجَاية لقُدومي ، وأركب أهلَ دولته للقائي . وتهافت أهل البلد عليَّ من كل أَوْب يمسحون أعطافي ، ويقبِّلون يديَّ ، وكان يوماً مشهوداً .

ثم وصلت الى السلطان فحيَّا وفدَّى [١] ، وخلع وحمَل [٢] ؛ وأصبحتُ من الغد ، وقد أمرَ السلطانُ أهلَ الدولة بمباكرة بابي ، واستقللتُ بحمل مُلكه ، واستفرغتُ جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه ، وقدَّمني للخَطابة بجامع القصَبة ، وانا مع ذلك ، عاكفٌ

---

(١) فدى : قال جعلتُ فداك .

(٢) حمله : أعطاه ظهرا يحمل عليه .

بعد انصرافي من تدبير المُلك غُدْوَةً — الي تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصَبة لا أنفكُّ عن ذلك .

ووجدتُ بينه وبين ابن عمِّه السلطان أبي العباس صاحب قُسَنْطينة فتنة ، أحدثتْها المُشاحَّة في حدود الاعمال من الرعاياوالعمال، وشبَّ نارَ هذه الفتنة عرَبُ اوطانهم من الدَّواوِدَة من رياح ، تنفيقاً لسُوق الزَّبُون يَمتَرُون[1] به أموالهم . وكانوا في كلِّ سنَة يجمع بعضُهم لبعض ؛ فالتقَوا سنة ست وستين بفَرْجيوَة ، وانقسم العربُ عليهما . وكان يعقُوب بنُ عليّ مع السلطان أبي العبَّاس ؛ فانهزَم السلطان أبو عبد الله ، ورجَع إلي بِجاية مفْلولا ، بعد ان كنتُ جمعتُ له أموالا كثيرةً أنفق جَميعَها في العرَب . ولما رَجَع أعوزَتْه النفقَةُ ؛ فخرجتُ بنفسي إلى قبائل البَرْبر بجبال بِجاية المتَمَنِّعين من المغارم منذُ سنين ؛ فدخلتُ بلادَهم واستَبَحتُ حماهم ، واخذْتُ رهُنَهم على الطاعة ، حتى استوفيت منهم الجِباية ، وكان لنا في ذلك مَدَدٌ وإعانة ؛ ثم بعَث صاحبُ تِلمْسان إلى السلطان أبي عبد الله يطلبُ منه الصِّهر ؛ فاسعَفه بذلك ليصلَ يده به على ابن عمِّه ، وزوَّجه ابنتَه ؛ ثم نهضَ السلطان أبو العباس سنة سَبع وستِّين ، وجاس أوطانَ بِجاية ، وكاتَبَ أهل البَلد ، وكانوا وَجِلين من

(١) يمترون به أموالهم : يستخرجونها .

السلطان أبي عبد الله ، بما كان يُرهِفُ الحدَّ لهم ، ويَشُدّ وطأته عليهم ؛ فأجابوه إلى الانحراف عنه . وخرج السلطان أبو عبد الله يوم مُدافعتَه ، ونزَلَ جبل لِيزُو معْتَصِماً به ؛ فبَيَّته السلطان أبو العباس في عساكره وجموع الأعراب من اولاد محمد بن رياح بمكانه ذلك ،باغراء ابن صَخْر وقبائل سِدوِيكش [١] . وكبَسَه في مخيَّمِه ورِكض هارباً ، فلحِقه وقتَله ، وسار الى البَلد بمُواعدَة أهلها . وجاءني الخبر بذلك ، وأنا مقيم بقَصَبة السلطان وقصوره ، وطلب مني جماعةٌ من أهل البلد القيامَ بالأمر ، والبيْعة لبعض الصِّبيان من أبناء السلطان ؛ فتفاديتُ من ذلك ؛ وخرجْت الى السُّلطان أبي العبَّاس ، فأكرمني وحَباني ، وأمكنتُه من بَلدِه ، وأجرى أحوالي كلها على مَعهُودها . وكثُرت السِّعاية عنده فيَّ ، والتَّحذيرُ من مكاني . وشَعَرت بذلك ؛ فطلبتُ الاذن في الانصراف بعهْدٍ كان منه في ذلك ؛ فأذِنَ لي بعدَ لأْيٍ [٢] ؛ وخرجتُ الى العَرَب ، ونزلت على يعقوبَ بن عليّ . ثم بدا للسُّلطان في امري ، وقبض على أخي ، واعْتَقَله بِبُونة . وكبَسَ بيُوتَنا يَظُنُّ بها ذَخيرةً وأموالاً ؛ فأخفق

(١) عرفت هذه القبائل بهذا الاسم منذ القديم ، وديارها في مواطن كتامة ، في البسائط الواقعة بين قسنطينة ، وبجاية .

(٢) بعد ابطاء .

ظنّه . ثم ارتحلتُ من أَحياء يعقوبَ بن علي ، وقصدتُ بَسْكَرَة[1] ، لِصحابةٍ بيني وبينَ شيخها أحمد بن يوسف بن مَزْنى ، وبين أبيه ؛ وساهم في الحادث بمالِه وجاهه .

مشايعة أبي حمو صاحب تلمسان

كان السلطان أبو حمّو[2] قد التحم ما بينه وبين السلطان أبي عبد الله صاحب بِجَاية بالصِّهر في ابنته ، وكانت عندَه بِتِلْمسان . فلمّا بلغه مقتلُ أبيها ، واستيلاء السلطان أبي العبّاس ابن عمّه صاحب قُسَنْطينة على بجاية ، أظهرَ الامتعاضَ لذلك . وكان أهلُ بِجَاية قد توجّسُوا[3] الخِيفةَ من سلطانهم ، بإرهاف حدّه ، وشدّة سَطوته ؛ فانحرفوا عنه باطناً ، وكاتبوا ابنَ عمه بقُسَنْطينَة كما ذكرناه .

وَدسّوا للسلطان أبي حَمّو بمثلِها يَرْجُون الخلاصَ من صاحبهم بأحدِهما . فلما استولى السلطانُ أبو العباس ، وقتل ابنَ عمِه ، رأوا أن

---

(١) بسكرة ضبطها ابن خلدون ، بالحركات ، بفتح الباء والكاف ، بينهما سين ساكنة ، ثم راء مفتوحة بعدها هاء تأنيث ، وهو ضبط حكاه ياقوت في معجم البلدان ، وصاحب تاج العروس ، كما حكيا ان هناك من يضبطها بكسر الباء والكاف ، وهي بلد بالجزائر كانت قاعدة بلاد الزاب ، انظر ياقوت ٢-١٨٢ ، التاج ٣-٤٣

(٢) هو ابو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيي بن يغمراسن بن زيان ، الاستقصاء ٢-١٠٣

(٣) توجس الشيء ، والصوت : سمعه وهو خائف

جُرحهم قد اندمل [١] ، وحاجتهم قد قُضِيتْ ، فاعصوصبوا عليه ؛ وأظهر السلطان ابو حمّو الامتعاضَ للواقعة يُسِرُّ منهُ حسْواً في ارتغاء [٢] ، ويجْعله ذريعة للاستيلاء على بجاية ، بما كان يرى نفسه كفؤها بعدّه وعديده ، وما سلفَ من قومه في حصارها ؛ فسار من تِلِمْسان يَجُرُّ الشوك والمدَر [٣] ، حتى خيّم بالرّشّة من ساحتها ، ومعه احياء زُغْبَة بجُموعهم وظعائنهم ، من لدن تلمْسانَ ، الى بلاد حصَيْن ، من بني عامر ؛ وبني يعقوب ، وسويد ، والدّيالم والعطّاف ، وحصين .

وانحجَر أبو العبّاس بالبَلد في شرذمة من الجُنْد ، أعجله السلطان أبو حمّو عن استيعابِ الحشْد ، ودافَع أهلُ البَلد أحسنَ الدِفاع . وبعثَ السلطان أبو العبّاس عن أبي زيّان بن السلطان أبي سعيد عمّ أبي أبي حمّو من قُسَنْطينة ، كان مُعتقَلا بها ، وأمرَ مولاه وقائدَ عسكره بَشيرا أن يخرُج معه في العساكر ، وساروا حتى نزلوا بني [٤] عبد الجبّار قُبالةَ مُعسكَر أبي حمّو ؛ وكانت رجالات زُغْبةَ قد وَجمُوا

---

(١) اندمل الجرح ، برىء .

(٢) يشرب اللبن خفية ، ويتظاهر بأنه يأخذ الرغوة ، وهو مثل يضرب لمن يظهر أمرا وهو يريد غيره

(٣) ينظر الى المثل ، « جاء بالشوك والشجر » ، الميداني ١-١١٠ ؛ ويكني بذلك عن كثرة جيشه ، فلقد كان ١٥ الفا . -بغية الرواد ٢-١٨٢

(٤) في بغية الرواد : « وابن عمه أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد مطل عليه من جبل بني عبد الجبار » ، ولعله أوضح .

من السلطان ، وأبلغهم النذيرُ أنّه إن ملكَ بجاية اعتقلهم بها ؛ فراسلوا أبا زيّان ، وركبوا إليه ، واعتقدوا معه . وخرج رُجّل البلد بعض الأيام من أعلى الحصن ، ودفعوا شرذمةً كانت مُجمّرةً إزاءهم؛ فاقتلعوا خباءهم . وأسهلوا من تلك العقبة الى بسيط الرّشّة . وعاينهم العرب بأقصى مكانهم من المُعسكر فأجفلوا ، وتتابع الناسُ في الانجفال حتى أفردوا السلطانَ في مُخيّمه ؛ فحملَ رواحله وسار ، وكضّتْ[1] الطرق بزحامهم . وتراكوا بعضٌ على بعض ؛ فهلك منهم عوالم . وأخذهم سكان الجبال من البربر بالنّهب من كل ناحية ، وقد غشيهم الليل ؛ فتركوا أزودتهم ورحالهم . وخلص السلطانُ ومن خلصَ منهم بعدَ عصبِ الرّيقِ[2] ، وأصبحوا على منجاة . وقذفت بهم الطُّرقُ من كل ناحيةٍ الى تلمسان ؛ وكان السلطان أبو حمّو قد بلغه خروجي من بجاية ، وما أحدثه السلطان بعدي في أخي وأهلي ومُخلّفي ؛ فكتبَ إليّ يستقدِمُني قبلَ هذه الواقعة . وكانت الأمورُ قد اشتبهتْ ؛ فتفاديتُ بالأعذار ، وأقمتُ بأحياء يعقوبَ بن عليّ ، ثم ارتحلتُ الى بسكرة؛ فأقمتُ بها عند أميرها أحمد بن يوسفَ بن مزنى . فلما وصل السلطان ابو حمو الى تلمسان ، وقد جزع للواقعة ، اخذَ في استئلاف قبائل رياح ، ليُجلبَ بهم مع عساكره على اوطان

---

(٢) كذا بالأصول ويريد اكتظت بالظاء .

(٣) عصبَ الريق بفيه : اذا يبس عليه .

بِجَاية ؛ وخاطبني في ذلك لقُرب عهْدي باستتباعهم ، ومُلك زمامهم، ورأى ان يُعوِّلَ عليَّ في ذلك ، واستدعاني لحجابته وعلامته ، وكتب بخطِّه مُدرَجةً في الكتاب نصُّها :

« الحمد لله على ما أنعم ، والشكر لله على ما وهب ، ليَعْلَم الفقيهُ المكرَّم ابو زيد عبدُ الرحمن بن خلدون ، حفظه الله ، على أنّك تصلُ الى مقامنا الكريم ، لما اختصصنا كم به من الرُّتبة المَنيعَة ، والمنزلة الرفيعة ، وهو قلمُ خلافتنا ، والانتظامُ في سِلْك أوليائنا ، أعلمنا كم بذلك . وكتبَ بخطِّ يده عبدُ الله ، المتوكل على الله ، موسى بن يوسف لطفَ الله به وخارَ له » .

وبعدَه بخط الكاتب ما نَصُّه : بتاريخ السَّابعَ عشَر من رجب الفرد الذي من عام تسعةٍ وستّين وسبعمائة عرَّفنا اللهُ خيرَه .

ونَصُّ الكتاب الذى هذه مُدرَجتُه ، وهو بخط الكاتب :
« أكرمكم الله يا فقيهُ ابا زيد ، ووالى رعايتكم . إنّا قد ثبتَ عندنا ، وصحَّ لدينا ما انطويتُم عليه من المحبة في مقامنا ، والانقطاع الى جَنابنا ، والتشيُّع قديماً وحديثاً لنا ، مع ما نعلمه من محاسنَ اشتملت عليها أوصافكُم ، ومعارفَ فقْتُم فيها نُظَراءكم ، ورُسوخ قدَم في الفنون العِلْميَّة والآداب العَربيَّة .

وكانت خطَّة الحِجابة ببابنا العليّ ـ اسماه الله ـ اكبرَ درجات امثالكم ، وارفعَ الخطط لنظرائكم ؛ قُرباً منَّا ، واختصاصاً بمقامنا ، واطِّلاعاً على خفَايا اسرارنا . آثرناكم بها إيثاراً ، وقدَّمناكم لها اصطفاءً واختيارا ؛ فاعملوا على الوصول الى بابنا العليّ ، اسماه الله ، لما لكم فيه من التَّنويه ، والقدر النَّبيه ، حاجباً لعليّ بابنا ، ومستودَعاً لأسرارنا ، وصاحبَ الكريمة عَلامتنا ، الى ما يشاكل ذلك من الانعام العميم ، والخير الجسيم ، والاعتناء والتَّكريم . لا يشاركُكم مشاركٌ في ذلك ولله يزاحمكم احد ، وان وُجِد من امثالك فاعلموه ، وعوِّلوا عليه ، والا تعالى يتولاكم ، ويصل سرّاءَكم ، ويوالي احتِفاءَكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ».

وتأدَّت إليَّ هذهُ الكتب السُّلطانية على يَد سَفير من وُزرائه ؛ جاء الى اشياخ الدَّوَاودة في هذا الغَرَض ؛ فقمت له في ذلك احسَن مَقَام ، وشايعتُه احسَنَ مُشَايعه ، وحملتُهم على إجابة داعي السلطان ، والبِدار الى خدمته . وانحرف كبراؤهم عن خدمة السلطان ابي العبَّاس الى خدمته ، والاعتِمال في مذاهبه ، واستَقام غَرضُه من ذلك ؛ وكان اخي يَحْيى قد خلصَ من اعتقالِه ببُونَة ، وقدِم عليَّ ببَسْكرة ، فبعثتُه الى السلطان ابي حمو كالنَّائب عَنِّي في الوظيفة ، متفاديا عن تجَشُّم اهوالها ، بما كنتُ نزَعتُ عن غواية الرُّتب . وطالَ عليَّ

إغفالُ العِلم ؛ فأعرضتُ عن الخوض في احوال المُلُوك ، وبعثتُ الهمة على المطالعة والتَّدْرِيس ؛ فوَصلَ إليه الأخ ، فاستكفى به في ذلك ، ودَفَعه إليْه .

وَوَصلني مع هذه الكتب السلطانية كتابُ رسالة من الوزير ابي عبد الله بن الخطيب من غَرْناطةَ يتشوّق إليّ ، وتأدّى الى تِلِمْسان على يد سفراء السلطان ابنِ الأحمر ؛ فبعثَ إليّ به مِن هُنالك ونَصُّه :

بنَفْسي وَما نفْسي عليّ بَهيِّنَةٍ ... فيُنْزِلَني عَنها المِكاس[1] بأثمان

حَبِيبٌ نَأى عنّي وصُمَّ لِأنّتِي ... وراشَ[2] سهَامَ البَيْنِ عمداً فأصْمَاني[3]

وقد كانهمُّ الشَّيب - لاكانَ - كافيا ... فقد ادّني[4] لمّا ترحّل همّانِ

شرعتُ له مِنْ دَمع عيني مَوَارداً ... فكدَّر شِرْبِي بالفِراق واظماني

وارعيْتُهُ من حُسْنِ عهدي جَمِيمَهُ[5] ... فأجدبَ آمالي وأوحشَ ازْمَانى

حلفتُ على ما عِندَه لِيَ من رِضى ... قياساً بما عِندي فأحنثَ أيماني

وإنّي على ما نالني منه من قِلى ... لأشتاقُ من لُقياه نُغْبَةَ[6] ظمْآنِ

(١) المكاس : المماكسة ، والمشاحة في الثمن عند التبايع .
(٢) راش السهم : ألصق به الريش .
(٣) أصمى الصيد : رماه فقتله في مكانه .
(٤) أدني هيان : دهاني هيان .
(٥) الجميم ، والجم : الكثير من كل شيء ، والنبت الذي طال حتى صار مثل جمة الشعر .
(٦) النغبة (بضم النون وفتحها) : الجرعة من الماء .

سألت جنوني فيه تقريب عرشه فتمت بجن الشوق جن سليمان
إذا ما دعا داع من القوم باسمه وثبت وما استثبت شيمة هيمان
وتالله ما أصغيت فيه لعاذل تحاميته حتى ارعوى وتحاماني
ولا استشعرت نفسي برحمة عابد تظلل يوما مثله عبد رحمان
ولا شعرت من قبله بتشوق تخلل منها بين روح وجثمان

اما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج ، واما الصبر فاسأل به أية درج ، بعد ان تجاوز اللوى[1] والمنعرج[2] ، لكن الشدة تعشق الفرج ، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج ؛ وأنى بالصبر على إبر الدبر[3] ، لا. بل الضرب الهبر[4] ، ومطاولة اليوم والشهر ، تحت حكم القهر ؛ ومن للعين ان تسلو سلو المقصر ، عن إنسانها المبصر ، او تذهل ذهول الزاهد ، عن سرها الرائي والمشاهد ، وفي الجسد بضعة يصلح إذا صلحت ، فكيف حاله إن رحلت عنه وإن نزحت ؛ وإذا كان الفراق ، هو الحمام الأول ، فعلام المعول ، أعيت مراوضة الفراق ، عمل الراق ، وكادت لوعة الاشتياق ، ان تفضي الى السياق[5] .

(١) اللوى : ما التوى من الرمل ، ومسترق الرمل .
(٢) المنعرج : المنعطف .
(٣) الدبر ، بالفتح ويكسر : الزنابير .
(٤) الضرب الهبر : الذي يلقي قطعة من اللحم ، وهو وصف بالمصدر .
(٥) ساق المريض : شرع في نزع الروح .

تركتموني بعدَ تشييعكم أوسعُ امر الصبر عِصيانا
اقرعُ سِنّي ندماً تارةً واستميحُ الدمع احيانا

وربّما تعللتُ بغشيان المعاهد الخالية ، وجدّدتُ رُسوم الأسى بمُباكرة الرّسوم البالية ، اسألنونَ النُّؤى[1] عن أهليه ، وميمَ الموْقِد المهجور عن مُصطَليه ، وثاءَ الأثافيّ[2] المثلّثة عن منازل الموحّدين ، واحارُ وبين تلك الأطلال حيرةَ المُلحدين ، لقد ضللتُ إذاً وما أنا من المُهتدين ؛ كلِفتُ لعَمرُ الله بسَالٍ[3] عن جفوني المؤرّقة ، ونائمٍ عن هُمومي المتجمّعة والمتفرّقة . ظعَن عن مَلال ، لامتبرّماً مِنا بشرّ خِلال ، وكدّر الوصلَ بعد صفائه ، وضرّج النّصل بعد عهدِ وفائه .

أقِلّ اشتياقاً أيها القلبُ إنّما رأيتُك تُصفي الوُدّ من ليسَ جازيا

فها أنا أبكي عليه بدَم أسَالَه ، وأندُب في رَبْع الفِراق آسى لَه[4] ، واشكو إليه حالَ قلبٍ صدَعه ، وأودَعه من الوَجْد ما أودَعَه ، لما خدَعه ، ثم قلاهُ ووَدّعه ، وأنشِقُ ريّاهُ أنفَ ارتياح قد جدَعَه ، وأستعديه على ظلم ابتدَعَه .

(١) النؤى : الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع عنها السيل .
(٢) الأثافي : احجار توضع عليها القدر ، واحدها أثفية .
(٣) سال : ناس .
(٤) آسى له : أحزن له .

خليليّ فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلاً بكى من حبّ قاتله قبلي[1]

فلولا عسى الرجاء ولعلّه، لا بل شفاعة المحلّ الذي حلّه، لنشرت ألوية العتب، وبثّت كتائبها، كمناء في شعاب الكتب، تهزّ من الألفات رماحاً خزر الأسنّة[2] وتوتّر من النونات أمثال القسيّ المرنّة وتقود من مجموع الطرس[3] والنقس[4] بلقاً[5] تردي[6] في الأعنّة، ولكنّه آوى إلى الحرم الأمين، وتفيّأ ظلال الجوار المؤمّن من معرّة الغوار عن الشمال واليمين، حرم الحلال المزنيّة، والظلال اليزنيّة؛ والهمم السنيّة، والشيم التي لا ترضى بالدون ولا بالدنيّة، حيث الرفد الممنوح، والطير الميامين يزجر[7] لها السنوح[8] والمثوى الذي إليه، مهما تقارع[9] الكرام على الضيفان[10]، حول جوابي الجفان[11] فهو الجنوح.

(١) البيت لجميل بن عبد الله بن معمر العذري . الأغاني بولاق ٥١/١ .

(٢) يقال : هم خزر العيون : أي ينظرون نظرة العداوة ، وعدو أخزر العين : ينظر عن معارضة . وقد أسند ذلك الى الرماح تجوزاً .

(٣) الطرس (بالكسر) : الصحيفة .

(٤) النقس : المداد .

(٥) جمع أبلق ؛ وهو الفرس الذي لونه سواد وبياض .

(٦) الردي : حركة الفرس بين العدو والمشي .

(٧) زجر الطير : تفاءل به .

(٨) سنح الطائر سنوحا : جرى على يمينك الى يسارك ، والعرب تتيامن بذلك .

(٩) تقارع الكرام : ساهموا .

(١٠) الضيفان : جمع ضيف .

(١١) الجوابي : جمع جابية ؛ وهي الحوض يجبى فيه الماء للابل . والجفان : جمع جفنة ؛ وهي أعظم مايكون من القصاع . وابن الخطيب يشير الى آية : « وجفان كالجوابي » آية ٣٤ من سورة الرعد .

نَسَبٌ كأنَّ عليه من شَمْسِ الضُّحى ... نوراً ومن فَلقَ الصَّباح عمودا

ومن حلَّ بتلك المَثابة فقد اطمأنّ جنبه ، وتُغُمِّد بالعفو ذنبه
ولله درُّ القائل :

فوحقِّه لقد انتُدبتُ لوصفِه ... بالبُخل لو لاَ أنّ حِمْصاً دارُهُ
بلدٌ متى أذكرْهُ تهتَجْ لوعتي ... وإذا قدحتَ الزَّندَ[1] طارَ شرارُه

اللهم غفْرا ، وأينَ قرارةُ النَّخيل[2] ، من مثْوى الأقلف[3] البَخيل ، ومكذبةِ المُخيل[4] ؛ واين ثانية هجَر[5] ، من مُتبوَّأ مَن أَلحَدَ وفجَر .

مَن أنكرَ غيثاً مَنشَؤُهُ ... في الأرض يَنوءُ بمُخْلِفِهَا
فَبنانُ بني مَزْنى مُزَنٌ ... تنهَلُّ بلُطْفِ مصرِّفِهَا
مُزَنٌ مذ حلَّ ببَسْكَرَةٍ ... يَوماً نطَقت بمُصحَّفِهَا[6]
شَكَرتْ حتَى بِعبَارِتِها ... وبِمَعْنَاها وبِأحْرُفِهَا

(١) قدح الزند : رام الايراء به .
(٢) يريد بسكرة لأنها كانت تسمى بسكرة النخيل لكثرة مابها منه .
(٣) الأقلف : الذي لم يختن ، يريد انه لايقاس بلد عربي اهله كرام ببلد عجمي اهله بخلاء
وفي نسخة : الألف اي العي اللسان الذي لايحسن ان يتكلم .
(٤) يقول : ان هذا البلد يكذب ظن من خاله لأن ساكنيه بخلاء .
(٥) بلد بالبحرين معروف ، ويأتي الحديث عنه .
(٦) ذلك لان تصحيف « بسكرة » : « تشكره » .

ضَحِكت بأَبي العبَّاس من الْـ ... أيام ثَنَايا زُخْرُفِهَا
وتنكَّرت الدُّنيا حتَّى ... عُرِفت منه بِمُعَرَّفِهَا

بل نَقول : يا محلّ الوَلَد ، « لاأُقسِم بهذا البَلد ، وأنتَ حِلٌّ بهذا البَلد » ، لقد حلَّ بِيْنُكَ عرى الجَلد[1] ، وخلد[2] الشَّوقُ بعدَكَ يا بنَ خلدُون في الصَّميم من الخَلَد[3] ؛ فحيَّا الله زماناً شُفِيتْ في قُربك زَمانَتُه[4] ، واجتُلِيتْ في صدَف مجدِكَ جُمانتُه[5] ، وقُضِيَتْ في مَرعى خُلَّتِك لُبانتُه[6] ؛ وأهلاً بِروْضٍ أظلَّتْ أَشتاتَ معارفكَ بَانَتُه ؛ فحمَائمه بعدَكَ تَندُب ، فيُساعِدُها الجُندُب[7] ، ونَوَاسمُه تَرِقُّ فتَتَغاشَى ، وعَشيَّاته تتَخافتُ وتتَلاشَى[8] ، وأَدْواحه في ارتِباكٍ ، وحمائمه في مأتَم ذي اشتِباكٍ ؛ كأن لم تكن قمرَ هالاتِ قِبابه ، ولم يكن أُنسُك شارِعَ بابه[9] ، الى صفوة الظَّرف ولُبابه ، ولم

(١) الجلد (بفتح اللام) : الصبر .
(٢) خلد : دام .
(٣) الخلد (بفتح اللام) : القلب .
(٤) الزمانة : العاهة .
(٥) الجمانة اللؤلؤة .
(٦) اللبانة : الحاجة .
(٧) الجندب : الجراد .
(٨) تلاشى الشيء : اضمحل . تاج العروس (لشا) و (لش) . والتلاشي ،بمعنى الاضمحلال عامي لم يرد عن العرب .
(٩) باب شارع الى كذا : مفتوح ونافذ اليه ؛ يريد ان انسك كان يشمل الناس جميعا من غير تخصيص .

يَسبَح إنسان عَيْنك في مـاء شبابـه ؛ فلهفي عليك [١] مـن دُرَّة اختَلَستْها يدُ النَّوَى [٢] ، ومَطَل [٣] بردِها الدَّهر ولَوَى [٤] ، ونعق الغُراب بِبَيْنِها في رُبوع الهَوَى ، ونطَقَ بالزَّجر [٥] فما نَطَق عن الهوى ؛ وبأيِ شيء يُعتاضُ منك أيتُها الرّياض ، بَعْد أن طما نَهرُكَ الفَيَّاض ، وَفهقَت [٦] الحِيـاض ؛ ولا كان الشَّـاني [٧] المَشْنوءُ [٨] والجَرِب [٩] المَهْنوء [١٠] ؛ من قِطْع لَيلٍ أغار على الصُّبح فـاحتَمَل ، وشارَكَ في الذَّمِ الناقة والجَمَل ، واستأثَرَ جُنحـُه ببَدر النادي لمَّا كَمَل ؛ نَشَر الشِّراع فَرَاع ، وواصل الاسراع . فكأنَّمَا هو تمساح النِّيل ضايَقَ الأَحباب في البُرْهة ، واختَطَفَ لهم من الشَّط نُزْهة العيْن وعَيْن النُزْهة؛ ولَّجج [١١] بها والعُيون تَنظُر ، والغَمْرُ [١٢] عن الاتباع يَحظُر ؛

(١) لهفي : حزني وحسرتي .
(٢) النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد ؛ وهي مؤنثة .
(٣) مطل الدهر : سوّف .
(٤) لوى بالدّين : تأخر عن أدائه .
(٥) الزجر : التيمن بسنوح الطير ، والتشاؤم ببروحه .
(٦) فهقت : امتلأت .
(٧) الشاني ، ويقـال شيني وشونة : المركب المعد للجهاد في البحر ، والجمع شواني تاج العروس (شون) .
(٨) المشنوء : المبغض .
(٩) الجرب : المصاب بالجرب .
(١٠) المهنوء : الجمل يدهن بالهناء وهو القطران .
(١١) لججت السفينة : خاضت اللجة .
(١٢) الغمر : الماء الكثير .

فلم يُقْدَر إلّا على الأَسف، والتياح الأَثر المنْتَسَف[1] والرّجوع بمِلْءِ العَيبة من الخَيْبة، ووَقْر الجَسْرة[2] من الحَسْرة إنما نَشكو الى الله البَثّ والحُزْن، ونَسْتَمطِر من عَبراتنا المُزْن[3]، وبِسَيْف الرَّجاء نَصُول، وإذا أُشرِعت لليأس أسِنَّة ونُصُول.

ما أَقدرَ اللهَ أن يُدْنِي على شَحَطٍ[4]
مَن دارُهُ الحَزْنُ[5] ممَّنْ دارُهُ صُولُ[6]

فإن كان كَلْم[7] الفراق رَغيبا[8]، لمَّا نويتَ مَغيبا، وجلَّت الوَقت الهنيّ تشغيبا[9]، فلعلّ المُلتقَى يكون قريبا، وحديثه يُروَى صحيحا غريبا. إيهٍ سَيّدي! كيفَ حالُ تلك الشَّمائل، المُزْهرة الخمائل، والشِّيَم، الهَامِيَة الدِّيَم؟ هل يَمُرُّ ببالها مَن راعَت بالبُعْد بالَه، وأخمَدت بعاصِف البَيْن ذُبالَه؟ أو ترْثي لِشئونٍ شأنُها

(١) المنتسف: المستأصل.
(٢) الجسرة: الناقة.
(٣) المزن: السحاب.
(٤) الشحط: البعد.
(٥) يريد حزن بني يربوع، وهو قرب «فيد» في جهة الكوفة: من اجل مرابع العرب. وورد ذكره كثيراً في شعرهم. ياقوت ٣/٢٧٠.
(٦) صول (بضم الصاد): مدينة في بلاد الخزر في نواحي باب الابواب، وهو الدربند. والبيت الذي ذكره ابن الخطيب لحندج المري في جملة ابيات أوردها ياقوت ٣/٤٣٥.
(٧) الكلم: الجرح.
(٨) رغيبا: مرغوبا فيه.
(٩) التشغيب: تهييج الشر.

سَكْبٌ لا يَفْتُرُ ، وشوقٌ يَبُتُّ حِبال الصَّبْرِ ويبْتُرُ ، وضَنًى تقصُرُ عن حُلَلِهِ الفاقِعةَ صَنْعَاءُ[1] وتُسْتَرُ[2] ، والأمرُ أعظمُ واللهُ يَسْتُرُ ؛ ومَا الذي يضِيرُكَ ، صِينَ من لَفْحِ السَّمُومِ[3] نَضِيرُكَ[4] ، بعد أن أضرَمْتَ وأشعَلْتَ ، وأوقدتَ وجعَلْتَ ، وفعلتَ فعْلَتَكَ التي فعلْتَ ، أن تترفَّق بذَماءٍ[5] ، أو تَرُدَّ بنُغْبةِ ماءٍ[6] ، أرماقَ[7] ظِمَاءٍ[8] ، وتتَعاهدَ المعَاهِدَ بتحيَّةٍ يُشَمُّ عليها شَذا أنفاسك ، أو تَنظرَ إلينا – على البُعد – بمُقلة حَوراءَ من بَياضِ قِرطاسِك ، وسوادِ أنقاسِك[9] ، فربَّما قنِعت الأنفسُ المُحِبَّةُ بخيالٍ زُورٍ ، وتعلَّلت بنَوالٍ مَنزُورٍ[10] ، ورضِيت ، لمَّا لم تَصِد العنقاءَ ، بِزُرْزُورٍ .

---

(١) صنعاء يريد بها صنعاء اليمن ؛ لأنها العظمى والمشهورة ، ومنها كانت تجلب البرود . ياقوت ٥/٣٨٦ – ٣٩٤ . تاج ٥/٤٢١ .

(٢) تستر : مدينة بخوزستان من كور الأهواز ، فتحها أبو موسى الأشعري في خلافة عمر ، وكانت بها مصانع للثياب والعمائم شهيرة . ضبطها ابن خلدون ، بالحركات ، بفتح التاء الأولى ؛ وضم الثانية ، وبينهما سين ساكنة ، ولعله راعى في ذلك السجع . والمعروف أنها بضم التاء الأولى وفتح الثانية . وفيات الأعيان ١/٢٧٣ ، وياقوت ٢/٣٧٧ .

(٣) اللفح : الإحراق ، والسموم (بالفتح) : الريح الحارة .

(٤) نضيرك : وجهك الحسن .

(٥) الذماء (بالفتح والمد) : بقية الروح .

(٦) نغبة ماء : جرعة ماء .

(٧) جمع رمق ؛ وهو بقية الروح .

(٨) جمع ظمىء (بكسر الميم) ؛ وهو الذي اشتد عطشه .

(٩) جمع نقس ؛ وهو المداد .

(١٠) النوال المنزور ، كالنزر : القليل .

يا مَن تَرَحّلَ والرِّياحُ لِأجلِهِ يُشتاقُ إن هَبَّتْ شَذا رَيَّاها
تَحْيَا النفوسُ اذا بعثْتَ تَحِيةً واذا عَزمتَ اقْرأْ «وَمن أَحْيَاها»[1]

ولئِن أحيَيْتَ بها فِيما سَلَف نفوسا تَنْديك، واللهُ الى الخَيْر ايهديك، فنحن نَقُولُ مَعشَرَ مُوادِّيك: «ثَنِّي ولا تجعلِيها بَيضَة لَدِّيك»[2]؛ وعُذرا فإِنِّي لم اجترِيء على خِطابِك بالفِقْر الفَقِيرة، وادللتُ لَدَى حجُراتِك برَفْع العَقِيرَة، عن نشاطٍ بعثتُ مرموسَه[3]، ولا اغتباط بالادب تغري بسياسته سوسة، وانبساطٍ أوحى إليَّ على الفَتْرة ناموسه؛ وإنما هو اتفاق جرَّته نفْثَة المَصْدور[4] وهِناء[5] الجرِب[6] المجْدور[7]؛ وإن تعلَّل به مُخارق، فثَمَّ قِياس فارق، أو لحنٌ غَنَّى به بعد البُعد مُخارق[8]؛ والذي هيَّأ هذا القدرَ وسبَّبه،

(١) يشير الى الآية (٣٢) من سورة المائدة.
(٢) عجز بيت لبشار بن برد، وصدره:
قد زرتنا زورة في النوم واحدة • ثني .... الخ
وبيضة الديك: مثل يضرب للشيء يكون مرة واحدة لا ثانية لها، وللذي يعطي عطاء ثم لا يعود. مجمع الأمثال ٢/٥٣، أمالي القالي ١/٢٢٥.
(٣) المرموس: المدفون.
(٤) النفث: النفخ لا ريق معه. والمصدور: من به علة في صدره.
(٥) الهناء، ككتاب: القطران.
(٦) الجرب: المصاب بداء الجرب.
(٧) المجدور: الذي أصابه داء الجدري.
(٨) هو مخارق بن يحيى بن ناوس الجزار، مولى الرشيد يكنى أبا المهنأ؛ مغن مشهور أغاني ليدن ٢١/٢٢٠–٢٩٤. ومخارق الاولى بمعنى الاحمق المشاكس.

وسهّل المكروهَ إليّ منه وحبّبه ، ماقتضاه الصِّنوُ يحْيى - مدّ الله حياته ، وحرس من الحوادث ذاته ، - من خطابٍ ارتشَف به لهذه القريحة بُلالتها [١] ، بعد ان رَضيَ عُلالتها [٢] ، ورشَح إلى الصِّهْرِ الحضْرميِّ سُلالتها [٣] ؛ فلم يسع إلا إسعافه ، بما اعافه ؛ فأمليتُ مُجيبا ، مالا يعدُّ في يوم الرِّهان [٤] نجيبا [٥] ، وأسمعتُه وجيبا لمّا ساجلتُ بهذه التُّرَّهات [٦] سِحْراً عجيبا ؛ حتّى إذا ألف القَلم العُريان [٧] سَبْحَه [٨] ، وجمح بِرْذونُ الغزارة فلم أطق كَبْحه [٩] ، لم أفق من غمرة غُلُوِّه وموقفِ متْلوِّه ، الا وقد تحيَّز الى فِئتك ، معترّا بل معترّا [١٠] ، واستقبلها ضاحكا مُفترّا [١١] ، وهشّ لها برّا ، وإن كان من الخجَل مُصفرّا ؛ وليس بأول من هجَر [١٢] ، في التِماس

(١) البلالة : البلل ، وبقية الشيء .
(٢) العلالة : ما يتعلل به ، وبقية الشيء .
(٣) السلالة : الولد .
(٤) الرهان : المسابقة على الخيل وغيرها .
(٥) النجيب ، من الإبل وغيرها : الكريم الحسيب .
(٦) الترهات : أصلها الطرق الصغار غير الجادة ؛ ثم استعيرت للأباطيل والأقاويل الخالية من الطائل .
(٧) يريد أنه متجرد مما يعوقه عن الجري .
(٨) السبح : الجري .
(٩) كبح الفرس وغيره : منعه من سرعة السير .
(١٠) المعتر : الفقير ، والمعترض للمعروف من غير أن يسأل .
(١١) المفتر : الذي يضحك ضحكاً حسناً ؛ يبدي أسنانه من غير قهقهة .
(١٢) هجر : هذى في كلامه وخلط .

الوَصْل ممَّـن هَجر [١] او بعث التَّمْر الى هَجَـر [٢] ؛ واي ٌّ نسَب بيْني اليوم وبين زُخْرُف الكلام ، واجالة جِياد الأقلام ، في مُحاورة الأعلام ؛ بعد ان حال الجريض [٣] ، دون القريض ، وشُغل المريض عن التَّعرِيض ؛ [٤] وغَلب حتَّى الكَسَل ، ونصلت الشَّعرات البيضُ كأنها الأَسـل ؛ تَرُوع برُقْطِ [٥] الحَيَّات ، سِرْب الحيـاة [٦] ، وتَطرُق بذوات الغُرر والشِّيات ، عند البيات [٧] ؛ والشَّيبُ المَوت العَاجل ، واذا أُبيضَّ زرع صبَّحته المَناجل ، والمُعتَبَر الآجل ؛ واذا اشتغل الشَّيخُ بغير مَعادِه ، حُكِم في الظاهر بابعاده وأسره في ملكة عاده ؛ فاغـْضِ ابقـاك الله واسمَـح ، لمن قصَّر عن المَطْمَح ، وبالعين الكليلة فالمْـح ؛ واغتَنِم لِباس ثوب الثَّـواب ، واشفِ بعض الجوى

(١) من الهجر ضد الوصل .

(٢) هجر : بلد بالبحرين ؛ وفيها ورد المثل الذي يشير اليه ابن الخطيب : « كجالب التمر الى هجر » ، أو « كمبضع التمر الى هجر » . مجمع الأمثال ٦٦/٢ .

(٣) الجريض : من الجرض ، وهو الريق يغص به . والقريض : الشعر . وحـال : منع . وهو مثل يضرب للأمر كان مقدوراً عليه ، فحال دون القدرة عليه مانع . وفي معنى المثل خلاف تجده في التاج ، واللسان ، (جرض) مجمع الأمثال ١٣٩/١ .

(٤) التعريض : اطعـام العراضة ؛ وهي الهدية يهديها القادم من سفر وكأنه يريد أن المريض قد شغله مرضه عن الالتفات لهذا .

(٥) جمع رقطاء ؛ وهي الحية في لونها سواد وبياض .

(٦) وقف على « الحياة » بالتاء مراعاة للسجع . وهي لغة جائزة وان كانت غير راجحة ، وقد تحدثوا عنها في باب « الوقف » من كتب النحو .

(٧) جمع غرة ؛ وهي البياض في جبهة الفرس . والشيات : جمع شية ؛ وهي سواد في بياض ، أو بياض في سواد ، والبيات : الايقاع بالعدو ليلا ، من غير أن يعلم فيؤخذ غرة . والكلام على تشبيه الشعرات البيض بأفراس في لونها سواد وبياض .

بالجواب .

تولاَّك الله فيما استضفتَ وملكت ، ولا بعُدتَ ولا هلكت ، وكان لك أيةً سلكْت ؛ ووسمك في السَّعادة بأوضح السِّمات ، وأتاح لقاءك من قبْل الممات ؛ والسَّلامُ الكريم يعْتَمد حلال[1] ولدي ، وساكن خلدي ، بل اخي وإن اتَّقَيْتُ عَتْبَه[2] وسيّدي ، ورحمةُ الله وبركاته ؛ من مُحبِّه المُشتاق اليه محمد بن عبدالله بن الخطيب ، في الرَّابع عشر من شهر ربيع الثاني ، من عام سبعين وسبعمائة .

وكان تقدَّم منه قبل هذه الرسالة كتابٌ آخر اليَّ ، بعَث به الى تِلِمْسان ، فتأخر وُصوله ، حتى بعَث به الأخُ يحْيى عند وفادته على السلطان ، ونصُّ الكتاب :

يا سيدي إجلالاً واعْتِدادا ، واخي وُدّاً واعتقادا ، ومحلَّ ولدي شفَقَةً سكنت مني فؤادا . طال علي انقطاعُ انبائك ، واختفاء اخبارك ؛ فرجَوتُ ان تُبلِّغَ النيةُ هذا المكتوبَ اليْك ، وتخترق به الموانعَ دونك ؛ وإن كنتُ في مُباثَّتك كالعاطش الذي لا يَروْى ، والآكل الذي لا يشبَع ، شأنُ من تجاوَزَ الحدودَ الطَّبيعية ، والعوائدَ المألوفة ؛ فأنا الآن ــ بعد إنهاء التحية المطلولة الرَّوض بماء الدُّموع ،

(١) الحلال ، جمع : بيوت الناس ، واحدتها حلة .
(٢) العتب . لومك انسانا على اساءة كانت له اليك .

وتقرير الشَّوق اللَّزِيم [١]، وشكوى البِعاد الأليم، وسُؤال إنَاحةِ القُرب قبلَ الفَوْت من الله مُيسِّر العَسير، ومُقَرِّب البعيد، - أسأل عن أحوالك سُؤال أبعدِ النـاس مِحالا [٢] في مَجال الخُلوص لك، وأشدِّهم حِرصاً على اتِّصال سعادتك؛ وقد اتَّصل بي في هذه الأيام ما يَجري به القَدَر من تَنْويع الحال لديْك، واستقرارك ببَسْكَرَةَ مَحَلِّ الغِبْطة بك، باللجأ الى تلك الرِّياسة الزَّكية، الكريمة الأب، الشَّهيرة الفَضْل، المعروفة القَدْر على البُعْد؛ حَرَسَها الله ملجأ للفُضَلاء، ومُخَيَّماً لرجال العَلْياء، ومهبّاً لطيب الثناء، بحَوْله وقوّته؛ وما كل وقتٍ تُتاح فيه السَّلامة؛ فاحمَدوا الله على الخلاص، وقارِبوا [٣] في معاملة الآمال، وضَنُّوا [٤] بتلك الذّات الفاضلة عن المشاقِّ، وابخَلوا بها عن المَتالف؛ فمطلوب الحريص على الدُّنيا خسيس، والموانعُ الحافّة جَمّة، والحاصل حَسْرة، وبأقلِّ السَّعي تَحصل حالةُ العافية، والعاقِل لا يَستَنكِحه الاستِغراق فيما آخِرُه الموَت، إنّما ينالُ منه الضَّروري؛ ومثلُك لا يُعجزه - مع التماس العافية - أضعافُ ما يُزَجِّي [٥] به العُمْر من المأكل والمَشْرَب، وحسْبُنا الله.

---

(١) اللزيم . الكثير اللزوم .
(٢) كذا وفي نسخة . مجال والمحال بالكسر . التدبير، وعلى رواية ، « مجال » تكون مصدرا ، والمجال الثاني . مكان الجولان .
(٣) اقتصدوا ، واتركوا الغلو .
(٤) ضنوا . ابخلوا .
(٥) يزجي : يتبلغ بالقوت القليل ، ويجتزيء به .

وان تَشَوَّفَتْ لحالِ المُحِبِّ تلك السِّيادةُ الفذة ، والبُنُوَّة البَرَّة ؛ فالحالُ الحالُ ، من جعل الزِّمام بيَد القَدر ، والسير في مَهْيَع الغَفْلة ، والسَّبْح في تَيَّار الشواغل؛ ومن وراء الامور غَيْبٌ محجوبٌ ، وأملٌ مكتُوبٌ ، نُؤمِّل فيه عادةَ السَّتْر من الله ؛ الا أن الضَّجَر الذي تعلَمُونه ، خَفَّضه اليأس لمَّا عَجزت الحِيلة ، وأعوَز المَناص [1] وسُدَّت المذاهب ؛ والشأنُ اليومَ شأن الناس فيما يقرُب من الاعتدال.

وفيما يرجع الى السلطان _ تولاَّه الله _ ، على أضعاف ما باشر سيِّدي من الاغْياء [2] في البِرِّ ووَصْل سبَب الالتحام ، والاشتمال ، مع الاستقلال ، وما يُنتِجُه مُتعَوَّد الظهور ، والحمد لله .

وفيما يرجع الى الأحباب والأولاد ، فعلى ما عَلمت ؛ الا ان الشَّوق مُخامر القلوب ، وتَصوُّر اللِّقاء مما يُزهِّد في الوَطن وحاضر النِّعَم . سنَّى [3] الله ذلك على افضل حال ، ويسَّره قبل الارتحال ، عن دار المِحال [4] .

وفيما يرجع الى الوطن ؛ فأحلامُ النائم خِصْباً ، وهُدنة وظهُوراً على العدوِّ ؛ وحَسبُك بافتتاح حِصن آشَر ، وبُرغُه القاطعة بين بلاد

(١) المناص : المهرب ، والملجأ ، والمفر .
(٢) أغيا الرجل : بلغ الغاية في الشرف .
(٣) سنى : سهل .
(٤) المحال . العذاب ، والهلاك .

الاسلام ، ووَبْـذَة ، والعارين وبيغُه وحِصن السَّهْلَة ، في عام ؛ ثم دخول بلد إِطْريرَة بِنت إشبِيلِيَّة عَنْوةً ، والاستيلاء على ما يُناهِزُ خمسة آلاف من السِّبي ؛ ثم فتح دار المُلك ، وَلِدَة قُرطبة : مدينة جَيَّان عَنْوةً في اليوم الأغرِّ المحجَّل ، وقتل المُقاتِلة ، وسَبْي الذُّرِيَّة ، وتعفِية الآثار حتى لا يُلِمَّ بها العُمْران ؛ ثم افتتاح مدينة أُبَّدَة التي تلفُّ جَيَّان في مُلاءَتها : دار التَّجْر ، والرَّفاهِية ، والبُنى الحافلة ، والنِّعَم الثَّرَّة ؛ نسأل الله — جَلَّ وعَلا — ان يصل عوائدَ نَصْره ، ولا يقطَع عنَّا سبب رحمته ، وان ينفع بما اعان عليه من السعي في ذلك والاعانة عليه .

ولم يتزيَّد من الحوادث الا ما علِمتُم ؛ من أخذ الله لنَسَمَة السُّوء ، وَخَبَثِ الارض ، المسلوب من أَثَر الخير : عُمَر بن عبدالله ، وتحكُّم شَرِّ المِيتة في نفْسه ، وإتيان النَّكال على حاشيته ، والاستِئْصال على ذاته ؛ والاضطرابُ مُستَولٍ على الوطن بعدَه ؛ الا انَّ الغَرب على عِلاَّته لا يرْجَحُه غيرُه .

والأندلس اليومَ شيخُ غُزاتها الامير عبدالرَّحمن بن علي بن السلطان ابي عليّ ، بعد وفاة الشَّيخ ابي الحسن : عليّ بن بَدر الدين رحمه الله . وقد استقرَّ بها — بعد انصراف — سيِّدي الاميرُ المذكور ، والوزير مسعود بن رَحُّو وعمر بن عثمان بن سليمان .

والسلطان ملكُ النصارى بطرُه ، قد عاد الى مُلكه بإشبيلية ، واخوه مُجلِبٌ عليه بقَشْتالة ، وقُرطبةُ مُخالفةٌ عليه ، قائمةٌ بطائفةَ من كبار النصارى الخائفين على انفُسِهم ، داعين لأخيه ؛ والمُسلِمون قد اغتنَموا هُبُوب هذه الريح . وخرَق الله لهم عوائد في باب الظُهور والخير ، لم تكن تخطُر في الآمال . وقد تلقَّب السلطان ـ أيَّده الله ـ بعَقِب هذه المُكيِّفات ، بـ « الغنيِّ بالله » وصدَرت عنه مُخاطبات ، بمُجمَل الفُتوح ومفَصَّلِها ، يعظُمُ الحرصُ على إيصالها الى تلك الفضائل لو أمكَن .

وأما ما يرجع الى ما يتشوَّف اليه ذلك الكمال من شُغل الوقت ؛ فصدرت تقاييد ، وتصانيف ، يقال فيها ـ بعدما أعمَلته تلك السيادة من الانصراف ـ يا إبراهيم ، ولا ابراهيمَ اليوم [١] .

منها : أن كتاباً رُفِع الى السلطان في المحبَّة [٢] ، من تصنيف ابن ابي حجَلة [٣] من المشارقة ، أشار الأصحابُ بمعارضته ، فعارضتُه ، وجعلتُ الموضوع اشرف ، وهو محبَّةُ الله ؛ فجاء

(١) لعله يشير الى قوله تعالى : « يا ابراهيم أعرض عن هذا » . آية ٧٦ من سورة هود .

(٢) هو ديوان الصبابة . وقد طبع بمصر سنة ١٣٠٢ هـ .

(٣) أبو العباس أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن أبي حجلة التلمساني ٧٢٥ – ٧٧٦ أديب صوفي ، كان يكثر الحط على أهل « الوحدة » ، وخصوصا ابن الفارض . وعارض جميع قصائده بقصائد نبوية ، وامتحن بسبب ذلك . الدرر الكامنة ٣٢٩/١ .

كتاباً [١] ادّعى الأصحاب غرابتَه . وقد وُجِه الى المشرق صُحبة كتاب : « تاريخ غَرناطة » ، وغيرُه من تآليفي . وتُعرِفَ تحبيسُه بخانقاه سعيد السُّعداء [٢] من مِصر ؛ وانثال الناسُ عليه ، وهو في لَطافة الأغراض ، يتكلّف اغراض المشارقة . من مُلحه :

سلّمت لِمصْرَ في الهوى من بَلدٍ — يَهديه هَواؤه لدى استِنشاقه؟
مَن يُنكرُ دعوايَ فقُل عني لهُ — تكفي امرأةُ العزيز من عُشّاقه؟

والله يرزقُ الاعانــة في انتساخـه وتوجيهه .وصـدر عني جُزءٌ سمّيْتُهُ : « الغَيرَة على أهل الحيرة » وجزء سميته : « حَملَ الجُمهور على السَّنن المَشهور » [٣] . والاكبابُ على اختصار كتاب« التّاج»[٤]

(١) يتحدث ابن الخطيب عن كتابه « روضة التعريف بالحب الشريف » ؛ وهو كتاب يقل أن يوجد نظيره بين كتب التصوف في المكتبة الاسلامية ؛ تحدث فيه عن مذاهب الصوفية ، وعن طريقة أهل « الوحدة المطلقة » ، فنسبه أعداؤه الى القول بالحلول ، فكان هذا الكتاب من أسباب محنته التي انتهت بقتله رحمه الله . ولا تزال المكتبة الاسلامية تحتفظ بنسخ من هذا الكتاب ؛ وفي المجموعة النفيسة من المخطوطات التي صورتها جامعة الدول العربية ثلاث نسخ خطية منه .

(٢) والخانقاه ، بالكاف ، وبالقاف ، وترسم « خانكه » أيضا : مسكن للصوفية المنقطعين للعبادة ، والأعمال الصالحة . وهذه الخانقاه كانت داراً للأستاذ قنبر ، أو « عنبر » أحد خدام القصر أيام الفاطميين ، وكان يلقب بسعيد السعداء .

وقد خصصها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩ للفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ، وجعل لها أوقافا ، ولذلك تعرف أيضاً بالخانقاه الصالحية ؛ وهي أول خانقاه عملت بمصر . خطط المقريزي ٤/٢٧٣ – ٢٧٥ .

(٣) ذكر هذان الكتابات في نفح الطيب ٤/٢٤٤ في عداد مؤلفات ابن الخطيب .

(٤) هو كتاب « تاج اللغة ، وصحاح العربية » ، وقد طبع ببولاق سنة ١٢٨٢ ﻫ ولم يذكر صاحب نفح الطيب هذا المختصر – الذي يتحدث عنه ابن الخطيب هنا – بين مؤلفات ابن الخطيب .

للجَوهري [1] ، وردِّ حجمه الى مقدار الخُمس ، معَ حِفظ ترتيبه السَّهْل ؛ والله المعين على مشغَلةٍ تُقطَع بها هذه البُرهةُ القريبة البِداءَة من التَّتِمَّة ، ولا حولَ ولا قوة الا بالله .

والمطلوب المُثابَرةُ على تعْريف يَصِل من تلك السِّيادة والبنُوَّة ؛ اذ لا يتعذَّر وُجود قافِلٍ من حجٍّ ، أو لاحقٍ بتلمسان . يبعثُها السَّيد الشريف مِنْها ؛ فالنَّفس شديدة التَّعطُّش ، والقُلوبُ قد بَلغت — من الشَّوق والاستِطْلاع — الحناجر . والله أسألُ أن يَصُونَ في البُعْدِ وَديعتي منك لديه ، ويُلبِسَك العافية ، ويخلِّصك واياي من الورْطة ، ويحْملنا أجمعين على الجادَّة ، ويختمَ لنا بالسَّعادة . والسَّلام الكريمُ عوْداً على بدء ، ورحمةُ الله وبركاتُه ، من المُحبِّ المتشوِّق ، الذَّاكر الدَّاعي ، ابنِ الخطيب . في الثاني من جُمادى الاولى من عام تِسعة وستِّين وسبعِمائة . انتهى .

فأجبتُه عن هذه المُخاطبات ، وتفادَيْتُ من السَّجع خشيةَ القُصور عن مُساجلتِه ، فلم يكن شأوُهُ يُلحَق . ونَصُّ الجواب :

سَيِّدي مجداً وعُلواً ، ووَاحِدي ذُخراً مرْجوّاً ، ومَحَلَّ والدي

(١) هو أبو نصر اسمعيل بن حماد الجوهري المتوفى سنة ٣٦٣ أو ٤٠٠ . شافه العرب العاربة في ديارهم بالبادية ، بعدما درس اللغة بالعراق رواية ودارية ، ثم التزم ذكر الصحيح مما سمع ، فكتب « الصحاح » . وهو لهذا كله لا يزال يتبوأ المكانة الأولى بين معاجم العربية . تاج العروس ١/٢١ ، ٢٣ .

براً وحنواً . ما زالَ الشَّوقُ ـ مذ نأت بي وبك الدار ، واستحكم بيننا البِعاد ـ يُرعِي سَمْعي أنباءك ، ويُخيِّلُ اليَّ من أيدِي الرِّياح تناولَ رسائلك ، حتَّى وَرد كتابُك العزيز على استِطلاع ، وعهدٍ غيرِ مُضاع ، وودٍ ذي أجناس وأنواع ؛ فنشر بقلبي ميت السُّلوّ ، وحشر أنواعَ المسرّات ، وقد للقائك زِنادَ الأمل ؛ ومن الله أسأل الامتاع بك قبلَ الفوت على ما يرضيك ، ويُسْنِي أمانيَّ وأمانيك . وحيَّيه تحيَّة الهائم ، لمواقع الغمائم ، والمُدلِج [1] ، للصَّباح المتبلِّج [2] وأملَّ على مُقترَح الأولياء ، خصوصاً فيك ؛ من اطمئنان الحال ، وحُسن القرار ، وذهاب الهواجس ، وسكون النَّفْرة ؛ وعُموماً في الدَّولة ، من رُسوخِ القَدم ، وهُبوبِ ريح النَّصر ، والظهور على عدوّ الله ، باستِرجاع الحُصون التى استنقذوها [3] في اعتلال الدَّولة ، وتخريب المعاقل التي هي قواعد النَّصرانيَّة ؛ غريبةٌ لا تثبُت الا في الحُلم ، وآية من آيات الله . وإنَّ خبيئة هذا الفتح في طي العُصور السَّابقة ، الى هذه المُدَّة الكريمة ، لدليلٌ على عِناية الله بتلك الذَّات الشريفة ، حينَ ظهرتْ على يدِها خوارقُ العادة ، وما تجدَّد آخر الأيام من مُعجِزات المِلة ؛ ولكُم فيها ـ والحمد لله ـ بحُسن

(١) أدلج : سار الليل كله .

(٢) تبلج الصبح : أسفر وأضاء ؛ وصبح أبلج : مشرق مضيء .

(٣) استنقذوها : أنقذوها ، وخلصوها .

التَّدبير ، ويُمْن النَّقيبة[1] ، من حَميد الأَثر ، وخالِد الذِّكر ، طِرازٌ[2] في حُلة الخِلافة النَّصْرية ، وتاجٌ في مَفْرِق الوزارة . كتبها الله لكم فيما يرضاه من عباده .

ووقفتُ عليه الأشرافَ من أهل هذا القُطْر المحروس ، وأذعتُه في المَلأ سُروراً بعزِّ الاسلام ، وإظهاراً لنعْمةِ الله ، واستطراداً لذكر الدَّولة المَوْلوية بما تستحِقُّه من طَيِّب الثَّناء ، والتماس الدُّعاء ، والحديثِ بنعمتها ، والاشادةِ بفضْلها على الدُّول السَّالِفة والخالِفة وتقَدُّمها ، فانشرحت الصُّدور حباء[3] وامتلأت القُلوب إجلالاً وتعْظيماً ، وحسُنَت الآثارُ اعتقاداً ودُعاء .

وكان كتابُ سيِّدي لشَرف تلك الدولة عُنواناً ، ولِمَا عساه يستعجِم من لُغتي في مَناقبها تُرْجماناً[4] ؛ زادَه الله من فضْله ، وأمتعَ المُسْلمين ببقائه . وبَثَّتُه[5] شكوى الغَريب ، من السَّوق المُزْعِج ، والحَيرة التي تكاد تَذهب بالنَّفس أسفاً ، للتجافي عن مِهاد الأمن ، والتَّقْويض عن دار العزِّ ، بين المولى المُنعم ، والسَّيِّد الكريم ،

(١) يقال : رجل ميمون النقيبة ؛ أي منجح الفعال ، مظفر المطالب .

(٢) الطراز : ما ينسج من الثياب للسلطان ، وعلم الثوب .

(٣) حابى الرجل حباء : نصره ، واختصه ، ومال اليه .

(٤) ترجمان : بفتح التاء والجيم ، وضم التاء والجيم ، وفتح التاء وضم الجيم .

(٥) وبثثته ؛ معطوف على قوله قبل : « وحييه تحية الهائم » . وبالأصول : « وبثته » بالادغام ؛ ولعله تحريف .

والبلد الطَّيب، والاخوان البَرَرة؛ «وَلو كنتُ أعلمِ الغيبَ لاستكثرتُ من الخير»[1]. وإن تشوَّفت السيادة الكريمة الى الحال، فعلى ما علِمتُم، سيراً مع الأمل، ومُغالبةً لِلأيام على الحظّ، وإقطاعاً للغَفْلة جانبَ العُمر.

هل نافِعي والجدُّ في صَبَبٍ مرِّي مع الآمالِ في صعَدِ

رَجع الله بنا إليه. ولعلَّ في عِظتكم النافعة، شِفاءَ هذا الدّاء العَياء إن شاء الله؛ على أنّ لُطف الله مُصاحِب، وجوارُ هذه الرياسة المزْنية – وحسبُك بها عَلَميَّة – عصمةٌ وافية[2] صرفت وجهَ القَصد الي ذَخيرتي التي كنتُ أعتدُّها منهم كما علمتم، على حِين تفاقُم الخطْب، وتلوُّن الدّهر، والافلاتِ من مَظانِّ النَّكبة، وقد رتعتُ[3] حولَها؛ بعدَ ما جرّته الحادِثة بمهْلك السلطان المرحوم على يد ابن عَمّه، قريبِه في الملك، وقسيمه في النَّسب؛ والتِياثِ الجاه[4]، وتغيُّر السلطان، واعتقالِ الأخ المخلَّف، واليأسِ منه، لولا تكييفُ الله في نَجائه[5]، والعَيْث بعده في المنزل والولَد، واغتصاب

(١) آية ١٨٨ من سورة الأعراف.
(٢) وافية: بالغة تمام الكمال.
(٣) طفت بها، ودرت حولها؛ وفي الحديث: «انه من يرتع حول الحمى يوشك أن يخالطه».
(٤) التاث: تلطخ؛ والتياث: عطف على «ما جرته».
(٥) النجاء: النجاة، وهو المصدر الممدود لنجا، والمقصور نجاة

الضِّياع(١) المُقتَناة من بقايا ما مَتَّعَت به الدولة النَّصرية ـ أبقاها الله ـ من النِّعمة ؛ فآوَى الى الوَكْر(٢) ، وساهمَ في الحادِث ، وأشرَكَ في الجاه والمال ، وأعانَ على نوائب الدَّهر ، وطَلَبَ الوِتر(٣) ، حتى رأَى الدَّهرُ مكَاني ، وأمّلَ الملوكُ استخلاصِي ، وتجارَوا في إتحافي . والله المخلِّص من عِقال الآمال ، والمُرْشِدُ إلى نَبْذِ هذه الحظوظ المورِّطة .

وأنبأني سَيِّدي بما صدر عنه من التَّصانيف الغريبة ، والرَّسائل البَليغة ، في هذه الفُتوحات الجليلة ، وبِوُدِّي لو وَقَع الاتحاف بها أو بعضِها ، فلقد عاودَني النَّدَم على ما فرَّطت .

وأما أخبار هذا القُطر فلا زِيادةَ على ما علِمتُم ؛ من استقرار السلطان أبي إسحق ابن السلطان أبي يَحيَى بتُونِس مستَبدًّا بأَمره بالحضْرة بعد مَهْلَك شيخ المُوحِّدين أبي محمد بن تافَراكين القائم بأمره ، رحمة الله عليه ؛ مُضايِقاً في جِبابة الوطن ، وأحكامه بالعَرب المستظهرين بدَعوته ، مُصانِعاً لهم بوَفْره على أمان الرَّعايا والسَّابلة(٤) ، لو أمكن ، حسَن السياسة جهدَ الوقت ؛ ومن انتظام بِجَايَةَ محلَّ

(١) جمع ضيعة ؛ وهي العقار .
(٢) وكر الطائر : عشه ، والكلام على التشبيه .
(٣) طلب الثأر .
(٤) السابلة الطريق .

دولتنا في أمر صاحب قُسَنطِينَةَ وبُونَة، غِلاباً كما علمتم، مُحمِّلا الدولة بصَرامته وقوة شَكيمته فوقَ طوقها، من الاستبداد والضَّرب على أيدي المستَغِلّين من الأَعراب، مُنتَقَض الطاعة أكثرَ أوقاتِه لذلك، إلا ما شَمل البلادَ من تغلُّب العرَب، ونقص الأرض من الأطراف والوَسط، وخمود ذُبال الدُّول في كل جهة؛ وكلٌّ بداية فإلى تَمام.

وأما أخبارُ المغرب الأقصى والأدنى فلَدَيكم طِلْعُه[1]، وأما المَشْرق فأخبارُ الحاجّ هذه السنةَ من اختلاله، وانتقاض سلطانه، وانتزاء الُجفاة على كرسيِّه، وفساد المصانع والسِّقايات المعدّة لوَفْد الله وحاجِ بيته، ما يسخن العينَ ويُطيل البَثّ، حتى لزعموا أن الهَيْعَة[2] اتّصلت بالقاهرة أياما، وكثُر الهَرْج[3] في طرقاتها وأسواقها، لِما وقع بين أَسندَمُر[4] المتغلّب بعد يَلْبُغَا[5] الخاسكي، وبين سلطانه ظاهرَ القلعة، من الجولة التي كانت دائرتها عليه، أجلَت عن زُهاء الخمْسمائة قتْلَى، من حاشيةِ وموالي يَلْبُغا؛ وتقبَّض على الباقين، فأودَع منهم السُّجون، وصلَب الكثير، وقتل أَسندَمر في

(١) يقال أطلعته طلعي؛ أي بثثته سري.
(٢) الهيعة: كل ما أفزعك من صوت؛ والصوت الشديد.
(٣) الهرج: الفتنة والاختلاط.
(٤) في نسخة: سندمر بدون ألف في أوله؛ وهو الأمير الداوادار الكبير في دولة الأشرف، كان دويداراً عند يلبغا الناصري ثم ثار عليه. مات بالاسكندرية سنة ٧٦٩.
(٥) يلبغا بن عبد الله الخاصكي (الخاسكي) نسبة الى خواص السلطان.

مَحْبسه ، وأُلقي زمامُ الدولة بيد كبير من موالي السلطان ، فقام بها مستبدا ، وقادها مستقلا ؛ وبيد الله تصاريف الأمور ، ومظاهر الغُيوب ، جَلّ وعَلا .

ورَغْبتي من سيدي ـ أبقاه لله ـ أن لا يُغِبّ خطابه عني ، متى أمكن ، يَصِلُ بذلك مِنَنَه الجَمَّة ، وأن يُقَبِّل عنِّي أَقدام تلك الذات المَوْلوية ، ويعرِّفه بما عندي من التشيُّع لسلطانه ، والشكر لنعمته ، وأن تُنهوا عني لحاشيته وأهل اختصاصه ، التحية ، المختلَسة من أنفاس الرياض ، كبيرِهم وصغيرِهم .

وقد تأدّى مني الى حضرته الكريمة خطابٌ على يد الحاجّ نافع ـ سلّمه الله ـ تَناولَه من الأخ يَحْيي عند لقائه إياه بتِلمسان ، بحضرة السلطان أَبي حَمُّو ـ أيدَه الله ـ فربما يصل ، وسيدي يوَضِح من ثَنائي ودُعائي ما عجز عنه الكتاب . والله يُبقيكم ذُخراً للمسلمين ، ومَلاذاً للآمِلين بفضله . والسلام عليكم وعلى من لاذَ بِكم من السّادة الأولاد المناجيب ، والأهل والحاشية والأصحاب ، من المُحِبّ فيكم ، المعتدِّ بكم شعيةِ فضلكم ، ابن خَلْدون ؛ ورحمة الله وبركاته .

عنوانه : سيدي وعِمادي ، وربّ الصنائع والأيادي ، والفضائل الكريمة الخواتم والمبادي ، إمامَ الأُمة ، علَم الأئمة ، تاجَ الملّة ، فخرَ العلماء الجِلّة ، عِمادَ الاسلام ، مُصطَفَى الملوك الكرام ، نُكتة

الدُّول ، كافلَ الامامة ، تاجَ الدول ، أثيرَ الله ، وليّ أمير المسلمين الغنيّ بالله ـ أيدَه الله ـ الوزيرُ أبو عبد الله بن الخطيب ، أبقاه الله ، وتولّى عن المسلمين جزاءه .

وكتب إليّ من غرناطة :

يا سيدي ووَليّي ، وأخي ومحلّ ولدي ! كان الله لكم حيث كنتُم ، ولا أعدمكم لُطفَه وعنايتَه . لو كان مُستقرّكم بحيث يتأتّى لي اليه ترديدُ رسول ، أو ايفاد مُتطلّع ، أو توجيهُ نائب ، لرجعتُ على نفسي باللائمة في اغفال حقكم ؛ ولكنّ العذرَ ما علمتم ؛ واحمدوا الله على الاستقرار في كهْف ذلك الفاضل الذي وسعكم كَنَفُه . وشملكم فضلُه شكَر الله حسَبه الذي لم يُخلِف ، وشهرتَه التي لم تكذِب .

وإنّي اغتنمت سفرَ هذا الشيخ، وافدِ الحرمين بمجموع الفُتوح(1) ، في ايصال كتابي هذا ، وبودّي لو وقفتُم على ما لديه من البضاعة التي أنتم رئيسُها وصدْرها ، فيكون لكم في ذلك بعضُ أُنس ، وربما تأدّى ذلك في بَعْضه مما لم يُختَم عليه ، وظاهرُ الأمور نُحيل عليه في تعريفكم

(1) كانت عادتهم أن يبعثوا بأخبار فتوحهم ، وتوسماتهم التي تحصل في كل سنة ، وفي عهد كل ملك ـ يبعثون بها الى الملوك المعاصرين عامة ، والى الحرم النبوي بوجه خاص . والى هذا يشير ابن الخطيب .

بها ، وأما البواطن فمَّا لا يتأتى كثرةً وضنانةً ، وأخصّ ، بالصاد ، ما أظن تشوُّفَكم اليه حالي . فاعلموا أني قد بلغ بي الماء الزبى [1] ، واستولى عليّ سوء المزاج المنحرف ، وتوالت الأمراض ، وأعوزَ العِلاج ، لبقاء السَّبَب ، والعجزِ عن دفعه . وهي هذه المُداخلة جعل الله العاقبة فيها الى خير ؛ ولم أترك وجهاً من وجوه الحيلة الا بَذَلتُه . فما أغنَى ذلك عنّي شيئاً ، ولولا أنني بعدكم شَغَلتُ الفكر بهذر التأليف ، مع الزُّهد . وبُعْد العهد . وعدَم الالماع بمطالعة الكُتب . لم يتمشّ حالي من طريق فَساد الفكر الى هذا الحدّ ؛ وآخر ما صدَر عني كُنَّاش [2] سميته باستنزال اللطف الموجود ، في أسر الوجود [3] . أمليتُه في هذه الأيام التي أُقيمُ بها رسمَ النيابة عن السلطان في سَفَره الى الجهاد . بوُدّي لو وقفتم عليه . وعلى كتابي في المحبَّة ؛ وعسى الله أن ييسِّرَ ذلك .

ومع هذا كله . والله ما قصَّرتُ في الحِرص على ايصال مكتوبٍ اليكم . إما من جهة أخيكم . أو من جهة السَّيد الشَّريف أبي عَبد الله.

---

(١) الزبى : جمع زبية ؛ وهي الرابية التي لا يعلوها الماء، فاذا بلغها السيل كان جارفا مجحفا. وهو مثل يضرب للشيء يتجاوز الحد ويتفاقم . مجمع الأمثال ٦٠/١ ، لسان (زبى) .

(٢) الكناش : الدفتر تقيد فيه الفوائد والشوارد للضبط ، يستعمله المغاربة كثيراً الى اليوم . تاج العروس ٣٤٧/٤ .

(٣) ذكره المقري في نفح الطيب ٢٤٤/٤ ، بين مؤلفات ابن الخطيب بهذا العنوان : « استنزال اللطف الموجود ، في سر الوجود » .

حتى من المغرب اذا سمعتُ الرَّكب يتوجّه منه فلا أدري هل بلغكم شيء من ذلك أم لا. والأحوالُ كلُّها على ما تركتموها عليه. وأحبابُكم بخير. على ما علمتم من الشَّوق والتشوف والارتماض [١] لمفارقتكم. ولا حولَ ولا قوةَ الا بالله.

واللهُ يحفظكم. ويكون لكم. ويتولى أموركم؛ والسلام عليكم ورحمة الله. من المُحبِّ الواحِش الشَّيخ ابن الخطيب. في غرة ربيع الثاني من عام احدى وسبعين وسبعمائة.

وبباطنه مُدرَجَة نَصُّها:

سيدي رضي الله عنكم. استقرَّ بتلمِسان. في سبيل تقلُّبٍ ومطاوعة مزاج تعرفونه. صاحبُنا المقدَّم في صنعة الطب أبو عبد الله الشَّقُوري. فان اتَّصل بكم فأعينوه على ما يَقِف عليه اختيارُه وهذا لا يحتاج معه الى مثلكم [٢].

عنوانه: ــ سيدي ومحلّ أخي. الفقيهَ الجليل. الصدر الكبير المعظم. الرئيسَ الحاجب. العالم الفاضل الوزير ابن خلدون. وَصل الله سعدَه. وحرَس مجده. بمَنّه.

(١) الارتماض: الحزن لمفارقتكم.
(٢) كذا في الأصول؛ ومقتضى السياق أن ما يختاره لا يحتاج في اختياره الى مثلكم.

وإنما طولتُ بذكر هذه المخاطبات . وإن كانت فيما يظهر . خارجةً عن غرض الكتاب . لأن فيها كثيراً من أخباري . وشرح حالي . فيستوفي ذلك منها مَن يتشوف اليه من المطالعين للكتاب .

ثم ان السلطان أبا حَمُّو لم يزل مُعتمِلًا في الاجلاب على بِجاية . واستئلاف قبائل رياح[1] لذلك . ومعوِّلا على مُشايعتي فيه . ووَصْلِ يدِه مع ذلك بالسلطان أبي اسحاق ابن السلطان أبي بكر صاحب تونس من بني أبي حفص ، لما كان بينه وبين أبي العباس صاحب بِجَاية وقُسَنطينة ، وهو ابن أخيه ، من العداوة التي تقتضيها مقاسمة النسَب والمُلك ، وكان يوفِد رسله عليه في كل وقت ، ويمُرون بي ، وأنا بِبَسكرة ، فأؤكد الوُصْلة[2] بمخاطبة كل منهما ؛ وكان أبو زيان ابن عم السلطان أبي حَمُّو بعد إجفاله عن بِجَاية ، واختلال معَسْكرِه ، قد سار في أثره الى تِلمِسانَ ، وأجْلب على نواحيها ، فلم يظفر بشيء ، وعاد الى بلاد حُصَين ، فأقام بينهم ، واشتملوا عليه ، ونجَم[3] النفاق في سائر أعمال المغرب الأوسط ، واختلف أحياء زُغْبة على السلطان ، وانتبذ الكثير عنه الى القَفْر . ولم يزل يستألفهم حتى اجتمع له الكثير

---

(١) هم من أعز قبائل بني هلال ، وأكثرهم جمعا . أطال ابن خلدون القول في قبائل رياح ، وما كان لها من الأحداث في المغرب في المجلد السادس من العبر .

(٢) الوصلة بالضم : الاتصال ، وكل ما اتصل بشيء ، فالذي بينهما وصلة .

(٣) نجم : طلع وظهر .

منهم؛ فخرج في عساكره في مُنتصَف تسع وستين الي حُصَين وأبي زيّان، واعتصموا بجبل تِيطَرِي، وبعث اليّ في استنفار الدَّوَاوِدَة للأخذ بحُجْزَتهم [1] من جهة الصحراء، وكتب يستدعي أشياخهم: يعقوبَ بنَ علي كبيرَ أولاد محمد، وعثمانَ بن يوسف كبيرَ أولاد سِباع بن يحيى. وكتب الى ابن مَزْنى قعيدةِ وطنهم بإمدادهم في ذلك، فأمدَّهم؛ وسرنا مغرِّبين إليه، حتى نزلنا القَطْفَا قِبلة تِيطَرِي، وقد أحاط السلطان به من جانب التل، على أنه اذا فرغ من شأنهم سار معنا الى بجَاية وبلغ الخبر الي صاحب بجاية أبي العباس؛ فاستألف مَن بقي من قبائل رِياح، وعسكَر بطرف ثنية القِصَاب المُفضِية الى المسِيلة. وبينما نحن على ذلك اجتمع المخالفون من زُغبة: وهم خالد بن عامر كبير بني عامر واولاد عَريف كبراءُ سُوَيْد، ونهضوا الينا بمكاننا من القَطْفا؛ فاجفلت احياء الدَّواودة، وتأخرنا الى المَسيلة، ثم الى الزّاب. وسارت زُغبةُ الى تِيطَري، واجتمعوا مع ابي زِيّان وحُصَين، وهجموا على معسكر السلطان ابي حَمُّو ففلُّوه ورجع منهزِماً الى تِلِمْسان. ولم يزل من بعد ذلك على استئلاف زُغبَة ورياح يؤمّل الظَّفَر بوطنه وابن عمه، والكرَّةَ على بجاية عاماً فعاماً، وأنا على حال في مُشايعته، وإيلاف ما بينه وبين الدَّواودة، والسلطان أبي اسحق صاحب تونس، وابنه خالد من بعده. ثم دخلت زغبة في طاعته،

(١) الحجزة «بالضم»: معقد الإزار.

واجتمعوا على خدمته، ونهض من تلمسان لشفاء نفسه من حصين وبجاية، وذلك في أخريات احدى وسبعين؛ فوفدتُ عليه بطائفة من الدّواودة اولاد عثمان بن يوسف بن سليمان لنشارفَ احواله، ونطالعَه بما يَرسم لهم في خدمته، فلقيناه بالبطحاء. وضرب لنا موعداً بالجزائر، انصرف به العرب الى اهليهم، وتخلّفتُ بعدَهم لقضاء بعض الاغراض واللحاق بهم، وصلّيت به عيدَ الفِطْر على البَطحاء، وخطبتُ به، وأنشدته عند انصرافه من المصَلّى أهنّيه بالعيد، وأُحرِضُه :

هـذي الديارُ فحيِّهنّ صباحـا ... وقِفِ المطايا[1] بينهنّ طِلاحا[2]

لا تسأل الأطلالَ إن لم تَرْوِها ... عبراتُ عينِكَ واكفـاً مُمتاحا

فلقدْ أَخذنَ على جفونكَ مَوثقا ... أن لا يُرينَ مع البِعاد شِحاحا

إيهٍ عن الحيِّ الجميع وربّـما ... طربَ الفؤاد لذكرِهم فارتاحا

. . . .

ومنازلٍ للظاعنين استعجَمت ... حُزناً وكانت بالسّرور فِصاحا

وهي طويلة، ولم يبق في حفظي منها الا هذا.

وبينما نحن في ذلك، بلغ الخبر بان السلطان عبد العزيز[3] صاحبَ

---

(١) جمع مطية : وهي الناقة أو البعير يمتطى ظهره.

(٢) جمع طلح « بالكسر » : وهي الناقة أضمرها الكلال، وأجهدها الإعياء من طول السفر.

(٣) هو أبو فارس عبد العزيز بن أبي العباس بن ابي سالم المريني ولي سنة ٧٩٦ بعد وفاة ابيه ابي سالم، وتوفي سنة ٧٩٩. الاستقصا ١٤١/٢ وما بعدها.

المغرب الأقصى من بني مَرين ، قد استولى على جبل عامر بن محمد الهِنتاتي بمرّاكُش ، وكان آخذاً بمُخَنَّقه[1] منذُ حَوْل . وساقه الى فاسَ فقتله بالعذاب ، وانه عازم على النهوض الى تِلِمْسان ، لما سلَف من السلطان ابي حَمُّو اثناء حِصار السلطان عبدالعزيز لعامر في جَبَله ، من الاجلاب على ثغور المغرب ؛ ولحين وصول هذا الخبر ؛ اضرب السلطان ابو حمُّو عن ذلك الشأن الذي كان فيه ، وكرّ راجعاً الى تِلِمْسان . واخذ في اسباب الخروج الى الصحراء ، مع شيعة بني عامر من احياء زُغبَة ، فاستألف ، وجَمَع ، وشدّ الرِّحال ، وقضى عيد الاضحى ؛ وطلبتُ منه الاذنَ في الانصراف الى الاندلس ، لتعذّر الوجهَة الى بلاد رِياح ، وقد اظلَم الجوُّ بالفِتنة ، وانقطعت السُّبُل ؛ فاذِن لي ، وحمَّلني رسالة فيما بينه وبين السلطان ابن الأحمر . وانصرفت الى المرسى بهُنَيْن ؛ وجاءه الخبر بنزول صاحب المغرب تازا في عساكره ؛ فأجفَل بعدي من تلمْسان ، ذاهباً الى الصحراء عن طريق البطحاء . وتعذر عليّ ركوب البحر من هُنَيْن فأقصرت ، وتأدّى الخبر الى السلطان عبدالعزيز بأني مقيم بهُنَيْن ، وان معي وديعةً احتملتُها الى صاحب الأندلس ، تخيَّل ذلك بعض الغواة ، فكتب الى السلطان عبدالعزيز فأنفذ من وقته سَرِيَة[2] من تازا تعترضني لاسترجاع تلك

(١) المخنق : موضع الخنق من العنق .
(٢) السرية : قطعة من الجيش : ويقال : خير السرايا أربع مئة .

الوديعة ، واستمرَّ هو الى تِلِمسان ؛ ووافتني السَّرية بهُنين و كشفوا الخبر فلم يَقِفوا على صحته ، وحملوني الى السلطان ، فلقيته قريباً من تِلِمْسان ، واستكشفني عن ذلك الخبر ، فاعلمته بيقينه . وعنَّفني على مفارقة دارهم ، فاعتذرت له بما كان من عُمَر بن عبدالله المستبدّ عليهم ، وشهِد لي كبير مجلسه ، ووليُّ ابيه وابنُ وليِّه : وَنْزمار بن عَريف ، ووزيرُه عُمَر بن مسعود بن منديل بن حمامة ؛ واحتفَّت الالطاف . وسألني في ذلك المجلس عن أمر بجاية ، وأفهمني أنه يروم تملكها ؛ فهوَّنتُ عليه السبيل الى ذلك ، فسُرَّ به ؛ وأقمت تلك الليلة في الاعتقال . ثم اطلقني من الغد ، فعمدت الى رباط الشيخ الولي أبي مدْيَن ، ونزلت بجواره مؤثراً للتَّخلي والانقطاع للعلم لو تركت له .

مشايعة السلطان عبد العزيز صاحب المغرب على بني عبد الواد

ولما دخل السلطان عبد العزيز تِلمسان ، واستولى عليها ، وبلغ خبره إلى أبي حمو وهو بالبطْحاء ، فأجفل من هنالك ، وخرج في قومه وشيعته من بني عامر ، ذاهباً الى بلاد رياح ؛ فسرَّح السلطان وزيرَه أبا بكر بن غازي في العساكر لاتباعه . وجمع عليه احياء زُغْبَة والمَعْقَل باستِئلاف وليّه ونَزْمار وتدبيره ؛ ثم أعمَل السلطانُ نَظرَه ورأى ان يقدمني أمامه الى بلاد رياح لأوطِّد أمره ، وأحملهم على

مناصرته، وشفاء نفسه من عدوّه بما كان السلطان آنس منّي من استتباع رياح، وتصريفهم فيما أريده من مذاهب الطاعة. فاستدعاني من خلْوَتي بالعُبّاد عند رباط الوَليّ أبي مَدْيَن[1]. وأنا قد أخذتُ في تدريس العلم، واعتزمت على الانقطاع؛ فآنسني، وقرّبني، ودعاني الى ما ذهب اليه من ذلك؛ فلم يسعني إلّا إجابتُه. وخلَع عليّ، وحمَّلني؛ وكتب الى شيوخ الدَّوَاوِدَة بامتثال ما أُلقيه إليهم من أوامره. وكتب الى يعقوب بن عليّ، وابن مُزْنَى بمساعدتي على ذلك، وأن يحاولوا على استخلاص أبي حَمُّو من بين أحياء بني عامر، ويحولوه الى حيّ يعقوب بن علي؛ فودعته وانصرفت في عاشوراء اثنين وسبعين؛ فلحقت الوزير في عساكره وأحياء العرب من المَعْقِل وزُغبَة على البَطْحاء. ولقيته، ودفعت إليه كتاب السلطان، وتقدمت أمامه. وشيعني وَنزْمار يومئذ، وأوصاني بأخيه محمّد. وقد كان أبو حَمُّو قبض عليه عند ما أحس منهم بالخلاف، وأنهم يَرومون الرحلة الى المغرب. وأخرجه معه من تِلِمْسان مُقيّدا، واحتمله في مُعَسكره؛ فأكد عليّ وَنزْمار يومئذ في المحاولة على استخلاصه بما أمكن. وبعث معي ابنَ أخيه عيسى في جماعة من سُوَيْد يُبَذْرِق[2] بي ويتَقَدم الى أحياء حُصَين باخراج أبي زَيّان من بينهم؛ فسرنا جميعا،

(١) أبو مدين: شعيب بن الحسن الأندلسي. صوفي شهير، يعرف بأبي مدين الغوث.

(٢) البذرقة، بالذال المعجمة وبالمهملة أيضاً: الخفارة؛ والمبذرق: الخفير.

وانتهينا الى أحياء حُصَين . وأخبرهم فرح بن عيسى بوصية عَمّه وَنَزْمار إليهم ، فَنَبَذوا الى أبي زيّان عهده ، وبعثوا معه منهم من أوصله الى بلاد رياح . ونزل على أولاد يحيى بن علي بن سِبَاع ، وتوغلوا به في القفر ، واستمريت أنا ذاهباً الى بلاد رياح ؛ فلما انتهيت الى المَسِيلَة ألفيت السلطان أبا حَمّو وأحياء رياح مُعسكِرين قريباً منها في وطن أولاد سباع بن يحيى من الدّواوِدَة ، وقد تساتلوا[1] إليه ، وبذلَ فيهم العطاء ليجتمعوا إليه . فلما سمعوا بمكاني بالمَسِيلَة ، جاؤوا إليّ فحملتُهم على طاعة السلطان عبد العزيز ، وأوفدتُ أعيانهم وشيوخهم على الوزير أبي بكر بن غازي ، فلقوه ببلاد الدّيالِم عند نَهر وَاصِل ؛ فأتوه طاعتهُم ، ودَعوه الى دخول بلادهم في اتباع عدوه . ونهَض معهم ، وتقدمت أنا من المَسِيلة الى بَسْكَرَة ؛ فلقيت بها يعقوب بن علي . واتفق هو وابن مُزْنى على طاعة السلطان ، وبعث ابنه محمداً للقاء أبي حَمّو وأميرِ بني عامر خالد بن عامر ، يدعوهم الى نزول وَطنه ، والبُعد به عن بلاد السلطان عبد العزيز ؛ فوجده متدلّياً من المَسيلة الى الصّحراء . ولقيه على الدّوْسن وبات لَيْلته يعرض عليهم التحول من وَطنِ أولاد سِبَاع الى وطنهم بشرقيّ الزّاب . وأصبح يومَه كذلك ، فما راعهم آخرَ النّهار إلا انتشار العَجاج خارجاً

(١) كذا ، وفي ب : تسايلوا . ومعنى تساتل القوم : خرجوا متتابعين واحداً بعد واحد . ومعني تسايل القوم : تواردوا من كل جهة .

إليهم من أفواهِ الثَّنيَّة ؛ فركبوا يستشرفون ، وإذا بهوادي الخيل طالعة من الثَّنِيَّة ، وعساكر بني مَرِين والمَعْقِل وزُغبة متتالية أمام الوزير أبي بكر بن غازي ، قد دلّ بهم الطريق وفدُ أولاد سِبَاع الذين بعثتُهم من المَسِيلَة ؛ فلما أشرفوا على المُخَيَّم ، أغاروا عليه مع غروب الشمس ؛ فأجفل بنو عامر ، وانتُهِب مُخَيَّم السلطان أبي حمّو ورحائله وأمواله . ونجا بنفسه تحت الليل ، وتمزّق شملُ ولده وحرمه ، حتى خَلَصوا إليه بعد أيام ، واجتمعوا بقصور مُصَاب[1] من بلاد الصحراء ، وامتلأت أيدي العساكر والعرب من نِهابهم . وانطلق محمد ابن عَريف في تلك الهيْعَة . أطلقه الموكَّلون به ، وجاء الى الوزير وأخيه وَنَزْمار ، وتلقَّوه بما يجب له . وأقام الوزير أبو بكر بن غازي على الدَّوسَن أياما أراح فيها . وبعث إليه ابن مَزْنى بطاعتِه ، وأرغد له من الزّاد والعُلُوفة[2] ، وارتحل راجعاً الى المغرب ؛ وتخلّفتُ بعدَه أياما عند أهلي ببَسْكَرة . ثمّ ارتحلتُ الى السُّلطان في وَفد عظيم من الدَّوَاوِدَة ، يقدُمهم أبو دينار أخو يعقوب بن عليّ ، وجماعةٌ من أعيانهم ؛ فسابقْنا الوزيرَ الى تِلِمْسَان ، وقدمنا على السُّلطان ؛ فوسِعَنا من حِبائه[3] وتَكرِمته ، ونُزُله ما بَعُد العَهْد بمثله . ثم جاء من بعدِنا

---

(١) رسم الصاد في النسخة الخطية على قاعدته ، التي قررها صدر المقدمة ، بصورة صاد وسطها زاي ، اشارة الى ان الصاد تنطق مشمة بالزاي .

(٢) العلوفة (بالضم) : العلف .

(٣) الحباء (بالكسر) : العطاء .

الوزيرُ أبو بَكر بن غَازِي على الصَّحراء، بعدَ أن مرَّ بقُصور بَني عامر[1] هنالك فخرَّبها، وكان يومُ قدومه على السلطان يوماً مشهوداً؛ وأذِن بعدها لوفود الدَّواودة بالانصراف الى بِلادهم. وقد كان يَنتظِر بهم قُدومَ الوزير، وَولِيّه وَنزْمار بن عَريف؛ فودَّعوه، وبالغ في الاحسَان إلَيْهم، وانصَرفوا الى بلادِهم. ثم أعمل نظرَه في إخراج أبي زَيَّان من بين أَحياء الدَّوَاوِدَة لما خشي من رجوعه الى حُصَين؛ فوامرني في ذلك، وأطلقني إلَيْهم في محاولة انصرافِه عنهم، فانطلقتُ لذلك. وكان أحياءُ حُصَين قد توَّجسوا الخيفة من السُّلطان وتنكَّروا له، وانصَرفوا الى أهلهم بعدَ مَرْجعهم من غَزاتهم مع الوزير، وبادَروا باستدعاء أبي زَيَّان من مكانه عند أولاد يحيى[2] بن علي، وأنزلوه بينَهم؛ واشتملوا عليه، وعَادوا الى الخلاف الذي كانوا عليه أيامَ أبي حَمُّو؛ واشتعل المغرب الأوسط ناراً. ونَجَم صَبيّ من بيت المُلك في مَغْرَاوَة، وهو حَمْزة بن عليّ بن راشد؛ فرَّ من مُعسكَر الوزير ابن غَازِي أيامَ مُقَامه عليها فاستولى على شَلَف، وبلاد قومه[3]. وبعث السلطان وزيرَه عُمَر بن مَسْعود[4] في العساكر

(١) كانت هذه القصور – كما يفهم من حديث ابن خلدون عنها – بالصحراء، في جهة القبلة من الجبل المسمى بجبل راشد.

(٢) هم أولاد يحيى بن علي بن سباع من الدواودة.

(٣) يريد بلاد مغراوة، ويأتي قوله الصريح في هذا.

(٤) هو عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة.

لمنازلته، وأعيا داؤه؛ وانقطعتُ أنا ببَسْكَرَة، وحالَ ذلك ما بيني وبين السلطان إلاّ بالكتاب والرسالة. وبلَغني في تلك الأيام وأنا ببَسْكَرَة مَفرُّ الوزير ابن الخطيب من الأندَلس[1]، وقدومُه على السلطان بتِلِمْسان؛ توجّس الخيفة من سلطانه، بما كان له من الاستبداد عليه، وكثرةِ السّعاية من البِطانة فيه؛ فأعمل الرّحلة الى الثغور المغربية لمطالعتها بإذْنِ سلطانه. فلما حاذَى جبلَ الفَتْح[2] قُبْلَ الفُرَضة[3]، دَخل الى الجَبَل، وبيَده عَهْد السُّلطان عبد العزيز الى القائد هنالك بقَبوله. وأجاز البَحْر من حِينه الى سَبْتة، وسار الى السُّلطان بتِلِمْسان، وقدم علَيْها في يوْمٍ مشهود. وتلقَّاه السُّلطانُ من الحظوة والتقريب وإدرار النِّعم بما لا يُعْهَدُ مثلُه. وكتَبَ إليّ من تلِمْسان يُعرّفني بخَبرِه، ويُلِمُّ ببَعْضِ العِتاب على ما بَلغَه من حديثي الأول بالأندَلس. ولم يَحضُرني الآن كتابُه؛ فكان جوابي عَنه ما نَصُّه:

الحمد لله ولا قوة إلا بالله، ولا رادَّ لما قضَاه الله.

يا سَيدي ونِعْم الذُّخر الأبَدِي، والعُرْوَةُ الوُثْقَى التي اعْتلَقتْها

---

(١) قد فصل ابن خلدون الحديث عن مفر ابن الخطيب، وقدومه الى تلمسان، وبين الدواعي السياسية التي دفعته الى الفرار في المجلد السابع من العبر.

(٢) يريد جبل طارق. وقد تقدم ذكره ويسمى جبل الفتح؛ سماه بذلك عبد المؤمن بن علي عاهل الدولة الموحدية — حين نزل به قاصداً بلاد الأندلس للجهاد.

(٣) فرضة البحر (بالضم): محط السفن.

يَدِي[1] ، أُسَلِّم عليكم سلامَ القُدوم ، على المَخْدُوم ، والُخضوع ، للمَلِك المَتْبُوع ، لا ابل اُحيِّيكم تَحِيَّةَ المَشُوق ، لِلمعْشُوق ، والمُدْلِج[2] ، للصَّباح المتبلِّج[3] ، واقرِّر ما أنتُم أعلَم بصحيح عَقْدي فيه من حُبِّي لَكُم ، ومعرفتي بِمقْداركم ، وذهابي الى أبعد الغايات في تعظيمكم ، والثَّناء عليكم ، والاشادة في الافاق بمَنَاقِبكم ، دَيْدَناً[4] معروفا ، وسَجِيَّةً[5] راسخة ، يعلم الله و كَفَى به شهيداً ؛ وبهذا كما في علمكم قَسَماً[6] ما اختلف لِي فيه أولُ وآخرُ ، ولا شاهدٌ ولا غائب . وأنتم أعلم بما في نَفْسي ، وأكبرُ شهادة[7] في خفايا ضميري . ولو كنتُ ذاكَ ، فقد سلَف من حقوقكم ، وجميل أَخْذِكم ، واجتلاب الحظّ - لو هيَّأه القَدَر - بمساعيكم ، وإيثَاري بالمكان من سلطانكم ، ودَولتِكم ، ما يَستلين معاطفَ القلوب[8] ، ويَستلُّ سَخائم

(١) اعتلق الشيء ، وبه : احبه ؛ كتعلقه ، وتعلق به .
(٢) أدلج : سار الليل كله ، أو جزءاً منه .
(٣) تبلج الصبح : أسفر واضاء
(٤) الديدن : العادة .
(٥) السجية: الخلق .
(٦) الكلام على معنى : « وبهذا ، كما في علمكم ، اقسم قسما الخ » .
(٧) الشهادة : الحضور ؛ وليس يبعد ان يكون أصل الكلام : « واكبر شهادة بما في خفايا ضميري» ، فسقطت كلمة « بما » من الأصول .
(٨) استلان الشيء : ألانه . (اساس) . ومعاطف القلوب : مثانيهـا ؛ ومـن كلامهم : « رزقك الله عيشا تلين لك مثانيه ومعاطفه » . يريد : اسديت الي من خيرك ما من شأنه ان يصل الى اعماق القلوب . (وأنظر اللسان (ثنى) .

الهواجس[١] ، فأنا أُحاشيكم مِن استشعار نَبْوة[٢] ، أو إحقاق ظنّ[٣] ؛ ولو تَعلَّق بقلب سَاق حُرٍّ ذَرْءٌ وذَرْءٌ[٤] ، فحاشَ لله أن يَقدح في الخُلوص[٥] لكم ، أو يرجِحَ سوابقكم[٦] ، إنما هو خبيئةُ الفؤاد الى الحَشر أو اللقاء . ووالله وجميعِ ما يُقسَم به ، ما اطّلعَ على مستَكنِّه مِنّي غيرُ صديقي وصديقكم المُلابس ـ كان ـ لي ولكم الحكيم الفاضل العَلَم أبي عَبد الله الشَّقُوري أعزّه الله . نفْثةُ مَصدور ، ومَباثّة[٧] خُلوص ، إذ أنا أعلم النّاس بمكانه منكم ، وقد عَلِمَ ما كان منّي حين مفارقة صاحب تِلِمْسان ، واضمحلال أمره ، من إجماع الأمر على الرّحلة إليكم ، والخفوف[٨] الى حاضرة البحر للاجازة الى عُدْوَتكم ، تعرّضتُ فيها للتّهَم ، ووقفتُ بمجال الظنون ، حتّى تورّطتُ في الهَلَكة بما ارتفع عنّي مما لم آتِه ، ولا طويتُ العَقْد عليه ، لولا حِلمُ مولانا الخليفة ، وحُسنُ رأيه فيّ وثبات بَصيرته ، لكنت

---

(١) السخائم : الصغائن ، والموجدة في النفس . والهواجس : الخواطر .
(٢) أحاشيكم : انزهكم . واستشعار النبوة : اضمارها . والنبوة الجفوة .
(٣) يقول : اني اجلكم ان تصدقوا في الظنون ، فتحولوها الى يقين ثابت وحقيقة واقعة .
(٤) كذا وفي ب : ساق حرزرزور . واظنه تحريف . وبلغني ذرء من خير : قليل منه . ويجوز ان يكون المعنى : ان وفائي لك بحيث لاتلحقه الريبة . ولو جاز ان يتعلق بقلب ساق حر ، وقد سار المثل بوفائه ، قليل جداً من عدم الوفاء ، فمعاذ الله ان يتعلق بقلبي هذا القليل فيقدح في حفظي لعهد الاخوة .
(٥) خلص الشيء خلوصاً : صار خالصاً ، ويستعمله ابن خلدون بمعنى الاخلاص .
(٦) جمع سابقة ؛ وهي ماتسبق الناس اليه . يريد : اياديكم التي اسديتموها الي .
(٧) المباثة : مصدر ميمي بمعنى البث ؛ وهو ان تظهر لغيرك ما عندك من سر .
(٨) الخفوف : سرعة السير .

في الهالكين الأولين ؛ كلُّ ذلك شوقاً الى لقائكم ، وتمثُّلًا لانسكم ؛ فلا تَظنُّوا بيَ الظُنون ، ولا تُصدِّقوا في التَّوهُّمات ، فأنا مَن علِمتُم صداقةً ، وسَذاجةً ، وخلوصاً ، واتّفاقَ ظاهرٍ وباطن ، أثبتُ الناس عهدا ، وأحفظُهم ، غيبا وأعرفُهم بوزن الاخوان ومَزايا الفُضَلاء ؛ ولأمرٍ مّا تأخّر كتابي من تِلِمْسان فأنّي كنت أستَشْعر ممّن استضَافني رَيْباً بخطاب سواه ، خصوصا جهتَكم ، لقديم ما بينَ الدّولتَين من الاتحاد والمظاهرة واتصال اليد ، مع أن الرّسول تردّد اليّ ، وأعلمني اهتمامَكم واهتمامَ السُّلطان ، تولاه الله ، باستكشاف ما انبهَم[1] من حالي ؛ فلم اترك شيئاً مما اعلم تشوُّفكم اليه الا وكشفتُ له قِناعه ، وأمّنته على بَلاغه[2] ؛ ولم ازل بعدَ انتِياش[3] مولانا الخليفة لذَمائي ، وجَذْبِه بضَبْعَيَّ[4] سابحاً في تيار الشواغل كما علمتُم القاطعة حتى عن الفِكر .

وسَقطَت الي بمحل خدمتي من هذه القاصية أخبارُ خلوصكم[5] الى المغرب ، قبل وصول راجلي[6] الى الحضرة ، غير جلية ولا ملتئمة

(١) كذا وفي ب : « أبهم » والصواب استبهم . تاج العروس (بهم) .
(٢) البلاغ : الابلاغ ؛ وفي القرآن : « فهل على الرسل الا البلاغ المبين » .
(٣) الانتياش : الانقاذ من الهلكة .
(٤) الضبع : العضد ؛ واخذ بضبعيه : اي بعضديه .
(٥) خلص اليه : وصل اليه .
(٦) الراجل : خلاف الفارس ؛ وهو من ليس له ظهر يركبه في سفره .

ولم يتعيَّن مُلقي العَصى ولا مستَقرُّ النوى(١) ؛ فأرجَيْت(٢) الخطاب الى استجلائها ؛ وأفدت(٣) في كتابكم العزيز عليَّ ، الجاري على سَنَن الفضل ، ومذهب المجد ، غريبَ ما كيَّفه القَدَر من تنويع الحال لديكم . وعجبتُ من تأتِّي(٤) أملكم الشارد فيه كما كنَّا نستبعده عند المفاوضة ؛ فحمدت الله لكم على الخلاص من وَرْطة الدُّوَل على احسن الوجوه ، واجمل المَخارج الحميدة العواقب في الدنيا والدين ، العائدة بحسن المآل في المُخلَّف : من اهل ووَلد ومَتاع واثر ، بعد ان رُضتُم جَموح(٥) الايام ، وتوقَّلتم قُلَل(٦) العزّ ، وقُدْتُم الدنيا بجذافيرها(٧) ، واخذتم بآفاق السماء على اهلها . وهنيئاً فقد نالت نفسُكم التوّاقة ابعدَ امانيها ، ثم تاقت الى ما عند الله ؛ وأشهد لَما(٨) أُلهمتُم

(١) مستقر النوى : مكان الاقامة ؛ يقال : استقرت نواهم : اي اقاموا .

(٢) أرجيت ، وارجأت : أخرت . يهمز ولا يهمز .

(٣) افدت : استفدت .

(٤) تأتي الامر ؛ تهيأ ؛ والتأتي التهيؤ .

(٥) راض الدابة : ذللها . وفرس جموح : عادته ان يركب رأسه فلا يثنيه راكبه . يريد ذللتم الايام التي لا تسير وفق رغبات الناس ، وجعلتموها تسير حسب رغبتكم .

(٦) توقل في الجبل : صعد فيه ؛ وقلة كل شيء : اعلاه .

(٧) بجذافيرها : باسرها .

(٨) ادخل ابن خلدون لام الابتداء على « ما » النافية ؛ وهو استعمال شاذ . وقد ورد هذا الاستعمال في قول الشاعر .

لما اغفلت شكرك فاصطنعني ... فكيف ومن عطائك جل مالي

وفتوى النحاة في ذلك : أن « ما » النافية ، أشبهت « ما » التي بمعنى الذي ، فجاز أن تدخل عليها لام الابتداء . شرح الرضي على الكافية ٢/٣٥٦ .

للاعراض عن الدنيـا ونَزْع اليد من حُطامها عند الاصحاب[١] والاقبال، ونُهى[٢] الآمال، الا جَذباً وعنايةً من الله، وحُبّاً؛ واذا اراد الله امراً يسَّر اسبابه.

واتصل بي ما كان من تَحَفِّي[٣] المَثابة[٤] المولوية بكم، واهتزاز الدولة لقُدومكم؛ ومثلُ تلك الخلافة، أيَّدها الله، مَن يُثابر على المفاخر، ويستأثر بالاخاير. وليتَ ذلك عند اقبالكم على الحظ، وأُنسِكم باجتلاب الامال، حتى يَحسُنَ المتاع بكم، ويتجمَّلَ السريرُ الملوكي بمَكانكم؛ فالظنُّ ان هذا الباعث الذي هزَم الامال، ونَبَذ الحظوظ، وَهوَّن المُفارَقَ العزيز، يَسومكم الفِرار الى الله، حتى يأخذَ بيدكم إلى فضاء المُجاهَدَة[٥]، ويستويَ بكم على جُوديّ[٦]

(١) الإصحاب : الانقياد من بعد صعوبة . يعني : أعرضت عن الدنيا عند انقيادها لك واقبالها عليك .

(٢) جمع نهية ؛ وهي غاية الشيء .

(٣) التحفي ، والاحتفاء : المبالغة في الإكرام .

(٤) المثابة : الموضع يثاب ، أي يرجع اليه مرة بعد أخرى . وفي القرآن : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس » .

(٥) الفضاء : المستوى من الارض المتسع . والمجاهدة : أن تحمل النفس على المشاق البدنية ، ومخالفة الهوى .

(٦) الجودي : جبل مطل على جزيرة ابن عمر ؛ وفي قول ابن خلدون هذا : اشارة الى ما يقال عند قول الله تعالى : « واستوت على الجودي» من رسو سفينة نوح عليه السلام على جبل الجودي عند الطوفان . معجم البلدان ١٦٢/٣ .

الرياضة[١] . والله يَهدي للتي هي اقوم . وكأَني بالأقدام[٢] نقلَت ، والبَصائر[٣] بإلهام الحق صُقِلَت ، والمَقامات[٤] خلَفت بعد ان استُقبِلَت[٥] ، والعرفان شيمَت انواره وبوارِقه ، والوصول انكشفت حقائقُه لما ارتفعت عوائقه. واما حالي ، والظنُّ بكم الاهتمامُ بها ، والبحثُ عنها ، فغيرُ خفية بالباب المولوي — اعلاه الله — ومظهرُها في طاعته ، ومَصْدَرها عن امره ، وتصاريفُها في خدمته ، والزَّعم اني قُمتُ المقامَ المحمودَ في التَّشيُّع ، والانحياش[٦] ، واستمالة الكافة ، الى المُناصحة ، ومخالطة القلوب للولاية ؛ وما يتشوَّفه مجدُكم ويتطلَّع اليه فضلكم واهتمامكم ، من خاصِّيِّها في النفس والولَد ، فجُهَينَةُ خبَرِه[٧] مُؤدِّي كتابي اليكم ، ناشِىء تأديبي ، وثَمرة تربيتي ؛ فسهِّلوا له الاذن ، وأَلينوا له جانبَ النَّجوى[٨] ، حتى يُؤديَ ما عِندي

(١) الرياضة : تهذيب الأخلاق النفسية .

(٢) جمع قدم ، وهي السابقة التي تثبت للعبد في علم الحق . ويكنى عنها بالقدم ، لان القدم آخر شيء في الصورة ، وهذه السابقة آخر ما يقرب به العبد من الحق .

(٣) جمع بصيرة ؛ وهي قوة للقلب المنور بنور القدس ، يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها ؛ وهي للقلب بمنزلة البصر للنفس .

(٤) جمع مقام ؛ وهو الموضع يقيم فيه السالك مشتغلا بالرياضة استعدادا لتخطيه بعد استيفاء رسومه .

(٥) يريد : استقبلتها ، فأديت واجباتها ، وتجاوزتها فصارت خلفك ؛ ذلك لأن عزمك الصادق ، سوف ينقلك من مقام الى مقام أعلى منه ، ويصل بك الى الله في الزمن القصير .

(٦) الانحياش : التصرف في الأمور .

(٧) يشير الى المثل : « عند جهينة الخبر اليقين » . وفي مجمع الأمثال ١/٣٠٤ ، وتاج العروس : « جفن » ، « جهن » شرح واف لمعنى هذا المثل .

(٨) النجوى : ما ينفرد به الجماعة ، والاثنان (من حديث) سراً كان أو ظاهراً .

وما عندكم ، وخُذوه بأعقاب الاحاديث أن يقفَ عند مبادئهــا ، وائتَمِنوه على ما تُحدِّثون ، فليس بظَنين[1] على السِّر .

وتَشوُّفي لما يَرجع به اليكم سَيدي وصديقي وصديقكم المُغرب في المَجد والفضل ، المُساهم في الشدائد ، كبير المَغْرب ، وظهير الدَّولة ، ابو يحيى بن ابي مَدْيَن – كان الله له – في شأن الولَد والمخلَّف ، تشَوُّف الصَّديق لكم ، الضَّنين[2] على الايام بقُلامة الظُّفر من ذات يدكم ، فأطلعوني طِلْعَ ذلك[3] ولا يهُمُّكم ؛ فالفِراق الواقع حسَن ، والسلطان كبير ، والأثَر جميل ، والعدُّو الساعي قليل وحقير ، والنِّيَّة صالحة ، والعمل خالص ؛ ومن كان لله كان الله له .

واستطلاعُ الرياسة المَرْنيَّة الكافلة – كافأ الله يـدها البيضاء – عني وعنكم الى مِثله من احوالكم استطلاعُ من يَسترجِحُ وِزانكم ، ويشكُر الزمانَ على وِلادِه[4] لمثلكم .

وقد قررتُ لعلومه من مناقبكم ، وبُعد شأوكم ، وغريب مَنْحاكم ، ما شهدَت به آثاركم الشَّائعة ، الخالدة في الرسائل المتأدِّية ،

(١) رجل ظنين : متهم . وهو ينظر الى قول الله تعالى : « وما هو على الغيب بظنين » (آية ٢٤ من سورة التكوير) .

(٢) الضنين : البخيل .

(٣) يقال : أطلعته طلعي ؛ أي بثثته سري .

(٤) الولاد ، بالكسر : الولادة .

وعلى ألسِنَة الصادر والوارد من الكافة ؛ مِن حَمل الدولة ، واستقامة السياسة؛ ووقَفتُه على سلامكم ، وهو يُراجعكم بالتَّحية،ويساهمكم بالدُّعاء ،

وسلامي على سيدي ، وفَلْذَةِ كَبِدي[1] ومَحلّ وَلَدي ، الفقيه الزكي الصَّدر ابي الحَسَن نَجلِكم ، أعزَّه الله ؛ وقد وقع منِّي مَوقعَ البُشرى حلُوله من الدَّولة بالمكان العزيز ، والرُّتبة النابهة ، والله يُلحِفكم جميعاً رِداء العافية والستر ويُمهِّد لكم محلّ الغِبْطةوالأمن، ويحفظ عليكم ما اسبغَ من نعمته ، ويُجريكم على عوائد لُطفه وعنايته ؛ والسلام الكريم يخصُّكم من المحبِ الشاكر الداعي الشائق شيعةِ فضلكم : عبدالرحمن بن خَلدُون ، ورحمةُ الله وبركاته في يوم الفطر عامَ اثنين وسبعين وسبع مائة .

وكان بعث اليّ مع كتابه نسخة كتابه الى سُلطانه ابن الاحمر صاحب الاندلس ، عندما دخل جبل الفتح ، وصار الى إيالة[2] بَني مَرين ، فخاطبه من هنالك بهذا الكتاب ، فرأيتُ ان أُثبِتَه هنا وان لم يكن من غرض التأليف لغرابته ، ونهايته في الجودة ، وان مِثلَه لا يُهمَل من مثل هذا الكتاب ، مع ما فيه من زيادة الاطِّلاع على

---

(١) قطعة كبدي .
(٢) الإيالة ، بكسر الهمزة : الولاية ؛ يقال : آل على القوم أولا ، وايالا ، وايالة بمعنى ولي عليهم .

اخبار الدول في تفاصيل احوالها . ونصّ الكتاب :

بانوا فمن كان باكياً يبكي	هذي ركاب[1] السُّرى بلا شكِّ
فمن ظهور الركاب[2] معملةً	الى بطون الرُّبى[3] الى الفُلْكِ
تصدّع الشَّمْل مثلما انحدرتْ	الى صُبوبٍ[4] جواهرُ السِّلكِ
منَ النَّوى[5] قبلُ لم أزَلْ حذِرا	هذى النَّوى جلّ مالكُ المُلْكِ

مولاي . كان الله لكم وتولّى أمركم . أُسلِّم عليكم سلامَ الوداع ، وأدعو الله في تيسير اللّقاء والاجتماع ، بعد التفرُّق والانصداع ؛ وأقرّر لديكم ان الانسان أسير الأقدار ، مسلوب الاختيار ، متقلِّب في حكم الخواطر والأفكار ، وان لابد لكل اول من آخر ، وان التفرق لمَّا لزم كلّ اثنين بموتٍ او في حياة ، ولم يكن منه بُد ، كان خيرُ انواعه الواقعة بين الاحباب ، ما وقع على الوجوه الجميلة البريئة من الشُرور .

ويعلم مولاي حالَ عبده منذ وصل اليكم من المغرب بولدكم

(١) الركاب ، بكسر الراء : جمع راكب ؛ والسرى ، كهدى : سير عامة الليل .

(٢) الركاب ، ككتاب : الإبل التي تحمل القوم ، واحدتها راحلة ، ولا واحد لها من لفظها .

(٣) جمع ربوة ؛ وهي ما ارتفع من الأرض .

(٤) الصبوب ، بالضم : الموضع المنحدر ، كالصبب ؛ وبه فسر وصف النبي صلى الله عليه وسلم : « كأنما ينحط من صبب » .

(٥) النوى ، مؤنثة : الوجه الذي ينتويه المسافر من قرب أو بعد .

ومُقامُه لديكم بحال قَلق وقُلَعَة[١] ، لولا تعليلكم ، ووعدكم ، وارتقاب اللّطائف في تقليب قلبكم ، وقطع مراحل الايام حريصاً على استكمال سِنّكم ، ونهوض ولدكم واضطلاعكم بامركم ، وتمكّن هدنة وطنكم ، وما تحَمَّل في ذلك من ترك غرَضه لغرضكم ، وما استقرَّ بيده من عهودكم ، وأن العبْد الان لما تسبَّب لكم في الهُدنة من بعد الظُّهور والعز ، ونُجح السَّعْي ، وتأتّى لسنين كثيرة الصُّلحُ ، ومن بَعد أن لم يبقَ لكم بالاندلس مُشَغِّب من القرابة ، وتحرَّك لمطالعة الثُّغور الغَربيَّة ، وقَرُب من فُرضَة المجاز[٢] ، واتصال الارض ببلاد المشرق ، طرَقته الافكار ، وزعزعت صَبرَه رياحُ الخواطر ، وتذكّر إشراف العُمْر على التمام ، وعواقِب الاستغراق ، وسيرة الفُضلاء عند شُمول البياض ، فغَلَبَته حال شديدة هَزمت التعشق[٣] بالشَّمل الجميع ، والوطن المليح ، والجاه الكبير ، والسلطان القليل النظير ، وعمِل بمُقتضى قوله : « موتوا قبل ان تموتوا »[٤] فان صحت هذه الحال المرجوُّ من امداد الله ، تنقَّلَت الاقدام الى أمام ، وقويَ التعلق بعُروة الله الوُثقى ، وان وقع العجزُ ، وافتضح

(١) يقال : مكان قلعة (كهمزة) : ليس بمستوطن ، وهو على قلعة : أي رحلة .
(٢) يريد الميناء الذي يجاز منه الى المغرب من الاندلس ؛ وهو جبل طارق .
(٣) التعشق : اللزوم للشيء من غير مفارقة .
(٤) المعنى : « موتوا اختياراً قبل أن تموتوا اضطراراً ؛ والمقصود بالموت الاختياري : ترك الشهوات ، وما يترتب عليها من الزلات والغفلات » .

العزْم ، فالله يعاملنا بلُطفه . وهذا المرتَكَب مرامٌ صعبٌ ، لكن سَهَّله عليّ أمور : منها ان الانصراف لَمَّا لم يكُن منه بُد ، لم يتعين على غير هذه الصورة ، إذ كان عندكم من باب المُحال . ومنها ان مولاي لو سمح لي في غرض الانصراف ، لم تكُن لي قُدرة على موقِف وَداعه ، لا والله ! وَلَكان الموت أسبقَ اليّ ؛ وكفى بهذه الوسيلة الحُبّية — التي يعرفها — وسيلة . ومنها حِرصي على ان يظهر صدقُ دعواي فيما كُنت اهتِف به ، وأظُنّ اني لا أصدُقُ . ومنها اغتنامُ المفارَقة في زمن الامان ، والهدنة الطويلة ، والاستغناء ؛ اذ كان الانصراف المفروض ضرورياً قبيحاً في غير هذه الحال . ومنها — وهو اقوى الاعذار — انني مَهما لم أطِق تَمام هذا الامر ، او ضاق ذرعي به ، لعجزٍ ، او مرضٍ ، او خوفِ طريقٍ ، او نَفاد زادٍ ، او شوقٍ غالبٍ ، رجعتُ رجوع الاب الشَّفيق ، الى الولد البَرِّ الرَّضي ، اذ لم أخلِّف ورائي مانعاً من الرجوع ، من قولٍ قبيح او فعل ؛ بل خلَّفتُ الوسائلَ المَرعيَّة ، والآثار الخالدة ، والسِّيَر الجميلة ؛ وانصرفتُ بقَصْدٍ شريف فُقت به اشياخي ، وكبارَ وطني ، واهل طَوْري ، وتركتُكم على اتمِّ ما أرضاه ، مُثنياً عليكم ، داعياً لكم . وان فسَح الله في الأمد ، وقضى الحاجة ، فأملي العودةُ الى ولدي وتُربتي ،

وان قُطع الاجل ، فارجو ان اكون ممّن وقع أجره على الله[1] .

فإن كان تصرّفي صواباً ، وجارياً على السّداد ، فلا يُلام من اصاب ، وان كان عن حمق ، وفساد عقل ، فلا يُلام من اختلّ عقلُه ؛ وفسد مزاجُه ، بل يُعذَر ، ويُشفَقُ عليْه ، ويُرحم ؛ وإن لم يُعطِ مولايَ أمري حقّه من العدل ، وجُلِبت الذّنوب ، وحُشرت بعدي العُيوب ، فحياؤه وتناصفه يُنكِر ذلك ، ويستحضر الحسنات ؛ من التّربية والتّعليم وخدمة السّلف وتخليد الآثار وتسمية الولد وتلقيب السلطان ، والارشاد للأعمال الصّالحة والمُداخلة والملابسة ؛ لم يتخلّل ذلك قطُّ خيانةٌ في مالٍ ولا سرّ ، ولا غشٌّ في تدبير . ولا تعلّق به عار ، ولا كدّره نقص ، ولا حمل عليه خوفٌ منكم ، ولا طمعٌ فيما بيدكم ؛ فإن لم تكن هذه دواعي الرّعي والوُصلة والابقاء ، ففيم تكون بين بني آدم ؟

وأنا قد رحلت . فلا أوصيكم بمال ، فهو عندي أهونُ متروك ؛ ولا بولد فهُم رجالكم ، وخُدّامكم ، وممّن يحرِص مثلكُم على الاستكثار منهم ؛ ولا بعيال ، فهي من مُربّيات بيتكُم ، وخواصّ داركم ؛ إنما أوصيكم بحظّي العزيز ــ كان عليَّ بوطنكم ، وهو أنتم ؛

(١) يشير الى قول الله تعالى : « ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » آية ١٠٠ من سورة النساء .

فأنا أوصيكم بكُم ، فارْعوني فيكم خاصّة . أوصيكم بتقوى الله ، والعَمَل لغَد ، وقبض عِنان اللهو في مَوطِن الجدّ ، والحياء من الله الذي مَحّصَ وأقال ، وأعادَ النِعمة بعد زوالها[١] « لينظر كيف تعملون »[٢] . وأطلب منكم عِوضَ ما وفّرتُه عليكم ، من زاد طريق ، ومُكافأة ، وإعانة ، زاداً سهلاً عليكم ، وهو أن تقولوا لي : غفَر الله لك ما ضيَّعتَ من حقّي خطأً أو عمداً ؛ وإذا فعلتم ذلك فقد رضيت .

واعلموا أيضاً على جهة النَّصيحة أن ابنَ الخطيب مشهور في كل قُطْر ، وعند كُلّ مَلِك ؛ واعتقادُه ، وبِرُّه ، والسؤالُ عنه ، وذكرهُ بالجميل ، والاذنُ في زيارته ، نجابةٌ منكم ، وسَعَةُ ذرْع[٣] ودَهاء ، فإنّما كان ابنُ الخطيب بوطنكم سَحابةَ رحمةٍ نزَلت ، ثم أقشَعت[٤] ، وتركت الأزاهر تفوح ، والمحاسنَ تلوح ؛ ومِثاله معكم مِثالُ المُرضِعَةِ أرضَعت السياسةَ ، والتَّدبيرَ المَيْمُون ، ثم رقدَتكم في مَهد الصُّلح والأمان ، وغطَّتكم بقِناع العافية ، وانصرفت الى الحمَّام تَغسِل اللَّبنَ والوَضر ، وتَعُود ؛ فإن وَجدت الرَّضيع نائما

(١) يشير الى حادثة خلع ابن الاحمر عن ملكه ، والتجائه الى بني مرين بالمغرب لاعادة ملكه اليه .

(٢) اقتباس من الاية ١٢٩ من سورة الاعراف .

(٣) يقال : رجل واسع الذرع ، والذراع : اي متسع الخلق .

(٤) اقشع السحاب : تفرق واقلع .

فحَسَن ، أو قد انتبَه فلم تَتركه إلّا في حَدّ الفِطام . ونَختِمُ لكم هذه الغزَارة[1] بالحلف الأكيد : إني ما تركتُ لكم وجهَ نصيحةٍ في دينٍ ، ولا في دُنيا ، إلّا وقد وفّيتها لكم ، ولا فارقتُكم إلاّ عن عجْز ؛ ومن ظنّ خِلاف هذا فقد ظلَمَني وظلمكم ؛ والله يرشدكم ويتولّى أمرَكم . ونَقُول[2] : خاطِركم في ركوب البحر .

نُسخة الكتاب ، وفي طَيِّها هذه الأبيات :

صَاب[3] مُزْن[3] الدُّموع من جَفْن صَبِّك[4]
عندما استَرْوَح[5] الصبَا مِن مَهَبِّكْ
كَيفَ يَسْلُو يا جَنَّتي عنك قَلْبٌ كانَ قَبلَ الوُجودِ جُنَّ بحُبِّكْ
ثُم قُل كيف كان بعدَ انتشاء الرُّوح[6] من أُنسِك الشَّهيِّ وقُرْبكْ
لم يَدَع بيتَك المَنيعَ حِمَاهُ لِسواهُ إلاّ الى بَيْتِ رَبِّكْ
أَوْلِ عُذْري الرِّضا فما جئتُ بِدْعاً دُمتَ والفضلُ والرِّضا من دَأْبِكْ
وإذا ما ادَّعيتَ كَرْباً لفَقْدِي أينَ كَرْبي ووَحشَتي من كَرْبِكْ

(١) الغزارة : الكثرة من كل شيء ؛ ويريد هنا : الكثرة من الكلام ليس تحتها طائل .
(٢) كذا ، وفي ب : ويعول .
(٣) صاب المطر ، يصوب : نزل . والمزن : السحاب .
(٤) الصب :العاشق .
(٥) استروح ؛ اشتم .
(٦) انتشاء الروح : سكر الروح ، من انتشى بمعنى سكر .

وَلَدِي في ذَرَاكَ وَكْرِي فِي دَوْ ... حِكَ[1] لَحْدِي وتُربَتي في تُرْبِك

يا زماناً أغرى الفراقَ بشَمْلِي ... لَيْتَنِي أُهْبَتي أَخذت[2] لحَرْبِكْ

أركَبْتني صُروفُك الصَّعْبَ[3] حتَّى ... جِئْتَ بِالبَيْنِ وَهو أصعبُ صَعْبِكْ

وكَتب آخرَ النُّسخة يُخاطِبني :

هذا ما تيسَّر، والله وليُّ الخيرَة لي ولكم من هذا الخُبَاط[4] الذي لا نِسْبَةَ بينه وبيْن اولِي الكَمال. رَدَّنا الله إليه، وأخلصَ توكُّلَنا عليه، وصرف الرَّغبة الى مَا لَدَيْه.

وفي طيِّ النُّسخة مُدْرَجةٌ نَصُّها :

رضي الله عن سيادتكم. أوْنِسُكم بما صدَر منِّي أثناءَ هذا الواقع ممَّا استحضَرَه الولد في الوقْت؛ وهو يُسَلِّم عليكم بما يَجِبُ لكُم؛ وقد حصل من حُظْوة هذا المقام الكريم على حظٍّ وافِر، وأجزل إحسَانُه، ونُوِّه بجِرايَته، واثْبِتَ الفُرسانُ خلفَه. والحمدُ لله انتهى.

ثم اتَّصل مُقَامي بِبَسْكَرة، والمغربُ الأوسط مُضطَرِبٌ بالفتنة

(١) في ذراك : في كنفك . وكر الطائر : عشه . دوح جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة

(٢) اخذ اهبته : اعد عدته .

(٣) ركب الصعب والذلول : الامر الشديد والسهل .

(٤) الخباط ، كغراب : داء مثل الجنون .

المانعة من الاتّصال بالسلطان عبد العزيز، وحَمزةُ بن عليّ بن راشد ببلاد مَغْراوة، والوزيرُ عُمَر بن مَسْعود في العَساكر يُحاصره بِحصن تاجحْمُومتْ، وأبو زَيّان العَبْد الوادِي ببلاد حُصَيْن، وهم مُشتَمِلون عليْه وقائمون بدَعوتِه.

ثم سَخِط السلطانُ وزيرَه عُمَر بن مَسْعود، ونَكِر منه تقصيرَه في أمْر حَمزةَ وأصحابِه، فاستدْعاهُ الى تِلِمْسان، وقَبَضَ عليْه، وبعثَ به الى فاسَ مُعْتَقَلا، فحُبِسَ هناك؛ وجهَّز العساكرَ مع الوزير أبي بَكْر بن غازي، فَنهضَ إليه، وَحاصره؛ ففرّ من الحِصْن، ولحِقَ بمَلْيانَةَ مجتازاً عليها، فأُنذِر به عاملُها فتقبَّض عليه، وسيق الى الوَزير في جماعة من أَصحابه، فضَرَب أعناقَهم، وصلَبَهم عِظَةً ومُزْدَجراً لأهل الفتْنَة.

ثم أوعز السلطان الى الوزير بالمسير الى حُصَين، وأبي زَيّان، فسَار في العَسْكر، واسْتنفَر أحياءَ العرَب من زُغبةَ فأوعَبهم، ونَهضَ الى حُصَيْن، فامتَنعوا بجَبَل تِيطَري. ونَزَل الوزيرُ بعساكره ومَن معه من أحياء زُغبة على الجبل تِيطَري، مِن جهة التل، فأخذَ بمخنَّقِهم، وكاتبَ السلطانُ أشياخ الدَّواوِدَة من رياح بالمَسير إلى حِصار تِيطَري مِن جهة القِبْلة. وكاتبَ أحمد بن مَزْنى صاحبَ بَسْكَرة بإمدادهم بأعْطِياتهم وكتب إليّ يأمُرني بالمَسيرِ بهم لِذلك،

فاجتَمَعُوا عليَّ ، وسِرتُ بهم أولَ سنة أربع وسبعين ؛ حتى نزلنا بالقطْفَة[1] ، ووَفدتُ ، في جماعة منهم ، على الوزير بمكانه من حِصار تِيطَري ، فحَدَّ لهم حدودَ الخدمة ، وشارَطهم على الجزاء . ورَجعْنا الى أحيائهم بالقَطْفَة ؛ فاشتَدُّوا في حِصار الجبل ، وألجأوهم بسوامّهم[2] وظَهْرهم[3] الى قُنَّته ، فهلك لهم الخفُّ والحافر[4] ، وضاق ذَرعهم[5] بالحصار من كل جانب ؛ وراسَل بعْضُهم في الطاعة خُفْية ، فارتاب بعضُهم من بعض ، فانفضُّوا ليلًا من الجبل ، وأبو زيّان معهم ، ذاهبينَ الى الصَّحراء ؛ واستولى الوزيرُ علَى الجبل بما فيه من مُخلَّفهم . ولما بلغوا مأمَنَهم من القَفْر ، نَبذُوا الى أبي زَيّان عهدَه[6] . فلحِقَ بجبال غَمرَة ، ووفَد أعيانُهم على السلطان عبد العزيز بتِلِمْسان ، وفاءوا الى طاعته ، فتقبَّل فَيْئَتهم ، وأعادهم الى أوطانهم . وتقدم إليَّ الوزيرُ — عن أمر السلطان — بالمَسير مع أولادِ يَحيَى بن علِيّ بن سِباع ، للقَبْض على أبي زَيّان في جَبَل غَمرَة ، وفاءً بحق الطاعة ، لأن غَمرَة من رَعايَاهم ؛ فمضينا لذلك ، فلم نجده عندهم . وأخبرُونَا أنه ارتحل عنهم

---

(١) تقع القطفة شرقي مدينة مليانة ؛ وفي بغية الرواد ٢/٨١ : « ... نزلوا القطفة من بلاد حصين ، فرحل مشرقا اليهم ، ونزل مليانة » .

(٢) السوام ، والسائمة : الابل الراعية والمال الراعي .

(٣) الظهر : الركاب التي تحمل الانسان في السفر .

(٤) الخف للبعير والناقة ، بمنزلة الحافر للفرس .

(٥) ضاق به ذرعا : مثل للذي سقطت قوته دون بلوغ الامر ، والاقتدار عليه .

(٦) نبذ العهد : نقضه ، والقاه الى من كان بينه وبينه .

الى بلد وارْكَلاَ من مُدُن الصحراء ؛ فنزل على صاحبها ابي بكر بن سليمان ؛ فانصرفنا من هُنالك. ومضى أولاد يحيى بن عَلي الى أحيائهم، ورجعت انا الى اهلي ببسكرة ، وخاطبت السلطان بما وقع في ذلك ، وأقمتُ مُنْتظِراً أوامرَه حتى جاءني استدعاؤه الى حضرته ، فارتحلت اليه .

فضل الوزير ابن الخطيب

وكان الوزير ابن الخطيب آيةً من ايات الله في النَّظم والنَّثر ، والمعارف والادب ؛ لا يُسَاجل مَدَاه[1] ، ولا يُهتَدى فيها بمثل هداه.

فمَّا كتَب عن سلطانه الى سلطان تونس جواباً عن كتابٍ وَصل اليه مصْحوباً بهديَّة من الخيل والرَّقيق ، فراجعهم عنه بما نصُّه الى آخره :

الخلافة التي ارتفع في عقائد فَضْلها الأصيل القواعد الخلاف ، واستَقلت مَباني فخرها الشائع ، وعزها الذائع ، على ماأسسه الأسلاف ووجب لحقّها الجازم ، وفرضها اللازم الاعْتراف ، ووسِعت الآملين لها الجوانبُ الرحيبة والاكناف ؛ فامتزاجُنا بعلائها[2] المُنيف ، وولائها الشريف ، كما امتزج الماء والسُّلاف ، وثناؤنا على مجدها

(١) المدى : الغاية .
(٢) العلاء : الشرف .

الكريم ، وفضلها العميم ، كما تأرجت الرياض الافواف [١] ، لما زارها الغمام الوكاف [٢] ؛ ودعاؤنا بطول بقائها ، واتصال علائها ، يَسْمو به الى قرع أبواب السموات العُلا الاستشراف [٣] ، وحرصنا على توفية حقوقها العَظيمة ، وفواضلها [٤] العَميمة ، لا تَحصره الحدود ، ولا تُدركه الاوصاف ، وإن عذر في التقصير عن نَيْل ذلك المرام الكبير الحقُّ والانصاف ، خلافةُ وجْهةِ تعظيمنا اذ توجَّهت الوجوه ومن نُؤْثِره إذا أهمّنا مانرجوه ، ونُفَدّيه ونُبَدّيه [٥] اذا استُمنِح المحبوب واستُدفع المكروه السلطان الكذا [٦] بن ابي اسحق بن السلطان الكذا ، أبي يحيى بن أبي بكر بن السلطان الكذا ، أبي زكرياء بن السلطان الكذا ، أبي اسحق بن الامير الكذا ، أبي زكرياء ابن الشيخ الكذا ، ابي محمّد بن عبد الواحد بن ابي حَفص ، ابقاه الله ومقامُه مقام ابراهيم رزقاً وأمانا . لا يخُص جلبُ الثمرات اليه وقتاً ولا يعيّن زمانا ؛ وكان على من يتخطّفُ الناسَ من حولِهِ [٧] مؤيداً

(١) كذا بالاصول ؛ ولعل أصل الكلام : « الرياض بالافواف » ؛ والفوف ، بالضم : الزهر والجمع افواف .

(٢) وكف الماء : سال .

(٣) الاستشراف : التطلع الى الشيء .

(٤) الفواضل : الايادي الجميلة .

(٥) فداه : قال له فداك ؛ ونبديه : نبرزه . ولعل المعنى : نضعه في مكان ممتاز .

(٦) ادخل ابن الخطيب « ال » على « كذا » الموضوعة للكناية عما لم يرد المتكلم ذكره وقد شاع في رسائله هذا الاستعمال .

(٧) اشارته الى الايات ٣٥ — ٣٧ من سورة ابراهيم واضحة .

بالله مُعانا .

معظِّمُ قدره العالي على الاقدار، ومُقابِلُ داعي حقّه بالابتدار، المُثنى على معاليه المخلدة الآثار، في اصونَة (١) النِّظام والنِّثار (٢)، ثناء الروضة المِعطار، على الامطار، الداعي الى الله بطول بقائه في عصمةٍ مُنسَدلة الاستار، وعزة ثابتة المركز مستقيمة المدار، وان يختم له بعد بلوغ غايات الحال، ونهاية الاعمال، بالزلفى وعقبى الدار .

عبد الله الغني بالله امير المسلمين، محمّد بن مولانا أمير المسلمين، أبي الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر .

سلام كريم كما حملت احاديث الازهار نسمات الاسحار، وروت ثغور الاقاحي والبَهار، عن مُسَلْسلات الانهار، وتجلى على مِنصة الاشتِهار، وجهُ عَروس النَّهار، يَخُصُّ خلافتكم الكريمة النِّجار، العزيزة الجار ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي أخفى حكمته البالغة عن اذهان البَشر، فعجزت عن قياسها، وجعل الارواح « اجناداً مجنَّدة » — كما ورد في

(١) جمع صوان، وهو ما صنت به الشيء .
(٢) النثار : النثر .

الخبر [١] ـ تَحِنُّ الى أجناسها ، مُنجِد هذه المِلّة من اوليائه الجِلة بمَن يروض الآمال بعدَ شِماسِها [٢] ، ويُيَسِّر الاغراض قبل التِماسها ، ويُعنَى بتجديد المودّات في ذاته وابتغاء مرضاته على حين اخلاق لباسِها ؛ الملك الحقّ ، واصل الاسباب بحوله بعد انتكاث امراسِها [٣] ومغني النفوس بطوله ، بعد افلاسها ـ حمداً يُدِرُّ أَخلاف [٤] النِّعم بعد إبساسِها [٥] ، وينشُر رِممَ الآموال من أرماسها [٦] ، ويقدِّسُ النُّفوس بصفات ملائكة السموات بعد إبلاسها [٧] .

والصلاةُ والسَّلام على سَيدنا ومولانا محمدٍ رسولِه سِراجِ الهداية ونِبْراسها [٨] عند اقتناء الأنوار واقتباسها ، مُطهِّر الأرضِ من أوضارها وأدناسها ، ومُصطَفَى اللهِ من بين ناسِها ، وسيد الرُّسُل الكرام ما بين شِيثِها وإلياسها ، الآتي مُهيْمِناً على آثارها ، في حين

---

(١) يشير الى الحديث : « الارواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »

(٢) شمست الدابة شماسا . شردت وجمحت .

(٣) جمع مرس ؛ وهو الحبل . وانتكث الحبل . انتقض بعد ان كان مبرما .

(٤) الاخلاف ، جمع خلف (بالكسر) ؛ وهو الضرع .

(٥) ابس بالناقة . دعا ولدها لتدر على حالبها .

(٦) جمع رمس ؛ وهو القبر .

(٧) الإبلاس : القنوط ، وقطع الرجاء .

(٨) النبراس (بالكسر) : المصباح .

فَترتهــا[١] ومن بعد نُصْرتهــا واستيئاسها[٢] ، مُرغِم الضَّراغم في أخيــاسها[٣] ، بعد افترارهــا وافتراسها[٤] ، ومُعفِّر أجرام الأصنام ومُصْمت أَجْراسها .

والرِّضا عن آله وأَصحابه وعِترته وأحزابه ، حُماة شِرْعَتِه البَيضاء وحُرّاسِهــا ، ومُلْقِحي غِراسهــا ، ليوث الوَغى عند احتدام[٥] مِرَاسها[٦] ، ورُهبــان الدُّجى تَتَكفَّل مُنــاجاة السَّميع العليم ، في وَحْشَة الليل البَهيم بإينــاسها ، وتُفَــاوِحُ نسيمَ الأسحــار ، عند الاستغفار ، بطيب أنفاسها .

والدُّعاء لخلافتكم العلية المُسْتنصرية بالصَّنائع التي تُشعشِــع أيدي العِزَّة القَعْساء[٧] من أكواسهــا ، ولا زالت العصمةُ الالهية كفيلةً باحترامها واحتراسها ، وأنباء الفتوح ، المُؤَيَّدَة بالملائكة والرُّوح ، ريحــانَ جُلاّسها وآيات المفــاخر التي تَركَ الأولُ للآخِر ، مُكْتَتَبَة الأَسطار بأطراسها ، وميادينُ الوجود مَجالا لجيــاد جُودهــا وبأسها ،

(١) الفترة : ما بين كل نبيين ، أو رسولين من زمان انقطعت فيه الرسالة .

(٢) استيأس : يئس ؛ وابن الخطيب ينظر الى الآية : « حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ... الخ »

(٣) جمع خيس ؛ وهو موضع الأسد .

(٤) افتر الأسد : أبدى أسنانه ؛ يريد بعد أن كانت تفتر عن أسنانها وتفترس .

(٥) الاحتدام : شدة الحر ، واحتدمت النار : التهبت .

(٦) المراس : المارس .

(٧) عزة قعساء : ثابتة .

والعزُّ والعَدلُ منسُوبين لفُسطاطها[١] وقُسطاسها ، وصفيحة[٢] النَّصر العزيز تَقبِضُ كفُّها ، المؤيّدة بالله ، على رياسها[٣] ، عند اهتياج أضدادها ، وشَرَهِ[٤] أنكاسها[٥] ، لانتهابِ البلاد وانتهاسها[٦] وهبوبُ رياحِ رياحها وتمرد مِرْداسها[٧] .

فإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم من كتائب نصره أمداداً تُذعن أعناقَ الأنام ، لطاعة مَلِكِكم المنصور الأعلام ، عند إحساسها[٨] ، وآتاكم من آيات العنايات ، آيةً تضرب الصَّخرةَ الصَّماء ، ممّن عصاها بعَصاها ، فتُبادر بانبجاسها[٩] ، - من حمراء غَرناطة ، حرسها اللهُ ، وأيامُ الاسلام ، بعناية الملك العلاّم تحتفِل وفُود الملائكة الكِرام ،

---

(١) الفسطاط : المدينة ، ومجتمع أهل المصر حول جامعهم .
(٢) الصفيحة : السيف العريض .
(٣) رئاس السيف ، ورياسه : مقبضه ، وقائمه .
(٤) الشره : شدة الحرص ، وأسوؤه .
(٥) الأنكاس : جمع نكس ؛ وهو الرجل الضعيف .
(٦) انتهس اللحم : أخذه بمقدم أسنانه . والمراد الاستيلاء على الأراضي وانتقاصها من الأطراف ، فعل من ينتقص قطعة اللحم بالأكل .
(٧) رياح من أكثر القبائل الهلالية جمعاً ، وأوفرهم عدداً . وأبوهم : رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر . والرياسة على رياح في عهد ابن خلدون لأبناء داود بن مرداس بن رياح ؛ والى داود هذا تنتسب « الدواودة » .
(٨) الإحساس : الرؤية والعلم .
(٩) انبجس الماء : تفجر ؛ وفي الكلام معنى الآية :
« ... وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشرة عينا الخ » آية ١٦٠ من سورة الأعراف .

لولائها وأعراسها ، وطواعين الطِّعان ، في عُدوِّ الدِّين المُعان ، تُجدِّد عَهْدَها بعام عَمْواسها[١] .

والحمدُ لله حمداً مُعادا يُقيِّد شواردَ النِّعَم ، ويستَدِرُّ مواهب الجود والكَرَم ويُؤمِّن من انتكاث الجدود[٢] وانتكاسها[٣] ، ولي الآمال ومِكاسها[٤] ؛ وخلافتكم هي المَثابة التي يُزْهى الوجود بمحاسن مَجدها ، زَهوَ الرياض بوَرْدها وآسها ، وتُستَمدُّ أضواء الفضائل من مِقْباسها[٥] ، وتَرْوي رُواة الافادة ، والاجادة غَريبَ الوِجادة[٦] ، عن ضَحَّاكها وعبَّاسها[٧] . والى هذا أعلى الله معارج قَدرِكم ، وقد فَعَل ، وأنطق بحُجَج فخركم مَن احتفى وانتَعَل ،

(١) عمواس ، بفتح العين والميم ، وبسكون الميم مع فتح العين أو كسرها : قرية بفلسطين بين الرملة وبيت المقدس . وفيها وقع الطاعون الذي كان في سنة ١٨ هـ ، مات فيه كثير من الناس ، ويقال انه أول طاعون كان في الإسلام . تاريخ الطبري ٢٠١/٤ – ٢٠٣ ، ياقوت ٢٢٥/٦ ، تاج العروس (عمس) .

(٢) انتكث : انصرف . والجد : الحظ والبخت ، والجمع : الجدود .

(٣) انتكس : انقلب على رأسه ، وخاب وخسر .

(٤) المكاس : المشاحة ، والمشاكسة .

(٥) أقبس فلان : أعطى ناراً ، والمقباس : ما قبست به النار .

(٦) الوجادة (بالكسر) : أن تجد بخط غيرك شيئاً ، فتقول عند الرواية : وجدت بخط فلان كذا ؛ وحينذاك يقال : « هذه رواية بالوجادة » .

وللمحدثين في كيفية التحديث عن طريق الوجادة ، ودرجة الثقة بها ، وشروطها ؛ تفصيل تجده في « فتح المغيث » للعراقي ١٥/٣ وما بعدها .

(٧) المسمون بـ « الضحاك » ، و « عباس » من المحدثين كثير ، وليس يريد ابن الخطيب أحداً منهم بعينه ، وانما يقصد الى « الطباق » بين ضحاك ، وعباس .

فإنّه وصلنا كتابكم الذي حسبناه، على صنائع الله لنا، تميمةً[١] لا تلقع[٢] بعدها عين، وجعلناه ـ على حلل مواهبه ـ قلادةً لا يُحتاج معها زين، ودعوناه من جيب الكنانة[٣] آيةً بيضاء الكتابة، لم يبقَ معها شكٌّ ولا مين، وقرأنا منه وثيقة ودٍّ هضم فيها عن غريم الزّمان دين، ورأينا منه إنشاء، خدم اليراع بين يديه وشّاء، واحتزم بهميان[٤] عقدته مشّاء، وسُئل عن معانيه الاختراع فقال: « إنّا أنشأناهنّ إنشاء » ؛ فأهلًا به من عربيّ أبيٍّ يصف السّانح والبانة[٥]، ويبين فيحسن الابانة، أدّى الأمانة، وسُئل عن حيّه فانتمى الى كنانة[٦]، وأفصح وهو لا ينبس[٧]، وتهلّلت قسماته وليل حبره يعبس ؛ وكأنّ خاتمه المقفل على صوانه[٨]، المتحف بباكر الورد في غير أوانه، رعف من مسك عنوانه ؛ ولله من

(١) التميمة : عوذة تعلق على الانسان يتعوذ بها .

(٢) لقعه بعينه : أصابه بها ، ويقول أبو عبيدة : ان اللقع لم يسمع الا في الإصابة بالعين .

(٣) الكنانة : جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها .

(٤) الهميان (بالكسر) : المنطقة ؛ والكلام على تشبيه القلم المتخذ من القصب ، وفي وسطه عقدة ، بالرجل قد اتخذ منطقة في وسطه .

(٥) السانح : ما أتاك من عن يمينك من ظبي أو طير ؛ وهو مما يتيمنون به . والبانة واحدة البان ؛ وهو شجر يسمو ويطول في استواء مثل نبات الأثل ، ويتخذ منه دهن .

(٦) كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، أبو القبيلة ؛ وهو الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم .

(٧) النبس : أقل الكلام ؛ وما نبس بكلمة : أي ما تكلم .

(٨) الصوان : ما تصون به الشيء .

قَلَم دَبَّج تلك الحُلل ، ونقع بمُجَاج[1] الدَّواة المستمِدَّة من عين الحياة الغُلَل[2] ؛ فلقد تَخارق في الجود ، مُقتدياً بالخلافة التي خلد فَخرُها في الوجود ، فجاد بسِرِّ البيَان ولُبابه ، وسمَح في سَبيل الكَرَم حتى بماء شَبابه ، وجمَع لفَرط بَشاشته وفَهامته ، بين شَهادة السَّيف بشَهامته ، فمَشى من التَّرحيب ، في الطِّرْس الرَّحيب ، على أمِّ هامتِه .

وأكْرِم به من حكيم ، أفصَح بمَلغوز[3] الاكسير[4] ، في اللفظ اليَسير ، وشَرَح بلسان الخبير ، سِرَّ صناعة التَّدبير[5] ، كأنما خدَم المَلِكَة السَّاحرة[6] بتلك البِلاد ، قَبْل اشْتِجار الجِلاد[7] ، فآثَرَته بالطَّارف من سِحْرِها والتِّلاد ، أو عثَر بالمُعلَّقة ، وتِيك القَديمة المُطَلَّقة ، بدَفينة دار ، أو كَنْزٍ تحتَ جِدار ، أو ظفِر لِباني الحَنايا[8] ،

(١) مجاج الدواة : ما تمجه .
(٢) نقع الماء غلته : أروى عطشه .
(٣) كذا في الأصول . والصواب « ملغز » ، لأن فعله رباعي .
(٤) الإكسير : الكيمياء ، وهي كلمة مولدة . ولأهل الصنعة في الإكسير كلام مغلق طويل فيه العجب . ويطلقون الاكسير أيضا على « الحجر المكرم » ؛ وهو المادة التي تلقى على المواد حال ذوبانها ، فتحولها الى ذهب أو فضة بزعمهم . وانظر تاج العروس (كسر) .
(٥) صناعة التدبير : يعني بها تحويل المعادن الى الذهب أو الفضة ؛ وتلك كانت ، ولا تزال ، مشكلة المشتغلين بعلم الكيمياء القديم .
(٦) يعني بالملكة الساحرة الكاهنة البربرية ، من قبيلة جراوة احدى قبائل زناتة .
(٧) اشتجر القوم : تشابكوا ، وتشاجروا بالرماح : تطاعنوا . والجلاد : الضرب بالسيف .
(٨) الحنايا : جمع حنية ، وهي القوس . ويريد بها : مجرى الماء الذي اجتلب الى « قرطاجنة » ، ووضع على أعمدة عالية ، عقدت بأقواس وصلت بين عدة جبال منحازة بعضها من بعض ، ثم أجرى الماء فوق هذه « الحنايا » العالية . وكانت المسافة بين قرطاجنة ، وبين منبع الماء ثلاثة أيام ؛ ولا تزال بقايا هذه الحنايا موضع العبرة من مشاهديها . انظر ياقوت — ٣٢٣/٤ .

قبلَ أن تَقطَع به عن أمـانيه المَنَايا ، ببديعَة ، أو خلَف جرجير[١] الرُّوم ، قبلَ مُنـازَلة القُروم ، على وَديعـة ، أو أسلَمه ابنُ أبي سَرْح[٢] ، في نشَبٍ للفَتْح وسَرْح[٣] ، أو حَتم له رَوْح بن حـاتم[٤] ببلوغ المَطْلَب ، أو غلَبَ الحظوظَ بخِدَمة آل الأغلَب[٥] ، أو خصَّه زيادةُ الله بمَزيد[٦] ، أو شاركَ الشّيعةَ في أمرِ أبي يَزِيد[٧] ، أو سَار على مِنهاج ، في مُناصحة بَني صِنْهَاج ، وفضَحَ بتخليد أمداحهم كُلَّ هاج .

---

(١) هو البطريق الذي كانت له الولاية على المغرب من قبل الإمبراطور البيزنطي . وقد انفصل عـن بيزنطة ، واستقل بالمغرب عند الفتح الاسلامي ؛ والعرب يسمونه جرجير . وابن الخطيب يشير الى ما كان من الحوادث بين الجيش الاسلامي ، وبين جرجير أيام الفتح .

(٢) هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح ؛ كان أحد كتاب الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ، وأهدر دمه يوم فتح مكة ؛ وكان محمد بن أبي بكر الصديق يقول عنه حين ولي مصر : انه لم يعد الى الاسلام بعد ردته . ابن الأثير ٣/٥٧ ، ٨٢ .

(٣) النشب : المال والعقار ؛ والسرح : المال يسام في المرعى ، يغدى به ويراح . وقد صالح أهل افريقية عبد الله بن أبي سرح على مليونين وخمسمائة ألف دينارا ، وبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألفاً ، وقد أصبح هذا المبلغ مضرب المثل ، والى ذلك ينظر ابن الخطيب . انظر العبر م ٢ .

(٣) هو روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ؛ كان من الكرماء الأجواد . ولي الكوفة ، ثم السند ، ثم البصرة أيام المهدي ؛ وولي افريقية أيام الرشيد ، وبها توفي سنة ١٧٤ . وفيات الأعيان ١/٢٣٥ .

(٤) هو الأغلب بن سالم ، أحد الذين قاموا مع أبي مسلم الخراساني بالدعوة العباسية ، وتولى الأغلب أيام المنصور ولاية القيروان ؛ وابنه ابراهيم بن الاغلب ، هو رأس دولة الأغالبة بتونس ، التي تبتديء سنة ١٨٤ هـ ، وتنتهي سنة ٢٩٦ هـ .

(٦) زيادة الله هو ثاني ملوك بني الأغلب ، (٢٠١ — ٢٢٣) قلده الخليفة المأمون العباسي .

(٧) هو أبو يزيد : مخلد بن كيداد (أو كنداد) بن سعد الله بن مغيث اليفرني ، وقـد عرف أيضا بصاحب الحمار .

وأعجب به، وقد عُزِّز منه مَثْنَى البيانِ بثالث، فجَلَب سِحرَ الأسماع، واسترقاقَ الطِّباع، بين مَثانٍ للابداع ومَثالث، كيف اقتدَر على هذا المَحيد، وناصحَ مع التثليث مَقامَ التوحيد؛ نستغفر اللهَ وَليَّ العَوْن، على الصَّمتِ والصَّوْن، فالقَلَم هو المُوحِّد قبل الكَوْن، والمتَّصِفُ من صِفات السَّادة، أولي العبادة، بضُمور الجِسم وصُفرة اللَّوْن؛ إنما هي كرامةٌ فارُوقيَّة، وأَثارةٌ[1] من حديث سارِيَة[2] وبقيَّةٌ؛ سَفَر وجهُها في الأعقاب، بعدَ طول الانتقاب، وتداوُل الأحقاب؛ ولسانٌ مُناب، عن كريم جَناب؛

(١) الأثارة البقية .

(٢) يشير الى قصة سارية بن زنيم بن عمرو بن عبد الله بن جابر الكناني أمير الجيش الاسلامي في وقعة « نهاوند » ؛ فقد كمن له العدو في جبل ، ولم يكن قد علم به ، فناداه عمر رضي الله عنه من فوق المنبر بالمدينة يحذره «يا سارية ! الجبل، الجبل !» ، فسمع سارية صوت عمر . وهي كرامة ذكروها للفاروق رضي الله عنه . تاج العروس (سرى) .

وإصابةُ السَّهم لسواه مَحسُوبة ، والى الرَّامي الذي سَدَّده مَنسُوبة ؛ ولا تُنكِرْ على الغَمام بارقة ، ولا على المُتحقِّقين بمَقام التَّوحيد كرامةً خارقة ، فما شاءه الفضلُ من غرائب برٍّ وَجدَ ، ومحاريبِ خُلُق كَريم رَكَع الشُّكْر فيها وسَجَد ؛ حديقةُ بيانٍ استثارت نوائمَ الابْداع مِن مَهَبِّها ، واستزارت غمائم الطباع من مَصَبِّها ، فآتت أُكلَها مرَّتيْن بإذن رَبِّها ؛ لا . بل كَتيبةُ عِزٍّ طاعَنَتْ بِقَنَا[1] الألِفاتِ سُطورُها ، فلا يرومُها النَّقدُ ولا يَطورُها[2] ، ونزَعت عن قِسيِّ النُّونات خطوطها ، واصطفَّت من بَياض الطِّرس ، وسواد النِّقْس ، بُلْقٌ[3] تحوطُها .

فما كأسُ المُدير ، على الغَدير[4] ، بينَ الخوَرْنَق[5] والسَّدير[6] ، تقامِر بنَرْدِ[7] الحَباب ، عقولَ ذوي الألباب ، وتُغرِقُ كسْرَى في العُباب[8] ، وتُهدِي ، – وهي الشَّمْطاء[9] – نَشاطَ الشَّباب ؛ وقد

(١) جمع قناة ؛ وهي الرمح .
(٢) لا يطورها : لا يقرب اليها .
(٣) الطرس : الورق . والنقس : الحبر . وبلق : جمع أبلق ، أو بلقاء ؛ وهي الخيول التي في لونها سواد وبياض .
(٤) يشير الى قصة امرىء القيس يوم الغدير ، وهو يوم دارة جلجل .
(٥) الخورنق : قصر النعمان بن المنذر بظاهر الحيرة .
(٦) السدير : قصر للنعمان أيضاً بالحيرة ، قريب من الخورنق .
(٧) النرد : أعجمي معرب ، وورد في الحديث : « نردشير » ؛ وهو نوع مما يقامر به .
(٨) بنى كسرى أبرويز – فوق دجلة – بناء اتخذه لمجالس أنسه ، ففاضت دجلة وأغرقته مرات ، أنقذ كسرى فيها من الغرق – والى ذلك يشير ابن الخطيب . انظر الطبري ٢/١٤٤ – ١٤٥ .
(٩) امرأة شمطاء : بيضاء الشعر ؛ ويكنى بذلك عن قدم الخمر .

أَسرجَ ابنُ سُرَيْج[١] وأَلجم، وأفْصح الغَريض[٢] بعدَ ما جَمجَم، وأعرب النَّاي[٣] الأعجَم، ووقّع مَعْبَد[٤] بالقضيب، وشرَعت في حساب العَقْد[٥] بَنانُ الكَفِّ الخَضِيب؛ وكأنَّ الأناملَ فوق مَثالث العُود ومَثانيه، وعند إغراء الثَّقيل بثانية[٦]، وإجابة صدَى الغِناء بين مَغانيه، المراودُ تَشرَع في الوَشْي، أو العَناكب تُسْرِع في المَشْي؛ وَما المُخْبِر بنَيْل الرَّغائب، أو قُدوم الحبيب الغائب؛ لا. بل إشارةُ البَشير، بكُمِّ المُشير، على العَشِير، بأجلبَ للسُرور، مِن زائره المتلَقَّى بالبُرور، وأدْعى للحُبور، من سفيره المُبهج السفور؛ فلم نرَ مثلَه من كَتيبةِ كتاب تَجْنُب[٧] الجُرْدَ، تمرَح في الأرسان[٨]، وتَتشوّف مَجالي ظهورها الى عرائس الفُرسان،

---

(١) أبو يحيى عبيد الله بن سريج المغني المعروف.

(٢) أبو يزيد، وأبو مروان: عبد الملك. ولقب بالغريض لأنه كان طري الوجه غض الشباب؛ وهو من مولدي البربر. أخذ الغناء عن ابن سريج، وعارضه في كل أصواته.

(٣) الناي: المزمار.

(٤) هو معبد بن وهب المغني المعروف. غنى في دولة بني أمية، ومات في أيام الوليد بن يزيد بدمشق.

(٥) حساب العقد، ويسمى حساب العقود أيضا: نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين، ويقال له حساب اليد؛ وفي الحديث: «وعقد عقد تسعين». وقد ألفوا فيه رسائل وأراجيز، منها أرجوزة أبي الحسن علي الشهير بابن المغربي، وشرحها عبد القادر بن علي بن شعبان العوفي.

(٦) كذا في الأصول؛ ومقتضى السياق: «الثقيل الأول بثانيه».

(٧) من الجنب: وهو أن تجنب فرساً عريا عند الرهان الى الفرس الذي تسابق عليه، فاذا فتر المركوب، تحولت الى المجنوب. ويريد أن هذه الرسالة بمنزلة خيول احتياطية.

(٨) جمع رسن؛ وهو الحبل يتخذ زماماً للدابة وغيرها.

وتهزُّ معاطفَ[(١)] الارتياح، من صهيلها الصراح، بالنَّغمات الحسَان؛ إذا أوجسَت الصَّريخَ نازَعت أفناءَ الأعِنَّة، وكاثرت بأسنَّة آذانها مشرَعة الأسِنَّة؛ فإن ادَّعى الظليم[(٢)] أشكالَها فهو ظالم، أو نازَعها الظَّبيُ هواديَها[(٣)] وأكفالَها فهو هاذٍ أو حالم، وإن سُئل الأصمعي[(٤)] عن عيوب الغُرَرِ والأوضاح[(٥)]، قال مشيراً الى وجوهها الصِّباح[(٦)]:

«جلدةُ بينَ العينِ والأنفِ سالم»[(٧)]

من كل عَبْل الشَّوَى[(٨)]، مُسابق للنَّجم إذا هوَى، سامي

(١) المعاطف: الأردية؛ والعرب تضع الرداء موضع البهجة، والحسن، والبهاء، والنعمة.

(٢) الظليم: فرس فضالة بن هند بن شريك الأسدي. والظليم ذكر النعام.

(٣) هوادي الخيل: أعناقها.

(٤) عبد الملك بن قريب، اللغوي المشهور (١٢٢ - ٢١٦)، على خلاف في المولد والوفاة. وابن الخطيب يشير الى ما عرف عن الأصمعي من خبرته الواسعة بالخيل؛ وله في ذلك مع أبي عبيدة معمر بن المثنى قصة طريفة. انظرها في ترجمة الأصمعي في وفيات ابن خلكان ٣٦٢/١.

(٥) جمع غرة: وهي البياض؛ والوضح: البياض أيضاً. ويكنى به في الفرس عن البرص، والجمع أوضاح.

(٦) وجه صبيح: جميل، والجمع صباح.

(٧) شطر بيت قاله عبد الله بن عمر لما لامه الناس في حب ابنه سالم، وأوله:

يديرونني عن سالم وأريغهم ● وجلدة الخ

وجعله لمحبته بمنزلة جلدة بين عينه وأنفه. وفي الحديث: «لا تؤذوا عمارا، فانما عمار جلدة ما بين عيني».

وسالم هذا، يكنى أبا عمر، وأبا المنذر، من خيار الناس، وفقهائهم. مات بالمدينة سنة ١٠٦. لسان العرب (سلم).

(٨) شوى الفرس: قوائمه؛ وعبل الشوى: غليظ القوائم.

التَّلِيل[١] ، عريض ما تحتَ الشَّلِيل[٢] ، مَمْسوحة أعطافُه بمنديلِ النَّسيم البَليل .

من أحمرَ كالمُدام ، تُجْلَى على النِّدَام[٣] ، عَقِبَ الفِدَام[٤] ، أتحفَ لونُه بالوَرْد ، في زمن البَرْد ، وحَيِّي أُفق مُحيَّاه بكوكب السَّعْد ، وتَشَوَّف الواصفون الى عَدِّ محاسنه فأعيَتْ على العَدّ ؛ بَحْر يُساجِل البَحر عند المَدّ ، وريحٌ تُبارِي الرِّيح عندَ الشَّدّ[٥] ، بالذِّراع الأشدّ[٦] ؛ حَكَم له مُدير فَلَك الكَفَل باعتدال فَصْل القدِّ ، وميَّزه قَدرُه المميَّز عندَ الاستباق ، بقَصَب السِّباق[٧] ، عندَ اعتبار الحدّ ، وولّد مُختَطٌ غرَّته أشكالَ الجمال ، على الكمال ، بين البَياض والحُمرَة ونَقاء الخد ؛ وحفِظ روايةَ الخلق الوَجيه[٨] ، عن جدِّه

(١) التليل العنق .
(٢) الشليل الحلس ، والكساء الذي يجعل تحت الرحل .
(٣) جمع نديم وهو الشريب الذي ينادمك .
(٤) الفدام الخرقة التي يضعها الساقي من الأعاجم ، والمجوس على فمه عند السقى . وكانت عادتهم ، اذا سقوا ، ان يفدموا افواههم . وفدام الابريق ، والكوز : المصفاة التي توضع عليه .
(٥) الشد : العدو .
(٦) الأشد الأقوى ؛ يقال حلبتها بالساعد الاشد ، اي حين لم اقدر على الرفق ، اخذت الامر بالشدة والقوة .
(٧) كانت الغاية التي يحددونها للسباق تذرع بالقصب ، ثم تركز القصبة في منتهى الغاية ؛ فمن سبق اقتلعها واخذها ، ليعلم الناس انه السابق من غير نزاع ، ويقال حاز او احرز قصبة السبق . تاج (قصب) .
(٨) الوجيه : ذو الجاه .

الوَجيه[١]، ولا تُنكَر الرواية على الحافظِ ابن الجد[٢].

وأشقَرَ، أبى الخلقُ، والوَجهُ الطَّلقُ أن يُحقَر، كأنما صِيغَ من العَسجَد، وطُرِفَ بالدُّر وأُنعِل بالزَبرجد، ووُسِم في الحديث بسِمة اليُمْن والبركة[٣]، واختصَّ بفُلْجِ[٤] الخصام، عند اشتجار المعركة، وانفرد بمُضاعفِ السِّهام، المُنكَسِرة على الهَام، في الفَرائض المشتَركة[٥]؛ واتَّصفَ فلَكُ كَفلِه بحركتَي الارادَة والطَّبْع من أصناف الحركة، أصغَى الى السَّماء بأذن مُلهَم؛ وأغرَى لسانَ الصَّهيل ـ عند التباس مَعاني الهمْز والتَّسْهيل ـ بِبيان المُبْهَم؛ وفُتِنَت العُيون من ذَهب جِسمه، ولُجَيْن نَجْمه، بالدِّينار والدِّرْهم؛ فإن انْقَضَّ فرَجم، أو ريح لها حَجْم، وإن اعترضَ فشَفَقٌ لاحَ به للنَّجم نَجم.

وأصفرَ قَيَّد الأوابدَ الحُرَّة، وأمسَكَ المَحاسن وأطلق الغُرَّة؛

---

(١) الوجيه: فرس من خيل العرب نجيب.

(٢) يومي ابن الخطيب الى ابي بكر محمد بن عبد الله بن فرج الفهري المعروف بابن الجد (٤٩٦ – ٥٨٦). اصله من «لبلة»، واستوطن اشبيلية، وعاصر ابن رشد الفقيه، وابا بكر ابن العربي.

(٣) يشير الى حديث: «ان يمن الخيل في شقرتها»، رواه الإمام احمد في المسند ٢/٢٧٢.

(٤) الفلج: الظفر والفوز.

(٥) يومىء الى المعاني التي تعارفهـا الفقهاء بينهم في باب «التوارث» من الفقة الإسلامي؛ فالسهم: النصيب الذي فرضه الشارع للوارث، وانكسار السهام يكون حيث تضيق التركة عن استيفاء الفرائض كاملة، ويتقرر العول.

وسُئِل من أنتَ في قوّادِ الكتائب، وأولي الأخبار العجائب؟ فقال: أنا المهلَّب بن أبي صُفْرة[1]؛ نرجسُ هذه الألوان، في رياض الأكوان، تُحشى به وجوه الحربِ العوان[2]؛ أغار بنخوة الصائل[3]، على معصفرات الأصائل[4]، فارتداها، وعمد الى خيوط شعاع الشمس، عند جانحة الأمس، فألحم منها حلّته وأسداها، واستعدت عليه تلك المحاسن فما أعداها؛ فهو أصيلٌ تمسّك بذيل الليل عرفه وذيلُه، وكوكب يطلعه من التمام ليلُه، فيحسُده فرقدُ[5] الأفق وسُهيلُه[6].

وأشهبَ تغشّى من لونه مفاضة، وتسربل منه لامةً فضفاضة، قد احتفل زينُه، لمّا رُقِم بالنبال لُجَينه، فهو الأشمط، الذي حقه لا يُغمط، والدّارع[7] المسارع، والأعزل الذّارع[8]، وراقي الهضاب

---

(١) ابو سعيد المهلب بن ابي صفرة الأزدي . له مع الخوارج حروب ومواقع ظهرت فيها شجاعته . وفيات الاعيان ٢/١٩١ – ١٩٥ .

(٢) الحرب العوان : الحرب التي سبقتها حرب اخرى .

(٣) النخوة : العظمة ، والكبر ؛ والصائل : المستطيل المتوثب .

(٤) الأصيل : العشي ، والجمع الأصائل .

(٥) الفرقد : واحد الفرقدين ؛ وهما كوكبان من صورة بنات نعش الصغرى ؛ ويقال الفرقد على الكوكبين معا .

(٦) سهيل : كوكب من الكواكب الجنوبيه ؛ ولذلك لا يراه سكان البلدان الشمالية مثل خراسان ، وارمينية .

(٧) رجل دارع : ذو درع .

(٨) ذرع : اسرع ؛ كأنه لسرعته يقيس المسافات بالذراع .

الفارع، ومكتوبُ الكتيبة البارع[1]. وأكْرِم به من مُرتاض سَالِك، ومُجتهِد على غايات السَّابقين الأولين مُتهالك، وأشْهَبَ[2] يَروي من الخليفة، ذي الشِّيم المُنِيفة، عن مالك.

وحُبَارِيٍّ[3] كلّما سَابَقَ وبَارَى، استعار جَناح الحُبَارَى؛ فإذا أُعمِلَت الحِسْبَة، قيل من هُنا جاءت النِّسْبَة، طرَدَ النَّمِر، لما عظم أمره وأَمِر[4]، فنَسَخ وجودَه بعدَمه، وابتزَّه الفَرْوَةَ مُلطَّخةً بدَمِه؛ وكأنَّ مُضاعفَ الوَرْد نُثِر عليه من طَبقِه، أو الفلَك، لمّا ذَهب الحلك، مُزِجَ فيه بياضُ صُبحه بحُمرة شَفَقِه.

وقِرْطاسيٍّ حقُّه لا يُجهَل، «مَتى ما تَرَقَّى العَينُ فيه تَسَفَّل»[5]؛ إن نُزِع عنه جُلُّه[6]، فهو نَجمٌ كلُّه؛ انفرَدَ بمادَّة الألوان، قبل

---

(١) الفارع: المرتفع، الحسن. والبارع: التام في كل فضيلة.

(٢) يوري بأشهب بن عبد العزيز المالكي ابو عمر المصري. وقد تقدم ذكره.

(٣) الحباري: لونه لون الحباري. والحباري بضم الحاء، وفتح الباء المخففة، وراء مفتوحة بعد ألف: طائر رمادي اللون؛ وهو اشد الطير طيراناً، وابعدها شوطا. ولذلك يقول: ان سرعة هذا الفرس تأتي من شبهه بالحباري الذي له هذه الصفة. حياة الحيوان للدميري ١/١٩٦.

(٤) امر: كثر.

(٥) عجز بيت لامرىء القيس وصدره:

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه • متى الخ

وفي الأصول: « .... فيه تسهل ». والمثبت رواية الديوان، وشرحه للبطليوسي ص ٣٤ طبع التقدم سنة ١٣٢٣ هـ.

(٦) جل الفرس، وجاله: الغطاء الذي تلبسه اياه لتصونه.

أن تَشُوبَها يد الأكوان، أو تمزجها أقلام المَلَوان[١]؛ يتقدّم الكتيبة منهُ لِواءٌ ناصع، أو أبيض مناصِع[٢]؛ لبِسَ وَقار المَشيب، في رَيعان العُمُر القَشيب، وأنصتَتْ الآذان من صَهيله المُطيل المطِيب، لمَّا ارتدى بالبياض الى نَغمة الخطيب؛ وإن تعتَّب منه للتأخير مُتعتِّب، قلنا: الواوُ لا تُرتِّب[٣]، ما بين فحل وحرَّة، وبهرمانةٍ[٤] ودُرَّة؛ ويالله من ابتسام غُرَّة، ووُضوح يُمنٍ في طُرَّة[٥]، وبَهجةٍ للعين وقُرَّة؛ وإن وَلِعَ الناسُ بامتداح القديم، وخصُّوا الحديثَ بفَرْيِ الأديم[٦]، وأوجب المتعصِّب، وإن أبى المَنْصِب، مرتبةَ التَّقديم، وطَمَح الى رتبة المَخدوم طَرْفُ الخديم، وقُورنَ المُثْري بالعَديم، وبُخِسَ في سُوق الكَسَد الكَيْل، ودَجا الليل، وظهر في فلَك الانصافِ المَيْل، لمَّا تُذُوكرت الخَيْل؛

(١) الملوان: الليل والنهار.

(٢) الناصع: الخالص من كل شيء؛ والمناصع: المجالس. جمع منصع.

(٣) يشير الى قول النحاة: ان العطف بالواو لا يفيد ترتيبا بين معطوفاتها.

(٤) البهرمان: نبات بأرض العرب يصبغ به، يقال له العصفر؛ ولونه دون الارجوان في الحمرة.

(٥) الطرة: الناصية، اشارة الى الحديث: «الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة».

(٦) الاديم: الجلد؛ وفريه: قطعه. وهو يشير الى قول ابن شرف القيرواني:

أغرى الناس بامتداح القديم ● وبذم الحديث غير الذميم
ليس الا لانهم حسدوا الحـــي ورقوا على العظام الرميم

فجيء بالوَجيه[١] والخَطَّار[٢] والذائد[٣] وذي الخِمار[٤]، ودَاحِس[٥] والسَّكْب[٦]، والأَبْجَر[٧] وزاد الرَّكْب[٨]، والجَمُوح[٩] واليَحْمُوم[١٠]، والكُمَيْت[١١] ومَكْتُوم[١٢]، والأعوَج[١٣] وحلوان، ولاحق والغَضْبان، وعَفْزَر والزَّعفَران والمُحَبَّر واللَّعَّاب، والأَغَرّ والغُراب، وشُعْلَة والعُقَاب، والفَيَاض واليَعْبُوب،

(١) الوجيه: فرس لغني بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان. وهو مما سمي من جياد الفحول، والاناث المنجبات. تاج (وجه)، مخصص ١٩٥/٦.

(٢) الخطار : فرس حذيفة بن بدر الفزاري. وله ذكر في حرب داحس والغبراء. المخصص ١٩٦/٦، تاج (خطر، دحس).

(٣) الذائد : فرس نجيب من نسل الحرون، ومن ابنائه اشقر مروان. تاج (ذاد).

(٤) ذو الخمار : فرس للزبير بن العوام، ولمالك بن نويرة الشاعر. المخصص ١٩٤/٦ تاج (خمر).

(٥) داحس : فرس قيس بن زهير بن جذيمة العبسي. له ذكر في حرب داحس والغبراء المخصص ١٩٦/٦، تاج (دحس)، وانظر مجمع الأمثال : « أشأم من داحس » ٢٥٦/١.

(٦) السكب : من أفراس النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أول فرس ملكه. المخصص ١٩٣/٦، تاج (سكب).

(٧) الأبجر : من خيل غطفان بن سعد، وهو فرس عنترة بن شداد العبسي. تاج (بجر).

(٨) زاد الركب : فرس للأزد، وهو من أقدم فرسان العرب.

(٩) الجموح (كصبور) : فرس مسلم بن عمرو الباهلي، وفرس للحكم بن عرعرة النميري تاج (جمح).

(١٠) اليحموم : فرس النعمان بن المنذر، ولذلك كان يقال للنعمان فارس اليحموم. وسمي باليحموم عدة أفراس. تاج ٢٦١/٨.

(١١) الكميت : ذكر في تاج العروس في (كمت) عشرة أفراس باسم الكميت، مع اسماء أصحابها.

(١٢) مكتوم : فرس لغني بن أعصر، من جياد الفحول. تاج (كتم).

(١٣) أعوج (بلا لام) : فرس لبني هلال؛ تنسب اليه الأعوجيات، كان لكندة فأخذته سليم، ثم صار الى بني هلال، بعد أن كان لبني آكل المرار. تاج (عوج).

والمُذْهب واليَعْسوب، والصَّمُوت والقُطَيْب، وهَيْدَب والصُّبَيْب، وأهلُوب وهَدّاج، والحَرُون وخَراج، وعَلْوَى والجَناح، والأحوَى ومِجاح، والعصا والنَّعامة، والبَلْقاء والحَمامة، وسَكاب والجَرادة، وخَوْصاء والعَرادة[1]؛ فكَم بين الشَّاهد والغائب، والفُروض والرَّغائب[2]، وفرقٌ ما بينَ الأثر والعِيَان، غَنِيٌّ عن البَيان؛ وشتَّان بيْن الصَّريح والمشْتَبه؛ ولله دَرُّ القائل:

«خذ ماتراه ودَعْ شيئاً سَمِعْتَ به[3]»

والنَّاسخُ[4] يختَلف به الحُكم، وشَرُّ الدوابِّ عند التفضيل بين هذه الدَّوابِّ الصُّمُّ البُكْمُ[5] الا ماركبه نبيٌّ، او كان له يوم الافتخار برهانٌ خَفِيٌّ[6] ومُفَضِّلُ ماسَمع على مارأي غَبيٌّ؛ فلو أنصفَتْ محاسنُها التي وُصفتْ، لأقضمت[7] حَبَّ القلوب علفاً،

---

(١) العرادة وما قبلها: اسماء افراس لرجال مشهورين من رؤساء قبائل العرب القدامى.

(٢) الرغائب: جمع رغيبة، وهي الأمر المرغوب فيه. تاج (رغب).

(٣) صدر بيت للمتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة؛ وعجزه عن شرح العكبري ٦٨/٢ طبع الشرفية:

«. . . . . ● في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل»

(٤) النسخ في مصطلح أهل اصول الفقه: انهاء حكم شرعي ثبت بنص شرعي، واحلال حكم آخر بدله بنص شرعي جاء دليلا على انتهاء الحكم الأول والناسخ: هو النص الأخير الذي بمقتضاه يرتفع الحكم الأول، ويلغي النص السابق.

(٥) الاشارة الى الآية ٢٢ من سورة الأنفال.

(٦) خفي: خاف، مستور.

(٧) القضم: أكل القضيم، وهو شعير الدابة، وأقضم الدابة: قدم لها القضيم.

وأوردت ماء الشَّبيبَة نُطَفا[١]؛ واتخذت لها من عُذَر[٢] الخدود المِلاح عُذُرٌ مَوْشيَّة[٣]، وعللت بصفير الحان القِيان كلَّ عشيَّة؛ وأُنعلت بالاهِلَّة، وغُطيت بالرياض بَدَلَ الأجِلَّة[٤].

الى الرقيق[٥]، الخليق بالحُسْن الحقيق، يَسوقه الى مثوى الرعاية رُوقَة[٦] الفتيان رُعاته، ويُهدي عقيقُها من سَبَجه[٧] أشكالا تشهد للمخترع سُبحانه بإحكام مُخترعاته، وقَفتْ ناظر الاستحسان لا يَرِيم[٨]، لِما يَبهره منظرُها الوسيم، وتخامل الظَّليم[٩]، وتضاؤل الرِّيم[١٠] وأخرسَ مُفوَّه[١١] اللسان، وهو بمَلَكات البيان، الحفيظ العليم؛ وناب لسانُ الحال، عن لسان المقال، عند الاعتِقال[١٢]، فقال يُخاطب المقام الذي أطلعتْ أزهارها غمائم جُوده، واقتضَت اختيار مما

(١) النطفة : الماء الصافي ؛ والجمع نطف .
(٢) العذار : خط لحية الغلام ؛ والجمع عذر .
(٣) العذار من اللجام : السيران اللذان يجتمعان عند قفا الفرس ؛ والجمع عذر .
(٤) جل الدابة : ما تغطى به ، والجمع جلال ؛ وجمع جلال : أجلة .
(٥) الرقيق : الضعيف لا صبر له على شدة البرد ، ونحوه .
(٦) الروقة من الغلمان الملاح منهم ؛ يقال غلمان روقة : أي حسان ، والمفرد رائق .
(٧) السبج : خرز أسود .
(٨) لا يريم : لا يبرح .
(٩) الظليم : ذكر النعام ؛ وفرس فضالة بن شريك الأسدي .
(١٠) الريم : الظبي الخالص البياض.
(١١) رجل مفوه : يجيد القول .
(١٢) اعتقل لسانه : حبس ، ولم يقدر على الكلام .

بركات وجوده : لو علمنا ايها المَلك الأصيل ، الذي كُرم منه الاجمال والتفصيل ، أن الثناء يوازيها ، لَكِلنا لك بكَيْلك ، او الشُّكر يعادلها ويُجازيها ، لتعرضنا بالوشل [١] الى نِيل نَيلك [٢] ، او قلنا هي التي اشار اليها مستصرخ َسلفك المستنصر بقوله : « ادرك بخيلك » ، حين َشرق بدمعه الشَّرق [٣] ، وانهزم الجمْع واستولى الفرْق ، واتسع فيه ــ والحكم لله ــ الخرْق [٤] ورأى ان مقام التَّوحيد بالمظاهرة على التَّثليث ، وحزبه الخبيث ، الاولى والأحق .

والآن قد اغنى الله بتلك النِّية ، عن اتخاد الطوال الرُدينيَّة [٥] ، وبالدُّعاء من تلك المثابة الدِّينيَّة الى رب البَنِيَّة [٦] ، عن الامداد السَّنيه والأجواد تخوض بحر الماء الى بحر المَنِيَّة ، وعن الجُردِ العَرَبيَّة ، في مَقاود اللُّيوث الأبية ؛ وجدَّد برَسم هذه الهَديَّة ، مراسيم العُهود الوُدِّية ، والذِّمم المُوحِّديَّة ، لتكونَ علامة على الأصل ، ومكذِّبةً لدعوَى الوقْفِ والفَصْل ، وإشعاراً بالأُلفة التي لا تَزال

(١) الوشل : الماء القليل .

(٢) النيل : نهر مصر ، والنيل (بالفتح) : العطاء .

(٣) يريد شرق الأندلس .

(٤) يشير الى المثل : « اتسع الخرق على الراقع » الذي يقال عند استفحال الأمر ، والعجز عن اصلاحه . تاج (خرق) .

(٥) الردينية : منسوبة الى ردينة ، وهي امرأة السمهري ؛ وكانا يقومان الرماح والقنا بخط هجر ؛ فيقال : الرماح الردينية ، والخطية ؛ نسبة الى الشخص تارة ، والى الموضع أخرى .

(٦) البنية : الكعبة ، وكانت تسمى بنية ابراهيم ؛ وكثر قسمهم بها فيقولون : « لا ورب هذه البنية » .

أَلِفُها أَلِفَ الوصْل ، ولأَمُها حراماً على النَّصْل [١] .

وحَضَر بين يدَيْنا رسولُكم ، فقرَّر من فَضلكم ما لا يُنكِره مَن عَرفَ عُلُوَّ مِقدارِكم ، وأَصالة داركم ، وفلَكَ إبْدارِكم ، وقُطْبَ مَدَارِكم ؛ وأَجَبناه عنه بجُهْدٍ [٢] ما كنَّا لنَقنَعَ مِن جَناه [٣] المُهْتَصَر [٤] ، بالمقتضَب المختَصَر ، ولا لِنُقابلَ طُولَ طَوْله [٥] بالقِصَر ، لولا طُرُوُّ الحَصَر [٦] .

وقد كان بين الأَسلاف ـ رحمةُ الله عليهم ورضوانُه ـ وُدٌّ أُبرِمَت من أَجل الله مَعاقِدُه [٧] ، ووُثِرَت للخُلوص [٨] ، الجَليِّ النُّصوص ، مَضاجعُه القارَّة ومَراقِدُه ، وتعاهُدٌ بالجميل يُوجِع لفَقْده فاقِدُه ، أَبى الله إلا أن يكونَ لكم الفضل في تجديده ، والعَطْف بتَوكيدِه ؛ فنحن الآن لا نَدري أيَّ مَكارمكم نَذكُر ، أو أيَّ فواضلكم نَشْرَح أو نَشكُر ، أَمُفاتَحتُكم التى هي في الحقيقة عندَنا

---

(١) اللام : جمع لأمة ؛ وهي الدرع . والنصل : حديدة السهم والرمح . اللسان (نصل) .

(٢) الجهد (بالفتح) المشقة .

(٣) الجنى : ما يجتنى من الشجر وغيره .

(٤) المهتصر : المهال ؛ يقال هصرت الغصن : اذا أملته اليك .

(٥) الطول (بالضم) : خلاف العرض . والطول (بالفتح) : المن ؛ يقال طال عليه : اذا امتن .

(٦) الحصر : العي ، وعدم القدرة على الابانة .

(٧) المعاقد : العقد .

(٨) وثر الفراش (بالضم) : وطؤ ولان .

فَتح ، أم هَدِيَّتُكم ، وفي وَصْفها للأقلام سَبْح[١] ، ولِعَدُوِّ الاسلام بحكمة حكمتها كَبْح[٢] ، إنّما نكِلُ الشُّكر لمن يُوَفِّي جزاءَ الأعمال البَرَّة ، ولا يبْخس مِثْقالَ الذَّرَّة ولا أدنى مِن مِثْقال الذَّرَّة ، ذي الرَّحمة الثَّرَّة[٣] ، والألطافِ المتصلة المُستَمِرَّة ، لاَ إلهَ إلاّ هو .

وإن تَشَوَّفتم الى الأحوال الرّاهنة ، وأسبابِ الكُفْر الوَاهِيَة ـ بقُدرة الله ـ الوَاهِنَة[٤] ، فنحن نُطرِفُكم بطُرَفها[٥] ، ونُطْلِعُكم على سَبيل الاجمال بطَرَفِها ؛ وهو أننا لما أعادَنا الله من التَّمْحيص ، إلى مَثابة التَّخْصيص ، من بَعْدِ المرَام العَويص ، كَحَلْنا بتوفيق الله بصَر البَصِيرة ، ووقَفْنا على سبيله مساعِيَ الحياة القَصِيرة ، ورأينا ـ كما نُقِلَ إلينا ، وكُرِّر على من قَبْلَنا وعلَينا ـ أن الدُّنيا ـ وإن غرَّ الغَرُور[٦] وأنام على سُرُر الغَفْلة السُّرور ، فلم ينفَع الخُطور[٧] على أجدَاث[٨] الأحبَاب والمُرور ، ـ جِسْرٌ يُعْبَر ، ومَتاع لا يُغبَط من حُبِي به ولا يُحْبَر[٩] ، إنّما هو خبَر يُخْبَر ؛ وأن الحَسْرة بمِقدار

(١) السبح : الجري .

(٢) كبح الفرس : جذبه اليه باللجام يمنعه عن الجري .

(٣) الرحمة الثرة : الغزيرة الكثيرة .

(٤) وهى ووهن : ضعف .

(٥) جمع طرفة (بالضم) ؛ وهي أن يعطى المرء ما لم يملكه فيعجبه .

(٦) الغرور (بالفتح) : الشيطان ؛ وفي القرآن : « ولا يغرنكم بالله الغرور » .

(٧) الخطور : التبختر في المشي .

(٨) جمع جدث : وهو القبر .

(٩) يحبر : ينعم ويسر ويكرم .

ما على تَرْكه يُخبر ، وأن الأعمار أحلام ، وأنّ النّاس نيام ؛ وربما رَحل الرّاحلُ عن الخان[1] ، وقد جلّله بالأذى والدُّخان ، أو ترك به طيباً ، وثناءً يقوم بعدُ للآتي خطيباً ؛ فجعلنا العدلَ في الأمور ملاكا[2] ، والتفقُّد للثُّغور مسْواكا ، وضجيعَ المهاد ، حديثَ الجهاد ، وأحكامه مناطَ الاجتهاد ، وقوله : « يأَيُّها الذين آمنُوا هل أدُلّكم على تجارة »[3] من حُجَج الاستشهاد ؛ وبادَرنا رمق[4] الحصُون المُضاعة وجُنح[5] التّقيّة[6] دامس[7] ، وعواريها[8] لا تردُّ يدَ لامس[9] ، وساكنها بائس ، والأعصم[10] في شعَفاتها[11] من العصْمة يائس ؛ فزيّنّا ببيض الشُّرُفات ثناياها ، وأفعمْنا بالعَذْب الفُرات ركاياها[12] وغشّيْنا بالصّفيح المضاعف

(١) الخان المكان الذي ينزله المسافرون ، وهو الفندق .
(٢) ملاك الأمر : ما يقوم به ذلك الامر .
(٣) يشير الى الآيات (١٠ — ١٣) من سورة الصف .
(٤) الرمق : بقية الحياة والروح . وفي الكلام تجوز .
(٥) جنح الطريق : جانبه ، وجنح القوم : ناحيتهم .
(٦) التقية : التحفظ .
(٧) ليل دامس : مظلم .
(٨) جمع عارية ؛ وهي المتجردة من الثياب . والعورات : الخلل في الثغر وغيره ، يتخوف منه في الحروب .
(٩) يقال للمرأة التي تزني : لا ترد يد لامس ؛ أي لا ترد من يريدها عن نفسها .
(١٠) الأعصم : الوعل ، وعصمته : بياض في رجله .
(١١) الشعفات ، جمع شعفة ؛ وهي رؤس الجبال .
(١٢) جمع ركية وهي البئر .

أبوابَها، واحْتَسَبْنَا عند مُوَفّي الأجور ثوابَها، وبَيَّضْنا بناصِع الكِلْس أثوابَها؛ فهي اليومَ تُوهِم حِسَّ العِيَان، أنها قِطَع من بِيض العَنَان[1]، وتكاد تناوَلُ قُرصَ البَدْر بالبَنَان، متكفِّلةً للمؤمنين من فزَع الدُّنيا والاخِرة بالأمان؛ وأقرَضْنا الله قَرضا، وأوسَعْنا مُدَوَّنة الجَيْش[2] عَرضا، وفرَضْنا إنصافه مع الاهِلَّة فَرضا؛ واستَندنا من التَّوكل على الله الغنِيِّ الحميد الى ظِل لواء، ونَبَذنا الى الطَّاغية عهدَه على سَواء[3] وقلنا: رَبَّنا أنت العزيز، وكُلُّ جَبَّار لعزِّك ذليل، وحِزبُك هو الكثير، وما سِواه قَليل؛ أنتَ الكافي، ووعدُك الوَعدُ الوافي، فأَفِضْ[4] علينا مدارِع[5] الصَّابرين، واكتُبْنا من الفائزين بحظُوظ رِضاك الظَّافرين، وثَبِّت أقدامنا وانصُرنا على القَوْم الكافِرين.

فتحرَّكنا أولَ الحركات، وفاتحةَ مُصْحَف البَركات، في خفٍّ من الحُشُود، واقتصارٍ على ما بِحضْرتنا من العَساكر المظَفَّرة والجُنود، الى حصْن آشر البَازِي المُطِلّ، ورِكاب العَدوّ

---

(١) العنان: السحاب.

(٢) يريد الجيش الرسمي الذي كان مدونا في سجلات الدولة. وفي مقدمة الإحاطة ١٩/١، ٣٦ وصف للجيش الأندلسي، وسلاحه، وأقسامه، وذكر لمقدار ما كان يأخذه كل شهر.

(٣) نبذ العهد: نقضه، وألقاه الى من كان بينه وبينه. والتعبير مقتبس من الآيه ٥٨ من سورة الأنفال.

(٤) أفض: أفرغ.

(٥) جمع مدرع: وهو ضرب من الثياب.

الضالّ المُضِلّ، ومُهْدي نَفَثات[١] الصِّلّ[٢]، على امتِناعه وارْتفاعه، وسُموّ يَفاعه[٣]، وما بَذَل العدوُّ فيه من استِعداده، وتوفير أسلِحته وأزواده، وانتخاب أنْجاده؛ فصَلينا بنَفْسِنَا نارَه، وزاحمْنا عَليه الشهداءَ نُصابرُ أُوَارَه[٤] ونَلْقَى بالجوارح العَزيزة سِهامَه المَسْمُومة، وجَلامِدَه المَلْمُومة[٥] وأحجارَه، حتى فَرَعنا[٦] — بحَول من لا حول ولا قُوةَ إلا به — أبراجه المَنيعَة وأسوارَه، وكفَفْنا عن البِلادِ والعِباد أضرارَه، بَعْد أن استَضَفْنا إليه حِصْن السَّهْلَة جارَه؛ ورَحلنا عنه بَعد أن شَحنَّاه رابطةً وحامية، وأزواداً نامِية، وعمِلْنا بِيدنا في رَمِّ ما ثَلم القِتال، وبقَر من بُطُون مُسابِقَةِ الرِّجال، واقْتدَيْنا بنَبِيِّنا — صلوات الله عليه وسَلامه — في الخَندق[٧] لمَّا حَمَى ذلك المَجال، ووقع الارتجاز المَنقُول حديثُه والارتجال[٨]؛ وما كان ليقرّ للاسلام مع تَركه القَرار، وقد

(١) نفثت الحية السم: اذا لسعت بأنفها، فاذا عضت بنابها قيل: نشطت.
(٢) الصل (بالكسر): الحية التي لا تنفع فيها الرقية.
(٣) اليفاع: ما ارتفع من الأرض.
(٤) الأوار (بالضم): حرارة النار، والشمس، والعطش.
(٥) جلامدة، جمع جلمد؛ وهو الصخر. والملمومة: المستديرة الصلبة.
(٦) فرعنا: علونا.
(٧) كانت غزوة الخندق في السنة الخامسة من الهجرة. الطبري ٤٣/٣.
(٨) نقل السهيلي في الروض الأنف عن أبي عثمان عبد الرحمن بن مل النهدي: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرتجز يوم الخندق فيقول:

بسم الإله وبه بدينا
ولو عبدنا غيره شقينا
فحبذا ربا وحب دينا

سيرة ابن هشام ٢٢٧/٣، ٢٢٨.

كَشَبَ الجوار، وتداعى الدَّعَرَة[١] وتعاوى الشِّرار[٢].

وقد كنَّا أغرينا مَن بالجهة الغربية من المسلمين بمدينة بُرغُه التي سدَّت بين القاعدَ تين رُندَة ومالَقَة الطَّريق، وألبست ذلَّ الفراق ذلك الفريق، ومنعتهما أن يُسيغا الرِّيق؛ فلا سبيل إلى الالمام، لطَيف المنام، إلا في الأحلام، ولا رسالةَ إلا في أجنحة هُدُلِ[٣] الحمام؛ فيسَّر اللهُ فتحها، وعجَّل منحها، بعد حرب انبتَّت فيها النُّحور، وتزيَّنت الحُور. وتبع هذه الأمَّ بناتٌ شهيرة، وبُقعٌ للزَّرع والضَّرع خيرة[٤]، فشُفِيَ الثغرُ من بُؤسه، وتهلَّل وجهُ الاسلام بتلك النَّاحية النَّاجية بعد عبوسة.

ثم أعملنا الحركة إلى مدينة إطريرة، على بُعد المدى، وتغلغلها في بلاد العدا، واقتحام هول الفلا وغول الرَّدي؛ مدينةٌ تبنَّتها حمص[٥]،

(١) رجل داعر (بالمهملة): يسرق، ويزني، ويؤذي الناس؛ والجمع دعرة.
(٢) تعاوت الشرار: تجمعت للفتنة، وتعاووا عليه: تعاونوا وتساعدوا.
(٣) الهديل: ذكر الحمام. والجمع هدل، كسرير وسرر.
(٤) الخيره: المختار من كل شيء؛ يريد: بقاع مختارة للزرع والضرع.
(٥) يريد اشبيلية؛ سماها حمص جند بني أمية الذي نزل بها حين جاء من حمص الشام. وقد فعلوا ذلك في كثير من مدن الأندلس. ياقوت ٣/٢ ٣٤٢.

فأوسعت الدّار ، وأغلت الشّوار [١] ، وراعت الاستكثار ، وبسطت الاعتمار [٢] ؛ رجّح لدينا قصدها على البعد ، والطّريق الجعد ، ماأسفت [٣] به المسلمين من استئصال طائفة من أسراهم ، مرّوا بها آمنين ، وبطائرها المشئوم متيمّنين ، قد أنهكهم [٤] الاعتقال ، والقيود الثّقال ، وأضرعهم الاسار وجلّلهم الانكسار ، فجدّلوهم [٥] في مصرع واحد ، وتركوهم عبرة للرّائي والمشاهد ، وأهدوا بوقيعتهم الى الاسلام ثكل الواجد [٦] ، وترة الماجد [٧] ؛ فكبسناها كبساً ، وفجأناها بإلهام من لايضلّ ولا ينسى وصبّحتها الخيل ، ثم تلاحق الرّجل لمّا جنّ اللّيل ، وحاق بها الويل ؛ فأبيح منها الذّمار [٨] ، واخذها الدّمار ، ومحقت [٩] من مصانعها البيض الأهلّة وخسفت الاقمار ، وشفيت من دماء اهلها الضّلوع

---

(١) الشوار : متاع البيت ؛ ويريد به ما تعارف عليه الفقهاء ، مما يشترى من الصداق الذي يدفعه الزوج ؛ وتجهز به الزوجة من حلي ، وغطاء ، ووطاء الخ ، ذلك لأنه جعل «حمص» أماً لاطريرة قد زوجتها وجهزتها ، فتغالت – لما في الأم من حب لابنتها – في هذا الجهاز الخ . فجاء بالألفاظ الفقهية بمعانيها التي اصطلحوا عليها .

(٢) يريد بالاعتمار : الاستعمار ، والاستغلال .

(٣) أسفاه : أطاشه حلمه ، وحمله على الطيش .

(٤) انهكهم : أجهدهم ، وأضناهم

(٥) فجدلوهم : صرعوهم

(٦) الثكل : فقد المرأة ولدها ، وفقد الرجل ولده ايضاً . والواجد : الغضبان .

(٧) الترة : الذحل والثأر . والماجد : الكريم ، ومن له آباء متقدمون في الشرف .

(٨) الذمار : ما وراء الرجل مما يحق له ان يحميه . والدمار (بالمهملة) : الهلاك .

(٩) المحق : النقصان وذهاب البركة . لسان العرب (محق)

الحرار[١]، وسلطت على هيا كلها النَّار، واستولى على الآلاف العديدة من سَبْيِها الاسار، وانتهى الى إشبيليه الشكلى المُغار[٢] فجلَّل وجوهَ من بها من كبار النَّصرانية الصَّغار[٣]، واستولت الأيدي على مالا يسعه الوصف ولا تُقِله[٤] الأوقار[٥].

وَعُدْنا والأرضُ تموج سَبْيا، لم نَتْرُكْ بِعِفِرّينَ شِبْلًا[٦] ولا بوَجْرَةَ ظَبْيا[٧]، والعَقَائل[٨] حَسْرَى، والعُيون يَبْهرَها الصُّنْعُ الأَسْرَى[٩] وصُبْحُ السُّرَى قَد حمِدَ من بَعْدِ المَسْرَى[١٠]، فسُبْحَان الذي أَسْرَى[١١]؛ ولِسَانُ الحميَّة يُنادِي، في تِلك الكَنائِس المُخَرَّبة والنَّوادِي: يالثارات الأسرى!

(١) الضلوع الحرار: العطشى.

(٢) المغار: مصدر ميمي بمعنى الاغارة.

(٣) جلل وجوههم: عم وجوههم. والصغار: الذل.

(٤) اقل الشيء: أطاق حمله.

(٥) الأوقار: جمع وقر، وهو الحمل. واكثر ما يستعمل في حمل البغل والحمار.

(٦) عفرين بلد تكثر فيه الأسود. والشبل: ولد الاسود.

(٧) وجرة: فلاة بوسط نجد، لاتخلو من شجر، ومياه، ومرعى. والوحش فيها كثير. (تاج – وجر).

(٨) جمع عقيلة؛ وهي المرأة الكريمة، النفيسة.

(٩) الصنع الأسرى: الأشراف، والارفع.

(١٠) ينظر الى المثل: «عند الصباح يحمد القوم السرى»، الذي يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة. أنظر الميداني ٢/٣٠٤.

(١١) اقتباس من الآية ١ من سورة الإسراء. واسرى: سار ليلا.

ولم يَكن إلا أن نُفِلَت الأنفال[١]، ووُسِمَت بالأوضاح الأغفال[٢]، وتميَّزت الهوادي والأكفال[٣]، وكانَ إلى غزْوِ مَدينة جيَّانَ الاحتِفال، قدنا إليها الجُرْدَ[٤] تلاعِب الظِلال نشاطا، والأبطالُ تقتحِم الأخطار رضًى بما عندَ الله واغتِباطا، والمُهنَّدةُ الدُّلق[٥] تسبِق الى الرقاب استلالا واختراطا، واستكثَرْنا من عُددَ القتال احتياطا، وأزَحنا العِلَل عَمَّن أراد جِهاداً مُنجياً غُبارُه من دُخان جهنّم ورِباطا، ونادَينا الجهادَ! الجهادَ! يا أُمّة الجهاد! رايَةَ النَّبيِّ الهادِ! الجَنَّةُ تحتَ ظلال السُّيوف الحِداد! فهَزّ النداءُ إلى الله تعالى كلّ عامر وغامر[٦]، وائتمر الجَمُّ من دعوى الحق الى أمر آمِر، وأتي النَّاسُ من الفُجُوج[٧] العَميقَة رِجالاً وعلى كُلِّ ضامِر[٨]، وكاثَرتِ الرّايات أزهار البِطَاح لَوناً وَعداً، وَسدّت الحُشود مسالكَ الطَّريق العَريضَة سَدّاً، ومُدَّ

(١) الأنفال، جمع نفل؛ وهو الغنيمة. ونفلت: اعطيت.

(٢) الأوضاح، جمع وضح؛ وهو البياض. والاغفال: الاراضي الموات؛ يقال ارض غفل: لاعلم بها، ولا سِمه.

(٣) هو ادى كل شيء: اوائله. يريد: تميز الشجعان الذين كانوا يتصدرون المعركة، من الاكفال (جمع كفل): وهم الذين يكونون في مؤخر الموقعة همتهم التأخر، والفرار.

(٤) جمع اجرد؛ وهو الفرس القصير الشعر، وذلك في علامات العتق والكرم.

(٥) سيف دلق: سهل الخروج من غمدة؛ والجمع: دلق.

(٦) العامر من الارض: المستغل. والغامر: الذي يغمره المـاء؛ ويراد به الارض التي لم تستثمر. يريد: أقبل الناس من كل جانب.

(٧) جمع فج؛ وهو الطريق البعيد، والواسع، والذي بين جبلين.

(٨) الجمل الضامر: الخفيف الجسم.

بحرُها الزّاخر مدّاً ، فلا يجد لها النّاظر ولا المُناظر حدّاً .

وهذه المَدينة هي الأمُّ الوَلود ، والجَنَّة التي في النّار لِسُكّانِها من الكُفّار الخُلود ؛ وكُرسيُّ المُلك ، ومُجَنَّبَة[1] الوُسطى من السِّلك ؛ باءت بالمَزايا العديدة ونجحت ، وعندَ الوزان بغيرها من أُمّات[2] البُلدان ، رجحت ، غابُ الأسود ، وجُحر الحيّات السُّود ، ومُنَصَّب[3] التَّماثيل الهائلة ، ومُعلَّقُ النَّواقيس المصلصلة .

فأدنَينا إليها المَراحل ، وعنَينا ببحار المُحِلات المُستَقِلات منها السّاحل[4] ، ولما أكثَبنا[5] جوارَها ، وكِدنا نَلتَمِح[6] نارَها ، تحرَّكنا إليها ووشاح[7] الأُفق المَرقوم ، بزُهرِ النُّجوم ، قد دار دائرُه ، والّليلُ من خوف الصَّباح ، على سطحِه المُستَباح ، قد

(١) المجنبة : التي تأخذ مكانها جانب الجوهرة الوسطى من العقد . يريد ان مدينة جيان تحتل المرتبة الثانية بالقياس الى حضرة الملك .

(٢) أمات ، جمع أم ؛ ويغلب ان تأتي جمعاً لام ما لايعقل . وانظر اللسان « أم » ، « أمه » .

(٣) منصب اسم مكان ، بمعنى الموضع الذي أقيمت فيه هذه التماثيل .

(٤) أحل فلان أهله بمكان كذا : جعلهم يحلونه . واستقل القوم : ذهبوا وارتحلوا .

(٥) أكثب : قارب ، ودنا من الشيء .

(٦) التمحه : ابصره بنظر خفيف .

(٧) الوشاح : شيء ينسج عريضاً من اديم ، ويرصع بالجواهر ، وتشده المرأة بين عاتقها وكشحها .

شابَتْ غدائرُه ، والنَّسْرُ[(١)] يُرفرف باليُمْن طائرُه ، والسِّماكُ الرّامِح[(٢)] يثأرُ بعزِّ الاسْلام ثائرُه ، والنَّعائمُ راعِدةٌ[(٣)] فرائصَ[(٤)] الجَسَد ، من خَوْف الأسد[(٥)] ، والقَوْسُ[(٦)] يُرسِل سَهم السَّعادة[(٧)] ، بوَتَر العادة ، الى أهدافِ النِّعَم المُعادَة ، والجَوْزاءُ[(٨)] عابرةٌ نَهْرَ

(١) النسران : كوكبان شآميان ؛ احدهما واقع ، والاخر طائر . فالواقع كوكب نـيـر ، خلفه كوكبان أصغر منه ، يكونان معه صورة الاثافي ؛ ويقولون : هما جناحاه وقد ضمهما اليه حين وقع . واما الطائر ؛ فهو ازاء النسر الواقع في ناحية الشمال ، وتفصل بينهما المجرة ؛ وهو كوكب منير بين كوكبين تخيلوهما جناحيه قد نشرهما . وانظر كتاب « الانواء » لابن قتيبـة ص ١٣٣ لسان (نسر) .

(٢) السماك الرامح : نجم نير شمالي ، خلفه كوكبان بمنزلة الرمح له . وهو نجم لا نوء له ويقابله السماك الأعزل ؛ وهو من منازل القمر .

(٣) النعائم : منزلة من منازل القمر ؛ وهي أربعة كواكب مربعة على طرف المجرة . وهناك نعـائم واردة ، ونعائم صادرة ؛ فالواردة منها هي التي ترد في نهر المجرة ، والصادرة قد وردت وصدرت ، أي رجعت عنها . لسان العرب (نعم) .

(٤) راعدة الفرائص : فزعة ، مرتجفة . والفرائص ، جمع فريصة ، وهي مرجع الكتف الى الخاصرة في وسط الجنب .

(٥) الأسد : أحد البروج الشمالية الاثني عشر . وكواكبه ٣٤ كوكبا .

(٦) القوس ، ويسمى الرامي : أحد البروج الاثني عشر من البروج الجنوبية ؛ وهو كوكبة على صورة شخص نصفه الأعلى انسان ، بيده قوس يرمي به ، والنصف الأسفل منه عـلى صورة فرس . وكواكبه ٣١ كوكباً ، ويقع خلف كوكبة العقرب .

(٧) السهم — في مصطلح المنجمين : عبارة عن موضع في دائرة فلك البروج ، يقع بين طولي كوكبين من الكواكب السيارة . ولهم في استخراجه طرق حسابية معروفة ؛ ولهذا الموضع المعين دلالة خاصة . وأقوى السهام : سهم السعادة ، وسهم الغيب .

(٨) الجوزاء ، وتسمى التوأمين : برج من بروج الشمس الشمالية ؛ وهى صورة انسانين رأسيهما ، وسائر كواكبهما في الشمال والمشرق عن المجرة ، وأرجلهما الى الجنوب والمغرب في نفس المجرة ؛ وهما كالمتعانقين . كواكبهما ٢٥ كوكبا .

المَجَرَّة[١] ، والزُّهرَة[٢] تَغَارُ من الشِّعْرَى العَبُور[٣] بالضَّرَّة ؛ وعُطارِد[٤] يُسْدِي في حَبْل الحُروب ، على البَلَد المَحْرُوب[٥] ويُلْحِمُه ، ويُناظِر على أشكالها الهَندَسِيَّة فيُفْحِمُه ، والأَحمَر[٦] يَنْهَر ، وبعَلَمه الأبيض يُغْرِي ويَنْهَر ، والمُشتَرِي يُبْدِئ في فَضْل الجِهاد ويُعيد ، ويُزاحِم في الحَلَقات ، على ما لِلسَّعادة من الصَّفَقات ،

(١) المجرة : البياض الذي يرى في السماء ، وتسمى عند العوام بسبيل التبانين ؛ وهي كواكب صغار ، متقاربة ، متشابكة لا تتايز حسا ، بل هي لشدة تكاثفها وصغرها صارت كأنها لطخات سحابية ؛ والعرب تسميها أم النجوم لاجتماع النجوم فيها . عجائب المخلوقات للقزويني ٣٢/١ وما بعدها.

(٢) الزهرة ، كتؤدة : نجم أبيض مضيء من الكواكب السبعة السيارة ، ويسميها المنجمون السعد الاصغر ، لانها في السعادة دون المشتري . تاج العروس (زهر) .

(٣) الشعرى العبور (بكسر الشين) : كوكب نير من كوكبة الجوزاء ، في حجم الزهرة ونورها تقريبا ؛ يقال لها الشعرى العبور ، ومرزم الشعرى ؛ ذكرت في القرآن : « وأنه هو رب الشعرى » (٤٩ من سورة النجم) . وقد عبدها قوم من العرب في الجاهلية . وسميت العبور لانها – فيما يزعمون – عبرت السماء عرضاً ، ولم يعبرها غيرها ، فلذلك عبدوها . تاج العروس (شعر) .

(٤) عطارد ، ويسمى – في عرف أهل المغرب – الكاتب : كوكب من السبعة السيارة . واقترانه بزحل يدل على الخسف والزلزال ، وبالمريخ يدل على الشدائد .

(٥) المحروب : المسلوب المال ، المنهوب .

(٦) الأحمر وهو المريخ : دليل على الحروب وأصحابها ؛ فاذا كان في البرج الرابع من الطالع ، دل ذلك على كثرة القتل في الحروب ، وشدة الهول .

وَيَزِيد[1] ؛ وزُحل[2] عــن الطَّالع[3] مُنزَحل[4] ، وَعن العــاشِر[5] مُرتحِل ، وفي زَلَق السُّعُودِ وَحِل ؛ والبَدْر يطالع حجَر المِنْجَنِيق[6] ، كيفَ يَهوِي الى النِّيق[7] ، وَمطلِعُ الشَّمْس يُرقَب ، وجدارُ الأفقِ يَكادُ بالعُيُون عَنها يُنقَب .

ولمــا فشا سِرُّ الصبــاح ، واهتزت أعطــاف الرَّايات بتحيات مُبشِّرات الرِّياح ، أطلَلْنا[8] عليها إطــلال الاسود عــلى الفرائس ، والفُحول على العرائس ؛ فنظرنا مَنْظراً يروع بأساً ومنْعَة[9] ، ويروق وضعاً وصنْعة ، تلفَّعت[10] معاقِلُه الشُّم للسَّحاب ببرُود ، ووردت من غُدر المُزْن في برُود[11] ، وأشرعت لاقتطاف ازهار النجوم والذراع

(١) زحل ، والمشتري ، والمريخ ، اذا اقترنت بعضها ببعض ، أو تناظرت ؛ بأن كانت ناظرة بعضها الى بعض نظر عداوة ، وذلك عند التربيع والمقابلة – اذا حصل ذلك عند حلول الشمس برأس الحمل ، فان ذلك يدل على وقوع حرب .

(٢) زحل ، وهو كيوان : اذا اتصل به القمر اتصال عداوة ، فان ذلك يدل على البلايا والرزايا .

(٣) الطالع : هو البرج الذي على الافق الشرقي .

(٤) زحل عن مكانه : زل ، وحاد .

(٥) العاشر : هو البرج الذي يقع فوق سمت الرأس .

(٦) المنجنيق (بفتح الميم وكسرها) : آلة لرمي الحجارة على العدو في الحرب . شفاء الغليل ص ١٣٣ .

(٧) النيق : أرفع موضع في الجبل .

(٨) أطللنا عليها : أشرفنا عليها .

(٩) منعة : قوة تمنع من يريده بسوء .

(١٠) تلفع : تلحف .

(١١) البرود من الشراب : ما يبرد الغلة .

بين النطاق معاصمَ رُود [١] ، وبلداً يعيي الماسح والذارع [٢] ، وينتظمُ المحاني والأجارع [٣] ؛ فقلنا : اللهم نفّله أيدي عبادك ، وأرِنا فيه آيةً من آيات جهادك ؛ ونزلنا بساحتها العريضة المتُون ، نُزول الغيْث الهتُون ، وتيمّنّا من فحصها بسورة « التين والزيتون » ، متبرّئةً من من امان الرحمان للبلد المفتون ؛ وأعجلنا الناس بحميَّة نفُوسهم النفيسة ، وسجية شجاعتهم البئيسة [٤] ، عن ان تبوّأ [٥] للقتال المقاعد [٦] ، وتُدني باسماع شهير النفير منهم الاباعد ، وقبل ان يلتقيَ الخديم بالمخدوم ، ويركع المنجنيق ركعتي القدوم ؛ فدفعوا من اصحر اليهم من الفرسان . وسبق الى حومة الميْدان [٧] ، حتى أحجروهم في البلد ، وسلبوهم لباسَ الجَلد [٨] ، في موقفٍ يُذهِل الوالدَ عن الولد ، صابت السّهام

---

(١) رخصة ناعمة .
(٢) مسح الارض : قاس مساحتها . وذرعها : قاسها بالذراع .
(٣) المحاني ، جمع محنية ؛ وهي منعرج الوادي ، وما انحنى من الارض . والاجارع ، جمع أجرع ؛ وهي الارض الطيبة المنبت ، والأرض فيها حزونة .
(٤) الشديدة البأس .
(٥) تبوأ : تهيأ .
(٦) المقاعد : مواقف للقتال تعين لكل واحد من المقاتلين ؛ يعني عجلنا بالهجوم قبل ان يتخذ كل مقاتل مكاناً معينا . اشارة الى الآية « واذ غدوت من اهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » (١٢١ من سورة آل عمران) .
(٧) حومة الميدان : أشد موضع فيه وقت القتال .
(٨) الجلد : القوة ، والصبر .

فيه غماما [١] ، وطارت كأسراب الحمام تُهْدى حِماما [٢] ، واضحت القَنا قِصَدا [٣] ، بعد أن كانت شِهاباً رصدا ؛ وماج بحرُ القَتام [٤] بأمواج النُّصول ، واخذ الأرض الرَجَفانُ لِزَلزال الصِّياح الموصول ؛ فلا ترى الا شهيداً تُظلل مَصرَعه الحُور [٥] ، وصريعاً تقذِف به الى الساحل تلك البحور ؛ ونواشِبَ [٦] تَبْأى [٧] بها الوجوهُ الوجيهة عند الله والنُّحور ؛ فالمِقْضَب [٨] ، فَوْده [٩] يُخْضَب ، والأسمَر ، غُصنُه يُستَثمَر ، والمِغْفَر [١٠] ، حِماهُ يُخْفَر ، وظُهورُ القِسِيّ تُقْصَم [١١] ، وعِصَمُ الجُنْد الكوافِر تُفْصَم [١٢] ، وورقُ اليَلب [١٣] في المُنْقلب

(١) صابت السهام غماما : نزلت كالغمام لكثرتها .
(٢) الحمام (بالكسر) : قضاء الموت وقدره .
(٣) قصدا : قطعا ؛ يقال : القنا قصد أي مكسورة .
(٤) القتام : الغبار .
(٥) جمع حوراء ؛ وهي التي اشتد بياض عينها ، وسواد سوادها .
(٦) نواشب : سهام ناشبة في وجوه المحاربين ، أو في أعناقهم .
(٧) تبأى بها : تنشق .
(٨) سيف مقضب : قطاع .
(٩) الفود : معظم شعر اللمة مما يلي الاذن . واسناد ذلك للسيف على جهة التوسع .
(١٠) المغفر : ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه .
(١١) تقصم : تكسر .
(١٢) عصم الكوافر : جمع عصمة ، وأصل العصمة الحبل ، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه : والكوافر جمع كافرة . وهو يريد هنا ان الجند جماعات ، فصح له جمع فاعل على فواعل . تفصم : تقطع وتنفصل . مقتبس من الآية : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » .
(١٣) اليلب : الدروع ، والدرق .

يَسقُط ، والبِيضُ تكْتُب والسُّمْر تَنقُط [١] ، فاقتُحِم الربضُ الاعظم لحينه ، واظهر اللهُ لعيون المبصرين والمستبْصِرين عِزّة دينه ، وتبرأ الشيطان من خدينِه [٢] ، ونهب الكفَّار وخُذِلوا ، وبكلِّ مرصد جُدِّلوا ؛ ثمّ دُخِل البَلَدُ بعدَهُ غِلَابا ، وجُلِّل [٣] قتْلًا واستلابا ؛ فلا تَسَل إلا الظُّبا [٤] والأَسَل [٥] عن قِيام ساعتِه ، وهَوْل يومها وشناعتِه ، وتخْريب المَبائت [٦] والمَباني ، وغِنَى الأيْدي من خزائن تلك المَغَاني ، ونَقْل الوُجود الأول الى الوُجود الثّاني [٧] ؛ وتَخارق السَّيفُ فجاء بغَير المُعتاد ، ونَهِلَت القَنا الرُّدَينيَّة من الدِّماء ، حتى كادت تُورِق كالأغصان المُفْتَرَسة والأوتاد ، وهَمَت أفلاكُ القِسيِّ وسَحَّت ، وأرَنَّت حتى بُحَّتْ ، ونَفدت موادُّها فشحَّت ، مما ألَحَّت ، وسَدَّت المَسالكَ جثثُ القَتْلَى فمَنَعت العابر ، واستَأْصل

(١) البيض : السيوف . والسمر : الرماح .

(٢) الخدين : الصديق .

(٣) جلل قتلا : عمه القتل .

(٤) الظبا ، جمع ظبة ؛ وهي حد السيف ، والسنان ، والنصل ، والخنجر ، ونحوها .

(٥) الأسل : عيدان طوال دقاق مستوية لا ورق لها ؛ وتسمى الرماح والقنا أسلا ، على التشبيه بها في الطول ، والاستواء ، والدقة .

(٦) المبائت ، جمع مبيت ، مكان البيتوتة .

(٧) يعني بالوجود الأول : الوجود الخارجي ، وهو المرئي بالعين الملموس . أما الوجود الثاني فهو الوجود الذهني ؛ والمعنى أن هذه المدينه قد أصبحت موجودة في الأذهان صورتها بعد أن كانت موجودة العين . وانظر معيار العلم للغزالي ص ٣٧ . وشرح المقاصد للسعد ١/٥٧ (طبع استانبول سنة ١٢٧٧ هـ)

اللّٰه من عدوِّه الشَّأْفَـةَ وقطَع الدَّابر[١] ، وأزلَف الشَّهيدَ وأحسَب الصَّابر[٢] ، وسَبَقت رُسلُ الفتح الذي لم يُسمَع بمثله في الزَّمن الغَابر . تَنقُل البُشرَى من أفواه المحابر ، الى آذان المنَابر .

أقمنا بها أياماً نعْقِـر الأشجار[٣] ، ونستأصل بالتَّخريب الوِجار[٤] ، ولسانُ الانتقـام مـن عَبدَة الأصنام ، يُنـادي : يا لثـاراتِ الاسْكَنْدَرِيّة[٥] تشَفِّياً من الفِجار[٦] ، ورعْيـاً لحق الجـار ؛ وقفانـا وأجنحةُ الرَّايات ، برياح العِنَايات ، خافقة وأوْفاقُ[٧] ، التَّوفيق ،

(١) الشأفة : الأصل ، واستأصل اللّٰه شأفته أي أصله . وقطع الدابر : استأصل آخرهم .

(٢) أزلف الشهيد : قربه اليه . وأحسب الصابر : أعطاه ما يرضى ، أو اعطاه حتى قال حسبي .

(٣) نعقر الاشجار : نقطع رؤوسها ، فتيبس .

(٤) الوجار (بالكسر ويفتح) : جحر الضبع ، والاسد ، والثعلب ، والذئب ونحوها .

(٥) يشير ابن الخطيب الى «الواقعة» التي حدثت بالاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ ، ومجملها ان حاكم قبرص ، انتهز غيبة حاكم الاسكندرية في الحجاز للحج ، فهاجم البلد في اسطول بلغت قطعه نحو ٧٠ فيا قالوا ، وقد خرج اهل الاسكندرية للنزهة غير مقدرين للخطر ، وكانت الحامية الموجودة قليلة ، والأسوار والحصون خالية من المدافعين ، فهاجم العدو الأهالي العزل الآمنين ، ففروا الى المدينة ، وأغلقوا عليهم الابواب ، فأحرقها العدو واقتحم البلد عليهم .. فكانت مذابح هتكت فيها حرمات . وانظر تفصيلها في العبر م ٥ .

(٦) شبّه مهاجمة الاسكندرية الآمنة بحرب « الفجار » ، التي سميت بذلك لما استحل فيها من حرمات ، حيث كانت في الاشهر الحرم .

(٧) أوفاق ، جمع وفق ؛ وهي مربعات تحتوي على بيوت مربعة صغيرة ، وتوضع في تلك البيوت ارقام ، أو حروف ، على نظام بحيث لا يتكرر عدد في بيتين ، وبحيث يكون مجموع اضلاع المربع ، ومجموع اقطاره متساوياً ؛ ويسمى الوفق – بعد ذلك – بما في احد اضلاعه من بيوت ؛ فيقال : المثلث ، والمربع ، والمخمس الخ ؛ وقد يحتوي على مئة من البيوت فيقال : الوفق المئيني . ويقول اصحاب الاوفاق : ان للاعداد – في هذا الوضع – خواص روحانية ، وآثاراً عجيبة ، اذا استثير للعمل بها وقت مناسب ، وساعة شريفة . وكلام ابن الخطيب على التشبيه والتجوز .

النّـاشئـة من خُطوط الطّريق ، مُوافِقة ، وأسواقُ العزّ بالله نافقة ، وحملاء الرِفق مصاحبة ـ والحمدُ لله ـ مُرافقة ؛ وقد ضاقت ذرُوع الجبال ، عن أعناق الصُّهْب السِّبال[1] ، ورُفعت على الأكفال ، رُدَفاء كرائم الأنفـال ، وقُلقِلت من النـواقيس أجرام الجبال ، بالهندام[2] والاحتيال ؛ وهلك يمهلك هذه الأمّ بنات كنّ يرتضِعن ثديها الحوافل[3] ، ويستوثرن حِجرها الكافل ؛ شمل التّخريبُ أسوارها ، وعجّلت النّار بوارها .

ثُم تحرّكْنا بعدها حركة الفتح ، وأرسلنا دلاء الأدلاء[4] قبل المَتْح[5] ، فبشّرت بالمَنْح ؛ وقصدْنا مدينـة أُبدة ، وهي ثانيـة الجناحين ، وكُبرى الأختين ، ومُساهمةُ جيّان في حين الحين[6] ؛ مدينةٌ أخذت عرضَ الفضاء الأخرق[7] ، وتمشّت فيه أرباضها تمشّي

---

(١) الصهب : جمع اصهب ، وهو الابيض تخالطه حمرة . والسبال : جمع سبلة ؛ وهي اللحية ، او ما على الشارب من شعر ؛ ويقال للاعداء عامة هم صهب السبال ؛ ذلك لان الصهوبة في الروم ، وقد كانوا اعداء العرب ؛ ثم قالوا لكل الاعداء : هم صهب السبال .

(٢) الهندام آلة يحتال بها على رفع او تحريك الاشياء الثقيلة التي لا تستطيع قوى الانسان المجردة ان ترفعها ، او تحركها . وقد وصف هذه الآلة ابن خلدون في آخر فصل البناء من مقدمته.

(٣) الحوافل : جمع حافلة ، الضرع الممتلىء لبناً .

(٤) جمع دلو ؛ وهي ما يستقى به . والادلاء : جمع دليل ، وهو المرشد . ويريد : قدمنا ـ قبل بدء القتال ـ طلائع لنكشف ما عند العدو من استعداد .

(٥) المتح : الاستقاء .

(٦) الحين : الهلاك .

(٧) الأخرق : البعيد الواسع .

الكِتابة الجامِحة في المُهْرَق[١] ؛ المُشْتملة على المَتاجر والمكاسب ، والوضع المتناسب ، والفلح المعْيي رِيْعُه[٢] عمل الحاسب وكوارة[٣] الدَّبْر[٤] اللاّسب[٥] المتعدِّدة اليَعاسب[٦] ؛ فأناخ العَفاء[٧] برُبوعها العامرة ، ودارت كُؤوس عُقار[٨] الحُتُوف[٩] ، ببنانَ السُّيوف ، على مُتدِيريها المُعاقرة[١٠] ، وصبَّحتْها طلائعُ الفاقرة[١١] ، وأُغْريت ببُطون أسوارها عُوجُ المعاول[١٢] الباقرة[١٣] ؛ ودخلَت مدينَتها عُنوةُ السَّيْف ، في أسرَعَ من خطْرَة الطَّيْف ، ولا تَسْأل عن الكَيْف ، فلم يَبْلُغ العَفاء من مَدينةٍ حافِلة ، وعَقيلة في حُلل المَحاسِن رافلة[١٤] ، ما بَلَغ من هذه البائسة[١٥] التي سَجَدت لآلهة النِّيران

(١) المهرق : الصحيفة البيضاء يكتب فيها .
(٢) الريع : النماء ، والزيادة ؛ وارض مريعة : مخصبة ، وهذا هو المراد هنا .
(٣) الكوار ، والكوارة : شيء يتخذ للنحل من القضبان .
(٤) الدبر : النحل .
(٥) لسبته النحلة ؛ لسعته .
(٦) اليعسوب : امير النحل . والجمع الصحيح يعاسيب .
(٧) أناخ الجمل : برك . والعفاء : المحو ، والازالة .
(٨) العقار : الخمر .
(٩) الحتوف : جمع حتف ؛ وهو الموت .
(١٠) معاقر الخمر : مدمنها ، والجمع : معاقرة : ولعله يريد بمتديريها ، ديارها .
(١١) الفاقرة : الداهية الكاسرة .
(١٢) جمع معول ؛ وهو الحديدة تنقر بها الجبال . او هو الفأس .
(١٣) بقر الشيء بقراً : فتحه ، ووسعه ، وشقه .
(١٤) امرأة رافلة : تجر ذيلها جراً حسناً اذا مشت .
(١٥) البائسة : الفقيرة . والتي نزلت بها بلية ترحم من اجلها .

أَبْراُجها ، وتَضَاءلَ[١] بالرَّغام[٢] مِعْراُجها ؛ وَضَفَتْ[٣] على أعطافِها[٤] ملابِسُ الخِذْلان ، وأَقفَر من كنائِسها كِناس[٥] الغِزلان .

ثم تأَهبنا لغزو أُمِّ القُرَى الكافرَة ، وخزائن المزاين[٦] الوَافرَة ، ورَبَّة الشُّهرَة السَّافِرَة[٧] ، والأنباء المسافِرَة ؛ قُرْطبة ، وما أدراكَ ما هِيَهْ ! ذات الأَرْجاء الحالِيَة[٨] الكاسِيَة[٩] ، والأَطوادِ الرَّاسخة الرَّاسية ، والمَباني المُباهِيَة ، والزَّهراء[١٠] الزَّاهِيَة ، والمَحَاسن غير المتَنَاهِية ؛ حيثُ هالةُ بدر السَّماء قد استدارت من السُّور المَشِيد البِناء دارا ، ونَهرُ المَجرَّة من نَهرِها الفَياض ، المسْلول حساُمه من غُمود الغِيَاض[١١] ، قد لَصق بها جارا ، وفلَكُ الدُّولاب ،

---

(١) تضاءل : تصاغر وذل .
(٢) الرغام (بالفتح) : التراب .
(٣) ثوب ضاف : سابغ طويل .
(٤) عطفا كل شيء : جانباه ، والجمع اعطاف .
(٥) الكناس : موضع في الشجر يستكن فيه الظبي ويستقر ، اذا اشتد الحر .
(٦) المزاين : ما يتزين به .
(٧) السافرة : الذاهبة كل مذهب .
(٨) الحالية : التي لبست حلياً .
(٩) الكاسية : المكتسية .
(١٠) الزهراء : مدينة في شمال قرطبة على بعد ثلاثة اميال منها ، تحت جبل العروس ؛ بناها الناصر المرواني ابو المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله اول سنة ٣٢٥ ﻫ ، وسماها باسم جارية كان يحبها ، اشتهت ان يبنى لها مدينة في جبل العروس ، ويسميها باسمها . وقد وصفهـا المقري في نفح الطيب ١ / ٣٤٤ – ٣٧٤ طبع ليدن .
(١١) الغيضة : مغيض ماء يجتمع ، فينبت فيه الشجر ؛ وجمعها غياض .

المُعتَدِل الانقِلاب ، قَد استَقام مدارا ، ورَجع الحَنينَ اشتِياقاً الى الحبيبُ الأول وادِّكارا[1] حيثُ الطَّودُ كالتّاج ، يَزدان بلُجَين العَذب المُجاج[2] ، فيُزْرِي بتاج كِسْرَى ودارا ؛ حيثُ قِسي الجُسُور[3] المَديدَة ، كأنها عُوج[4] المَطِيّ العَديدَة ، تعبُر النّهر قِطارا ؛ حيث آثار[5] العَامِرِيّ[6] المُجاهِد[7] ، تَعبَق[8] بين تلك

---

(١) يريد ان قرطبة دائمة الحنين الى الحكم الاسلامي الذي انتظمها منذ الفتح حتى سنة٦٣٣ ﻫ حيث سقطت في ايدي الاسبان .

(٢) المجاج : العسل ، ومجاج المزن : مطرها .

(٣) الذي نعرف ان على نهر قرطبة جسرين ، بني الاعظم منهما – بأمر عمر بن عبد العزيز – السمح بن مالك الخولاني ، او عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقي ؛ وكانوا يسمونه قنطرة الوادي ، وكانت اقواسه سبع عشرة قوساً ، سعة الواحدة منها خمسون شبراً . نفح الطيب ١/٢٢٦، ٢٤٦ بولاق .

(٤) جمع عوجاء ؛ وهي الضامرة من الابل . والمطي : جمع مطية ؛ وهي البعير يمتطى ظهره.

(٥) من آثاره : المنية المعروفة بالعامرية ، والمدينة « الزاهرة » التي اتخذها مقراً لحكمه ، والزيادة التي اضافها لمسجد قرطبة في الناحية الشرقية منه . نفح الطيب ١ . ٢٦ ، ٢٧٤ – ٢٧٧ بولاق .

(٦) هو محمد بن عبد الله بن ابي عامر بن محمد بن عبد الله بن عامر المعافري ، دخل جده الاندلس مع طارق بن زياد . واستوزره الحكم المستنصر لابنه هشام ، فلما مات حجبه ابن ابي عامر ، واستولى على الدولة ، وأمر بأن يحي بتحية الملوك ، وتسمى بالحاجب المنصور . توفي مبطوناً بمدينة سالم ، بأقصى ثغور المسلمين سنة ٣٩٣ او ٣٩٤ . العبر لابن خلدون م٤ .

(٧) كان المنصور بن ابي عامر محباً للجهاد ؛ غزا بنفسه – مدة ملكه – نيفاً وخمسين غزوة ، لم تنتكس له فيها راية ، ولا فل له فيها جيش . ومن شعره في ذلك :

ألم ترني بعت المقامة بالسرى   ولين الحشايا بالخيول الضوامر
وبدلت بعد الزعفران وطيبه   صدى الدرع من مستحكمات المسامر
فلا تحسبوا أني شغلت بلذة   ولكن أطعت الله في كل كافر

وكان يأمر ان ينفض غبار ثيابه التي حضر فيها القتال ، وان يجمع ويحتفظ به ؛ فلما حضرته الوفاة أمر أن ينثر على كفنه اذا وضع في قبره . رحمه الله . العبر م٤ .

(٨) عبق الطيب : فاح وانتشر . (تاج) .

المَعَاهِد ، شَذَى مِعطارا ؛ حيثُ كرائمُ السَّحائِب ، تَزُور عرائسَ الرِّياض الحبائب ، فتَحمِل لها منَ الدُّرِّ نِثارا ؛ حَيْث شمُول الشَّمال[1] تُدار على الأدْواح[2] ، بالغُدُوِّ والرَّواح ، فترَى الغُصون سُكارَى ، وما هي بسُكارَى ؛ حيثُ أيدي الافتتاح ، تَفْتَضُّ من شَقَائق[3] البِطاح ، أبكارا ؛ حيثُ ثُغورُ الأقاح[4] الباسم ، تُقَبِّلها بالسَّحَر زُوارُ النَّواسم ، فتَخفُق قلوبُ النُّجوم الغَيارَى ؛ حيثُ المُصلَّى[5] العَتيق ، قد رَحُبَ مَجالاً وطالَ مَنارا[6] ، وأزرَى ببَلاط الوَليد[7]

(١) الشمول : الخمر . والشمال : الريح تهب من القطب ؛ ويقال ؛ خمر مشمولة اذا ضربتها ريح الشمال فأصبحت باردة الطعم .

(٢) جمع دوحة : وهي الشجرة العظيمة المتسعة .

(٣) يريد شقائق النعمان ، وتسمى الشقر ايضاً ، وهي نور احمر ، والنعمان اسم الدم ، فشبهت حمرتها بحمرة الدم ، وسميت شقائق النعمان ، وغلب عليها اسم الشقائق .

(٤) جمع اقحوان ، وهو نبت طيب الريح ، له نور أصفر ، وحواليه ورق ابيض ، كأنه ثغر جارية حدثة السن ، وانظر مفردات ابن البيطار ٤٨/١ . والصواب : « الاقاح البواسم » .

(٥) يريد جامع قرطبة ، وقد وصفه الحميري في الروض المعطار وصفاً مفصلا ص ١٥٣ – ١٥٥ ، وانظر نفح الطيب ٣٥٨/١ – ٣٦٠ . طبع ليدن .

(٦) وصف منارة جامع قرطبة وصفاً دقيقاً ، وقاسها كذلك ، الحميري في الروض المعطار ص ١٥٥ – ١٥٦ .

(٧) كان الوليد بن عبد الملك من افضل خلفاء بني امية ؛ أعطى المجذمين ، وقال لهم لا تسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادماً ، وكل ضرير قائداً ؛ وكان صاحب بناء واتخذ المصانع والضياع ؛ وكان الناس في زمانه ، يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع ؛ وبنى المساجد : مسجد المدينة ، ومسجد دمشق ، الذي أنفق عليه اموالا عظيمة ، وأحضر له الصناع من بلاد الروم ومن سائر بلاد الاسلام ، وكانت العرب تسميه بلاط الوليد . وانظر تاريخ الطبري ٥٨/٨ – ٩٧ وتاريخ أبي الفداء ٢١٠/١ ، مقدمة ابن خلدون ص ٦٤ . طبع دار الكتاب اللبناني – بيروت .

احتِقَارا ؛ حيثُ الظُّهور[١] المُثارة بسلاح[٢] الفَلاح ، تُجَبُّ عن مثلِ أَسْنِمة[٣] المَهارى[٤] ، والبُطون[٥] كأنها لتَدميثِ[٦] الغَمائم ، بُطونُ العَذارَى ، والأَدْواح العاليه ، تُختَرَقُ أعلامُها الهاديه ، بالجداول الحيارَى[٧] . فما شئتَ من جَوٍّ بَقيل[٨] ، ومُعرَّسٍ للحُسن ومَقيل ، ومالك للعَقْل وعَقِيل[٩] ؛ وخمائل ، كم فيها للبَلابل ، مِن قال وقِيل ، وخَفيفٍ يجاوِرُ بثَقيل ؛ وسَنابلَ تحكِي من فوق سُوقها ، وقَصَبُ بسُوقها ، الهمزاتِ على الألِفات ، والعَصافيرَ البَديعة الصِّفات ، فوقَ القُضب المُؤْتَلِفات ، تميل لِهُبوب الصَّبا والجَنوب ، مائلة الجُيوب ، بدُرِّ الحبوب ؛ وبِطَاحٍ لا تَعرِف عَيْن المَحْل[١٠] ،

---

(١) الظهر من الارض : ما غلظ وارتفع .

(٢) أثار الارض بالسن – وهي الحديدة التي تحرث بها الارض – اذا قلبها على الحب بعد ما فتحت مرة ، وفي القرآن : « وأثاروا الارض » : حرثوها وزرعوها ، واستخرجوا منها بركاتها.

(٣) جب السنام : قطعه . وسنام الناقة : أعلى ظهرها ؛ والجمع أسنمة .

(٤) ابل مهرية : منسوبة الى مهرة بن حيدان أبي قبيله ، وهم حي عظيم ؛ والجمع مهارى .

(٥) جمع بطن ؛ والبطن من الارض : ما لان وسهل واطمأن .

(٦) دمث الشيء : مرسه حتى لان .

(٧) الحيارى : جمع حيران ؛ وهو المتردد في الامر ، لا يدري وجهة يهتدي اليها . ويريد ان الجداول لالتوائها ، وكثرة منعطفاتها ، تشبه في سيرها شخصاً حيران قد التبست عليه السبل .

(٨) الجو : المنخفض من الارض . والبقيل : المكان ذو البقل ؛ وكل نبات اخضرت به الأرض فهو بقل .

(٩) يوري بمالك وعقيل ابني فارج بن مالك ؛ نديمي جذيمة الابرش ، ولهما مع عمرو بن عدي خبر تجد تفصيله في تاريخ الطبري ٢/٣٠ – ٣١ .

(١٠) المحل : الجدب ؛ وهو انقطاع المطر .

فتَطْلُبه بالذَّحل[١] ، ولا تَصْرِفُ في خِدمة بيضِ قِباب الأزهار ، عندَ افتِتاح السَّوسن والبَهار[٢] ، غيرَ العُبْدان من سُودان النَّحْل ؛ وبَحْرِ الفِلاحة الذي لا يُدْرَكُ ساحلُه ، ولا يَبْلغُ الطِّيةَ[٣] البعيدةَ راحلُه ؛ الى الوادي ، وسَمَر النَّوادي[٤] ، وقَرارِ دُموع الغَوادي[٥] ؛ للتَّجاسُر على تَخَطِّيه ، عِندَ تمَطِّيه[٦] ، الجِسْرُ العَادي ؛ والوَطنِ الذي ليسَ من عَمْرو ولا زيد ، والفَرا الذي في جوْفِهِ كلُّ صَيْد[٧] ؛ أقلُّ كرسيُّه خلافة الاسْلام ، وأغار بالرُّصافةِ[٨] والجِسْرِ دارَ السَّلام[٩] ؛ وما عَسَى أن تُطْنِبَ في وصفِه أَلسِنَةُ الأقلام أو تُعبِّر به عن ذلك الكمال فنونُ الكلام .

---

(١) الذحل : الثأر .

(٢) البهار — عند اهل المغرب — : نبات طيب الريح ، له قضبان خضر ، في رؤوسها أقماع يخرج منها نور ينبسط منه ورق ابيض ، وفي وسط البياض دائرة صفراء من ورق صغير . وهذه هي الصفة التي اثبتها اهل المشرق للنرجس ، حيث قالوا : هو ياقوت اصفر بين در ابيض على زمرد اخضر . فالبهار عند اهل المغرب هو النرجس عند اهل المشرق .

(٣) الطية : الناحية .

(٤) السمر : الحديث بالليل . والنادي : المجلس ، والجمع الصحيح :أندية .

(٥) الغادية : السحابة تنشأ فتمطر غدوة ، والجمع غواد .

(٦) تمطيه : امتداده . كنى به عن امتلاء النهر بالمياه ايام الشتاء .

(٧) الفرا : الحمار الوحشي ؛ وهو من اعظم ما يصطاده الناس ، وفي الكلام اشارة الى المثل : « كل الصيد في جوف الفرا » الذي يضرب لما يفضل على غيره . ميداني ٢/٥٥ .

(٨) الرصافة : قصر بناه عبد الرحمن الداخل ، في الشمال الغربي لقرطبة ، واتخذه لسكناه ، نقل اليه من الشام كثيراً من اشجار الفاكهة والأزهار ؛ وسماه باسم رصافة جده هشام بن عبد الملك. معجم البلدان ٤/٢٥٧ .

(٩) يريد بغداد ، وسماها مدينة السلام أبو جعفر المنصور ، وكان ذلك سنة ١٤٦ ه انظر تاريخ بغداد ١/٦٦ — ٦٧ .

فأعمَلْنا إليها السُّرَى والسَّيْر ، وقُدنا إليها الخيلَ قد عقَد الله في نواصيها الخير[1] . ولما وقفْنا بظاهرها المُبْهت المُعْجب ، واصطَففْنا بخارجِها المُنبتِ المُنجِب ؛ والقلوبُ تلتمس الاعانةَ مِن مُنْعمٍ مُجْزِل ، وتستنزِل مَددَ الملائكة مِن مُنجِد مُنْزِل ، والرّكائبُ واقِفةٌ مِن خلفِنا بمَعْزِل ، تتَناشد في معَاهد الاسلام :

« قِفا نبْكِ من ذِكرى حبيب ومَنزل[2] »

بَرَزَ مِن حاميَتِها المحاميه ، ووَقودِ النّار الحاميه ، وبَقِية السّيف الوافِرة على الحِصاد النّامية ، قِطَعُ الغمائم الهامية ، وأمواجُ البُحور الطّامِيَة ؛ واستَجَنّت[3] بظلال أبطالِ المجال ، أعدادُ الرجال ، الناشِبة[4] والرامية ، وتصدّى للنّزال ، من صناديدها[5] الصّهْبِ السِّبال ، أمثالُ الهِضاب الراسية ، تُجِنُّها[6] جُنَنٌ[7] السوابغ الكاسية ،

(١) اشارة الى حديث البخاري : « الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة » . الجامع الصحيح ٤/١٨٧ طبع الاستانة .

(٢) مطلع المعلقة المشهورة لامرىء القيس .

(٣) استجنت : استترت .

(٤) الناشبة : قوم يرمون بالنشاب ؛ وهي السهام .

(٥) الصنديد : السيد الشجاع . والجمع صناديد .

(٦) تجنها : تسترها .

(٧) الجنن : جمع جنة ، وهي السترة .

وقواميسُها[١] المُفاديةُ للصُّلبان يومَ بُوسِها بنُفوسها المُواسِية[٢]، وخنازيرُها التي عدتْها[٣] عن قَبول حُجج الله ورسوله، سُتُور الظَّلام الغاشية، وصخور القلوب القاسية؛ فكان بين الفريقين أمامَ جِسْرِها الذي فرَق البحر، وحلَّى بلُجَينه، ولآلِئ زَيْنه، منها النَّحر، حربٌ لم تنسُج الأزمان على مِنوالها[٤]، ولا أتت الايامُ الحبالى بمثل أجنَّة[٥] أهوالها؛ مَن قاسها بالفجَار[٦] أفَكَ وفجَر[٧]؛ او مثَّلها بجَفْر الهَباءة[٨] خرِفَ وهجر[٩]؛ ومَن شبَّهها بحرب داحِسَ والغبراء[١٠]، فما عرف الخبر، فليسأل مَن جرَّبَ وخبَر؛ ومن نظَّرها

---

(١) القوامس، جمع قومس (بوزن جوهر)؛ وهو مرافق الملك، ونديمه، والامير.

(٢) المواسي: المعين.

(٣) عديته فتعدى: اي تجاوز الحد الذي حد له.

(٤) المنوال: المنسج تنسج عليه الثياب. يريد لم تأت الايام بمثل هذه الحروب.

(٥) حبالى: جمع حبلى. والاجنة جمع جنين.

(٦) حروب الفجار عدة؛ واشهرها – وهي آخرها – تلك التي كانت بين قريش وكنانة، وبين هوازن. وقد شهدها النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار؛ وسميت فجاراً لما استحلوا فيها من حرمة الاشهر الحرم. العقد الفريد ٣/٣٦٨ – ٣٧١.

(٧) أفك: كذب. وفجر: مال عن الحق.

(٨) جفر الهباءة: يوم كان لعبس على ذبيان، سمي بالموضع الذي كانت فيه موقعتهم؛ وهو مستنقع في ارض غطفان. العقد الفريد ٣/٣١٦ – ٣١٧، ياقوت ٨/٤٤٠، الميداني ٢/٢٦٩.

(٩) خرف: فسد عقله. هجر: خلط في كلامه وهذى.

(١٠) داحس والغبراء: يوم من اشهر ايامهم، بلغ من بعد اثره ان اتخذوه مبدءاً من مبادىء تواريخهم في الجاهلية؛ ويقال انه دام اربعين سنة. وكان بين عبس وذبيان.

وداحس والغبراء: فرسان، وسمي اليوم بهما لما انه كان بسببهما، انظر العقد الفريد ٣/٣١٣ – ٣١٤.

بيوم شِعْبِ جَبَلَه[١] فهو ذو بَلَه[٢] ؛ او عادَلها ببطن عاقِل[٣] ، فغيرُ عاقل ؛ او احتجّ بيوم ذي قار[٤] ، فهو الى المعرفة ذو افتقار ؛ او ناضل بيوم الكَديد[٥] ، فسهمه غير السديد ؛ انما كان مَقاماً غيرَ مُعتاد ، ومرعى نفوس لم يفِ بوصفه لسانُ مُرتاد[٦] وزِلزال جبال اوتاد[٧] ، ومَتْلَف[٨] مَذخورٍ لسلطان الشيطان وَعَتاد[٩] ؛ أَعلَم[١٠] فيه البَطَلُ الباسل[١١] ، وتورّد الأبيضُ الباتر[١٢] ، وتأوّد الاسمر[١٣]

---

(١) كان يوم شعب جبلة لعامر وعبس على ذبيان ، وكان - فيما يقول ابو عبيدة - قبل الاسلام بأربعين سنة (وشعب جبله: هضبة حمراء بنجد). العقد الفريد٣/٣٠٧- ٣١٠ ، ياقوت٣/٥١

(٢) البله : الغفلة .

(٣) بطن عاقل : يوم كان لذبيان على بني عامر ، (او كان بين بني خثعم ، وبني حنظلة)، ذكر سببه في العقد الفريد ٣/٣٠٥ - ٣٠٦ ، وانظر مجمع الامثال ٢/٢٦٤ .

(٤) يوم ذي قار : يوم مشهور كان ايام النبي صلى الله عليه وسلم ، وأثر عنه انه قال :«انه اول يوم انتصفت فيه العرب من العجم » . وتفصيل اخباره ، وأسبابه ، مذكورة في العقد ٣/٣٧٤ - ٣٧٨ .

(٥) كان يوم الكديد لسليم على كنانة ، وفيه قتل ربيعة بن مكدم ، فارس كنانة . وانظر العقد الفريد ٣/٣٢٦ .

(٦) المرتاد والرائد : الذي يتقدم القوم في التماس النجعة واختيار المرعى الحسن .

(٧) أوتاد الارض : جبالها .

(٨) المتلف : المفازة ، والقفر ؛ سمي بذلك لانه يتلف سالكه .

(٩) العتاد : العدة تعدها لأمر ما .

(١٠) أعلم الفارس : جعل لنفسه علامة الشجعان ، وأعلم نفسه : وسمها بسيما الحرب .

(١١) الباسل : الشجاع .

(١٢) تورد : احمر . الابيض الباتر : السيف القاطع .

(١٣) تأود : اعوج وانثنى . الاسمر : الرمح .

العاسل[١] ، ودوَّم الجَلْمَد[٢] المتكاسل ، وانبعث من حَدَب[٣] الحَنِيَّة[٤] ، الى هدف الرَّمِيَّة[٥] ، الناشرُ الناسل[٦] ، ورُوِيَتْ لمُرسَلات السِّهام المَراسِل ؛ ثم أفضى امرُ الرِّماح الى التَّشاجُر والارتباك ، ونشبت الأسنَّةُ في الدُّروع نَشَبَ السمك في الشِّباك ؛ ثم اختلطَ المَرْعيُّ بالهَمَل[٧] ، وعزِل الرُّدينيُّ عن العَمَل ؛ وعادت السُّيوف من فوق المفارِق تيجانا ، بعدَ أن شقَّت غُدَرَ السَّوابغ خلجانا ؛ واتَّحدَت جداولُ الدُّروع ، فصارت بحراً ، وكان التَّعانق ، فلا ترى الا نَحراً يُلازم نَحرا ، عِناقَ وَدَاع ، وموقف شمل ذي انصداع ، وإجابة مُنادٍ إلى فِراق الأبد وَدَاع ؛ واستكْشَفَتْ مآل الصَّبر الأنفسُ الشَّفَّافة[٨] ، وهبَّت بريح النَّصر الطَّلائعُ المبشِّرة الهَفَّافة[٩] ؛ ثم أمدَّ السَّيل ذلك العباب ، وصَقَلَ الاستبصارُ الألباب ، واستَخلص العزمُ صفوةَ اللُّباب ، وقال لِسان النَّصر : « ادخلوا عليهم الباب » ؛ فأصبحت طوائفُ الكفَّار ، حصائدَ مناجل

(١) عسل الرمح : اضطرب واهتز ، ورمح عاسل : مضطرب لدن .
(٢) دوم : تحرك ودار . والجلمد : الصخر .
(٣) حدب الحنية : تقوسها وانعطافها .
(٤) الحنية : القوس ؛ فعيلة بمعنى مفعولة ؛ واكثر ماتكون حنية عند توتيرها ، والرمي بها .
(٥) الرمية : الطريدة التي يرميها الصائد .
(٦) الناشر : المهتز . والناسل : المسرع .
(٧) هو مثل والمرعى : الابل التي لها راع ، والهمل : الضوال من النعم لا راعي لها .
(٨) أنفس شفافة : فاضلة .
(٩) الهفافة : السريعة المرور في هبوبها .

الشِّفار ، فغافِرُهم قد رضِيَت حرُماتها بالاخفار [١] ، ورءوسهم محطوطة في غير مقام الاستغفار ، وعلت الرّايات من فوق تلك الأبراج المستطرقة والأسوار ، ورفرف على المدينة جناحُ البوار ، لولا الانتهاء إلى الحدّ والمقدار ، والوقوفُ عند اختفاء سرّ الأقدار

ثم عبرنا نهرَها ، وشددنا بأيدي الله قهرَها ، وضيّقنا حصرها ، وأدرنا بلآلىء القباب البيض خصرها ؛ واقمنا بها اياماً تحوم عقبانُ البنود على فريستها حياما [٢] ، وترمي الادواح ببوارها ، وتسلّطُ النيرانَ على أقطارها ؛ فلولا عائقُ المطر ، لحصلنا من فتح ذلك الوطن على الوطر ، فرأينا أن نروضها بالاجتثاث [٣] والانتساف [٤] ، ونوالي على زروعها وربوعها كرّات رياح الاعتساف ؛ حتّى يتهيأ للاسلام لوكُ طعمتها ، ويتهنّا بفضل الله إرث نعمتها ؛ ثم كانت من موقفها الافاضة من [٥] بعد نحر النّحور ، وقذف جمار الدّمار على العدوّ المدحور ، وتدافعتْ خلفنا السّيّقاتُ [٦] المتّسقات تدافعَ أمواج البحور .

---

(١) اخفرت الرجل : اذا نقضت عهده ، وذمامه . والهمزة فيه للازالة ؛ أي أزلت خفارته .

(٢) حام الطائر حول الماء حياما : دوم ودار .

(٣) الاجتثاث : انتزاع الشجر من أصوله .

(٤) انتساف الزرع : اقتلاعه .

(٥) الافاضة : الدفع في السير بكثرة ؛ ولا يكون الا عن تفرق جمع . وفي « الافاضة » و « النحر » ، و « رمي الجمار » تورية واضحة بالمعاني الاسلامية المتعارفة في باب « الحج » .

(٦) السيقات : ما استاقه العدو من الدواب ، ويقال لما سيق من النهب فطرد ، سيقة .

وبعد أن الحجنا على جنّاتها المُصْحِرة [١]، وكُرُومها المستبحرة إلحاح الغريم [٢]، وعوّضناها المَنْظرَ الكَريه من المنظر الكريم، وطافَ عليها طائفٌ من ربنا فأصبحت كالصَّرِيم [٣]، وأغرينا حلاقَ [٤] النّار بجُمم الجميم [٥]، وراكمنا في احواف أجرافها [٦] غمائم الدُّخان؛ يُذكر طيبُهُ البانَ بيوم الغميم [٧]، وارسلنا رياح الغارات «لا تذر من شيء أتت عليه إلاّ جعلته كالرَّميم» [٨]؛ واستقبلنا الوادي يهول مدّا، ويروع سيفُه الصَّقيلُ حدا؛ فيسّره الله من بعد الاعواز، وانطلقت على الفُرصة بتلك الفُرضة أيدي الانتهاز، وسألنا من سائله أسدَ بنَ الفُراتِ [٩] فأفتى برجحان

(١) المتسعة ؛ يقال أصحر المكان : أي اتسع .

(٢) الغريم : الذي له الدين .

(٣) الصريم : الليل ، وأصبحت كالصريم : احترقت وصارت في مثل سواده ؛ والاشارة الى الآية : « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » .

(٤) حلاق الشعر : ازالته بالموسى . والكلام على تشبيه احراق النبات بحلق شعر الرأس .

(٥) الجمم : جمع جمة ؛ وهي الشعر الكثير . والجميم نبت يطول حتى يصير مثل جمة الشعر .

(٦) الأحواف ، جمع حوف وهو الناحية . والأجراف جمع جرف ؛ وهو ما أكل السيل من أسفل شق الوادي ، وعرض الجبل . ويريد الأمكنة الغائرة ، والمطمئنة .

(٧) الغميم : موضع بين مكة والمدينة . ويوم الغميم : من الأيام التي كانت بين كنانة وخزاعة سيرة ابن هشام ٣٤/٤ — ٣٥ .

(٨) الرميم : البالي .

(٩) يوري بأسد بن الفرات بن سنان : أبي عبد الله الفقيه المالكي المشهور (١٤٥ — ٢١٣) على خلاف في المولد والوفاة . وانظر ترتيب المدارك مخطوطة دار الكتب ١١٨/١ ، معالم الإيمان ٢/٢ — ١٧ ، ديباج ٩٨ .

الجواز ، فعمَّ الاكتِساحُ والاستباحُ جميع الاحواز [١] فأُديل [٢] المصون ، وانتهبت القُرى ، وهُدّت الحُصُون ، واجتُثت الأصول ، وحُطِّمَت الغُصون ؛ ولم نرفع عنها الى اليوم غارةً تصَابحُها بالبُوس ، وتُطْلِعُ عليها غُررَها الضَّاحكة باليوم العَبوس ؛ فهي الآن مجرى السوابق ومجرُّ العوالي [٣] ، على التَوالي ، والحسرات تتجدد في أطلالها البوالي ؛ وكأَنْ بها قد ضَرعَت ، والى الدعوة المُحمَّدية أسرعت ، بقدرةِ مَن لو انزل القرآن على الجبال لخشعَت من خشية الله وتصدعت [٤] ، وعِزة من أذعنت الجبابرةُ لعزِّه وخضَعَت ، وعُدنا والبُنود لا يَعرِف اللفُّ نشرَها ، والوجوهُ المُجاهِدة لا يُخالِط التَّقطيبُ بِشرَها ؛ والأيدي بالعُرْوة الوُثقَى متعلِّقة ، والألسنُ بشُكر نِعَم الله منطلِقَة ، والسُّيوفُ في مضَاجِع الغُمود قَلِقَة ، وسَرابِيلُ الدُّروع [٥] خلَقَة [٦] ، والجياد مِن ردِّها الى المَرابط والأوارِي [٧] ، ردَّ العَوارِي ، حَنِقة ، وبعَبَرات الغَيْظِ المَكْظُوم

(١) الأحواز : ضواحي المدينة وأطرافها .
(٢) أديل : أهين .
(٣) أجره الرمح : طعنه به وتركه فيه يجره والعالية : أعلى القناة ، والجمع : العوالي . ومجر العوالي : المكان الذي يقع فيه الإجرار والطعن .
(٤) اقتباس من الآية ٢١ من سورة الحشر .
(٥) السرابيل : الدروع ، وكل ما لبس فهو سربال .
(٦) الخلق : البالي ؛ يقال ثوب خلق ، وجبة خلق بالتذكير فيهما . لسان العرب
(٧) الأواري : جمع آري ؛ وهو مربط الدابة ومحبسها .

مُختنِقَة ؛ تَنظُر إلينا نظَرَ العاتب ، وتَعودُ من مَيادين الاختيال والمرَاح ، تحتَ حُلل السِّلاح ، عَوْدَ الصِّبيانِ الى المكاتب ؛ والطَّبلُ بلِسان العِزّ هادِر[١] ، والعَزْمُ الى مُنادي العَوْدِ الحَميد مُبادِر[٢] ، ووُجودُ نوعِ الرِّماح ، من بعدِ ذلك الكِفاح نادِر ، والقاسِم يُرتِّب بين يدَيه من السَّبي النَّوادِر ، ووَارِدَ مَناهل الأجور ، غير المُحَلاَّء[٣] ، ولا المَهْجُور ، غيرُ صادر[٤] ، ومُناظِر الفضْل الاتي ، عَقِبَ أخيه الشاتي ، على المَطْلوب المُواتي مُصَادر[٥] والله على تَيْسير الصِّعَاب ، وتَخْويل المِنَن الرِّغاب[٦] ، قادِر ؛ لا إله إلّا هو . فما أجمَلَ لنا صُنعَه الحَفِيّ[٧] ، وأكْرَمَ بِنا لُطْفه الخَفِيّ ، اللّهُم لا نُحصِي ثَناءً عليك ، ولا نَلجأ مِنكَ إلّا إليْك ، ولا نَلتَمِس خيرَ الدُّنيا والاخرة إلّا لدَيك ؛ فأَعِدْ عَلَينا عَوائدَ نَصرِكَ ، يا مُبدِئُ يا مُعيد ، وأَعِنّا من وسائل شُكرِكَ ، على ما يَنْثالُ به المَزيد ، يا حيُّ يا قيُّوم يا فَعَّال لِما يُريد[٨] .

(١) هادر : يردد صوته .
(٢) بادره الأمر : عاجله .
(٣) حلأ الماشية عن الماء : صدها وحبسها عن الورود .
(٤) الوارد الذي يرد الماء . والصادر : الذي رجع من الماء بعد الورود .
(٥) مصادر : مراجع ؛ صادره على كذا : راجعه .
(٦) الرغيبة : العطاء الكثير ، والأمر المرغوب فيه ، والجمع رغاب .
(٧) الصنع الحفي : اللطيف .
(٨) كذا في الأصل : « يا فعال لما يريد » . والمنادي هنا مما يجب فيه النصب . فلذلك الأصح : يا فعالا .

وقارنت رسالتُكم الميمونةُ لَدينا حَذَقَ فتحٍ[١] بعيد صيتِه[٢] مُشرَئبٍّ ليتُه[٣] ، وفخرٍ من فوق النُّجوم العَواتِم[٤] مَبيتُه ؛ عجبنا من تأتّي أمله الشّارد ، وقُلنا : البركةُ في قدَم الوارد ؛ وهو أنَّ ملِك النّصارى لاطفَنا بجُملةٍ من الحصون كانت من مملكة الاسلام قد غُصِبت ، والتَّماثيلُ[٥] فيها ببُيوت الله قد نُصِبت أداَلها[٦] الله ـ بمُحاولتِنا ـ الطِّيبَ من الخَبيث ، والتّوحيدَ من التَّثليث ، وعاد إليها الاسلامُ عودَ الأبِ الغائب ، الى البَنات الحَبائب ، يسأل عن شُؤونها ، ويمسَحُ دموعَ الرِّقّة من جفونها ؛ وهي للرُّوم خُطَّةُ خَسْفٍ[٧] قلَّما ارتَكبُوها فيما نعلَم من العُهود ، ونادرةٌ من نوادرِ الوُجود . والى الله علينا وعليكم عوارفَ[٨] الجود ، وجعلَنا في محاريب الشُّكر من الرُّكَّع السُّجود .

---

(١) حذق الغلام القرآن حذقاً : مهر فيه ؛ ويقال لليوم الذي يختم فيه القرآن : هذا يوم حذاق ، والعادة أن يحتفل بهذا اليوم .

(٢) بعيد الصيت ، مشتهر الذكر بين الناس .

(٣) اشرأب : ارتفع وعلا . والليت بالكسر : صفحة العنق .

(٤) النجوم العواتم : التي تظلم من الغبرة التي في السماء ؛ ويكون ذلك في زمن الجدب ؛ لأن نجوم الشتاء أشد اضاءة لنقاء السماء .

(٥) التماثيل : الأصنام .

(٦) أدالها الله : أبدلها .

(٧) الخطة : الطريقة . والخسف : الذل ، وتحميل الإنسان ما يكره .

(٨) العوارف : جمع عارفة ، وهي العطية .

عرّفنا كم بمجملات أمور تحتها تفسير، ويُمنٌ من الله وتيسير، إذ استيفاء الجزئيات عسير لنسرّكم بما منح الله دينكم، ونتوّج بعزّ الملّة الحنيفية جبينكم، ونخطب بعده دعاءكم وتأمينكم؛ فإنّ دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب سلاحٌ ماض، وكفيلٌ بالمواهب المسئولة من المنعم الوهّاب متقاض[1]؛ وأنتم أولى من ساهم في برّ، وعامل الله بخلوص سرّ؛ وأين يذهب الفضلُ عن بيتكم، وهو صفة حيّكم، وتراثُ ميتكم؛ ولكم مزيّةُ القِدَم، ورسوخُ القدَم؛ والخلافةُ مقرّها إيوانكم، وأصحابُ الامام مالك ــ رضي الله عنه ــ مستقرّها قيروانكم، وهجّير المنابر[2] ذكرُ إمامكم، والتوحيدُ إعلام أعلامكم، والوقائعُ الشهيرةُ في الكفر منسوبةٌ الى أيامكم، والصحابةُ الكرام فتحةُ أوطانكم، وسلالة الفاروق عليه السلام وشائجُ سلطانكم[3]؛ ونحن نستكثر من بركة خطابكم، ووُصلة جنابكم؛ ولولا الأعذار لوالينا بالمتزيدات تعريف أبوابكم.

والله ــ عزّ وجلّ ــ يتولّى عنا من شكركم المحتوم، ما قصّر

(١) تقاضاه الدين : قبضه منه .

(٢) هجير المنابر : شأنها ودأبها .

(٣) يريد أن الحفصيين من سلالة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وقد رأى بعض المؤرخين ذلك .

المكتوبُ منه عن المكتوم ؛ ويُبقيكم لاقامة الرسوم ، ويُحِلُّ محبّتكم من القلوب محلّ الأرواح من الجسوم ؛ وهو سبحانه يصِل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، ويُوالي نعمه عندكم .

والسَّلام الكريم ، الطّيب الزكي المُبارك البرُّ العميم ، يخُصُّكم كثيراً أثيراً ، ما أطلع الصُّبحُ وجهاً منيرا ، بعد أن أرسل النَّسيم سفيراً ، وكان الوميض[1] البَاسِم لأكواس الغمائم[2] ، على أزهار الكمائم[3] ، مُديرا ؛ ورحمةُ الله وبركاتُه .

وكتب إليّ يهنّئني بمولود ، ويُعاتبُ على تأخير الخبر بولاده عنه[4] :

هنيئاً أبا الفضل الرّضا وأبا زيدِ وأمِنْتَ من بغيٍ يُخاف ومن كَيْد
بطالع يُمنٍ طال في السّعد شأوُه[5] فما هو من عمرٍو الرّجال ولا زَيْد
وقيّد بشكر الله أنعُمه التي
أوابدُها[6] تأبى سوى الشكرِ من قَيْد

---

(١) الوميض : اللامع من البرق لمعاً خفيا .

(٢) شبه القطرات من الماء تنثرها الغمائم على الزهور ، بكؤوس الخمر تدار على الشاربين .

(٣) الكمائم : جمع كمامة ، وهي غطاء النور وبرعومته .

(٤) قدم لها ابن الخطيب في ريحانة الكتاب بقوله : ومن ذلك في مخاطبة صاحب قلم الإنشاء أبي زيد ابن خلدون .

(٥) الشأو : الشوط والغاية .

(٦) جمع آبدة ، وهي في الأصل البهيمة توحشت ، ونفرت من الانس .

أهلًا ببدريِّ المكاتب[١]، وصدريِّ المراتب، وعُتبى الزَّمن العاتب[٢] وبكرِ المُشتَري والكاتب[٣]؛ ومرحباً بالطالع، في أسعد المطالع، والثَّاقب[٤]، في أجلى المراقب؛ وسهلًا بغنيِّ البشير، وعزَّةِ الأهل والعشير، وتاج الفخر الذي يقصُرُ عنه كسرى وأردَشير[٦]؛ الآن اعتضدت الحُلَّة الحضرَمية[٧] بالفارس، وأمن السَّارح[٨] في حمى الحارس، وسعدت بالمُنير الكبير، أفلاكُ التَّدوير[٩]، من حلقات المدارس، وقرَّت بالجنى الكريم عينُ الغارس، واحتُقرت أنظارُ الآبلي وأبحاث ابن الدَّارس؛ وقيل

(١) كوكب دري : ثاقب شديد الإنارة ، عظيم المقدار .

(٢) أعتبه : أزال عتبه ؛ والعتبى : اسم من الإعتاب . وفي المثل : « لك العتبى ولا أعود » . أي لك مني أن أرضيك ؛ يقوله التائب المعتذر مجمع الأمثال ١٠٢/٢ .

(٣) الزمن العاتب : الغاضب .

(٤) كان ابن الخطيب شغوفا بأن يوري في كتابته بمصطلحات العلوم ؛ وهو ها ناظر الى ما اصطلح عليه المنجمون من أن القمر اذا اتصل - وهو في البروج الصاعدة - بالمشتري ، وهو كوكب سعد ، وبالكاتب - وهو عطارد في عرف أهل المغرب - دل ذلك على أن المولود ذكر ، وأن حظه من العلوم العقلية ، والنقلية كبير .

(٥) الثاقب : المرتفع .

(٦) هو أردشير بن بابك ؛ أول ملوك الدولة الساسانية (٢٢٦ - ٢٤١ م) . وقد ورد في بعض النسخ ، وتاريخ أبي الفداء : « أزدشير » بالزاي . وهو تصحيف قديم ؛ فقد قال ابن حجر : « وسمعت من يذكره بالزاي » . تاج العروس ٢٨٨/٢ ، الطبري ٥٦/٢ .

(٧) الحلة : البيت ؛ والجمع الحلال . والحضرمية نسبة الى حضرموت ؛ حيث ينتهي نسب ابن خلدون .

(٨) السارح : الذي يغدو عليك ويروح .

(٩) فلك التدوير - لكل كوكب - هو فلك صغير لا يحيط بالأرض ، وفيه يكون مسير الكوكب .

لِلْمُشكلات : طالما أَلِفتِ الْخِمرَةَ[١] ، وأمضَيْتِ على الأذْهانِ الأمْرةَ[٢] ، فتأَهبي للغارة المُبيحة لِحماكِ ، وتحيَّزي الى فِئَة البَطَل المُستأثِر بِرَشْف لَماكِ . ولله من نَصْبَة[٣] احتفى فيها المُشتري واحتفَلْ ، وكفى سِنِيَّ تَربيتِها وكَفَلْ ، واختالَ عُطارد في حُلَلِ الجَذَل لها وَرَفَل ، واتَّضحت الحُدُود[٤] ، وتَهلَّلت الوُجوه[٥] ، وتنافست المُثلَّثات[٦] تؤمِّلُ الحظَّ وتَرْجوه ، ونَبَّه البيتُ على[٧]

(١) الخمرة : الاستتار ، والاختفاء .

(٢) الإمرة : الإمارة .

(٣) النصبة الفلكية : هي الهيئة التي يكون عليها الفلك حين طلب دلالته على الحوادث .

(٤) قسم المنجمون درجات كل برج من البروج الاثني عشر ، بين الكواكب الخمسة المتحيرة ، قسمة غير متساوية ، وجعلوا كل قسم منها يخص كوكباً من الكواكب الخمسة ، وسموه حد ذلك الكوكب .

(٥) وقسموا كذلك كل برج الى ثلاثة أقسام متساوية ، وسموا كل قسم منها وجها ، ثم فرقوها على الكواكب المتحيرة ، وابتدأوا من برج الحمل ، وجعلوا لكل وجه منها كوكبا من السبعة السيارة ، سموه صاحب ذلك الوجه .

(٦) البروج الاثنا عشر تنقسم الى أربعة أقسام – بعدد الطبائع الأربع ، وكل ثلاثة بروج منها تتفق في طبيعة واحدة من الطبائع الأربع تسمى مثلثة ، فيقال : مثلثة نارية ، أو ترابية ، أو هوائية ، أو مائية ؛ ويختص بكل مثلثة ثلاثة كواكب من السيارة تسمى أربابها ؛ يكون أحدها صاحب المثلث المقدم بالنهار ، والثاني المقدم بالليل ، والثالث شريكهما في الليل والنهار . ومعنى ذلك أن الكوكب اذا كان في واحد من هذه البروج التي تكون مثلثته ، قيل انه في مثلثه ، أي انه في وضع له فيه حظ وقوة .

(٧) بيت الكوكب : محل أمنه ، وصحته ، وسلامته ؛ ولكل من النيرين : الشمس والقمر ، بيت واحد . أما بقية الكواكب الخمسة المتحيرة ، فكل واحد منها له بيتان .

واجبه ، وأشار لحظُ الشَّرَف[١] بحاجبه ، وأسرع نيّرُ النَّوْبة[٢] في الأوْبة[٣] ، قائماً في الاعتذار مقام التَّوبة ؛ واستأثر بالبرُوج المولِّدة بيتُ البنين[٤] ، وتخلَّت خُطا القمر رأسَ الجوزهر[٥] وذنب التِّنين ؛ وساوق منها حُكمَ الأصل ، حذوَكَ النَّعلَ بالنَّعل ، تحويلُ السِّنين[٦] ، وحقَّق هذا المولود بينَ المواليد نسبةَ عُمُرِ الوالد ، فتجاوزَ درجةَ المِئين ؛ واقترنَ بعاشرِه[٧] السَّعْدان[٨] اقترانَ الجسد ، وثبتَ بدقيقةِ مركزه قلبُ الأسد ، وسرقَ من بيت أعدائه[٩]

(١) شرف الكوكب : محل عزه ، وعلوه ، وسعادته ؛ ولكل من الكواكب السبعة برج فيه شرفه ، والبرج كله شرف لذلك الكوكب ، الا أن أقوى شرفه درجات معينة من ذلك البرج تنسب الى ذلك الكوكب وتختص به ، فيقال حين يحل بها : انه في شرفه .

(٢) نير النوبة يكون في الغالب الهيلاج (دليل العمر) ، وهو بالنهار الشمس ، وبالليل القمر .

(٣) الأوبة : الرجوع والعودة .

(٤) البيت الذي له دلالة على الأولاد : هو البرج الخامس من البيوت الاثني عشر والابتداء في العد من البرج الطالع ، وهو الواقع على الأفق الشرقي ؛ ويزعمون أنه كلما كان الخامس احد البروج الشمالية ، دل ذلك على كثرة النسل .

(٥) النقطتان اللتان يتقاطع عليهما فلك البروج مع فلك أي كوكب ، تسميان العقدتين ، ونقطة التقاطع الشمالية منهما ، يسمونها الجوزهر ، ونقطة الرأس ، والتي تقابلها تسمى النوبهر ، ونقطة الذنب . والجوزهر الذي يقصدونه ، والذي دونوا حركته في التقاويم والأزياج ، هو جوزهر القمر خاصة .

(٦) هو تحصيل الحركة الوسطى للشمس عند حلولها برأس احد الفصول الاربعة . ولهم في ذلك طرق حسابية معروفة .

(٧) العاشر : هو بيت السلطان .

(٨) السعدان : المشتري والزهرة ، وأكبرهما المشتري .

(٩) بيت الاعداء ؛ هو البيت الثاني عشر.

خُرْثِيٌّ[١] الغلِّ والحَسَد ؛ ونُظِّفت طُرُقُ التَّسْيير[٢] ، كما نفعلُ بينَ يدَي السادة عندَ المَسير ، وسَقَطَ الشيخ الهرِم من الدَّرج في البير ، ودُفع المُقاتل الى الوبال[٣] الكبير .

لِمْ لا يَنالُ العُلا أو يُعقَدُ التَّاجُ
والمُشتري طالِعٌ والشَّمسُ هِيلاجُ[٤]
والسَّعْدُ يَرْكُضُ في ميدانِها مَرَحاً
جَذْلانَ والفلَكُ الدَّوَّارُ هِمْلاجُ[٥]

كأنْ به ـ واللهُ يَهديه ـ قد انتقل من مَهْد التنويم ، الى النَّهج القَويم ؛ ومن أريكةِ الذِراع ، الى تصريف اليَراع[٦] ، ومن كَتَد[٧] الدَّاية[٨] ، الى مَقام الهِدَاية ، والغايةِ المُخْتَطَفَة[٩] البِدَاية ؛ جَعَلَ الله

(١) الخرثي (بالضم) : أثاث البيت ، او اردأ المتاع .

(٢) التسيير : ان ينظركم بين الهيلاج (دليل العمر) ، وبين السعد او النحس ، فيؤخذ لكل درجة سنة ؛ ويقال تصيبه السعادة او النحس الى كذا وكذا سنة .

(٣) الوبال : هو البرج المقابل لبيت الكوكب ؛ وهو البرج السابع من كل بيت ؛ ويسمى نظيره ، ومقابله ؛ وذلك ان يكون بينهما ستة بروج ، وهي نصف الفلك .

(٤) الهيلاج : دليل العمر ؛ والهياليج خمسة : الشمس ، والقمر ، والطالع ، وسهم السعادة ، وجزء الاجتماع والاستقبال . وانما كانت ادلة العمر لانها تسير الى السعود والنحوس .

(٥) الهملاج : المركب الحسن السير ، والمسرع . يقول : لم لا ينال العلا ، وقد اتخذ الفلك مركباً له .

(٦) يعني بأريكة الذراع عهد الطفولة . واليراع : القصب ، ويريد الاقلام .

(٧) الكتد : مجمع الكتفين من الانسان ، وكاهله .

(٨) الداية : القابلة .

(٩) يريد انه سيبلغ الغاية في الفضل في الزمن القصير .

وقايته عليه عُوذَة[١]، وقسم حسدته قسمة مُحَرَّم اللحم، بين مُنْخَنِقَةٍ[٢] ونَطِيحَةٍ[٣] ومُتَرَدِّيَةٍ[٤] ومَوْقوذة[٥]؛ وحفظ هلاله في البِدار[٦] الى تِمّه وبعد تِمّه، وأقرّ به عينَ أبيه وأمه. غير أني — والله يَغْفر لسيدي — بيدَ أني راكعٌ في سبيل الشُّكر وساجد، فأنا عاتبٌ وواجد؛ إذ كان ظنّي أنّ البريد بهذا الخبَرِ إليّ يُعْمَل، وأنّ إتحافي به لا يُهمَل، فانعكست القَضِيَّة، ورابَت الحالُ المرضيَّة، وفضلَت الأمورَ الذاتيةَ الامورُ العَرَضيَّة، والحُكْم جازِم، وأحدُ الفَرْضَيْنِ لازم؛ إما عدَم السَّوية[٧]، ويُعارِضُه اعتناءٌ حبْلُه مُغَار[٨]، وعُهْدَةُ سَلْمٍ لم يَدْخُلها جِزْيةٌ ولا صَغَار؛ أو جَهْلٌ بمِقْدار الهِبَة، ويُعارِضُه عِلْمٌ بمقْدار الحُقُوق، ورضًى مُنافٍ للعُقُوق، فوقع الاشكال؛ وربّما لطُف عُذر كان عليه الاتّكال. وإذا لم يُبَشَّر مِثلي بمِنْحة الله قِبَلَ تلك الذات السَّرية، الخليقَة بالنِّعمَ الحرية؛ فمن

(١) العوذة : ما يعلق على الانسان ليقيه من العين ونحوها .

(٢) المنخنقة : الشاة ، وغيرها ؛ تخنق بحبل او غيره .

(٣) النطيحة : الشاة تنطحها الاخرى بقرونها ، فعيلة بمعنى مفعولة .

(٤) المتردية . الساقطة من جبل ، او في بئر .

(٥) الموقوذة . المقتولة ضرباً بالخشب او بالحجر . وكل هذه الاصناف قد حرم أكله القرآن على المسلم . وانظر الآية رقم ٣ من سورة المائدة ، واحكام القرآن لابن العربي ١/٢٢٢، ٢٢٣

(٦) يدعو له بأن يصاحبه الحفظ في سائر اطوار نموه الى ان يكتمل .

(٧) السوية . العدل ، والنصفة .

(٨) حبل مغار : محكم الفتل .

الذي يُبَشَّر ، وعلى من يُعرضُ بَزُّها[١] أو يُنْشَر ، وهي التي واصلَت التَّفقُّد[٢] ، وبَهْرَجت[٣] المعَامَلَةَ وأبت أن تَنقُد ، وأنَّست الغُرْبَة وجُرحُها غيرُ مُنْدَمِل[٤] ، ونَفَّسَت الكُرْبَةَ وجُنحُها[٥] على الجوانح[٦] مُشتَمِل ؛ فمتى فُرِضَ نسيانُ الحقوق لم يَنلْني فَرْض ، ولا شَهِدَ به عليَّ سماءٌ ولا أرْض ؛ وإن قَصَّر فيما يجب لسَيدي عَمَل ، لم يُقَصِّر رَجاءٌ ولا أَمَل ، ولي في شَرح حَمْدِه ناقة وجَمَل[٧] . ومنه جلَّ وعَلا نسألُ أن يُرِيَه قُرَّة العَيْن في نفْسه وماله وبَنِيه ، ويجْعَلَ أكبرَ عطَايا الهَيَالِج أصغَر سِنِيه ، ويُقلِّدَ عواتق[٨] الكَواكب البَابانية[٩] حمائلَ أمانيه . وإن تَشَوَّف سَيدي لِحال وليِّه ، فخَلوة طيبةٌ ، ورحمة من جانب الله صَيِّبة ، وبَرق يُشَام[١٠] ، فيقالُ : حدِّث ما وراءك يا هِشام . ولله دَرُّ شيخنا إذْ يَقُول :

---

(١) البزّ : الثياب .

(٢) التفقد : التعرف لاحوال الناس ، وتعهدها .

(٣) بهرج : عدل عن الطريق المسلوك .

(٤) اندمل الجرح . برىء .

(٥) الجنح : الظلمة .

(٦) الجوانح : الضلوع تحت الترائب مما يلي الصدر .

(٧) هو عكس امى المثل : « لا ناقتي في هذا ، ولا جملي » ، الذي يضرب للتبري من الشيء ، الميداني ١١٣/٢ ، ١١٤ .

(٨) العواتق : جمع عاتق ؛ وهو ما بين المنكب والعنق .

(٩) الكواكب البيانيات (او البابانية) : هي التي لا تنزل الشمس بها ، ولا القمر .

(١٠) شام البرق : نظر الى سحابته اين تمطر .

لا باركَ اللهُ فيَّ إن لم أصرِّفِ النَّفسَ في الأهمِّ
وكثَّرَ اللهُ في هُمومي إن كانَ غيرُ الخلاصِ همِّي

وإن أنعم سَيِّدي بالالماع بحاله، وحال الولد المُبارك، فذَلك من غُرَرِ إحسانه، ومَنزلتُه في لَحْظِ لَحْظِي بمَنْزِلَة إنسانِه؛ والسَّلام.

العودة الى المغرب الاقصى

ولما كنتُ في الاعتمال في مُشايَعة السلطان عبد العزيز مَلِك المغرب[(١)] ، كما ذكرتُ تفاصيله ، وانا مقيم ببَسْكَرة في جوار صاحبها احمد بن يوسف بن مَزْنَى ، وهو صاحب زِمام رِياح ، واكثرُ عطائهم من السلطان مُفْترَضٌ عليه في جِبايَة الزّاب[(٢)] ، وهم يَرجعون اليه في الكثير من امورهم ؛ فلم اشعر الا وقد حدثَت المُنافسة منه في استتْباع العرب ، ووَغَر صدرُه[(٣)] ، وصدّق فيَّ ظنُونه وتوهُّماته ، وطاوع الوُشاة فيما يُورِدون على سمْعِه من التّقوّل والاختلاق ، وجاش صدرُه بذلك ؛ فكتب الى وَنزْمار بن عَريف ، وليِّ السلطان ، وصاحب شِواره ، يتنفَّس الصُّعَداء من ذلك ، فأنهاه الى السلطان ؛ فاستدعاني لِوَقته ، وارتحلتُ من بَسْكَرَة بالأهل والوَلد ، في يوم

(١) هو ابو فارس ؛ عبد العزيز بن أبي الحسن بن ابي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق المريني ، بويع سنة ٧٦٧ ، وتوفي سنة ٧٧٤ . من ألمع ملوك بني مرين ؛ أعاد الى الدولة قوتها وشبابها ، وأزال عنها حجر المستبدين ؛ والى أبي فارس هذا أهدى ابن خلدون مقدمته ، ولا تزال صيغة الإهداء محفوظة بديباجة النسخة المطبوعة ببولاق .

(٢) بلاد الزاب : منطقة واسعة كانت تشغل المساحة الواقعة في جنوب جبال أوراس ، وتشمل بسكرة ، وما حولها . ياقوت ٤/٣٦٥ .

(٣) وغر صدره : امتلأ غيظاً وحقداً .

المولد الكريم ، سنة اربعٍ وسبعين ، متوجِّهاً الى السلطان ، وقد كان طَرَقه المرض ؛ فما هو الا ان وصلتُ مِلْيانَة من اعمال المغرب الأوسط ؛ فلقيني هنالك خبَرُ وفاته ، وأنَّ ابنه ابا بكر السَّعيد[1] نُصِبَ بعده للامر ، في كفالة الوزير ابي بكر بن غازي وانه ارتحل الى المغرب الاقصى مُغِذاً السير الى فاس ؛ وكان على مِلْيانة يومئذ عليُّ بنُ حسُّون بن ابي علي اليَناطي من قُوَّاد السلطان ومَوالي بيته ؛ فارتحلتُ معه الى احياء العَطَّاف ، ونزلنا على اولاد يعقوب بن موسى من أمرائهم ، وبَذْرَقَ لي بعضُهم الى حِلَّة اولاد عَريف : أمراء سُوَيْد ؛ ثم لَحِق بنا بعد ايام ، عليُّ بنُ حسُّون في عسكره ، وارتحلنا جميعاً الى المغرب على طريق الصحراء ؛ وكان ابو حمُّو قد رجع بعد مَهْلِك السلطان من مكان انتباذه بالقَفْر في تِيكورارين الى تِلِمْسان ، فاستولى عليها وعلى سائر اعماله ؛ فأوعزَ الى بَني يَغْمُور من شُيوخ عُبَيد الله من المَعْقِل ان يَعترضونا بحدود بلادهم من رأس العَين[2] مَخرج وادي زا[3] فاعترضونا هنالك ، فنجا من نجا منَّا على

---

(١) السعيد محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن . كناه ابن خلدون هنا ، « أبا بكر » . وفي الجذوة لابن القاضي ، والاستقصا للناصري : أن كنيته « أبو زيان » بويع – وهو صبي لم يعد سنه الخامسة – سنة ٧٧٤ ، وخلع سنة ٧٧٦ . الاستقصا ١٣٣/٢ .

(٢) يعرف رأس العين الآن بعين بني مطهر ؛ وهي منابع تقع في شرق مدينة دبدو ، وبها مركز حربي تابع لبركان .

(٣) كتبه ابن خلدون صاداً في وسطه زاي – اشارة الى أن نطقه بين الصاد والزاي . ويقع هذا الوادي في جنوب عين البرديل – عن يمين وادي ملوية – بنحو ٥١ كيلو متراً .

خيولهم الى جبل دَبْدُو ، وانتهبوا جميع ما كان معنا ، وأرجلوا الكثير من الفرسان و كنتُ فيهم ؛ وبقيتُ يومين في قَفْرٍ ه،ضاحياً [١] عارياً الى ان خلصتُ الى العُمران ، ولحقتُ باصحابي بجبل دَبْدو ، ووقع في خلال ذلك من الالطاف ما لا يُعَبَّرُ عنه ، ولا يسع الوفاء بشُكره . ثم سرنا الى فاس ، ووفدتُ على الوزير ابي بكر ، وابن عمه محمد بن عثمان بفاس ، في جُمادى من السنة ؛ وكان لي معه قديمُ صحْبَةٍ واختصاص ، منذ نزَع معي الى السلطان ابي سالم بجبل الصَّفيحة ؛ عند إجازته من الاندلس ، لطلَب ملكه ، كما مرَّ في غير موضع من الكتاب ؛ فلقيَني من برِّ الوزير وكرامته ، وتوفير جِرايته وإقطاعه ، فوق ما أحتسِب ، وأقمتُ بمكاني من دولتهم اثيرَ المحل ، نابِه الرُّتبَة ، عريضَ الجاه ، مُنوَّه المجلس . ثم انصرم فصلُ الشتاء ، وحدث بين الوزير ابي بكر بن غازي ، وبين السلطان ابن الاحمر ، مُنافرةٌ بسبب ابن الخطيب ، وما دعا اليه ابنُ الاحمر من إبعاده عنهم ؛ وأنِفَ الوزير من ذلك ، فأظلم الجوُّ بينهما ؛ وأخذ الوزيرُ في تجهيز بعض القَرابة من بني الأحمر ، للاجلاب على الاندلس ، فبادرَ ابن الاحمر الى اطلاق الامير عبد الرحمن بن ابي يَفلُوسَنَ من

---

(١) الضاحي : الذي لا يستره حائط ولا غيره ، فيصيبه حر الشمس وأذاها .

ولَـد السلطان ابي علي ، والوزير مَسعود بن رَحّـو بن ماساي[١] ، كان حبَسَهما ايام السلطان عبد العزيز ، وباشارته بذلك لابن الخطيب ، حين كان في وزارته بالاندلس ؛ فأطلَقَهُما الان ، وبعثهما لطلب المُلك بالمغرب ، وأجازهما في الاسطول الي سواحل غَساسَة ، فنزَلوا بهـا ، ولحِقوا بقبائل بَطُّويَـة[٢] هنالك ، فاشتَمَلوا عليهم ، وقاموا بدَعوة الامير عبدالرحمن . ونهض ابنُ الاحمر من غَرناطة فيعساكرالاندلس؛ فنزَل على جبل الفَتح يُحاصره . وبلغت الاخبارُ بذلك الى الوزير ابي بكر بن غازي القائم بدولة بني مَرين ، فجَهَّز لحينه ابنَ عمه محمد بن الكاس الى سبْتَة لامداد الحامية الذين لهم بالجبل ، ونهض هو في العساكر الى بطُّويـَة لقتال الامير عبد الرحمن، فوَجدَه قدمَلَك تازى، فأقام عليها يحاصره ؛ وكان السلطان عبْد العزيز قد جمع شَباباً من بني ابيه المرشَحين ، فحَبَسهم بطنجة ، فلما وافى محمدُ بن الكاس سَبْتة ، وقعت المُراسلة بينه وبين ابن الاحمر ، وعتَبَ كلٌّ منهما صاحبَه على ما كان منه ، واشتدّ عذلُ ابن الاحمر على إخلائهم الكرسيَّ من كفئه ، ونصْبِهم السَّعيد بن عبد العزيز صبياً لم يُشْغر ؛ فاستعتب له

(١) هو مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي . تولى محاربة أبي حمو ، واخراجه من تلمسان سنة ٧٧٠ في أيام أبي عنان . له في حوادث المغرب مواقف تجدها في الاستقصا ٢/١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٣٢ . ورحو — في اللغة البربرية — تصغير عبد الرحمن .

(٢) تقع أرض غساسة عند مصب وادي ملوية ، وهناك أيضاً كانت قبائل بطوية . العبر م ٧ .

محمد ، واستقـال من ذلك ؛ فحمَله ابنُ الاحمر على ان يُبايع لاحـد الابناء المحبوسين بطنْجة ؛ وقد كان الوزير ابو بكر اوصاه ايضاً بأنه ان تضايق عليه الامر من الامير عبد الرحمن ، فيفرّج عنه بالبَيعـة لاحد اولئك الابناء .

وكان محمد بن الكاس قد استوزَرَه السلطان ابو سالم لابنه احمد ايام مُلكه ، فبادَرَ من وقته الى طنجه ، واخرج احمدَ بنَ السلطان ابي سالم[1] من مَحبِسَه ، وبايع له ، وسار به الى سبتة ، وكتب لابن الاحمر يعرِّفه بذلك ، ويطلبُ منه المدَد على ان ينزل له عن جبـل الفتح ؛ فأمدَّه بما شاء من المال والعسكر ، واستولى على جبل الفتح ، وشحنه بحاميته ؛ وكان احمد بن السلطان ابي سالم ، قد تعاهد مع بَني ابيه في محبسهم ، على ان من صار الملك اليه منهم ، يُجيزُ الباقين الى الاندلس ؛ فلما بويع له ذهب الى الوفاء لهم بعهدهم ، واجازهم جميعاً ؛ فنزلوا على السلطان بن الاحمر ؛ فاكرم نُزُلهم ووفَّرَ جراياتهم . وبلغ الخبرُ بذلك كله الى الوزير ابي بكر بمكانه من حِصار الامير عبد الرحمن بِتازة ، فأخذَه الُمقيمُ الُمقعِدُ من فَعلَـةِ ابن عمه ، وقوَّض[2] راجعاً

(١) هو السلطان أبو العباس احمد بن أبي سالم : ابراهيم بن سعيد بن يعقوب بن عبد الحق المريني يلقب بالمستنصر بالله . بويع بطنجة سنة ٧٧٥ ، وتمت له البيعة العامة بالمدينة البيضاء من فاس الجديد سنة ٧٧٩ ؛ وخلع سنة ٧٨٨ . وفي سجن أبي العباس هذا ، مـات ابن الخطيب السلماني لسان الدين . الاستقصا ١٣٣/٢ ، ١٣٧ ، ١٣٩ .

(٢) قوض خيامه : هدمها . والجيش : فرقه . ولا معنى لها . وفي ب : وكر راجعاً .

الى دار المُلك ، وعَسكر بِكُدْية العرائس من ظاهرها ، وتوعّد ابنَ عمّه محمدَ بن عثمان ، فاعتذَر بأنّه إنما امتثل وصيَّته ، فاسْتَشاط وتَهدّده ؛ واتّسَع الخرْقُ بينهما ، وارتحلَ محمد بن عُثمان بسلطانه ومَددِه من عَسكَرِ الأندَلس الى أن احتَلَّ بجَبَل زرْهُون[1] المُطِلِّ على مِكْنَاسة[2] ، وعَسكَرَ به ، واشتملوا علَيْه ؛ وزَحفَ إليْهم الوزيرُ أبو بكر ، وصَعِد الجَبَل ، فقَاتَلُوه وهَزَموه ، ورَجع الى مكانِه بظاهر دار المُلك . وكان السلطان ابنُ الأحمر قد أوصَى محمَّد بنَ عثمان بالاستِعانة بالأمير عَبْدِ الرّحمن ، والاعتِضاد به ، ومُساهمته في جانبٍ من أعمال المَغْرِب يستَبِدُّ به لِنَفْسه ؛ فراسَله مُحمَّد بن عثمان في ذلك ، واستَدْعاه ، واستَمدّه . وكان وَنْزَمارُ بن عَرِيف وليُّ سلَفهم قد أظلم الجوُّ بينَه وبينَ الوَزير أبي بَكر ، لأنه سأَله ـ وهو يحاصر تازَى ـ في الصُّلْح مَعَ الأمير عَبد الرّحمن

---

(١) جبل واقع في شمال مدينة مكناسة الزيتون ، على بعد نحو ٣٠ كيلو مترا منها ، وبه مدفن المولى ادريس الاكبر مؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب . وبالجبل تقع مدينة وايلى التاريخية .

(٢) مكناسة : مدينة قديمة أسستها قبيلة مكناسة البربرية قبل الإسلام ؛ وقد ازدهرت أيام بني مرين ، فبنوا فيها المساجد ، والفنادق ، والمدارس ؛ ولا تزال مدرسة أبي عنان بها تلفت الأنظار ، ولا سيا أبوابها النحاسية المزخرفة . وقد اتخذها السلطان المولى اسمعيل العلوي عاصمة ملكه سنة ١٠٨٤ هـ .

ولمكناسة ـ من بين مدن المغرب ـ تاريخ حافل ، ولذلك حظيت بعناية المؤرخين فكتبوا في تاريخها ما خلد مآثرها . وآخر من خصها بالبحث المؤرخ الضليع ، المرحوم المولى عبد الرحمن بن زيدان المتوفى سنة ١٣٦٥ هـ ؛ فقد ألف فيها كتابه الحافل الذي سماه : « اتحاف أعلام الناس ، بجمال أخبار حاضرة مكناس » وقد طبع منه خمسة مجلدات بالمغرب .

فامتَنع ـ واتَّهَمه بمداخلتِه، والمَيْلِ له، فاعتَزَم على القَبْض عليْه، ودسَّ إليْه بذلك بعْضُ عُيونه، فركِبَ الليل، ولحق بأحيَاء الأحْلاف من المَعْقِل[1]، وكانوا شيعةً للأمير عبد الرحمن، ومعهم عليّ بن عمر الوِيعْلَاني[2] كبير بني وَرتاجن، كان انتَقَض على الوزير ابن غازي، ولَحِقَ بالسُّوس[3]، ثم خاضَ القَفْر الى هؤلاء الأحْلَاف، فنزَلَ بينَهم مُقيماً لدعوة الأمير عَبد الرَّحمَن. فجاءَهم وَنزْمار مُفْلِتاً من حِبَالَة الوزير أبي بَكر، وحرَّضهُم على ما هُم فيه، ثم بَلَّغهم خَبَرَ السُّلطان أحمدَ بنِ أبي سالم، ووَزيرِه محمد بن عُثمان؛ وجاءهم وافِدُ الأمير عبد الرحمن يستَدعيهم، وخرَج من تازَى فلقِيَهُم، ونزَل بينَ أحيائهم، ورَحلوا جميعاً الى إمداد السُّلطان أبي العبَّاس، حتى انتَهوْا الى صَفُوى. ثم اجتَمَعُوا جميعاً على وادي النَّجا، وتعَاقَدُوا على شأنِهم، وأصبَحوا من الغَد على التعْبِئَة، كُلٌّ من ناحِيَته.

---

(١) يرجح ابن خلدون – في المعقل – أنهم من عرب اليمن؛ وهم من أوفر القبائل عدداً بالمغرب الأقصى، وكانت مساكنهم موزعة من تلمسان الى البحر المحيط؛ وقد ملكوا قصور زناتة التي كانت بالصحراء، والتي منها قصور « تيكورارين ». العبر ٦.

(٢) سبق التعريف به هكذا: علي بن عمر بن ويعلان، شيخ بني مرين.

(٣) السوس: اقليم واسع خصب؛ يقع في جنوب مدينة مراكش وراء جبال الأطلس، ويتخلله واد عظيم يسمى وادي سوس، تتفرع منه فروع عدة؛ وحول الوادي وفروعه مزارع واسعة، بها أشجار ونخل. وباقليم السوس مدن كبيرة؛ منها تارودانت، وتزنيت. وعلى ساحلي البحر المحيط، حيث مصب وادي سوس، تقع مدينة أجادير. العبر ٦. أما ياقوت فليس في كلامه عن « سوس » ما يعول عليه.

وركبَ الوزيرُ ابو بَكرٍ لقتالهمْ فلم يُطِقْ ، ووَلّى مُنهَزِماً ، فانحَجَر بالبَلَد الجديد[1] ، وخَيّم القومُ بكُدية العرائس مُحاصرينَ له ، وذلك أيامَ عيد الفِطْر من خمسٍ وسَبْعين ، فحاصروها ثلاثة أشهر ، وأخذوا بمخنَّقها إلى أن جَهِدَ الحِصارُ الوزيرَ ومن معَه ، فأذْعَن للصُّلح على خَلع الصَّبيّ المنصُوب السَّعيد بن السلطان عبد العزيز ، وخُروجه الى السُّلطان أبي العبَّاس ابن عمّه ، والبَيْعة له ، وكان السلطان أبو العباس ، والأميرُ عَبدُ الرحمن ، قد تَعاهدوا ــ عند الاجتماع بوادي النَّجا ــ على التَّعاوُن والتَّناصُر ، على أنّ المُلْك للسلطان أبي العباس بسائر أعمال المغرب ، وأن للأمير عبد الرّحمن بَلدا سِجِلْماسة ودَرْعة[2] ، والأعمال التي كانت لجدّه السلطان أبي عليّ أخي السُّلطان أبي الحَسَن ؛ ثم بَدا للأمير عبد الرّحمن

---

(١) تسمى أيضا المدينة البيضاء ، وفاس الجديد ، بناها يعقوب بن عبد الحق المريني على وادي فاس ملاصقة ؛ وكان ذلك سنة ٧٦٤ ﻫ وانظر الاستقصا ٢/٢٢ .

(٢) درعة (وتنطق اليوم درا) وكذلك تكتب على الخرائط : مقاطعة كبيرة خصبة وراء جبال الأطلس ، تقع في شرق اقليم السوس ، وتمتد من شرقه الى جنوبه ، حيث تتصل بالبحر المحيط ، وتفصل بينها وبين اقليم سلسلة السوس جبال الأطلس الخارجية ؛ وفي هذه المقاطعة واد كبير تمده روافد تتفرع من جبال الأطلس ، وحول الوادي وفروعه ، تقوم قرى المقاطعة ، ومدنها الصغيرة ؛ وأكبر هذه المدن ورزازت التي تقع في السفح الجنوبي لجبال الأطلس مرتفعة عن سطح البحر بنحو ١٥٠٠ متراً ؛ وسكان هذه المقاطعة خليط من العرب وبربر صنهاجة. وهذا الاقليم هو الموطن الاصلي لدولة السعديين بالمغرب . وانظر العبر م٦ ، الاستقصا ٣/٢ . وما في ياقوت عن « درعة » أيضاً ليس بشيء .

في ذلك أيام الحصار ، واشتطّ بطلب مرّاكُشَ وأعمالها[1] ، فأغضوا له في ذلك ، وشارطوه عليه حتى يتمّ لهم الفتح ؛ فلمّا انعقد ما بين السُّلطان أبي العبّاس ، والوزير أبي بكر ، وخرج اليه من البلد الجديد ، وخلع سُلطانه الصّبيّ المنصوب ، ودخل السلطانُ أبو العبّاس الى دار الملك ، فاتح ستٍّ وسبعين ، وارتحل الأميرُ عبد الرّحمن يُغِذُّ السَّيْرَ الى مرّاكُش ، وبدا للسُّلطان أبي العبّاس ، ووزيره محمد ابن عثمانَ في شأنه ، فسرّحوا العساكر في اتّباعه ، وانتهوا خلفه الى وادي بَهْت[2] ، فواقفوه ساعةً من نهار ، ثم أحجموا عنه ، وولّوا على راياتهم وسار هو الى مرّاكش ، ورجع عنه وزيرُه مسعود بنُ ماساي ، بعد أن طلبَ منه الاجازةَ الى الأندلس يتودّع بها ، فسرّحه لذلك ، وسار الى مرّاكُشَ فملكها .

وأمّا أنا فكنتُ مقيماً بفاس ، في ظلّ الدّولة وعنايتها ، منذُ قدمتُ على الوزير سنةَ أربعٍ وسبعين كما مرّ ، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه ؛ فلمّا جاء السُّلطانُ ابو العبّاس ، والأميرُ عبدُ الرّحمن ،

(١) في م٧ : « واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافي له عن أعمال مراكش ، وأن يديلوه بها من سجلماسة » .

(٢) في « المعجب » لعبد الواحد المراكشي ص ٢٤٣ : « وفيا بين مكناسة ، وسلا نهر يدعى بهتا ، ينصب الى البحر الأعظم ايضا » ؛ ينبع بالقرب من مدينة أزرو ، ثم يتصل بوادي سبو ، حيث ينصب وادي سبو في المحيط الأطلسي .

وعسكروا بكُدْية العرائس، وخرج أهلُ الدّولة إليهم، من الفقهاء، والكتّاب، والجند، وأذِنَ للنّاس جميعاً في مباكرة أبواب السلطانَيْن مِنْ غيرِ نكيرٍ في ذلك، فكنتُ أباكرهما معاً. وكان بيني وبينَ الوزير محمّد بن عثمان ما مرّ ذكره قبلَ هذا، فكان يُظهِرُ لي رعايةَ ذلك، ويُكثِر من المواعيد؛ وكانَ الأميرُ عبدُ الرّحمن يميل إليّ ويستدعيني أكثرَ أوقاته يُشاوِرُني في أحواله؛ فغصّ بذلك الوزير محمّد بن عثمان، وأغرى سلطانه فقبض عليّ. وسمع الأميرُ عبد الرّحمن بذلك، وعلِم أني إنما أوتيتُ من جرّاه، فحلف ليُقوّضنّ خيامه، وبعث وزيره مسعودَ بنَ ماساي لذلك، فأطلقوني من الغد، ثم كان افتراقُهما لثالثه. ودخل السلطانُ ابو العبّاس دار المُلْك، وسار الأميرُ عبدَ الرحمن الى مرّاكش، وكنتُ أنا يومئذ مستوحشا، فصحبتُ الأميرَ عبد الرحمن مُعتزماً على الاجازة الى الاندلس من ساحل أسْفِي، معوِّلاً في ذلك على صحابة الوزير مسعود بن ماساي لهوايَ فيه، فلمّا رجع مسعود انثنى عزمي في ذلك، ولحِقْنا بونزمار ابن عريف بمكانه من نواحي كرسيف لنُقدّمه وسيلةً الى السّلطان أبي العبّاس، صاحب فاس في الجواز الى الأندلس، ووافينا عندَه داعيَ السّلطان فصحبناهُ الى

فاس، واستأذنه في شأني، فأذِن لي بَعْدَ مطاولة، وعلى كُرهٍ من الوَزير مُحمَّد بن عثمان، وسليمانَ بنِ داود بن أعْراب، ورِجال الدَّولة.

وكان الأخ يَحيى لمَّا رَحل السلطانُ ابو حَمُّو من تِلِمْسَان، رَجع عنه من بلَاد زُغْبَة الي السلطانِ عَبد العزيز فاستَقرَّ في خدمتِهِ، وبَعْدَه في خِدمَة ابنه مُحمد السَّعيد المنصوب مَكانَهِ. ولما استَولى السلطانُ ابو العبَّاس على البَلَد الجديد، استأذَنَ الأخُ في اللحاق بِتلمْسان، فأذِنَ له، وقَدِم على السلطان أبي حَمُّو، فأَعادَه الى كِتابَة سِرِّه كما كان أول مرة، وأُذِنَ لي أنا بعدَه، فانطلَقْتُ الى الأندَلُس بقَصْد القَرار والدَّعة، الى أن كان ما نذْكر.

الاجازة ثانية الى الاندلس ، ثم الى تلمسان ، واللحاق باحياء العرب ، والمقامة عند اولاد عريف

ولما كان ما قصصته من تنكّر السلطان أبي العبّاس صاحب فاس ، والذّهاب مع الأمير عبد الرّحمن ، ثم الرّجوع عنه الى ونزمار بن عريف ، طلباً لوسيلته في انصرافي الى الأندلس بقصد القرار والانقباض ، والعكوف على قراءة العلم ، فتمّ ذلك ، ووقع الاسعاف به بعد الامتناع ، وأجزت الى الأندلس في ربيع [سنة] ستّ وسبعين ؛ ولقيني السلطان بالبرّ والكرامة وحسن النزّل على عادته ، وكنت لقيت بجبل الفتح كاتب السلطان ابن الأحمر ، من بعد ابن الخطيب ، الفقيه أبا عبد الله بن زمرك[1] ، ذاهباً الى فاس في غرض التهنئة ، وأجاز إلى سبتة في أسطوله ، وأوصيته باجازة أهلي وولدي إلى غرناطة ؛ فلمّا وصل إلى فاس ، وتحدّث مع أهل الدّولة في إجازتهم ، تنكّروا لذلك ، وساءهم استقرار بالأندلس ، واتّهموا

(١) ابو عبد الله محمد بن يوسف الصريحي المعروف بابن زمرك .
وزمرك بفتح الزاي والراء ، بينهما ميم ساكنة ؛ وقد اضطرب ضبط ابن خلدون له ؛ فضبطه تارة بفتح الزاي والميم ، وسكون الراء ، وطوراً بفتح الزاي والراء وسكون الميم بينهما .

أني ربّما أَحمل السلطان ابنَ الأحمَر على الميْل إلى الأمير عَبد الرحمن، الذي اتّهموني بِملابستِه، ومَنعوا أهلي من اللِّحاق بي. وخاطَبُوا السلطانَ ابنَ الأحمَر في أن يُرجعَني إليْهم؛ فأبَى من ذلك، فطَلبوا منه أن يُجيزَني إلى عُدوَةِ تِلمْسان؛ وكانَ مَسْعُودُ بن مَاسَاي قد أَذنوا له في اللِّحاق بالأندلس، فحَمَلوه على مُشافهة السُّلطان بذلك، وأبدَوْا له أني كنتُ ساعياً في خَلاص ابن الخطيب، وكانوا قد اعتقَلوه لأول استيلائهم على البَلَد الجديد وظَفرِهم به. وبَعث إليّ ابنُ الخطيب مِن مَحْبِسه مُستَصرِخاً بي، ومتَوسِّلاً. فخاطبت في شأنه أهلَ الدّولة، وعوّلت فيه منهم على وَنزْمار، وابنِ مَاسَاي، فلم تُنجِحْ تِلك السّعاية، وقُتِل ابنُ الخطيب بمَحبِسه؛ فلما قدم ابن مَاسَاي على السلطانِ ابنِ الأحمر ــ وَقَد أغرَوهُ بي ــ فألقَى إلى السلطان ما كانَ مِني في شَأن ابن الخطيب، فاستَوحشَ لذلك، وأسعفَهم بإجازَتي إلى العُدْوة، ونزَلتُ بِهُنَيْن، والجوُّ بيني وبين السلطانِ أبي حمّو مُظلم، بما كان مني في إجلاب العرَب عليه بالزّاب كما مرّ. فأوعزَ بمقامي بهنَيْن، ثم وَفدَ عليه محمّد بن عَريف فعذَله في شَأني، فَبعَثَ عَنّي إلى تِلمسان، واستقْررتُ بها بالعُبّاد. ولَحِقَ بي أهلي وَولدي من فَاس، وأقاموا معي، وذلك في عيد الفطر سنَة

ستٍّ وسبعين ، وأخذتُ في بثِّ العلم . وعرض للسلطان أبي حمّو أثناء ذلك رأيٌ في الدّواودة ، وحاجةٌ إلى استئلافهم ؛ فاستدعاني ، وكلّفني السّفارة إليهم في هذا الغرض ، فاستوحشت منه ، ونكرته على نفسي ، لما آثرته من التّخلّي والانقطاع ، وأجبته إلى ذلك ظاهراً ، وخرجتُ مسافراً من تلمسان حتى انتهيت إلى البطحاء[1] ، فعدلت ذات اليمين الى منداس ، ولحقتُ بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول[2] ، فتلقّوني بالتّحفّي والكرامة ، وأقمتُ بينهم أياما حتّى بعثوا عن أهلي وولدي من تلمسان ، وأحسنوا العذر الى السلطان عنّي في العجز عن قضاء خدمته ، وأنزلوني بأهلي في قلعة ابن سلامة[3] ، من بلاد بني توجين[4] التى صارت لهم بإقطاع السلطان[5] ، فأقمتُ بها أربعة أعوام ، متخلّياً عن الشّواغل كلّها ؛

(١) كان موقع البطحاء البسيط الذي بين مدينة رالبزان ، وبسيط وادي شلف .

(٢) يقع جبل كزول في الجنوب الغربي لمدينة تيارت على بعد ١٠ كيلو مترات .

(٣) قلعة ابن سلامة (أو بني سلامة) هذه ، وتسمى قلعة تاوغزوت ، تقع في مقاطعة وهران من بلاد الجزائر .

أما سلامة الذي تنسب اليه ، او الى بنيه ، القلعة ؛ فهو سلامة بن علي بن نصر بن سلطان رئيس بني يدللتن من بطون توجين . سكن تاوغزوت ، واختط بها القلعة ، فنسبت اليه ، والى بنيه ، وكانت من قبل رباطاً لبعض العرب المنقطعين من سويد . العبر م ٧ .

(٤) كان لبني توجين من الأراضي ما بين قلعة سعيدة الى المدية ؛ وكانت لهم قلعة ابن سلامة ، ومنداس ، ووانشريس . العبر م ٦ .

(٥) في م ٦ : « وأقطع السلطان ابو عنان ، ونزمار بن عريف « السرسو » ، وقلعة ابن سلامة ، وكثيراً في بلاد توجين » .

وشرعتُ في تأليف هذا الكتاب ، وأنا مقيمٌ بها ، وأكملتُ المقدّمةَ منهُ على ذلك النحو الغريب ، الذي اهتديتُ إليه في تلك الخلْوَة ، فسالَتْ فيها شآبيبُ الكلام والمعاني على الفكر ، حتى امتَخَضَتْ زُبدَتُها ، وتألّفت نتائِجُها ؛ وكانَتْ من بعدِ ذلك الفيئةُ الى تونس كما نذكره .

الفيئة الى السلطان ابي العباس بتونس والمقام بها

ولما نزلتُ بقاعة ابن سَلامة بين أحياء أولاد عريف ، وسكنتُ منْها بقصر أبي بكر بن عريف الذي اختطَّه بها ، وكان من أحفل المساكن وأوثقها . ثم طالَ مُقامي هنالك ، وأنا مستَوْحِشٌ من دولة المغرب وتِلِمْسان ، وعاكفٌ على تأليف هذا الكتَاب ، وقد فرغتُ من مُقَدّمته الى أخبار العَرَب والبَرْبَر وزَناتة ، وتشوّفتُ الى مُطالعة الكُتب والدَّواوين التي لا تُوجد إلاّ بالأمصار ، بَعْدَ أن أمْلَيتُ الكثيرَ مِن حفظِي ، وأردتُ التَّنقيحَ والتَّصْحيح ؛ ثم طرقني مَرضٌ أوْفى بي على الثَّنِيَّة ، لولا ما تداركَ من لُطْف الله ؛ فحدث عِندِي مَيْلٌ الى مُراجعة السلطان أبي العبَّاس ، والرِّحلةِ الى تُونس ، حيث قرارُ آبائي ، ومَساكِنُهم ، وآثارُهم ، وقبورُهم ؛

فبادرتُ الى خطاب السلطان بالفَيْئَة الى طاعته، والمُراجَعة، وانتظرت، فما كان غَيْر بعيد، وإذا بخطابه وعُهوده بالأمان، والاستِحْثاث للقُدوم؛ فكان الخُفُوف للرِّحلَة؛ فَظَعنتُ عن أولادِ عَرِيف مَع عرَب الأخضَر من بادية رِياح، كانُوا هُنالك ينتَجِعُون المِيرة بِمَنْداس. وارتَحلْنا في رَجب سنة ثمانين، وسَلكْنا القَفْر الى الدّوْسنِ من أطراف الزّاب. ثم صَعِدتُ الى التَّل مع حاشية يَعقوب بن عَليّ وَجدْتُهُم بِفَرْفار[1]، الضَّيعَة التي اختَطَّها بالزّاب، فَرحلتُهم معي[2] الى أن نَزَلنا عليه بضَاحية قُسنْطِينَة، ومَعه صاحبها الأميرُ إبراهيم بنُ السلطان أبي العبَّاس بخيَّمه، وفي عَسكره؛ فحضرتُ عندَه، وقَسَم لي من بِرِّه، وكرامَته فَوقَ الرِّضى. وأذِنَ لي في الدُّخول الى قُسَنْطِينَة، وإقامة أهلي في كَفَالة إحسانه بَيْنَما أصِلُ الى حضرة أبيه. وبَعثَ يعقوبُ بن عليٍّ معي ابنَ أخيه أبي دينار في جَماعةٍ من قَوْمهم، وسِرنا الى السلطان أبي العبَّاس، وهو يومئذ قد خَرَج من تُونِس في العساكر الى بلَاد الجريد، لاسْتنزال شُيوخها عن كراسي الفِتْنة التي كانوا عليها، فوافَيتُه بظَاهِر سُوسَة،

(١) فرفار : واحة صغيرة تقع على بعد ٣٣ كيلو مترا من مدينة بسكرة، في الجنوب الغربي لهـا.

(٢) كذا، وفي ب : فرحلت معهم.

فحيَّا وفادَتي ، وبَرَّ مقْدَمي ، وبالَغَ في تأنيسي ، وشاورني في مُهمَّات أموره ؛ ثم رَدَّني الى تُونس ، وأوعَزَ الى نائبه بها مولاه فارح بتَهْيئَة المَنْزِل ، والكِفاية في الجِرَاية ، والعُلُوفَة ، وجَزيل الاحْسَان ؛ فرَجعتُ الى تُونس في شَعْبان من السَّنة ، وآوَيتُ الى ظِلٍّ ظَليلٍ من عِناية السلطان وحُرْمته ، وبَعَثْتُ عن الأهل والولَد ، وجمَعْت شملهم في مَرعى تلك النِّعْمَة ، وألقيتُ عصَا التَّسْيار؛ وطالَت غيْبَةُ السلطان الى أن افتَتَحَ أمصارَ الجَريد ، وذهب فَلُّهُم في النَّواحي ، ولَحِق زعيمُهم يَحْيى بن يَمْلُول[1] بِبَسْكَرَة ، ونزلَ على صِهْرِه ابنِ مَزْني ، وقَسَم السلطان بلاد الجَريد بينَ ولَده ، فأنزل ابنَه محمَّد المنتَصِر بتُوزَر[2] ، وجَعَل نَفْطَة ، ونَفْزَاوة[3] من أعماله ، وأنزلَ ابنَه أبابكر بقَفصَة ، وعاد الى تُونِس مُظَفَّرا، ماهِداً ،

---

(١) يحيى بن محمد بن أحمد بن عِلول أمير توزر . يرجع نسبهم – فيا يقولون – الى تنوخ من طوالع العرب الداخلة للمغرب . وقد ضبط ابن خلدون « عِلول » بفتح الياء وسكون الميم ، وضم اللام بعدها واو ، فلام ؛ وتنطق اليوم املول بهمزة مكسورة بدل الياء ؛ وهي قاعدة صوتية تكاد تطرد في النطق المغربي فيا أوله ياء ، وما قبل آخره حرف مد ؛ فيقولون في مثل : يكون ، ويدوم ، وينام : اكون ، ادوم ، انام – بهمزات مكسورات بدل الياء .

(٢) توزر : ضبطها ابن خلدون بضم التاء ، (وفي ياقوت بفتحها) ، وسكون الواو بعدها زاي مفتوحة : مدينة واقعة على الحافة الشمالية لشط الجريد ، Chatt El-Djerid ، بينها وبين نفطة عشرة فراسخ (مرحلة) .

(٣) نفزاوة . ضبطها ابن خلدون بفتح النون (وفي ياقوت بكسرها) ، ويتفقان على تسكين الفاء ، وفتح الزاي المتلوة بألف ، ثم واو مفتوحة تليها هاء . وهي مدينة من مدن الجريد أيضاً ، وبينها وبين نفطة مرحلة واحدة .

فأقبل عليّ ، واستدناني لمجالسته ، والنجيِّ في خلوته ، فغصّ بطانتُه بذلك ، وأفاضوا في السِعايات عندَ السلطان فلم تُنْجِح ؛ وكانوا يعكفُون على إمام الجامع ، وشيخ الفُتْيا ، محمد بن عَرفة[1] ، وكانت في قلبه نُكْتَةٌ من الغيرة مِن لَدُن اجتماعنا في المرْبى بمجالِس الشيُوخ ، فكثيراً ما كانَ يظهَر شفُوفي[2] علَيْه ، وإن كان أسنَّ منّي[3] ،فاسودَّت تلك النُّكْتَة في قلبه ،ولم تُفارِقْه. ولما قدِمت تُونس انثالَ عليّ طلبةُ العِلْم من أصحابه وسِواهُم ؛ يطلُبُون الافادَةَ والاشتغال ، واسعَفْتُهم بذلك ، فعظُم عليه. وكان يُسِرُّ التنفيرَ الي الكثير منهمُ فلم يقْبلوا ، واشتدّت غَيْرَتُه ، ووافق ذلك اجتماعُ البِطانة إليْه ، فاتّفَقُوا على شأنهم في التأليب عَليّ ، والسِعَاية بي ، والسُّلطانُ خِلالَ ذَلك مُعْرِضٌ عَنْهم في ذلك ، وقد كلفَني بالاكباب عَلى تأليفِ هذا الكِتاب لِتَشَوُّفِه إلى المَعارف والاخبار ، واقتِناء الفَضائل ، فأكمَلتُ

(١) ابو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي (٧١٦ - ٨٠٣) . يتبوأ المكانة العالية بين علماء المالكية ؛ درس بالزيتونة ، وأم بها خمسين عاماً . دخل مصر حاجاً سنة ٧٩٢ هـ ، وأجاز ابن حجر العسقلاني ؛ وله تآليف .

(٢) الشفوف هنا بمعنى الظهور والامتياز . وفي لسان العرب : شف عليه شفوفاً اذا زاد او نقص — وهي من الأضداد — وهنا بمعنى الزيادة .

(٣) ولد ابن عرفة قبل ابن خلدون بست عشرة سنة ، حيث كانت ولادته عام ٧١٦ ، وولادة ابن خلدون عام ٧٣٢ .

منْه أخبارَ البرْبَر ، وزَنَاتَه . وكَتبتُ من أخْبارِ الدَّولتين ومَا قبلَ الاسلامِ ما وَصَل إليّ منْها ، وأكملتُ منه نُسخةً رفعتُها إلى خِزانَته . وكانَ ممَّا يُغْرُونَ به السُّلطان عليّ ، قُعُودي عَن امْتداحِه ، فإني كُنتُ قد أهْمَلت الشِّعر وانتِحالَه جُمْلَة ، وتفرّغتُ للعِلم فقَط ، فكَانُوا يَقولون لَهُ إنما تَرَكَ ذَلك استِهانةً بسُلطانكَ ، لِكَثْرة امتداحِه للمُلوك قَبْلَك ، وتَنَسَّمتُ ذلِك عَنهم من جهة بَعْض الصَّدِيق من بطانَتهم ؛ فلمَّا رفعتُ لَه الكتاب ، وتَوَّجتُه باْسمِه ، أنشَدتُه ذَلك اليومَ ، هَذِه القصيدة أمتَدحُه ، وأذكر سِيَرَه وفُتوحَاتِه ، وأعتذرُ عن انتحالِ الشّعر ، وأستَعطِفُه بهَدية الكتاب إليْه ؛ وهيَ هَذه :

هَل غيرُ بابِكَ للغَريب مُؤمَّلُ أو عن جَنَابِك للأمَانِي مَعْدِلُ
هي همةٌ بَعَثَتْ إليْك على النَّوى عَزْماً كما شَحَذَ الحُسَامَ الصَّيقَلُ[1]
مُتَبوَّأُ الدُّنيَا ومُنْتَجَع المُنَى والغَيث حَيْثُ العَارِض المتَهلّلُ
حيث القُصُورُ الزّاهِراتُ مُنِيفَةٌ تُعْنَى بهَا زُهْرُ النجُوم وتَحفِلُ

(١) الصيقل (كيحدر) : شحاذ السيوف ، وجلاؤها .

حيث الخيام البيض يرفع للعلا والمكرمات طرافها[١] المتهدل

حيث الحمى للعز في ساحاته ظل أفاءته الوشيج الذبل[٢]

حيث الكرام ينوب عن نار القرى عرف الكباء بحيهم والمندل[٣]

حيث الرماح يكاد يورق عودها مما تعل من الدماء وتنهل

حيث الجياد أملهن بنو الوغى مما أطالوا في المغار وأوغلوا

حيث الوجوه الغر قنعها الحيا والبشر في صفحاتها يتهلل

حيث الملوك الصيد والنفر الألى عز الجوار لديهم والمنزل

من شيعة المهدي بل من شيعة التوحيد[٤] جاء به الكتاب يفصل

بل شيعة الرحمن ألقى حبهم في خلقه فسموا بذاك وفضلوا

شادوا على التقوى مباني عزهم لله ما شادوا بذاك وأثلوا

---

(١) الطراف : بيت من أدم ؛ والطراف من الخباء : ما رفعت من نواحيه لتنظر الى خارج – قاموس .

(٢) الوشيج : أصلب القنا . والذبل ، جمع ذابل ؛ وهو القنا الدقيق اللاصق القشر ؛ وذلك أمتن ما يكون .

( ) الكبا : المتبخر به كالمندل .

( ) يريد مهدي الموحدين ؛ وهو محمد بن تومرت ، مؤسس الدولة الموحدية بالمغرب . وقد جعل أصل دعوته نفي التجسيم الذي آل اليه مذهب أهل المغرب حيث تركوا التأويل في المتشابه من النصوص الشرعية ؛ وسمى دعوته دعوة أهل التوحيد ، وأتباعه بالموحدين . العبر م ٦ .

قَوْمٌ أبو حفصٍ[١] أبٌ لهمُ وما أدْراكَ والفارُوق[٢] جدٌّ أوّلُ
نَسَبٌ كما اطّرَدت أنابيبُ القَنا[٣] وأتى على تقويمهنّ مُعدِّلُ
سامٍ على هامِ الزّمان كأنّه للفخرِ تاجٌ بالبُدورِ مُكلَّلُ
فضَلَ الأنامَ حديثُهم وقديمُهم ولأنتَ إن فضَلوا أعزُّ وأفضَلُ
وبَنَوْا على قُلَلِ النُّجوم ووطّدوا وبناؤكَ العالي أشدُّ وأطوَلُ

. . .

ولقد أقولُ لخائضٍ بَحْرَ الفلا والليلُ مُزبَدُّ الجوانبِ أليَلُ[٤]
ماضٍ على غولِ الدُّجى لا يتّقي تيهاً وذابلُهُ ذُبالٌ مُشعَلُ[٥]
مُتقلبٍ فوقَ الرّحالِ كأنّهُ طيفٌ بأطراف المِهادِ مُوكّلُ
يبغي منالَ الفوزِ من طُرُق الغِنى ويرُودُ خِصبَها الذي لا يُمحِلُ
أرِحِ الرِّكابَ فقد ظفِرتَ بواهبٍ
يُعطي عطاءَ المُنعِمين فيُجزِلُ

---

(١) هو ابو حفص عمر بن عبد الله الصنهاجي ، ويعرف بأزناج ، وعمر ومزال ؛ وكان يسمى قبل « فصكة » ، او « فار صكات » ، فسماه ابن تومرت عمر ويعرفونه بعمر انيتي ، من أهل تينملل من قبيلة مسكالة . كان من اوائل اصحاب ابن تومرت منشيء دولة الموحدين ، ووزر لعبد المؤمن بن علي واليه تنتسب الدولة الحفصية . العبر م ٦ ، المعجب ص ١٢٥ وما بعدها .

(٢) ذكر ابن خلدون في العبر ٦/٢٧٥ : أن نسب الحفصيين ينتهي الى عمر بن الخطاب ونقل ذلك عن ابن نخيل وغيره من الموحدين والى ذلك يشير هنا .

(٣) أنبوب الرمح ، والقصبة : كعبهما . والجمع انابيب .

(٤) بحر مزبد : مائج يقذف بالزبد ؛ والكلام على التوسع . وليل أليل : شديد طويل .

(٥) الذابل : القنا الدقيق اللاصق الليط . والذبال ، جمع ذبالة ؛ وهي الفتيله .

لله من خُلقٍ كَريمٍ في النَّدَى كالرَّوض حيَّاه نَديٌّ مُخضِلُ
هذا أميرُ المؤمنين إمامُنا في الدِّين والدُّنيا إليه المَوئلُ
هذا أبو العبَّاسِ خيرُ خليفةٍ شهِدَتْ له الشِّيَمُ التي لا تُجهَلُ
مُستنصِرٌ باللهِ في قهرِ العِدا وعلى إعانةِ ربِّه مُتوكِّلُ
سَبقَ الملوكَ الى العُلا مُتمهِّلا لله منك السَّابقُ المتمهِّلُ
فلأنتَ أعلى المالكين وإنْ غدَوا يتسابقُون الى العَلاء وأكمَلُ
قايِسْ قديماً منكمُ بقديمِهِمْ فالأمرُ فيه واضحٌ لا يُجهَلُ
دانُوا لقومِكمُ بأقوَمِ طاعةٍ هي عُروةُ الدِّين التي لا تُفصَلُ
سائلِ تلِمْسَاناً بها وزَناتةً ومَرينَ قبلَهُمُ كما قدْ يُنقَلُ
واسألْ بأندَلسٍ مَدائن مُلكِها
تخبِرْكَ حينَ استَيأسُوا واستوهَلُوا
واسأل بذا مرّاكُشاً وقُصورَها ولقدْ تجيبُ رُسومُها منْ يَسأَلُ

∴

يا أيُّها الملكُ الذي في نَعتِهِ مِلءُ القُلوبِ وفوقَ ما يُتمَثَّلُ
لِلّهِ منكَ مُؤيَّدٌ، عَزَماته تَمضِي كما يَمضِي القَضاءُ المُرسَلُ

جِئْتَ الزَّمانَ بحيثُ أعضلَ خطبُهُ فافترَّ عنهُ وهوَ أكلحُ أعصلُ[1]

والشَّمْلُ مِن أبنائهِ مُتصدِّع وحِمى خِلافتِهِ مُضاعٌ مُهمَل

والخلقُ قد صرفوا إليكَ قلوبَهُم

ورجوا صلاحَ الحالِ مِنْكَ وأمّلوا

فعجلتَه لمّا انتُدِبتَ لِأمرِه بالبأسِ والعزْمِ الذي لا يُمهِل

ذلّلتَ مِنه جامحاً لا ينثني سهَّلتَ وعراً كادَ لا يتسهَّلُ

وألنتَ من شرَسِ العتاة وذُدْتَهم عن ذلكَ الحرَم الذي قد حلّلوا

كانت لِصَوْلةَ صَولةٌ ولقومهِ يعدُوا ذُؤيبُ بها وتسطُو المعقِلُ

ومُهلهِلٌ تسدِي وتُلحِمُ في التي ما أحكموها بعدُ فهيَ مهلهَلُ

المراد بصَولة هُنا صولة بن خالد بن حمزه اميرُ اولاد ابي الليل . وذؤيبٌ : هو ابن عمه أحمد بن حمزة . والمعقل فريق من العرب مِنْ أحلافِهم . ومُهلهِلُ : هم بنو مُهلهِل بن قاسم أنظارُهُم وأقتالُهُم[2] . ثُمَّ رجَعْتُ إلى وصف العرب وأحيائهم :

عجبَ الأنامُ لشأنِهِم بادُون قد قذفت بجِمِّهِمُ المطيُّ الذلَّلُ

(١) الكلوح : تكشر في عبوس ، ودهر كالح على المثل . وأعصل : معوج شديد ملتو .

(٢) انظار : جمع نظر ؛ كمثل وزناً ومعنى . والاقتال ؛ جمع قتل (بكسر القاف) ؛ وهو القرن في القتال وغيره .

رَفَعُوا القِبابَ على العِمادِ وعِنْدَها ... الجُرْدُ السَّلاهِبُ[١] والرِّماحُ العُسَّلُ[٢]
في كل ظامِي التُّربِ متَّقِدِ الحصَى ... تهوِي لِلُجَّتِهِ الظِّماءُ فتنهَلُ
جِنٌّ شَرابُهم السَّرابُ ورزقُهم ... رمحٌ يروحُ به الكَمِيُّ ومُنْصُلُ
حَيٌّ حُلولٌ بالعَراءِ ودونَهم ... قُذُفُ النَّوى[٣] إن يظعَنوا أو يُقْبِلوا
كانوا يروعونَ الملوكَ بِما بَدَوا ... وغَدَتْ ترَفُّهُ بالنَّعيمِ وتخْضَلُ
فَبَدَوْتَ لا تَلوي على دعةٍ ولا ... تأوي إلى ظِلِّ القُصورِ تُهَدَّلُ
طَوْراً يُصافِحكَ الهَجيرُ وتارةً ... فيه بخفَّاقِ البُنُودِ تُظَلَّلُ
وإذا تُعاطي ضُمراً يومَ الوغى ... كأسَ النَّجيعِ فبالصَّهيلِ تُعَلَّلُ
مُخشَوشِنا في العزِّ مُعتَمِلًا له ... في مِثْلِ هذا يحسُنُ المسْتَعْمَلُ
تَفْري حشَا البَيْداءِ لا يَسري بِها ... رَكْبٌ ولا يَهْوي إليْها جَحفلُ
وتجرُّ أذيالَ الكتائبِ فوقَها ... تختالُ في السُّمْرِ الطِّوالِ وترْفُلُ
ترميهمُ منها بكلِّ مُدجَّجٍ ... شاكي السِّلاحِ إذا استعارَ الأعزَلُ
وبكلِّ أسْمَرَ غُصْنُه متأوِّدٌ ... وبكلِّ أبيَضَ شَطُّه مُتَهدِّلُ
حتَّى تفرَّق ذلكَ الجَمعُ الأُلى ... عَصَفَتْ بِهِم ريحُ الجِلادِ فزُلْزِلوا
ثمَّ استَمَلْتَهمُ بأنعُمِكَ التي ... خَضَعوا لِعزِّكَ بعْدَها وتذَلَّلوا
ونَزَعتَ من أهلِ الجَريدِ غَوايَةً ... كانَتْ بِهِم أبداً تجدُّ وتَهزِلُ

---

(١) السلاهب ، جمع سلهب : وهو الطويل العظيم من الخيل .

(٢) رمح عاسل : لدن مضطرب ؛ والجمع عسل .

(٣) نية قذف (بضمتين) : بعيدة . والنوى ، والنية : الوجه ينويه المسافر من قرب أو بعد . وهي مؤنثة .

خرّبتَ من بُنيانها ما شيّدوا ... وقطعتَ من أسبابها ما أمّلوا
ونظمتَ من أمصاره وثغوره ... للمُلك عقداً بالفتوح يُفصّلُ
فسددتَ مطّلعَ النّفاق وأنتَ لا ... تنبو ظُباك ولا العزيمةُ تنكُلُ[١]
بشكيمةٍ مرهوبةٍ وسياسةٍ ... تجري كما يجري فراتٌ سلسلُ
عذُبَ الزّمانُ لها ولذّ مذاقه ... من بعدِ ما قد مرَّ منه الحنظلُ
فضوى الأنامُ لعزّ أروع مالكٍ ... سهلِ الخليقةِ ، ماجدٌ متفضّلُ
وتطابقت فيك القلوبُ على الرّضى ... سيّانَ منها الطفلُ والمتكهّلُ
يا مالكاً وسع الزمان وأهلهُ ... دعةً وأمناً فوق ما قد أمّلوا
فالأرضُ لا يُخشى بها غولٌ ولا ... يعدو بساحتها الهزبرُ المشبلُ
والسّفرُ يجتابون كلّ تنوفةٍ[٢] ... سِربَ القطا ما راعهنّ الأجدلُ[٣]
سُبحانَ من بعُلاك قد أحيا المنى ... وأعادَ حلي الجيدِ وهوَ معطّلُ
سُبحانَ من بهداك أوضحَ للورى ... قصدَ السّبيلِ فأبصرَ المتأمّلُ[٤]
فكأنّما الدُّنيا عروسٌ تُجتلى ... فتميسُ في حُللِ الجمالِ وترفلُ
وكأنَّ مُطبقةَ البلاد بعدْلهِ ... عادتْ فسيحاً ليسَ فيه مجهلُ
وكأنّ أنوارَ الكواكبِ ضوعفتْ ... من نور غرّتهِ التي هيَ أجملُ

(١) تنكل : تجبن ، وتنكص
(٢) التنوفة : القفر من الارض لا ماء فيه .
(٣) الاجدل : الصقر .
(٤) سقط هذا البيت من احدى النسخ .

وكأنّما رُفع الحجابُ لِناظرٍ فرأى الحقيقةَ في الذي يتخيَّلُ

ومنها في العُذْرِ عن مدْحه :

مولايَ غاضتْ فكرتي وتبلَّدت منّي الطِّباع فكلُّ شيءٍ مُشكِل
تسمو الى دركِ الحقائق همّتي فأُصدُّ عن إدراكهنّ وأُعزَلُ
وأجِدُّ ليلي في امتراء قريحتي[1] وتعودُ غوراً بينما تسترسلُ
فأبيتُ يعتلجُ الكلامُ بخاطري والنَّظمُ يشرُدُ والقوافي تُجفِلُ
من بعد حولٍ أنتقيه ولمْ يكنْ في الشِّعرِ حولِيٌّ يُعابُ ويُهمَلُ[2]
فأصونُه عن أهلِه متوارياً أن لا يضمُّهمُ وشعريَ محفلُ
وهيَ البضاعةُ في القبول نفاقُها سيّان فيها الفحلُ والمتطفّلُ
وبناتُ فكري إن أتتكَ كليلةً مرهاءَ[3] تخطِر في القصورِ وتخطِل
فلها الفخار إذا منحتَ قبولَها وأنا على ذاكَ البليغُ المقوَلُ

ومنها في ذكر الكتاب المؤلَّف لخزانته :

وإليك من سِيَر الزمانِ وأهله عِبراً يدينُ بفضلِها منْ يعدِلُ
صُحُفاً تُترجِمُ عن أحاديث الأُلى غبرُوا فتُجمِل عنهمُ وتفصِّلُ

(١) امتراء القريحة : استدرارها .

(٢) يشير الى ما عرف عن زهير بن ابي سلمى الشاعر ، من انه عمل سبع قصائد في سبع سنين ، فكانت تسمى حوليات زهير ، لانه كان يحوك القصيدة في سنة .

(٣) امرأة مرهاء : غير مكتحلة ؛ وعين مرهاء : خالية من الكحل . ويريد أن قصيدته هذه ، تنقصها الزينة والاحتفال .

تُبْدي التَّبابعُ والعمَالِقُ سِرَّها وثمودُ قَبْلَهُمُ وعادُ الأُوَّلُ
والقائمُونَ بِمِلَّةِ الاسْلَامِ مِنْ مُضَرٍ وبَرْبَرِهِمْ إذا ما حُصِّلُوا
لَخَّصْتُ كُتْبَ الأوَّلينَ لجمْعِهَا وأتيتُ أوَّلها بما قدْ أغفَلُوا
وألَنْتُ حُوشِيَّ الكَلَامِ كأنَّما شُرُدُ اللُّغَاتِ بها لِنُطْقِي ذُلَّلُ
أهدَيْتُ مِنْه الى عُلاكَ جَوَاهِراً مكنُونةً وكواكِباً لا تأْفُلُ
وجعَلْتُه لِصوانِ مُلْكِك مَفْخَرا
يَبْأَى[1] النَّديُّ بِهِ ويَزْهو المَحْفِلُ
واللهِ ما أسرَفتُ فيما قُلتُه شيْئاً ولا الاسرافُ مِمَّا يَجْمُلُ
ولَأنتَ أرْسخُ في المَعارِفِ رُتبةً مِن أن يُمَوِّهَ عندَه متطَفِّلُ
فمِلَاكُ كلِّ فضِيلةٍ وحقِيقَةٍ بيَدَيْكَ تَعْرِفُ وضعَها إن بدَّلُوا
والحقُّ عندَكَ في الأمورِ مُقَدَّمٌ أبداً فماذا يَدَّعِيهِ المُبْطِلُ
واللهُ أعطاكَ التي لا فوقها فاحكُم بما ترضَى فأنتَ الأعدلُ
أبقاكَ ربُّكَ للعِبَاد تَرُبُّهم فالله يَخْلُقُهم ورعْيُكَ يَكْفُلُ

وكنتُ لما انصرفتُ عنه من مُعَسْكَرِه على سُوسَةَ الى تونِس ، بلغَني ـ وأنا مُقيم بها ـ أنه أصابهُ في طريقه مرض ، وعقِبَه إبلالُ ، فخاطبتُه بهذه القَصِيدة :

---

(١) يبأى : يفخر .

ضحكَتْ وُجوهُ الدَّهر بعدعبُوس وتجاَّلتْنا رحمةٌ من بُوسِ
وتوضَّحت غُررُ البشائر بعد ما انبهمتْ فأطلعها حُداةُ العيس[١]
صدعوا بها ليْلَ الهُموم كأنَّما صدعوا الظَّلام بجذْوة المقْبُوس
فكأنَّهم بثُّوا حياةً في الورى نُشِرتْ لها الآمالُ من مرموس[٢]
قرَّت عيونُ الخلق منها بالتي أَضفَتْ من النَّعْماء خير لبُوس
فكأنَّ قومي نادمتْهم قرْقفٌ[٣] شربوا النَّعيم لها بغير كُؤُوس
يتمايلون من المسرَّة والرِّضى ويقابلون أهلَّةً بشُموس
من راكب وافى يُحيِّي راكبا وجليسِ أُنسٍ قادهُ لجليسِ
ومُشفَّعٍ لله يُؤنسُ عندَه أثر الهُدى في المَعْهدِ المأْنوس
يعتَدُّ منها رحمةً قُدسيَّةً فيَبُوءُ للرَّحمنِ بالتَّقديسِ
طبٌّ بإخلاص الدُّعاء وإنَّه يشْفِي من الداء العياء ويُوسي

والمعْنِيُّ به إمامُ الجامع الأعظم، جامع الزَّيتُونه بتونس .

يا ابنَ الخلائف والذين بنُورِهم نُهِجت سبيلُ الحقِّ بعد دُروسِ
والنَّاصرُ الدِّينِ القَويم بعزمةٍ طردُ استقامتِها بغير عُكوس
هجر المُنى فيها ولذَّاتِ المُنى في لذَّةِ التَّهجيرِ والتَّغْليس[٤]

---

(١) جمع أعيس ، او عيساء ؛ وهي التي في لونها أدمة .
(٢) المرموس : المقبور .
(٣) القرقف : الخمر .
(٤) التهجير الى الصلاة : التبكير والمبادرة اليها ؛ وفي الحديث : لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا اليه . والتغليس : السير الى صلاة الصبح وقت الغلس ، وهو ظلمة آخر الليل .

حاط الرَّعيةَ بالسِّياسَةِ فانضَوتْ منه لأكْرَمِ مالكٍ وَسَؤُوس

أَسد يُحامي عن حِمَى أشْبَالِه حتَّى ضووا منه لأمنَعِ خيسِ [1]

قَسَماً بمَوشيِّ البِطاح وقد غدت تختالُ زَهْواً في ثياب عروس

والماثلاتِ من الحَنَايا جُشَّما يُخبِرْن عن طَسْمٍ وفلِّ جَديس [2]

خُوص [3] مُضمَّرةُ البُطُونِ كأنَّها أنضاء [4] ركبٍ في الفَلاةِ حبيس [5]

وَخزَ البِلى منها الغوارب والذُّرى

فلفتْن خزراً بالعيون الشُّوسِ [6]

لبَقاكَ حِرز للأنام وعصمة وحياةُ أرواحٍ لنا ونُفوس

ولأنتَ كافلُ ديننا بحمايةٍ لولاكَ ضُيِّع عهدُها وتُنوسي

اللهُ أعطاكَ التي لا فوقها وحباكَ حظاً ليس بالموكُوس [7]

تعنُو القُلوبُ إليْكَ قبل وجوهنا سِيَّان من رأسٍ ومن مرْءوس

فإذا أقمتَ فإنَّ رُعبك راحل يُحْمِي على الأعداء كلَّ وطيس

(١) ضووا : لجأوا ، والخيس : موضع الاسد .

(٢) طسم وجديس : حيان من العرب البائدة ؛ كان مسكنهما البحرين ، واليامة . وقد أوقع حسان بن تبع بقبيلة جديس ، والى ذلك ينظر ابن خلدون . الطبري ٢/٣٨ – ٣٩ .

(٣) خوص : لونها اشهب ، مثلما يصبح لون الرأس عندما يستوي فيه سواد الشعر وبياضه . لسان العرب .

(٤) جمع نضو ؛ وهو المهزول .

(٥) حبيس : محبوس .

(٦) الغوارب : جمع غارب ، وهو مقدم سنام البعير . والذرى : جمع ذروة ؛ وهي أعلى سنام البعير ؛ يعني أن البلى قد عمها . والشوس : النظر بمؤخر العين غيظا وغضبا .

(٧) الموكوس : المنقوص .

وإذا رَحلتَ فللسَّعادة آيةٌ تَقْتادُها في مَوْكبٍ وخميس
وإذا الأدِلّةُ في الكَمال تطابقَتْ جاءَتْ بمَسْمُوعٍ لها ومَقيس
فانْعَم بمُلْككَ دولةً عاديّةً[1] تُشقي الأعاديَ بالعذاب البِيس

.·.

وإليكَها منّي على خَجلٍ بها عذراءَ قد حَليَتْ بكلّ نفيسِ
عُذْراً فقَد طمسَ الشَّبابُ ونورُه وأضاءَ صُبحُ الشَّيْبِ عند طُموسِ
لولا عِنايتُك التي أوليتَني ما كنتُ أُعْنَى بعدَها بطُروس
واللهِ ما أبقَتْ مُمارسةُ النَّوى منّي سوى مَرَس أحمَّ دَريس[2]
أنحَى الزّمانُ عليَّ في الأدبِ الذي دارَسْتُه بمَجامعٍ ودُروس
فسَطَا على وفْري ورَوَّع مأمني واجْتثَّ من دَوحِ النَّشاطِ غُروسي
ورِضاكَ رَحمتيَ التي أعتدُّها تُحْيي مُنَى نفسي وتُذهِبُ بُوسي

ثم كثُرت سِعايةُ البِطانة بكلّ نوعٍ من أنواع السِّعايات، وابنُ عرَفةَ يَزيدُ في إغرائهم مَتى اجتمَعُوا إليه، الى أنْ أغرَوا السُّلطانَ بسَفَري مَعه، ولقَّنُوا النَّائبَ بتُونِس القائدَ فارحَ من موالي السُّلْطان أن يَتفادَى من مُقامتي معه، خَشيةً على أمره مني بزَعْمه،

(١) نسبة الى عاد، الامة المعروفة. ويريد أنها طويلة الامد.
(٢) المرس (بفتح الميم والراء): الحبل. والاحم: الاسود. والدريس: الخلق، البالي.

وتواطأوا على أن يشهَد ابنُ عَرَفة بذلك للسلطان ، فشهِد به في غيبة منّي ، ونَكر السُّلطان عليهم ذلك ، ثم بَعث إليّ وأمرني بالسَّفر معه ، فسارعتُ إلى الامتثال ، وقد شق ذلك عليّ ، إلا أني لم أجد مَحيصاً [عنه] ، فخرجت معه ، وانتهيتُ الى تِبِسَّة ، وسط تلول إفريقيَّة ، وكان منحدراً في عساكره وتواليفه من العرب الى تَوْزَر ؛ لأنّ ابنَ يَمْلُولَ كان أجلب عليها سنة ثلاث وثمانين ، واستَنْقَذَها من يد ابنِهِ ، فسَار السُّلطان إليه ، وشرَّدَه عنها ، وأعاد إليها ابنَه وأولياءَه. ولما نهَض من تِبِسَّة ، رجّعني الى تُونِس ؛ فأقمتُ بضيعتي الرّياحين من نواحيها لضمِّ زُرُوعي[1] بها ، الى أن قفَل السُّلطان ظافراً منصُوراً ، فصحبته الى تُونِس.

ولما كان شهرُ شعبان من سَنَة أربع وثمانين ، أجمَع السلطان الحركة الى الزّاب ؛ بما كان صاحبُه ابنُ مَزْنَى قد آوَى ابنَ يمْلول إليه ، ومَهَّد له في جواره ؛ فخشيتُ أن يَعُودَ في شأني ما كان في النَّفْرة قَبْلها. وكانت بالمرَسى سفينة لتجّار الاسكندرية قد شحنَها التجّار بأمتعتهم وعُروضهم ، وهي مُقلِعة الى الاسكندرية ، فتطارحتُ على السلطان ، وتوسّلتُ اليه في تخليَة سبيلي لقضاء فرضي ،

(١) كذا ، وفي ب : لضم زرا عتي .

فأذنَ لي في ذلك، وخرجت الىَ المَرْسى، والنَّاسُ مُتَسَايلون على أثري من أعيَان الدَّولةِ والبَلَد وطلَبَةِ العلم. فودَّعتُم، ورِكبتُ البَحر منتَصَفَ شعْبان من السَّنة، وقوَّضتُ عنهم بحيث كانت الخيرَة من الله سُبحانه، وتفرّغتُ لتجديد ما كان عندي من آثار العلم، والله وليُّ الأمور سُبحانه.

الرحلة الى المشرق ، وولاية القضاء بمصر

ولما رَحلت من تُونس مُنتصَفَ شعبان من سَنَة أربع وثمانين ، أقمنا في البَحر نحواً من أربعين لَيلة ، ثم وافينا مَرسى الاسكندرية يوم الفطر . ولعشرِ ليـالٍ من جُلوس الملك الظّاهر على التَّخت ، واقْتِعاد كرسيِّ المُلك دُون أهله بني قلاوُن ؛ وكنّا على ترقُّب ذلك ، لما كان يؤثر بقَاصِية البِلاد من سُموّه لذلك ، وتمهيده له . وأقمتُ بالاسكندرية شهراً لتهيئة اسباب الحج ولم يُقدَّر عامئذ ، فانتقلتُ الى القاهرة اولَ ذي القعدة ، فرأيتُ حضرةَ الدُّنيا ، وبُستان العالَم ، ومحشَرَ الامم ، ومَدْرَجَ الذَرّ[1] من البَشر ، وإيوان الاسلام ، وكرسيَّ المُلك ، تلوح القصور والأواوين في جوّه ، وتزهرُ الخوانكُ[2] والمدارس بآفاقه ، وتضيء البدورُ والكواكب من عُلمائه ؛ قد مَثَلَ بشاطىء بحر النيل نهر الجَنَّة[3] ومدفَع مياه السماء ،

(١) المدرج : الطريق . والذر : النمل الاحمر الصغير .

(٢) جمع خانقاه .

(٣) يشير ابن خلدون هنا الى ما يقص حول نهر النيل من انه احد انهار الجنة ، كدجلة والفرات ، وسيحان . خطط المقريزى ١/٨٠–٨١ طبع مصر سنة ١٢٣٤ . على ان ابن خلدون لم يلتفت الى هذا حين تحدث عن هذه الأنهار فى مقدمته ؛ وقد نقد ياقوت هذه الاقاصيص بأنها « حديث خرافة » .

يَسقيهم النَّهلَ والعَلَلَ سَيْحُه[١] ويجني اليهم الثمرات والخيرات ثَجُّه[٢] ؛ ومررتُ في سكك المدينة تغصُّ بزحام المارَّة ، واسواقها تزخر بالنِّعم . وما زلنا نحدِّثُ عن هذا البلد ، وبُعد مداه في العمران ، واتساع الاحوال ؛ ولقد اختلفَت عباراتُ من لقيناه من شيوخنا واصحابنا ، حاجِّهم وتاجِرهم ، بالحديث عنه . سألتُ صاحبَنا قاضي الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب ؛ أبا عبدالله المَقْري ، مَقْدَمه من الحج سنة اربعين ، فقلتُ له : كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرَها لم يعرف عزَّ الاسلام .

وسألتُ شيخنا ابا العباس ابن إدريس[٣] كبير العلماء ببجاية مِثلَ ذلك فقال : كأنَّما انطلقَ اهلُه من الحساب ؛ يُشير الى كثرة أممه وأمنِهم العواقب[٤] .

وحضر صاحبُنا قاضي العسكر بفاس ، الفقيهُ الكاتب ابو القاسم البَرْجي بمجلس السلطان ابي عِنان ، مُنصرفه من السِّفارة عنه الى

---

(١) السيح : الماء الجاري على وجه الارض .

(٢) الثج : الصب الكثير . وفي القرآن : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً » وثجيج الوادي : سيله .

(٣) هو أبو العباس أحمد بن ادريس البجائي المالكي المتوفى بعد سنة ٧٦٠ .

(٤) يقول المقريزى : « .... قال شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ـ رحمه الله تعالى : أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب » . الخطط ١/٧٩ طبع مصر سنة ١٣٢٤ .

ملوك مصر ، وتأدية رسالته النَّبوية [1] الى الضريح الكريم ، سنة ست وخمسين وسأله عن القاهرة فقال :

اقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار : ان الذي يتخيَّله الانسان ، فإنما يراه دون الصورة التي تخيَّلها ، لاتساع الخيَال عن كل محسوس ، الا القاهرة ، فانها اوسعُ من كل ما يُتخيَّل فيها . فأُعجبَ السلطان والحاضرون بذلك .

ولما دخلتُها ، أقمتُ اياماً ، وانثال عليَّ طلبةُ العلم بها ، يلتَمسون الافادة مع قلَّة البضاعة ، ولم يُوسعوني عُذراً ؛ فجلستُ للتدريس بالجامع الأزهر منها .

ثم كان الاتِّصال بالسلطان ، فأبرَّ اللِّقاء ، وأنَّس الغُربة ، ووفَّر الجراية من صدقاته ، شأنُهُ مع أهل العِلم ، وانتظرت لَحَاق أَهلي وولدي من تُونِس ، وقد صدَّهم السلطان هنالك عن السَّفر ، اغتباطاً بعودي إليه ، فطلبتُ من السلطان صاحبِ مصر الشَّفاعةَ إليه في تخلية

(١) هي رسالة اعتادوا ان يكتبوها في مناسبات مختلفة ، ويبعثوا بها الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ يحملها رسول خاص الى الروضة الشريفة حيث تقرأ قرب القبر النبوي الكريم . وفي نفح الطيب أمثلة لهذا النوع من الرسائل .

(٢) جاء في « السلوك » : « وفي هذا الشهر (رمضان) ، قدم شيخنا أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون من بلاد المغرب ، واتصل بالامير الطنبغا الجوباني وتصدى للاشتغال بالجامع الأزهر ، فأقبل الناس عليه ، وأعجبوا به » .

سبيلهم ، فخاطبه في ذلك بما نصُّه[١] :

بسم الله الرحمن الرحيم[٢] .

عبدُ الله ووليُّه أخوه برقوق[٣] [......][٤]

السلطان الأعظم ، المالك الملك الظاهر ، السَّيد الأجلّ ، العالم العادل ، المؤيّد المجاهد ، المُرابط المُثاغِر ، المظفَّر ، الشَّاهِنشاه ، سيف الدُّنيا والدين ، سُلطان الاسلام والمسلمين ، مُحْيي العدل في العالمين ، مُنصِف المظلومين من الظالمين ، وارث المُلك ، سلطان العرب والعجم والترك ، اسكَندَر الزّمان ، مولي الاحسان ، مُملِّك أصحاب التخوت والأسرّة والتِّيجان ، واهب الأقاليم والأقطار ، مبيد الطُّغاة

---

(١) سقط نص هذه الرسالة في اكثر النسخ .

(٢) حافظت في هذه الرسالة على الطريقة الرسمية التي كانت متبعة في ذلك العهد ، والتي يقول عنها القلقشندي في صبح الاعشى (٣٧٨/٧) ، في رسم المكاتبة الى صاحب فاس ، وغيره من ملوك المغرب :

« ... وهو أن يكتب بعد البسملة ، بحيث يكون تحتها سواء ، في الجانب الايمن من غير بياض ، ما مثاله : « عبد الله ووليه » : ثم يخلى مقدار بيت العلامة ، ثم يكتب الالقاب الشريفة من أول السطر مسامتا للبسملة ، وهي : السلطان الاعظم الخ » .

(٣) في خطط المقريزي ٢١١/٢ بولاق : « واما البريد ، وخلاص الحقوق والظلامات ، فانه (السلطان) يكتب ايضا اسمه ، وربما كرم المكتوب اليه ، فكتب اليه : « اخوه فلان ، او والده فلان ، وأخوه » .

(٤) هذا البياض هو بيت العلامة ، وكانت علامة الناصر محمد بن قلاوون : « الله أملي » ، وعمل ذلك الملوك بعده . خطط المقريزى ٢١١/٢ بولاق ، والاستقصا ٧٢/٢ ، صبح الاعشى ٣٧٨/٧ .

والبُغاة والكفَّار ، مَلك البَحْرَين ، مُسْلِك سبيل القبْلتَين ، خادم الحرمين الشَّريفين ، ظلّ الله في أرضه ، القائم بسُنَّته وفَرضه ، سلطان البَسيطة مُؤَمِّن الأرض المُحيطَة ، سيِّد المُلوك والسلاطين ، قَسِيم[1] أمير المؤمنين[2] ، أبو سعيد بَرْقُوق ابن الشَّهيد شرف الدنيا والدين أبي المعالي أنس[3] . خلد الله سلطانه ، ونصر جيوشه وأعوانه يخص الحَضْرة السَّنِية السَّرية ، المظَفَّرة المَيمونة ، المنصورة المصونة ، حضرة السلطان العالم ، العادل المؤَيد ، المُجاهد الأوحد ، أبي العبَّاس ، ذُخر الاسلام والمسلمين ، عُدّة الدنيا والدين ، قُدوة المُوحِّدين ، ناصر الغُزاة والمُجاهدين ، سيف جماعة الشاكرين ، صلاح الدُّول . لا زالت مملكته بقُوَّته عامرة ، ومهابتُه لنفوس الجبابرة قاهرة ، ومَعْدَلتُه تُبوِّئه غُرُفات العز في الدنيا والاخرة . سلامٌ صفا وِردُه وضفا بُردُه ، وثناءٌ فاح نَدُّه ، ولاح سعده ، ووِدادٌ زاد وَجده ، وجاد جَدُّه .

أمّا بعد حمد الله الذي جعل القلوب اجناداً مجنَّدة ، واسباب الوداد

(١) القسيم بمعنى المقاسم ؛ والمراد انه قاسم امير المؤمنين الملك ، وساهمه في الامر ، فصارا فيه مشتركين . صبح الاعشى ٧/٦٥،١١٣.

(٢) هو المتوكل على الله ، ابو عبدالله محمد بن المعتضد الخليفة العباسي . ولي سنة ٧٦٣ ﻫ وامتدت ايامه ٤٥ سنة ، حبس فيها وخلع ؛ ومات سنة ٨٠٨ ﻫ. « تاريخ الخلفاء » ص ٢٠٢،٢٠٣ .

(٣) كذا ، وهو سيف الدين انز الجركسي العثماني المتوفى سنه ٧٨٣ ﻫ .

على البِعاد مؤكدة ، ووسائل المحبة بين الملوك في كل يوم مجددة؛ والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله، الذي نصره الله بالرُّعب مسيرة شهر وأيَّده[1] وأعلى به منار الدين وشيَّده ؛ وعلى آله وأصحابه الذين اقتفَوا طريقه وسؤدُدَه ، صلاة دائمة مؤبدَّة . فاننا نوضِّح لعلمه الكريم ، أن الله — وله الحمد — جعل جِبِلَّتنا الشريفة مجبولة على تعظيم العِلم الشريف واهله ، ورفعة شأنه ، ونشر اعلامه ، ومحبَّة اهله وخُدَّامه ، وتيسير مقاصدهم ، وتحقيق املهم ، والاحسان اليهم ، والتقرب الى الله بذلك في السِّر والعَلانية ؛ فان العلماء رضي الله عنهم وَرَثة الانبياء وَقُرَّة عين الاولياء ، وهُداة خَلْق الله في ارضه ؛ لا سيما مَن رزَقه الله الدِّراية فيما عَلِمه من ذلك ، وهداه للدخول اليه من احسن المسالك ، مثلُ مَن سطَّرنا هذه المكاتبة بسببه : المجلس[2] السامي ، الشَّيخي ، الأَجلِّي ، الكبيرى، العالمى ، الفاضلي ، الاثيلي ، الاثيري ، الامامي ، العلاَّمي القُدوة ، المُقتدي ، الفريدي ، المحقِّقي ، الأصيلي ، الاوحدي ، الماجدي ، الولَوي[3] ، جمال الاسلام

---

(١) يشير الى حديث الصحيحين : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » . (كنوز الحقائق للمناوي .

(٢) هذا النوع من الحلى والالقاب الخاصة بأرباب الوظائف الدينية ، يأتي في المرتبة الثالثة ؛ فالاولى : درجة « المقر » ؛ والثانية : درجة « الجناب » ، والثالثة : درجة « المجلس » ؛ ولكل من الدرجات فروع ؛ و « المجلس السامي » احد فروع درجة « المجلس » . وانظر تفصيل القول عن هذه الاستعمالات في صبح الاعشى ٧/١٥ ، ١٥٤–١٥٩ .

(٣) هذه النسبة الى « ولي الدين » .

والمسلمين ، جمال العلماء في العالمين ، اوحد الفضلاء ، قدوة البلغاء ، علامة الامة ، إمام الأئمة ، مفيد الطالبين ، خالصه الملوك والسلاطين[1] عبد الرحمن بن خلدون المالكي . أدام الله نعمته ؛ فانه أولى بالاكرام ، وأحرى ، وأحق بالرعاية وأجل قدرا ؛ وقد هاجر الى ممالكنا الشريفة ، وآثر الاقامة عندنا بالديار المصرية ، لا رغبة عن بلاده ، بل تحبباً الينا ، وتقرباً الى خواطرنا ، بالجواهر النفيسة ، من ذاته الحسنة ، وصفاته الجميلة ؛ ووجدنا منه فوق ما في النفوس ، مما يجل عن الوصف ويربي على التعداد . يا له من غريب وصف ودار ، قد أتى عنكم بكل غريب ؛ وما برح — من حين ورد علينا — يبالغ في شكر الحضرة العلية ، ومدح صفاتها الجميلة ، الى ان استمال خواطرنا الشريفة الى حبها ، وآثرنا المكاتبة اليها .

« والعين تعشق قبل الاذن احياناً »[2]

وذكر لنا في اثناء ذلك ، ان اهله واولاده ، في مملكة تونس

---

(١) اصطلحوا على ان يلحقوا ياء النسب بآخر الالقاب المفردة للمبالغة في التعظيم ، ثم جعلوا النسبة الى نفس صاحب اللقب أرفع رتبة من النسبة الى شيء خارج عنه . ومن هنا كان « الاجلي » و « القاضوي » ارفع رتبة من « الجلالي » ، و « القضائي » . صبح الاعشى ٧٨/٦ ، ١٠٠ . ثم ان لهذه الالقاب دلالات متعارفة خاصة . تولى تحديدها القلقشندي في صبح الاعشى ٧/٢٠-٧٣ .

(٢) عجز بيت لبشار بن برد ؛ وصدره — كما في الاغاني ١٩/٣ بولاق :
يا قوم أذني لبعض الحي عاشقه   والاذن .... »

تحت نظر الحضرة العلية ، وقصد إحضارهم اليه ليقيموا عنده، ويجتمع شمله بهم مدةَ إقامته عندنا ، فاقتضت آراؤنا الشريفة ، الكتابة الى الحضرة العلية لهذين السببين الجميلين ؛ وقد آثرنا إعلام الحضرة العليـة بـذلك ، ليكون على خاطره الكريم ، والقصد من محبته ، يُقدِّمُ امرَه العـالي بطلب اهل الشيخ وَليِّ الدين المشار اليه ، وإزاحـة اعذارهم ، وإزالة عوائقهم ، والوصيَّه بهم ، وتجهيزهم اليه مُكرَّمين ، محترمين ، على اجمل الوجوه صُحبة قاصده الشيخ الصالح ، العارف السالك الاوحد ، سعد الدين مسعود المكناسي ، الواصل بهذه المكاتبة اعزه الله ؛ ويكون تجهيزُهم على مركب من مراكب الحضرة العلية ، مع توصية مَن بها من البحرية بمضاعفة إكرام المشار اليهم ورِعايتهم ، والتأكيدِ عليهم في هذا المعنى ، واذا وَصل مَن بها من البحرية ، كان لهم الأمنُ والاحسان فوق ما في أنفُسهم ، ويُربي على أملِهم ؛ بحيثُ يَهتَمُّ بذلك على ما عُهِد من محبَّتِه ، وجميل اعتيادِه ، مع ما يُتحفُ به من مراسلاته ، ومقاصده ومكاتباتِه . واللهُ تعالى يَحرُسه بملائكته وآياته ، بِمَنّه ويُمنِه إن شاء الله .

كُتِب خامسَ عشر صَفر المبارك من سنة ستّ وثمانين وسَبعمائة حسَب المرسوم الشريف . الحمد لله وصلواتـه على سيدنا محمَّد وآله وصحبه وسلم .

ثم هلك بعضُ المدرّسين بمدرسة القَمْحية[١] بمصر، من وَقْف صلاح الدّين بن أيّوب، فولاّني تدريسها مكانه[٢]، وبينا أنا في ذلك، إذ سَخِط السلطانُ قاضي المالكية[٣] في دولته، لبعض النزَعات فعزله، وهو رابعُ أربعة بعدد المذاهب، يُدعى كلٌّ منهم قاضي القُضاة، تمييزاً عن الحُكّام بالنّيابة عنهم، لاتِّساع خُطّة هذا المعْمور، وكَثرة عوالمه، وما يرتفعُ من الخصومات في جوانبه؛ وكبيرُ جماعتهم قاضي الشّافعية، لِعُموم ولايته في الأعمال شرقاً وغربا، وبالصَّعيد[٤] والفيوم[٥]، واستقلالِه بالنَّظر في أموال الأيتام،

(١) كان موقع القمحية بجوار الجامع العتيق (جامع عمرو) بمصر، وكان موضعها يعرف بدار الغزل؛ وهو قيسارية كان يباع فيها الغزل، فهدمها صلاح الدين، وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية، ورتب فيها مدرسين، وجعل لها أوقافاً كانت منها ضيعة بالفيوم تغل قمحاً كان مدرسوها يتقاسمونه، ولذلك صارت لا تعرف الا بالمدرسة القمحية. خطط المقريزي ٢/٣٦٤ بولاق.

(٢) في السلوك في حوادث سنة ٧٨٦:

«وفي ٢٥ محرم، درّس شيخنا أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، بالمدرسة القمحية بمصر، عوضاً عن علم الدين سليمان البساطي بعد موته، وحضر معه الأمير الطنبغا الجوباني، والأمير يونس الدوادار، وقضاة القضاة والأعيان».

(٣) هو جمال الدين عبد الرحمن بن سليمان بن خير المالكي (٧٢١ – ٧٩١).

(٤) كان القدماء يعتبرون مبدأ الصعيد الشمالي من قرب القاهرة، ويمتد على ضفتي الوادي جنوباً حتى يصل الى أسوان الذي كان عندهم نهاية الصعيد الجنوبية؛ وفيما بين أسوان، واخميم، كان الصعيد الأعلى؛ ومن اخميم الى مدينة البهنسا الواقعة على الضفة الغربية لوادي النيل، كان يسمى الصعيد الأوسط؛ أما الصعيد الأدنى فكانت بدايته البهنسا، ونهايته في الشمال، قرب الفسطاط. ياقوت ٥/٣٦٠

(٥) تقع الفيوم المدينة المعروفة، في الجنوب الشرقي لبحيرة قارون، في الغرب من وادي النيل.

والوَصايا ؛ ولَقد يقال بأن مباشرة السلطان قديماً بالولاية إنما كانت تكون له .

فلما عُزِل هذا القاضي المالكي سنةَ ست وثمانين ، اختصَّني السلطان بهذه الوِلاية ، تأهيلًا لمكاني ، وتَنويهاً بذكري ؛ وشافهتُه بالتَّفادي من ذلك ، فأَبى إلاّ إمضاءه ؛ وخلع عليّ بإيوانه ، وبعث من كبار الخاصّة من أقعدني بمجلسِ الحكم[1] بالمدرسة الصَّالحية[2] بين القَصْرين ، فقمتُ بما دَفع إليّ من ذلك المقامَ المحمود ، ووفّيت جُهْدي بما أمّنني عليه من أحكام الله ، لا تأْخذني في الحقّ لومة ، ولا يَزَعني عنه جاهٌ ولا سَطْوة ، مُسَوّياً في ذلك بينَ الخَصْمين ، آخذاً بحقِ الضَّعيف من الحَكَمين[3] ، مُعْرِضاً عن الشَّفاعات والوسائل من الجانبَين ؛ جانحاً الى التَّثبت في سَماع البيّنات ، والنَّظر في عدالة المنتَصِبين لتحمُّل الشَّهادات ؛ فقد كانَ البَرُّ منهم مختلطاً بالفاجر ، والطَّيِّبُ ملتبساً بالخبيث ، والحكَّامُ ممسِكون عن انتقادِهم ،

---

(١) في السلوك :

« وفي يوم الاثنين تاسع عشرة (جمادى الثانية) ، استدعي شيخنا ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون الى القلعة ، وفوض اليه السلطان قضاء المالكية ، وخلع عليه ، ولقب « ولي الدين » ، واستقر قاضي القضاة عوضاً عن جمال الدين عبد الرحمن بن خير ؛ وذلك بسفارة الأمير الطنبغا الجوباني أمير مجلس ، وقرىء تقليده في المدرسة الناصرية بين القصرين على العادة ؛ وتكلم على قوله تعالى : « انا عرضنا الأمانة على السماوات ، والأرض والجبال الآية » .

(٢) نسبة الى بانيها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

(٣) كذا بالاصول ؛ والمراد « المحتكمين » .

متجاوزون عمّا يظهرون عليه من هناتهم ، لما يموّهون[1] به من الاعتصام بأهل الشّوكة ؛ فإن غالبهم مختلطون بالأمراء ، معلّمين للقرآن ، وأئمّة في الصّلوات ، يلبّسون عليهم بالعدالة ، فيظنّون بهم الخير ، ويقسمون لهم الحظّ من الجاه في تركيتهم عند القضاة ؛ والتّوسل لهم ؛ فأعضل داؤهم ، وفشت المفاسد بالتزوير والتّدليس بين النّاس منهم ؛ ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ، ومؤلم النّكال ؛ وتأدّى إليّ العلم بالجرح في طائفة منهم ، فمنعتهم من تحمّل الشّهادة ؛ وكان منهم كتّاب لدواوين القضاة ، والتّوقيع في مجالسهم ، قد دربوا[2] على إملاء الدّعاوى ، وتسجيل الحكومات[3] ، واستخدموا للأمراء فيما يعرض لهم من العقود ، بإحكام كتابتها ، وتوثيق شروطها ؛ فصار لهم بذلك شفوف[4] على أهل طبقتهم ، وتمويه على القضاة بجاههم ، يدّرعون[5] به مما يتوقّعونه من عتبهم ، لتعرّضهم لذلك بفعلاتهم ؛ وقد يسلّط بعض منهم قلمه على العقود المحكمة ، فيوجد السّبيل الي حلّها بوجه فقهي ، أو كتابيّ ؛ ويبادر الي ذلك متى دعا إليه داعي جاه او منحة ؛ وخصوصاً في الأوقاف

(١) التمويه : التلبيس والخداع .
(٢) دربوا : مرنوا .
(٣) جمع حكومة ، وهي الحكم .
(٤) الشفوف : الفضل .
(٥) ادرع : لبس الدرع ، والمراد يحتمون .

التي جاوزت حدود النهاية في هذا المصر بكثرة عوالمه ؛ فأصبحت خافية الشهرة ، مجهولة الأعيان ، عرضة للبطلان ، باختلاف المذاهب المنصوبة للحكام بالبلد ؛ فمن اختار فيها بيعاً أو تمليكاً ، شارطوه وأجابوه ، مفتاتين فيه على الحكام الذين ضربوا دونه سد الحظر والمنع حماية عن التلاعب ؛ وفشا في ذلك الضرر في الأوقاف ، وطرق الغرر[1] في العقود والأملاك .

فعاملت الله في حسم ذلك بما آسفهم علي وأحقدهم ؛ ثم التفت الى الفتيا بالمذهب ، وكان الحكام منهم على جانب من الخبرة ، لكثرة معارضتهم ، وتلقينهم الخصوم ، وفتياهم بعد نفوذ الحكم ؛ وإذا فيهم أصاغر ، بيناهم يتشبثون بأذيال الطلب والعدالة ولا يكادون ؛ اذا بهم طفروا الى مراتب الفتيا والتدريس ، فاقتعدوها ، وتناولوها بالجزاف ، واحتازوها من غير مترب[2] ولا منتقد للأهلية ولا مرشح ؛ اذ الكثرة فيهم بالغة ، ومن كثرة الساكن مشتقة ، وقلم الفتيا في هذا المصر طلق ، وعنانها مرسل ، يتجاذب كل الخصوم منه رسنا ، ويتناول من حافته شقاً[3] ، يروم به الفلج[4]

(١) الغرر : الخطر . وهي مستعملة في العقود بمعنى الخداع ، وهو استعمال خاطىء .
(٢) المترب : اللائم .
(٣) الشق (بالكسر) : الجانب .
(٤) الفلج : الظفر والفوز ، والاسم بالضم .

علي خصمه، ويستظهر به لارغامه، فيعطيه المفتي من ذلك ملء رضاه، وكفاء أمنيته، متتبعاً اياه في شعاب الخلاف؛ فتتعارض الفتاوى وتتناقض، ويعظم الشغب ان وقعت بعد نفوذ الحكم؛ والخلاف في المذاهب كثير، والانصاف متعذر، وأهلية المفتي أو شهرة الفتيا ليس تمييزها للعامي؛ فلا يكاد هذا المد ينحسر[1]، ولا الشغب ينقطع.

فصدعت في ذلك بالحق، وكبحت أعنة أهل الهوى والجهل، ورددتهم على أعقابهم. وكان فيهم ملتقطون سقطوا من المغرب؛ يشعوذون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك، لا ينتمون الى شيخ مشهور، ولا يعرف لهم كتاب في فن، قد اتخذوا الناس هزؤا، وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض، ومأبنة[2] للحرم؛ فأرغمهم ذلك مني، وملأهم حسداً وحقداً علي، وخلوا الى أهل جلدتهم من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة، يشترون بها الجاه ليجيروا به على الله؛ وربما اضطر أهل الحقوق الى تحكيمهم، فيحكمون بما يلقي الشيطان على ألسنتهم يترخصون به للاصلاح، لا يزعهم الدين عن التعرض لأحكام الله بالجهل؛ فقطعت الحبل في أيديهم، وأمضيت أحكام الله فيمن أجاروه، فلم يغنوا عنه من الله

(١) ينحسر : ينقطع .
(٢) مأبنة : مكانا للاتهام بالشر .

شيئا ، وأصبحت زواياهم مهجورة ، وبئرُهم التي يَمْتاحون منها معطَّلة . وانطلقوا يُراطنون(١) السُّفهاء في النَّيل من عِرضي ، وسُوء الأحدُوثة عني بمُختلَق الافك ، وقول الزُّور ، يَبثُّونه في الناس ، ويدُسون الى السلطان التَّظلُّم مني فلا يُصغي اليهم ؛ وأنا في ذلك محتسِبٌ عند الله ما مُنيت به من هذا الأمر ، ومُعرضٌ فيه عن الجاهلين ؛ وماضٍ على سبيلٍ سَواء من الصَّرامة ، وقُوة الشَّكيمة ، وتحرّي المعدَلة ، وخلاص الحقُوق ، والتَّنكُّبِ عن خطة الباطل متى دُعيتُ اليها ، وصَلابة العُود عن الجاهِ والأغراض متى غَمزَني لامسُها ؛ ولم يكُن ذلك شأنَ من رافقْتُه من القُضاة ، فنكروه عليّ ، ودَعوني الى تَبعِهم فيما يَصطَلِحون عليه من مَرْضات الأكابر ، ومُراعاة الأعيان ، والقضاء للجاه بالصُّور الظاهرة ، أو دفع الخصُوم اذا تعذَّرت ، بناءً على أن الحاكم لا يتعيَّن عليه الحُكم مع وجود غيره ، وهم يعلمون أن قد تمالأوا عليه .

وليت شِعري ! ما عُذرُهم في الصُّور الظّاهرة ، إذا علموا خلافها ؛ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول في ذلك : « من قَضَيْتُ له من حقّ أخيه شيئاً فإنما أقضي له من النار »(٢) .

---

(١) يراطنونهم : يكلمونهم بالعجمية .

(٢) ورد نص هذا الحديث في صحيح البخاري بروايات مختلفة ، لا توافق الصيغة التي أورده عليها ابن خلدون . الموطأ مع شرحه : « تنوير الحوالك » ٢/١٠٦ ، ١٠٧ . طبع التجارية سنة ١٣٥٦ هـ .

فأبيتُ في ذلك كلِّه إلا إعطاءَ العُهدة حقَّها ؛ والوفاءَ لها ولمن قلَّدنيها ، فأصبح الجميع عليَّ ألبا[1] ، ولمن ينادي بالتَّأفف مني عونا ، وفي النَّكير عليَّ أُمّة ؛ وأسمَعوا الشهود الممنوعين أن قد قضيت فيهم بغير الحقّ ، لاعتمادي على عِلمي في الجَرْح ، وهي قضيَّةُ إجماع ؛ وانطلقت الألسنة ، وارتفع الصَّخَب ، وأرادني بعضٌ على الحكم بغرَضهم فوقفت ، وأغرَوا بي الخصوم فتنادَوا بالتَّظلم عند السلطان ؛ وجمع القُضاةَ وأهلَ الفُتيا في مجلسٍ حفَل للنظر في ذلك ؛ فخلَصت تلك الحكومةَ من الباطل خُلوص الابريز ، وتبيَّن أمرهم للسلطان ، وامضيت فيها حُكم الله إرغاماً لهم ، فغدوا على حرد قادرين ، ودسُّوا لأولياء السلطان وعظماء الخاصّة ، يقبِّحون لهم إهمال جاههم ، وردّ شفاعتهم مموِّهين بأن الحامل على ذلك جهل المصطلَح ، وينفِّقون هذا الباطل بعظائمَ ينسُبُونها إليّ ، تبعث الحليم ، وتُغري الرَّشيد ، يستثيرون حفائظهم عليّ ، ويُشربونهم البَغضاءَ لي ؛ واللهُ مجازيهم ومُسائلهم .

فكثُر الشَّغَبُ عليَّ من كل جانب ، وأظلم الجوّ بيني وبين أهل

(١) الأَلب (بالفتح) : التدبير على العدو من حيث لا يعلم .

الدّولة . ووافق ذلك مُصابي بالأهل والوَلد[١] ، وَصلوا من المغرب في السَّفين[٢] ، فأصابها قاصف[٣] من الرّيح فغرقت ، وذهب الموجود والسَّكن والمولود ؛ فعظُم المُصاب والجزع ، ورجح الزُّهد ، واعتزمتُ على الخروج عن المنصب ، فلم يوافقني عليه النَّصيح[٤] ممن استشرتُه ، خشيةً من نكير السُّلطان وسخَطه ؛ فوقفت بين الوِرد والصَّدَر ، وعلى صِراط الرَّجاء واليَأس ؛ وعن قريب تداركني اللُّطف الرّباني ، وشَمِلتني نعمة السلطان — أيده الله — في النَّظر بعين الرّحمة ، وتخلية سبيلي من هذه العُهدة التي لم أطق حَملَها ، ولا عَرفتُ — كما زعموا — مُصطلحَها ؛ فردَّها الى صاحبها الأول[٥] ، وأنشطني من

---

(١) في تاريخ ابن قاضي شهبة ، في حوادث سنة ٧٨٦ :

« وفيه (رمضان) غرق مركب كبير يقال له « ربع الدنيا » ، حضر من المغرب ، وفيه هدايا جليلة من صاحب المغرب ، وغرقت فيه زوجة القاضي ولي الدين بن خلدون ، وخمس بنات له ، وما كان معهن من الأموال والكتب ؛ وكان السلطان قد أرسل رسولا الى صاحب تونس بسبب أولاد الشيخ ولي الدين بن خلدون . وسلم ولداه : محمد وعلي ، فقدما القاهرة » . على أن انفراد ابن قاضي شهبة بهذه التفصيلات مما يبعث على التثبت والحذر » .

(٢) السفين : جمع سفينة ؛ غير ان ابن خلدون يستعمل السفين ويريد السفينة .

(٣) قصف الريح : اشتد صوته .

(٤) النصيح : الناصح .

(٥) في « السلوك » سنة ٧٨٧ :

« وفي سابع عشر جمادى الأولى ، خلع على جمال الدين عبد الرحمن بن خير ، وأعيد الى قضاء القضاة المالكية عوضاً عن ولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون ... ... وفي ٢٢ منه قرىء تقليد ابن خير بالمدرسة الناصرية على العادة » .

عِقالها ؛ فانطلقتْ حميد الأثر ، مُشيَّعاً من الكافّة بالأسف والدُّعاء وحميد الثَّناء ؛ تلحظني العُيون بالرَّحمة ، وتتناجى الآمالُ فيَّ بالعودة ؛ ورتعتُ فيما كنت راتعاً فيه قبلُ من مَراعي نِعمتِه وظلّ رضاه وعنايته ، قانعاً بالعافية التي سألها رسولُ الله صلى وسلّم من ربه ، عاكفاً على تدريس علم ، أو قراءة كتاب ، أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف ، مؤمّلاً من الله . قطْعَ صُبابة العُمر[1] في العبادة ، ومحو عوائق السَّعادة بفضل الله ونعمته .

(١) صبابة العمر : بقيته .

السفر لقضاء الحج

ثم مكثتُ بعد العَزل ثلاثَ سنين، واعتزَمت على قضاء الفَريضة؛ فودَّعتُ السلطان والأمراء، وزوَّدوا وأعانوا فوق الكفاية. وخرجتُ من القاهرة منتصَف رمضان [سنة] تسعٍ وثمانين، الى مَرسَى الطُّور[1] بالجانب الشَّرقيّ من بحر السُّويس؛ ورَكبتُ البَحر من هنالك، عاشر الفِطر، ووَصلنا الى اليَنْبُع[2] لشهر، فوافَينا المَحمِل، ورافقتُهم من هنالك الى مكَّة[3]، ودخلتُها ثاني ذي الحجَّة، فقضَيت الفَريضة في هذه السَّنة، ثم عُدتُ الى اليَنْبُع، فأقمتُ به خمسين ليلةً حتى تهيَّأ لنا ركوب البحر. ثم سافرنا الى أن قاربْنا مرَسى الطُّور، فاعترضتنا الرِّياح، فما وسِعنا إلّا قطعُ البحر الى جانبه الغربيّ ونزلنا بساحل القُصَير[4]، ثم بَذْرَقْنا[5] مع أعراب تلك

(١) الطور: مدينة على الساحل الغربي لشبه جزيرة سيناء. ياقوت ٦/٦٧، ٦٩.

(٢) الينبع: مدينة من مدن الجزيرة العربية، تقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر؛ وهي بفتح الياء المثناة التحتية، وضم الباء الموحدة، بينهما نون ساكنة. ياقوت ٨/٥٢٦.

(٣) مكة: قبلة المسلمين، أم القرى، وبيت الله الحرام. تحدث عنها ياقوت ٨/١٣٣ - ١٤٣.

(٤) القصير بلفظ تصغير قصر: مرفأ على الساحل الغربي للبحر الأحمر، تؤمه السفن التجارية من الجزيرة العربية واليمن، بينه وبين قوص قصبة الصفيد خمسة أيام. ياقوت ٧/١١٥.

(٥) البذرقة (بالذال المهملة، وبالمعجمة أيضا): الخفارة.

النَّاحية الى مدينة قُوص[1] قاعدة الصَّعيد ، فأرحنا بها أياما ، ثمّ ركبنا في بحر النِّيل الى مِصْر ، فوصَلنـا اليها لشهر من سَفرنا ، ودخلتُهـا في جُمادَى [سنة] تسعين ؛ وقضيت حقّ السلطان في لقائه ، وإعلامِه بما اجتَهدت فيه من الدُّعاء له ، فتقبَّل ذلك (مني) بقَبولٍ حسَن ، وأقمت فيما عَهدت من رعايته وظلّ إحسانِه .

وكنتُ لما نزلت باليَنْبُع ، لقيتُ بهـا الفقيه الأديب المتقن ، أبا القـاسم بن محمد ابن شيخ الجماعة ، وفارس الأدباء ، ومُنفِّق سوق البلاغة ، أبي إسْحق إبراهيم السَّاحلي المعروف جَدُّه بالطُّوَيجِن[2] ، وقد قدم حاجّا ، وفي صُحبته كتاب رسالةٍ من صاحبنا الوزير الكبير العالم ، كاتب سرّ السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة ، الحظِيِّ لديه ، أبي عبد الله بن زَمْرَك ؛ خاطبني فيه بنظم ونثر يتشوّق ، ويُذكِّر بعهود الصُّحبة نصُّه :

سَلوا البارِقَ النَّجْدِيَّ من عَلَمَي نَجْدِ
تَبَسَّم فاسْتَبْكَى جُفوني من الوَجْدِ

---

(١) قوص : مدينة واسعة ؛ كانت قصبة صعيد مصر ، وكان أهلها أرباب ثروة واسعة ، لأنها كانت محط التجار القادمين من عدن ؛ وأكثر تجار عدن من مدينة قوص . ياقوت ٧ / ١٨٣ .

(٢) الطويجن ، بضم الطاء ، وفتح الواو ، وبسكون التحتية المثناة ، وكسر الجيم هكذا كان يضبط اسمه بخطه ؛ وفي « نثير الجمان » ، و « نفح الطيب » : أنه بفتح الجيم .

أَجـادَ ربوعي باللوى بُورِكَ اللوَى[1]
وسحَّ به صَوبُ الغَـمائم من بعدي
ويازاجري الأظعـان وهي ضوامِرٌ
دَعُوهـا تَرِدْ هِيماً عِطاشاً على نَجْدِ
ولا تَنشَقُوا الأنفاسَ منهـا مع الصَّبا
فـإنَّ زَفِير الشَّوقِ من مِثلها يُعدي
بَراهـا الهَوَى بَرْيَ القِداح وخَطَّهـا
حُروفـاً على صَفْحٍ مـن القَفْر مُمتَدِ[2]
عَجِبتُ لهـا أني تُجاذِبُني الهَوَى
وما شَوقُها شَوقي ولا وجدُهـا وجدي
لَئن شاقَها بينَ العُذَيب وبارقٍ مياهٌ بفَيْءِ الظل للبان والرَّند[3]
فـما شاقَني إلا بُدورُ خدُورِهـا
وقد لُحْنَ يومَ النَّفرِ في قُضُبٍ مُلْدِ[4]

(١) اللوى : واد من أودية بني سليم .

(٢) براها الهوى : نحتها ، وشفها . والقداح : السهام قبل أن تراش وتنصل .

(٣) العذيب : مـاء لبني تميم ، وكذلك بارق . وكانت هذه الأمكنة دياراً لبني تميم باليمامة . والبان : شجر يسمو ويطول في استواء ؛ ومنه يستخرج دهن البان . والرند : هو شجر الغار ؛ وهو نبات طيب الريح يستخرج منه دهن .

(٤) جمع أملد ؛ وهو الناعم اللين من الغصون وغيرها .

فكم في قبابِ الحيِّ من شمسِ كلَّةٍ   وفي فلكِ الأزرارِ من قمرٍ سعْدِ
وكم صارمٍ قد سُلَّ من لحظِ أحورٍ   وكم ذابلٍ قد هُزَّ من ناعم القدِّ
خذُوا الحذْر من سُكَّان رامة إنها
ضعيفات كرِّ اللحظِ تفتكُ بالأسدِ [١]
سهام جفونٍ عن قسيِّ حواجبٍ   يُصابُ بها قلبُ البريء على عمْدِ
وروض جمالٍ ضاع عرفُ نسيمه   وماضاع غيرُ الورْد في صفحة الخدِّ
ونرجس لحظٍ أرسل الدمع لؤلؤاً   فرشَّ بماء الورْد روضاً من الوردِ
وكم غصُنٍ قد عانق الغصنَ مثلهُ   وكلٌّ على كلٍّ من الشوق يستعْدي
قبيحٌ وداعٌ قد جلا لعيونِنا   محاسنَ من روضِ الجمال بلا عدِّ
رعى الله ليلى لو علمتُ طريقها   فرشْتُ لأخفاف المطيِّ به خدِّي
وما شاقني والطيفُ يُرهبُ أدْمعي   ويسبح في بحرٍ من الليل مزْبدِّ
وقد سُلَّ خفَّاقُ الذؤابة بارقٌ   كما سُلَّ لمَّاعُ الصقال من الغمْد [٢]
وهزَّتْ محلاةً يدُ الشوقِ في الدجى
فحلَّ الذي أبرمتُ للصبْر من عقْدي
وأقلق خفَّاقُ الجوانح نسْمةً   تنِمُّ مع الاصباح خافقة البُردِ

---

(١) رامة : موضع بالعقيق.
(٢) خفاق : مضطرب . وذؤابة كل شيء : أعلاه . والبارق : سحاب ذو برق .

وهبَّ عليلٌ لفَّ طيَّ بُرُودِهِ
أَحاديثَ أَهداها الى الغَور من نَجْدِ[1]

سوَى صادحٍ في الأيكِ لم يَدْرِ ما الهَوَى
ولكن دعا منّي الشُّجُونَ على وعدِ

فهَلْ عِندَ لَيْلَى نعَّم الله لَيْلَها بأنَّ جفوني ما تَملُّ من السُّهْدِ

وليلةَ إذْ ولَّى الحجيجُ[2] على مِنًى[3]
وفت لي المُنى منها بما شئتُ من قَصْدِ

فقَضَّيتُ منها ـ فوقَ ما أَحسَبُ ـ المُنَى
وبُرْدُ عفافي صانه الله من بُرْدِ

وليسَ سوى لحظٍ خفيّ نُجيلُهُ وشَكْوى كما ارفضَّ الجمانُ من العِقْدِ

غفَرْتُ لِدَهري بعدها كلّ ما جنى
سِوَى ما جَنَى وفْدُ المَشِيبِ على فَوْدي

عرفت بهذا الشَّيب فضلَ شَبِيبتي وما زالَ فضْلُ الضِّدِّ يُعرَفُ بالضِّدِّ

(١) الغور : غور تهامة ، وهو ما بين ذات عرق الى البحر ، وكل ما انحدر سيله مغرباً عن تهامة فهو غور . ياقوت ٦/ ٣١١ .

(٢) الحجيج : جماعة الحاج .

(٣) موضع في جبل عرفة بجانب مكة ، يذكر كثيراً في باب « الحج » من حيث صلته بكثير من أعمال الحجاج .

ومن نامَ في ليلِ الشَّباب ضَلالَةً سيُوقظُه صُبحُ المَشيب الى الرُّشدِ

أَما والهوى مـا حِلتُ عن سَنَن الهوَى
ولا جُرْتُ في طُرْقِ الصَّبابة عن قَصْدِي

تجـاوزتُ حدَّ العـاشقين الألى قَضَوْا
وأصبحْتُ في دِينِ الهوَى أُمةً وحْدِي

نَسِيتُ وما أنسَى وفائي لخلَّتي وأقفر رَبع القلـب إلّا من الوَجْد

∴

إليكَ أبـا زَيْـد شَكاةً رفعتُهـا
وما أنتَ من عَمْرٍو لدَيّ ولا زَيْدِ[1]

بعَيْشِكَ خبّرني ومـا زلتَ مُفْضِـلا
أعِندَكَ مـن شوقٍ كمِثل الذي عِندِي

فـكم ثـارَبي شَوْقٌ إليك مُبرِّحٌ
فظلّت يَدُ الأشواق تقْدَح مـن زَنْدي

وصَفَّق حتى الرِّيحُ في لُمَمِ[2] الرُّبى وأشفَق حتى الطِّفلُ في كَبِدِ المَهْدِ

يُقابِلُني منكَ الصَّباحُ بِوَجْنَةٍ حكَى شفقاً فيه الحياءُ الذي تُبْدي

(١) الشكاة : الشكوى .

(٢) جمع لمة (بالكسر) ؛ وهي شعر الرأس اذا كان فوق الوفرة .

وتُوهِمُني الشَّمْسَ المنيرةَ غُرَّةٌ بوَجهك صان الله وجهَكَ عن رَدِّ

مُحيَّاكَ أَجْلَى في العُيون من الضُّحى
وذِكرُكَ أَحلَى في الشِّفاهِ من الشهْدِ

وما أنتَ إلاَّ الشَّمس في عُلو أفقها تُفيدُكَ من قُربٍ و تُلحَظُ من بُعدِ

وفي عَمَهٍ [١] من لا تَرَى الشَّمسَ عينُه
وما نَفعُ نُورِ الشَّمسِ في الأعين الرُّمدِ

مَن القَوْم صانوا المَجْدَ صَوْنَ عُيُونهم
كما قد أباحوا المَال يُنْهَب لِلرِّفدِ

إذا ازدَحمت يوماً على المالِ أُسرةٌ فما ازدَحموا إلاَّ على مَورِد المَجْدِ

ومَهْما أغارُوا مُنجِدينَ صَريخَهُم [٢]
يَشُبُّونَ نارَ الحرْبِ في الغَوْرِ والنَّجدِ

ولم يَقتَنُوا بَعْدَ البِناء ذَخيرَةً
سِوَى الصَّارِم المَصْقُول والصَّافِنِ النَّهْدِ [٣]

وما اقتَسمَ الأنفالَ إلاَّ مُمَدَّحٌ بَلاَها بأعرافِ المُطَهَّمَةِ الجُرْدِ [٤]

---

(١) العمه في البصيرة : كالعمى في البصر .
(٢) الصريخ كالصارخ : المستغيث .
(٣) الصافن (من الخيل) : القائم على ثلاث ، وعدوا ذلك دليلا على كرم الأصل . والنهد : الفرس الجميل الحسن .
(٤) الأعراف : جمع عرف ؛ وهو شعر عنق الفرس . والمطهمة : البارعة الجمال التامة . والجرد : القصيرة الشعر .

أَتَنسَى ولا تَنسَى ليالِيَنا التي خلَسْنا بِهِنَّ العَيْشَ في جَنَّةِ الخُلْدِ
ركِبنا الى اللَّذاتِ في طَلَقِ الصِّبا مطايا اللَّيالي وادِعِينَ الى حَدِّ
فإن لم نَرِدْ فيها الكُؤُسَ فإنَّنا ورَدْنا بها للأُنسِ مُستَعْذَبَ الوِرْدِ
أَتيتُكَ في غربٍ وأَنتَ رئيسُهُ وبابُكَ للأَعلامِ مُجتَمَعُ الوَفْدِ
فآنَسْتَ حتى ما شَكَوْتُ بِغُرْبَةٍ ووالَيْتَ حتى لم أَجِد مَضَضَ الفَقْدِ
وعُدتُ لقُطْرِي شاكراً ما بَلَوْتُه
مِنَ الخُلُقِ المَحْمُودِ والحَسَبِ العِدِّ (١)
الى أن أَجزْتَ البَحرَ يا بَحْرُ نَحْوَنا وزُرتَ مَزارَ الغَيْثِ في عَقِبِ الجَهْدِ
أَلَذَّ منَ النُّعمَى على حالِ فاقَةٍ وأَشهَى من الوَصْلِ الهَنيِّ على صَدِّ
وإن ساءني أن قَوَّضَتْ رِحلَكَ النَّوَى
وعُوِّضتَ عنَّا بالذَّميلِ وبالوَخْدِ (٢)
لقد سرَّني أن لُحتَ في أُفقِ العُلا على الطَّائرِ المَيْمُونِ والطَّالِعِ السَّعدِ
طَلَعتَ بأُفقِ الشَّرقِ نَجمَ هِدايةٍ فجئتَ معَ الأَنوارِ فيه على وعدِ

* *

(١) الحسب العد : القديم .
(٢) الذميل : السير اللين . والوخد الاسراع في المشي ، أو سعة الخطو .

يميناً بمن تسري المطيّ سواهماً
عليها سهام قد رمت هدف القصد (١)
إلى بيته كيما تزور معاهداً (٢) أبان بها جبريل عن كرم العهد
لأنت الذي مهما دجا ليل مشكل قدحت به للنور وارية الزند
وحيث استقلت بي ركاب لطية (٣)
فأنت نجيّ النفس في القرب والبعد

∴

وإني بباب الملك حيث عهدتني
مديد ظلال الجاه مستحصف العقد (٤)
أجهّز بالانشاء كلّ كتيبة
من الكتب ؛ والكتّاب في عرضها جندي
تلوذ من المولى الامام محمدٍ بظلٍّ على نهر المجرّة ممتدّ
إذا فاض من يمناه بحر سماحة وعمّ به الطوفان في النجد والوهد
ركبنا الى الاحسان في سفن الرجا بحور عطاء ليس تجزر عن مدّ

(١) جمع ساهمة ؛ وهي الناقة الضامرة .
(٢) يريد بيت الله ؛ وهو الكعبة الشريفة .
(٣) الطية (بالكسر) : الناحية .
(٤) استحصف : استحكم ؛ ويريد متمكن المنزلة .

فَمَن مُبلِغٌ الأمصار عني ألوكةً
مُغَلْغَلَةً في الصِّدق مُنجَزَةَ الوَعْد[١]
بآيةِ ما أعطى الخليفةَ رَبُّهُ مفاتيحَ فَتحٍ ساقها سائقُ السَّعدِ
ودُونك من رَوض المحامدِ نَفحَةً
تفوتُ اذا اصطفَّ النَّديُّ عن النَّدِّ[٢]
ثناءٌ يَقُولُ المِسْك إن ضاع عرفُهُ أيا لك من نَدٍّ أما لك من نِدِّ[٣]
وما الماءُ في جوفِ السَّحاب مُرَوَّقاً بأطهرَ ذاتاً منكَ في كَنفِ المَهْدِ[٤]
فكيفَ وقد حلَّتْك أسرابها الحلى وباهتْ بكَ الأعلامَ بالعَلَم الفَرد
وما الطَّلُّ في ثَغرٍ منَ الدَّهرِ باسِمٍ
بأصفَى وأذكَى مِن ثنائي ومن وُدِّي
ولا البَدْرُ مَعصُوباً بتاجِ تَمامِهِ بأبهرَ من وُدِّي وأسيَرَ مِنْ حَمْدي
بَقِيتَ ابنَ خلدُونٍ إمامَ هِدايةٍ ولا زِلتَ من دُنياكَ في جَنَّةِ الخُلدِ

ووصلها بقوله : سَيِّدي علَم الأعلام ، كبيرَ رؤساء الاسلام ، مُشرِّف حَمَلة السُّيوف والأقلام ، جمال الخَواصِّ والظُّهراء ، أثير

(١) الالوكة : الرسالة .
(٢) اصطفوا : قاموا صفوفا . والندي ، والنادي : مجلس القوم ؛ ويريد القوم أنفسهم .
(٣) الند (بالفتح) الطيب ؛ والند (بالكسر) : المثل .
(٤) الماء المروق : الصافي .

الدُّوَل، خالِصَة المُلُوك، مُجْتَبَى الخُلَفاء، نَيِّر أُفق العَلاء، أَوْحَد الفُضَلاء، قُدْوة العُلَماء، حجّة البُلَغاء.

أبقاكم الله بقاءً جميلًا يَعقِدُ لواء الفَخْر، ويُعْلي منارَ الفضْل، ويَرْفع عِمادَ المَجْد، ويُوَضِح مَعالم السُّؤدُد، ويُرسل أشعَّة السَّعادة، ويُفيض أنوارَ الهِداية، ويُطلق ألسنَة المحامد، ويَنشُرُ أُفُقَ المَعارِف، ويُعْذِب مَوارِدَ العِناية ويُمتِّعُ بعُمُر النّهاية ولا نِهاية.

بأيّ التَّحيات أفاتِحُك وقدرُكَ أعلى، ومَطْلِع فَضْلِكَ أَوْضحُ وأجلى؛ إن قُلتُ تحيّةُ كِسْرى في السَّناء وتُبَّع[1] فأثَرٌ لا يُقْتَفَر[2]، ولا يُتّبَع، تلك تحيّةٌ عجْماء لا تَبينُ ولا تُبين، وزَمْزَمَةٌ نافَرَها اللسانُ العربيُّ المبين، وهذه جَهالةٌ جهلاء، لا ينطبق على حروفها الاسْتِعْلاء، قد مَحا رُسومَها الجفاء، وعلى آثارِ دِمْنتها العَفاء؛

(١) ابن زمرك ينظر الى قول أبي العلاء المعري :

تحيــة كسرى في السناء وتبع ... لربعك لا ارضى تحية أربع

وكانت تحية كسرى السجود له ، اما تحية ملوك العرب من لخم وجذام ، فكانت : « أبيت اللعن » ، ويقول ابن قتيبة في « المعارف » : ان قحطان أول من من حياه ولده بتحية الملوك : « أبيت اللعن » . وكانت تحية ملوك غسان : « يا خير الفتيان » . لسان العرب « كفــر » ، تاريخ الطبري ٢/١٦١ .

(٢) يقتفر : يقتفى ، ويتتبع .

وإن كانت التَّحِيَّتانِ طالما أَوْجف بهما الرِّكاب وقَعْقَعَ البَريد، ولكن أين يَقَعانِ ممَّا أُريد.

تحيَّة الاسلام آصل في الفَخر نَسَبا، وأوصلُ بالشَّرع سَبَبا، فالأولى أن أُحيِّيك بما حيَّا الله في كتابه رُسُلَهُ وأنبياءه، وحيَّت به ملائكتُه في جواره أولياءَه فأقول:

سَلام عليكم يُرسل من رَحَماتِ الله غَماما، ويَفتقُ من الطُّرُوس عن أزهار المَحامدِ كِماما، ويَستَصْحِبُ من البَرَكات ما يكُون على الذي أحسَن من ذلك تَماما؛ وأجدِّد السؤال عن الحال الحالية بالعِلْم والدِّين، المستَمِدَّة من أنوارها سُرُجُ المُهْتَدِين. زادها الله صَلاحا، وعرَّفها نَجاحاً يَتْبع فَلاحا؛ وأُقرِّر ما عِندي من تَعظيمٍ أرتقي كُلَّ آونة شُرَفَه، واعتقادٍ جَميلٍ يَرفع عن وَجه البَدرِ كَلَفَه، وثناءٍ أَنْشُر بِيَد التُّرْكِ صُحُفَه؛ وعلى ذلك أيُّها السَّيد المالك، فقد تَشَعَّبت عليَّ في مُخاطَبَتك المَسالك؛ إن أخذتُ في تَقرير فَخْرك العَميم، وحَسَبك الصَّميم، فَوَالله ما أَدْري بأي ثَنِيَّةٍ للفَخْر يُرَفع العَلَم، وفي أيِّ بَحرٍ من ثَنائِك يَسْبَحُ القَلَم، الأمر جَلَل، «والشَّمسُ تَكْبُر عن حَلْي وعن حُلَل»، وإن أخذتُ في شَكاةِ

الفِراق، والاستعْداء على الأشواق، اتّسعَ المَجال، وحَصِرت[1] الرَّوِيّةُ والارتجال، فالأَوْلى أن أترك عذَبَةَ اللّسان تلعب بها رياحُ الأشواق، وأَسلة[2] اليَراع تخضِبُ مفارق الطُّرُوس بنَجيع الحِبْرِ المُراق؛ وغيرُك من تُركَضُ في مُخاطَبته جِيادُ اليَراع، في مَجال الرِّقاع، مُستَولِيةً على أمدِ الابداع والاختِراع؛ إنما هو بَثٌّ يُبْكَى، وفِراق يُشكَى، فيَعْلَم الله حِرصي على أن أُشافِه عن أنبائك ثُغورَ البُروق البَواسِم، وأن أحملك الرَّسائل حَتَّى مع سُفراء النَّواسِم، وأن أجتلِيَ غُرَرَ ذلك الجبين في مُحَيَّا الشّارِق[3]، ولَمح البارِق.

ولَقَد وجَّهتُ لك جُملةً من الكُتُب والقَصائد، ولا كالقَصيدة الفَريدة في تَأبين الجواهر التي استأثر بهنّ البَحْر؛ قَدَّس الله أرواحَهم، وأعظَم أجرك فيهمْ؛ فإنها أنافت على مائة وخَمسين بَيْتاً، ولا أدري هل بَلغَكم ذلك أمْ غالَهُ الضَّياع، وغَدَر وُصولَه بُعد المسافَة؛ والذي يُطْرق لي سُوءَ الظَّنِّ بذلك، ما صدر في مُقابِله منكُم. فإنّي على علمٍ من كَرَم قَصْدِكم، وحُسْنِ عَهْدِكم.

---

(١) حصر : عيي .
(٢) أسلة اللسان : طرف شباته الى مستدقه . وأسالة النصل : مستدقه .
(٣) الشارق : الشمس ؛ وبه فسر الازهري قولهم : لا آتيك ماذر شارق » .

ومن حينَ استقَلَّ نيِّرُكم بذلك الأُفق الشَّرقيّ، لم يَصِلني منكم كِتاب، معَ عِلمي بضَياع اثنين منها بهذا الأُفق الغَربي. انتهى.

وفي الكِتاب إشارةٌ الى أنّه بَعث قَصيدةً في مَدح المَلِك الظّاهر صاحِب مصر، ويَطلُب منّي رفعَها الى السُّلطان، وعرضَها عَليه بحسَب الامكان؛ وهي على رَويّ الهَمْزة، ومطلعُها:

أَمدامعٌ مُنهلَّةٌ أَمْ لُؤْلُؤُ ... لمَّا استهلَّ العارضُ المُتلألِئ

وبَعثَها في طيِّ الكتاب، واعتَذَر بأنه استَناب في نَسْخِها، فكُتِبَتْ همزَةُ رَوِيّها ألفا، قال وحقُّها أن تُكتب بالواو، لأنها تُبدَل بالواو، وتُسهَّل بينَ الهَمْزَة والواو، وحرفُ الاطلاق أيضاً يسُوقُها واوا. هذا مُقتَضَى الصِّناعة، وإن قال بعضُ الشُّيوخ تُكتَبُ ألفاً على كل حال، على لُغَة من لا يُسهِّل، لكنّه ليس بشيء.

وأذِن لي في نسخ القَصِيدة المذكورة بالخطِّ المَشرقيّ لتَسهُل قِراءَتُها علَيْهم ففعَلت ذلك، ورفَعتُ النسخةَ والأصلَ للسلطان، وقرأها كاتبُ سرِّه عليه، ولم يَرجع إليَّ منهُما شيءٌ، ولَم أستَجِز أن أنسَخَها قبلَ رفعِها الي السُّلطان، فضاعت من يَدي.

وكان في الكتاب فصلٌ عرَّفني فيه بشأن الوزير مَسعود بن

رحّو المستبدّ بأمر المَغْرب لذلك العهد، وما جاء به من الانتقاض عليهم، والكُفران لصَنيعهم، يقول فيه :

كان مَسعود بن رَحُّو الذي أقام بالأندلس عشرين عاماً يَتَبَنَّك النَّعيم [(١)]، ويقودُ الدُّنيا، ويتخَيَّر العَيْشَ والجاه، قد أجيز صُحْبَةَ ولَد أبي عِنان، كما تعرَّفتم من نُسخَة كتابٍ أنشأتُه بجبَل الفَتح لأهل الحَضْرة، فاستَولَى على المَمْلَكة، وحصَل على الدنيا، وانفرد برياسة دار المغرب، لضَعف السلطان رَحمه الله؛ ولم يكن إلا أن كُفِرت الحُقوق، وحُنْظِلَت [(٢)] نَخلته السَّحُوق [(٣)]؛ وشَفَّ [(٤)] على سَوادِ جِلْدَته العُقوق [(٥)]؛ وداخلَ مَن بِسَبْتَة، فانتقَضت طاعةُ أهلها، وظنُّوا أن القَصَبَة لا تثبُت لهم؛ وكان قائدُها الشَّيخُ البُهْمة، فلُّ الحِصار وحَلْي القِتال، ومحَشُّ الحَرْب، أبو زكرياء بْن شعيب، فثبت للصَّدْمة، ونوّرَ للأندلُس [(٦)] فبادَره المدَدُ من الجَبَل، ومن مالَقَة. وتوالت الأمدَاد، وخافَ أهلُ البلَد، وراجع شُرفاؤه، ودخلوا القَصَبَة. واستغاثَ أهلُ البلَد بمَن جاورَهم وجاءهم المَدد

---

(١) تبنك في النعيم : اقام به ، وتمكن .

(٢) حظلت النخلة : فسدت اصول سعفها . وفي الاصول « حنظلت » ، وهي لغة انكرتها جمهرتهم . تاج العروس « حنظل » ٣٩٢/٧ ، ٣٩٣ .

(٣) نخلة سحوق : طويلة .

(٤) شف : وضح وظهر .

(٥) انظر خبر تمرده على ابن الاحمر في الاستقصا ١٣٨/٢ وما بعدها .

(٦) نور : أضاء ؛ ويريد اوقد نار استغاثة ، وطلب النجدة .

أيضا . ثم دَخل الصالحون في رَغبة هذا المقام ، ورفع القتال . وفي أثناء ذلك غدروا ثانية ، فاستدعى الحالُ إجازة السلطان المخلوع أبي العبّاس لتُبادرَ القصبةُ به ، ويتوجّه منها الى المغرب ، لرغبة (بني) مرينَ وغيرهم فيه ، وهو وَلد السلطان المرحوم أبي سالم الذي قلّدكم رياسة داره ، وأوجب لكم المزيّة على أوليائه وأنصاره انتهى .

وبعدَه فصلٌ آخرُ يطلبُ فيه كُتباً من مصر يقول فيه :

والمرغوب من سيدي أن يبعثَ لي ما أمكن من كلام فُضلاء الوقت وأشياخهم على « الفاتحة » ، إذ لا يمكن بَعثُ تفسيرٍ كاملٍ ؛ لأنّي أثبت في تفسيرها ما أرجو النّفعَ به عندَ الله . وقد أعلمتُكم أن عندي التفسيرَ أوصله الى المغرب عثمانُ التّجاني من تأليف الطّيبي[1] ،

---

(١) الحسين بن محمد (او عبدالله) بن عبدالله شرف الدين الطيبي (توفي سنة ٧٤٣) له حاشية قيمة على « الكشاف » في اربع مجلدات ضخمة ، وجاء في الدرر الكامنة : « ثم شرع في جمع كتاب في التفسير » فلا ندري أي الكتابين يطلب ابن زمرك .

والسِّفر الأولَ من تفسير أبي حَيَّان [١] ، ومُلَخَّص إعرابه [٢] ، وكتابَ المُغْني لابن هشام [٣] وسمعتُ عن بَدْأَةِ تفسير للامام بهاءِ الدّين بن عَقيل [٤] ، ووَصلَت إليّ بَدْأَةٌ من كلام أكمل الدّين الأثيري [٥] رضي الله عن جميعهم. ولكن لم يَصل إلّا للبَسملة ، وذكر أبو حيَّان في صدر تفسيره أن شيخه سليمان النقيب [٦] ، أو أبو سليمان . لا أدري الآن ، صَنَّف كتاباً في البَيان في سِفرَين ، جَعلَه

(١) اثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف النحوي الغرناطي (٦٥٤-٧٤٥) . دخل مصر ودرس بها النحو والتفسير ، فكان في طليعة من وطد قواعد المدرسة النحوية الأندلسية بمصر . ومن قرأ كتبه في النحو عامة ، ومقدمة تفسيره « البحر المحيط خاصة » ، عرف اي مكانة عليه كان يحتلها بين نحاة العربية ، تحدث عن نفسه كثيرا في اول « البحر » الذي طبع بمصر في ٨ مجلدات سنة ١٣٢٨ هـ على نفقه سلطان المغرب الاقصى سابقاً المرحوم المولى عبد الحفيظ .

(٢) لخص اعراب « البحر المحيط » شخصان كلاهما كان تلميذاً لأبي حيان ؛ أحدهما برهان الدين السفاقصي وسمي كتابه « المجيد ، في اعراب القرآن المجيد » . والثاني منهما شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي الشافعي الشهير بالسمين وسمي كتابه « الدر المصون في علم الكتاب المكنون »

(٣) جمال الدين عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الانصاري (٧٠٨-٧٦١) النحوي المصري الطائر الصيت . وفيه وردت كلمة ابن خلدون : « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه » . وقد طبع كتابه القيم « المغني » مراراً . وانظر كلمة لابن خلدون عن كتاب « المغني » في « مقدمته » في آخر فصل النحو منها .

(٤) عبدالله بن عبد الرحمن بن عبدالله ... بن عقيل القرشي الهاشمي (٦٩٨ - ٧٦٩) بهاء الدين النحوي المعروف . من تآليفه تفسير للقرآن ، وصل فيه الى آخر سورة « آل عمران » .

(٥) لعله أكمل الدين محمد بن محمود (أو محمد) البابرتي الحنفي المتوفى سنة ٧٨٦ ، له حاشية على « الكشاف »

(٦) هو جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين المقدسي الحنفي عرف بابن النقيب (٦١١ - ٦٩٨) . أخذ عنه أبو حيان ، واعتمد عليه كثيراً في تفسيره .

مُقَدِّمَةً في كتاب تفسيره الكبير، فإن أمكن سيّدي توجيهُه. انتهى.

وفي الكتاب فصولٌ أخرى في أغراضٍ متعدِّدة لا حاجة الى ذكرها هُنا. ثم خَتم الكتاب بالسَّلام، وكتب اسمَه: محمد بن يوسف ابن زَمْرَك الصَّريحي، وتاريخه العشرون من مُحرَّمٍ تسعٍ وثمانين.

وكتب إليَّ قاضي الجماعة بغَرناطة؛ أبو الحسَن عليٌّ بن الحسن البِنّي [1]:

الحمد لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيدنا ومولانا محمد رسُول الله.

يا سيِّدي وواحِدي وُدّاً وحُبّاً، ونجيَّ الرُّوح بُعداً وقربا. أبقاكم الله، وثوبُ سيادتكم سابِغ، وقمَر سَعادتكم ـ كلَّما أفلَت الأقمارُ ـ بازغ، أُسلِّم بأتَمّ السَّلام عليكم، وأقرِّر بعضَ ما لديَّ من الأشواق اليكم، مِن حضرةِ غَرناطة ـ مَهَّدها الله ـ، عن ذكرٍ لكم يَتضوَّع طيبُه، وشُكرٍ لا يَذْوِي ـ وان طال الزَّمانُ ـ رَطيبُه، وقد كان بلغَ ما جَرَى من تأخيركم عن الولاية التي تقلَّدْتُم أمرَها، وتحمَّلتُم مُرَّها، فتمثّلتُ بما قاله شَيْخُنا أبو الحسَن ابن

(١) ضبطه ابن خلدون بالحركات بضم الباء، وبكسرها. وهو نسبة الى (بنة) وقد ذكرها ياقوت ١/٢٩٤، وصاحب تاج العروس، (بن) ولم يذكرا فيها ضم الباء.

الجيّاب[١] ، عند انفصال صاحِبه الشّريف أبي القاسم[٢] عن خطّة القَضاء :

لا مرحباً بالنّاشزِ الفارِكْ　　اذ جهِلَت رفعةَ مقدارِكْ
لو أنّها قد أوتِيتْ رُشدَها　　ما برحت تعشُو الي نارِكْ[٣]

ثم تعرّفتُ كيفية انفِصالكم ، وأنه كان عن رغبةٍ من السلطان المؤيّد هنالكُم ، فردّدْتُ ــ وقد توّهمت مُشاهدتكم ــ هذه الأبيات[٤] :

لك الله يا بدر السّماحة والبِشر
لقد حُزتَ في الأحكام منزلَةَ الفخرِ

ولكنّك استعفَيتَ عنها تورّعاً　　وتلك سبِيلُ الصّالحين كما تدرِي

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان بن عي بن سليمان الغرناطي الشهير بابن الجياب (٦٧٣ – ٧٤٩) .
(٢) هو ابو القاسم محمد بن احمد بن محمد بن عبدالله الحسني السبتي المعروف بالشريف الغرناطي (٦٩٨ – ٧٦٠) الإحاطة ٢/١٢٩ .
(٣) انظر « رفع الحجب المستورة » ١/١٨ للشريف الغرناطي هذا حيث اورد البيتين ضمن ابيات اخر ، والإحاطة ٢/١٢٠ .
(٤) الأبيات من قصيدة لأبي الحسن النباهي ، اوردها في كتابه « المرقبة العليا » ص ١٥٨ وما بعدها . وفي نفح الطيب ٣/٢٠٣ بولاق ، يختلف المروي منها عما في «المرقبة العليا» .

جريتَ على نَهج السَّلامةِ في الذي تخيَّرتَه أَبْشِر بأَمنِك في الحشْرِ

∴

وَحقِّق بأن العِلم ولاَّكَ خطَّةً من العِزّ لا تنفكُّ عنْها مَدَى العُمْرِ
تَزيدُ علـى مَرِّ الجديدَيْنِ جِـدَّةً
وتَسْري النُّجُوم الزَّاهِراتُ ولا تَسْرِي
وَمن لاحظَ الأحوالَ وازَنَ بينها ولم يَرَ للدُّنيا الدَّنيَّة من خَطْرِ
وأمسَى لأنواعِ الوِلايات نابذاً فغيرُ نَكِير أن تُواجَه بالشُّكْرِ
فَيهْنيكَ يَهْنيكَ الذي أنتَ أهلُه من الزُّهدِ فيهاوالتَّوقِّي من الوِزْرِ
ولا تكترِثْ من حاسِديك فإنَّهُمْ
حَصًى والحَصَى لا يَرْتقي مُرْتقى البَدْرِ
وَمن عامَل الأقوامَ بالله مُخْلِصاً له مِنهُم نال الجزيلَ من الأجر
بَقيتَ لِرَبْع الفَضْل تَحمِي ذِمارَهُ وخارَلكالرَّحمَنُفي كلِّ ماتُجْرِي

إِيهٍ سَيدي رَضي الله عنكم وأرضاكم ، وأطنَبْتُم في كِتابِكم في الثناء على السُّلطان الذي أنعمَ بالابقاء ، والمساعدة على الانفصال عن خُطَّة القَضاء ، واستوْهَبتُم الدُّعاءَ له مِمَّن هُنا من الأولياء ، ولله دَرُّكم في التَّنْبيه على الارشاد الي ذلكم ، فالدُّعاء له من الوَاجب ، إذ فيه استقامة الأمور ، وصَلاح الخاصَّة والجُمهُور ، وعندَ ذلك

ارتفعت أصواتُ العُلَماء والصُّلحاء بهذا القُطْر له ولكم بجميل الدُّعاء. أجابَ الله فيكم أحسَنَه وأجمَله، وبَلَّغ كلَّ واحدٍ منكم ما قصَدَه وأمّله. وأنتم أيضاً ممن أنتم من أهل العلم والجلالة والفضل والأصالة، وقد بلغتم بهذه البلاد الغايةَ من التَّنويه، والحظَّ الشَّريف النَّبيه؛ لكن أراد الله سبحانه أن يكون لمحاسنكم في تلك البلاد المعظَّمَة ظهور، وتحدُثُ بعد الأمور أمور؛ وبكل اعتبارٍ، فالزَّمان بكم ـ حيثُ كنتُم ـ مباه، والمحامدُ مجموعةٌ لكم جمعَ تَناه. ولما وَقف على مكتوبكم إليَّ مولانا السلطان أبو عبدِ الله، أطال الثناءَ على مقاصدِكم، وتحقَّقَ صحيحَ ودادكم، وجميل اعتقادِكم، وعمَّرَ مجلِسَه يومئذ بالثَّناء عليكم، والشكرِ لما لديكم.

ثم ختم الكتابَ بالسَّلام من كاتِبه عليِّ بنِ عبد الله بن الحسَن مؤرخاً بصَفَرِ تسعين.

وفي طيِّه مُدْرَجة بخطه، وقد قصَّر فيها عن الاجادة نَصُّها:

سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم، وأظفَر يمناكم بذَوائب مُناكم.

أعتذر لكم عن الكِتاب المدْرَج هذا طيَّه بِغَيْر خطي، فإني في الوَقت بحالِ مَرَض من عينيَّ، ولكم العافية الواقية، فيَسَعُني

سَمْحُكم ؛ وربما أن لديكم تشوقاً لما نَزَل في هذه المدّة بالمغْرب من الهرج حاطه الله ، وأمّنَ جميعَ بلاد المسلمين .

والموجب أن الحصَّة الموجهة لتلك البِلادِ في خِدمةِ أميرهم الوَاثق ، ظهر له ولوزيره ومن ساعده على رأيه إمساكُها رهينة ، وجعْلُهم في القيود الى أن يقعَ الخروجُ لهم عن مدينة سَبتة . وكان القائد على هذه الحصَّة العِلج المسمَّى مهنَّد ، وصاحبُه الفتى المدعو نَصْر الله . وكثُر التَّردُّد في القضية ، الي أن أبرز القَدَرُ توجيهَ السلطان أبي العبَّاسِ ــ تولاّه الله ــ صحبةَ فَرَج بن رِضْوان بحصَّة ثانية ، وكان ما كان ، حسبما تلقيتم من الركبان ، هذا ما وسِع الوَقْت من الكلام . ثم دعا ، وخَتَم .

وإنما كتبتُ هذه الأخبار وإن كانت خارجة عن غَرض هذا التَّعريف بالمؤلِّف ، لأن فيها تَحقيقاً لهذه الواقِعات ، وهي مذكورةٌ في أماكنها من الكِتاب ، فربَّما يحتاج الناظر الى تحقيقها من هذا الموضع .

وبعدَ قضاءِ الفريضة ، رجعتُ الى القاهرة محفُوفاً بستر الله ولُطفه ولقيتُ السلطانَ ، فتلقَّاني أيّده الله ــ بمعهودِ مَبرّته وعنايته . وكانت فتنَةُ النَّاصري بعدها سنة إحدى وتسعين . ولحقَت

السلطانَ النكبةُ التي محصَهُ الله فيها وأقالَه ، وجعلَ الى الخيْر فيها عاقبتَه ومآلَه ؛ ثم أعاده الى كرسيّه للنظر في مصالح عباده ؛ فطوّقه القِلادة التي ألبَسه كما كانت ؛ فأعاد لي ما كان أجراهُ من نِعمته ، ولزمتُ كِسْر البيتِ ممتَّعاً بالعافية ، لابساً بُرْد العُزْلة ، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسِه ، لهذا العهد فاتح سبع وتسعين .

ولاية الدروس والخوانق

أهل هذه الدَّولة التركية بمصر والشام مَعنيُّون – على القِدَم مُنذُ عَهدِ مَواليهم مُلوكِ بَني أيُّوب – بإنشاءِ المدارس لتدريس العلم، والخوانق لاقامة رُسوم الفُقراء في التَّخلُّق بآداب الصُّوفيَّة السُّنِّيـة في مُطارحة الأذكار، ونوافِل الصَّلوات. أخذُوا ذلك عمَّن قَبلَهم من الدُّول الخِلافية؛ فيَختَطُّون مَبانيها ويَقفُون الأراضي المُغلَّة للانفاق مِنها على طلبة العِلم، ومُتَدَرِّبي الفقراء. وإن استفضَل الرَّيعُ شيئاً عن ذلك، جعلوه في أعقابهم خوفاً على الذُّرِّيَّة الضِّعاف من العَيْلة[1]. واقتَدى بِسُنَّتِهم في ذلك مَن تحتَ أيديهم من أهل الرِّياسة والثَّروة، فكثُرت لذلك المدارسُ والخوانقُ بمدينة القاهرة، وأصبحت مَعاشاً للفُقراء من الفُقهاء والصوفية، وكان ذلك مِن محاسن هذه الدَّولة التُّركية، وآثارها الجميلة الخالِدة.

---

(١) العيلة (بفتح العين) : الفقر والفاقة .

وكنتُ لأوَّل قُدُومي على القاهرة ، وحُصولي في كفالة السلطان ، شَغَرَتْ مَدرَسةٌ بمِصْر من إنشاء صلاح الدين بن أيّوب ، وَقفها على المالكيَّة يتدارَسون بها الفقه ، ووقف عليها أراضي من الفَيُّوم تُغِلُّ القمح ، فسُمِّيت لذلك القَمْحِيَّة ؛ كما وقف أخرى على الشَّافعيَّة هنالك ؛ وتُوفي مُدرِّسُها حينئذ ، فولّاني السلطانُ تَدْرِيسَها ، وأعقبه بولاية قضاء المالكية سنة سِتٍّ وثمانين ، كما ذكرت ذلك من قَبْل ؛ وحضرني يومَ جُلوسي للتَّدريس فيها جماعةٌ من أكابر الأمراء تنويهاً بذكري ، وعِنايةً من السلطان ومنهم بجانبي ؛ وخطبتُ يومَ جلوسي في ذلك الحفل بخُطبة ألممتُ فيها بذكر القوم بما يُناسِبهم ، ويُوفي حقَّهم ، ووَصَفْت المقَام ، وكان نَصُّها :

الحمد لله الذي بدأ بالنِّعَم قبل سُؤالها ، ووفَّق مَن هَداه للشُّكر على مَنالها ، وجعَل جزاءَ المُحْسِنين في مَحبَّته ، ففازوا بعَظيم نَوالها . وعلَّمَ الانسانَ الأسماءَ والبَيان ، وما لَمْ يَعلَمْ من أمثالها ، ومَيَّزه بالعقْل الذي فَضَّله على أصناف الموجودات وأجْيالها ، وهَداه لقَبول أمانةِ التَّكاليف ، وحَمْل أثقالها وخَلَق الجنَّ والانسَ للعِبادة ، ففازَ مِنهُم بالسَّعادة مَنْ جدَّ في امتثالها ؛ ويَسَّر كلاًّ لِما خُلِق له[1] ، من هِداية نَفْسه أو إضلالها ؛

(١) يشير الى الحديث : « كل ميسر لما خلق له » ، والذي رواه الإمام احمد في مسنده .

وَفرغَ ربُّك من خلقها وخُلقها وأرزاقها وآجالها . والصَّلاةُ على سَيدنا ومولانا محمد نُكتةِ الأكوان وجمالها ، والحُجَّة البالغة لله على كمالها ، الذي رقّاه في أطوار الاصطفاء ، وآدمُ بينَ الطِّين والماء ؛ فجاء خاتمَ أنبيائها وأرسالها [١] ؛ ونسخ الملل بشريعته البيضاء فتميَّز حرامُها من حلالها ؛ ورَضِيَ لنا الاسلامَ دِينا ؛ فأتمَّ علينا النِّعمةَ بإكمالها [٢] .

والرِّضى عن آله وأصحابه غُيوثِ رحمته المنسجمة وطِلالها [٣] ، ولُيوثِ ملاحِمه [٤] المشتهرة وأبطالها ؛ وخيرِ أمةٍ أُخرجت للنَّاس ، في توسُّطِها واعتدالها ، وظُهور الهداية والاستقامة في أحوالها ، صلَّى الله عليه وعليهم صلاةً تتَّصل الخيراتُ باتِّصالها ، وتنال البركاتُ من خِلالها .

أمَّا بعدُ فإنَّ الله سبحانه لما أقرَّ هذه الملَّةَ الاسلاميةَ في نِصابها ، وشفَاها مِن أدْوائها وأوصابها [٥] ، وأورثَ الأرضَ عبادَه

(١) ورد في كلام كثير من علماء المغرب والأندلس ، جمع رسول على ارسال . ولم يرد في معاجم اللغة هذا الجمع .

(٢) يشير الى الآية ٣ من سورة المائدة : اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً .

(٣) الطلال جمع طَلل ؛ وهو اخف المطر .

(٤) الملاحم جمع ملحمة ؛ وهي الوقعة العظيمة القتل ، وموضع القتال ، والحرب .

(٥) الوصب : الوجع ، والمرض ؛ والجمع اوصاب .

الصَّالحين من أيدي غُصَّابِهَا ، بَعْدَ أن بَاهَلَت فارسُ بتاجها وعِصابِها[1] ، وخلت الرُّومُ إلى تماثيلها وأنصابها ؛ وجعل لها من العُلماء حفظةً وقُوَّاما ، ونُجوماً يهتدي بها التَّابعُ وأعلاما ، يقرِّبونها للدِّراية تِبْيَاناً وإفهاما ، ويُوسِعُونها بالتَّدْوين تَرْتيباً وإحكاما ، وتهذيباً لأصولها وفُروعها ونظاما . ثُمَّ اختار لها الملُوكَ يرْفعون عمَدَها ، ويُقيمُون صَغَاها[2] بإقامة السِّياسة وأوَدَها ، ويدْفعُون بعزائمهم الماضية في صدْر من أرادَها بكَيَادٍ أو قصَدَها ؛ فكان لها بالعُلماء الظُّهورُ والانتشار ، والذِكر السَّيَّار ، والبركاتُ المخلَّدَة والآثار ؛ ولها بالملُوك العزُّ والفخار ، والصَّوْلَة التي يَلينُ لها الجبَّار ، ويَذِلُّ لعِزَّة المؤمنينَ بها الكُفَّار ، وتُجلِّل وُجوهَ الشِّرك معها الصَّغار ؛ ولم تزل الأجيالُ تَتداول على ذلك والأعْصار ، والدُّولُ تحتفل والأمْصار ، والليل يختلف والنَّهار ، حتى أظلَّت الاسلامَ دُوَلُ هذه العصابة المنْصُورة من التُّرْك ، الماحين بأنوار أسِنَّتِهم ظُلَم الضَّلالَة والشَّك ، القاطعين بنِصالهم المرْهفة علائقَ المَيْن والافْك ، المُصيبين بسهامهم النَّافذة ثُغَر الجهالَة والشِّرْك ، المُظْهِرين سرَّ قوله : « لا تَزَالُ طائفةٌ من

(١) العصاب : ما يعصب بة الراس من عمامة او نحوها .

(٢) الصغا : الميل

أمّتي »[1] فيما يتناولونه من الأخذ والتّرك ؛ ففسحوا خطّة الاسلام، وقاموا بالدّعوة الخلافيّة أحسن القيام ، وبثّوها في أقصى التّخوم من الحجاز والشّام؛ واعتمدوا في خدمة الحرمين الشّريفين ما فضلوا به ملوك الأنام . واقتعدوا كرسيّ مصر الذي ألقت له الأقاليم يد الاستسلام ، على قدم الأيّام ؛ فزخر بها منذ دولتهم بحر العمران ، وتجاوبت فيها المدارس بترجيع المثاني والقرآن وعمّرت المساجد بالصّلوات والأذان ، تكاثر عدد الحصى والشّهبان. وقامت المآذن على قدم الاستغفار والسّبحان[2] معلنة بشعار الايمان ، وازدان جوّها بالقصر فالقصر والايوان فالايوان . ونظّم دستها بالعزيز ، والظّاهر ، والأمير ، والسّلطان . فما شئت من ملك يخفق العزّ في اعلامه ، وتتوقّد في ليل المواكب نيران الكواكب من أسنّته وسهامه ؛ ومن أسرة للعلماء تتناول العلم بوعد الصّادق ولو تعلّق بأعنان السّماء[3] ، وتنير سراجه في جوانب الشّبه المدلهمّة الظّلماء؛ ومن قضاة يباهون بالعلم والسّؤدد

---

(١) حديث رواه البخاري في آخر باب « علامة النبوة في الاسلام » ، ومسلم في بابي « الامارة، » و « الايمان » . شرح العيني على « صحيح » البخاري ٧/ ٥٧٩ ، وشرح النووي على « صحيح » مسلم ١ / ٥٥ ، ٢/ ٢٠٦ .

(٢) السبحان : التسبيح .

(٣) اعنان السماء : نواحيها ، وما اعترض من اقطارها .

عندَ الانتماء، ويشتَملون الفضائل والمَناقبَ اشتمالَ الصمّاء[١]، ويَفصِلون الخصُوماتِ برأي يفرق بين اللّبن والماء.

ولا كدَولة السُّلطان الظّاهِر، والعزيز القاهِر، يَعسوب[٢] العَصائب والجماهِر، ومُطلِع أنواعِ العزّ الباهر، ومُصرِّف الكتائب تُزري بالبَحر الزّاخر، وتَقومُ بالحجة للقِسيّ على الأهِلّة في المفاخر؛ سيفِ الله المنتَضَى على العَدوّ الكافر، ورحمَته المتَكفّلَة للعباد باللطفِ السّاتِر؛ ربِّ التِّيجان والأسِرّة والمَنابر، والأواوين العالِية والقُصُور الأزاهِر، والمُلكِ المؤيَّد بالبِيض البَواتِر، والرِّماح الشَّواجِر[٣]، والأقلام المرتَضِعَة أخلافَ[٤] العزِّ في مُهودِ المحابِر، والفَيْض الرّبّاني الذي فاقَ قُدرةَ القادر، وسبَقَت به العِنايةُ للأواخر. سيِّدُ الملوك والسّلاطين، كافِلُ أمير المؤمنين، أبو سَعيد أمدّه الله بالنّصر المُصاحِب. والسَّعْد المؤازِر، وعرّفه آثارَ عِنايَتِه في المَوارد والمَصادر، وأراهُ حُسْنَ العاقِبة في الأولى وسُرُورَ المُنقَلَب في الآخِر؛ فإنه لما تناول الأمرَ بِعزائمه وعَزْمه، وآوَى

(١) اشتمال الصماء ان تجلل جسدك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسيتهم؛ وهي ان يرد الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى، وعاتقه الأيسر، ثم يرده ثانية من خلفه على يده اليمنى، وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعاً.

(٢) اليعسوب امير النحل.

(٣) الشواجر من الرماح: المتداخلة حين القتال.

(٤) أخلاف الضرع: أطرافه. والكلام على التشبيه.

المُلكَ الى كنفه العزيز وحزمه ، أصاب شاكلة الرّأي عندما سدّد من سهمه ، وأوقع الرّعايا في ظلٍّ من أمنه ، وعدلٍ من حكمه ، وقسم البأسَ والجودَ بَيْنَ حربه وسلمه ؛ ثم أقام دولته بالأمراء الذين اختارهم باختيار الله لأركانها ، وشدّ بهم أزرَهُ في رفع القواعد من بُنْيانها ؛ من بين مُصرِّفٍ لعنانها ، متقدِّم القدم على أعيانها ، في بِساط إيوانها ؛ وربِّ مشورةٍ تُضيءُ جوانبُ الملك بلمعانها ، ولا يذهبُ الصَّوابُ عن مكانها ؛ ومنفِّذ أحكامٍ يُشرق الحقُّ في بيانها ، ويَضُوع العدل من أردانها[1] ونجيِّ خلوةٍ[2] في المهم الأعظم من شانها ؛ وصاحب قلم يُفضي بالأسرار الى الأسل الجرّار ، فيَشفي الغليلَ بإعلانها . حفظ الله جميعهم وشمل بالسّعادة والخيرات المبدأة المُعادة تابعهم ومتبوعهم .

ولمَّا سبحتُ في اللُّجِّ الأزرق ، وخطوتُ من أُفق المغرب الى أفق المشرق ، حيث نهرُ النّهار ينصبُّ من صفحه المُشرق ، وشجرةُ الملك التي اعتزَّ بها الاسلامُ تهتزُّ في دوحه المُعرِق ، وأزهارُ الفنون تسقط علينا من غُصنه المُورِق ، وينابيعُ العُلوم والفضائل تُمِدّ وشَلَنا[3] من فُراته المُغدِق ؛ أولوني عنايةً وتشريفا ،

(١) الأردان : الأكمام . وفي الكلام تجوز .
(٢) النجي : الشخص الذي تساره ، وفلان نجي فلان ، أي يناجيه دون سواه .
(٣) الوشل : الماء القليل .

وَغَمَروني إحساناً وَمعروفا ، وأوسَعُوا بُهْمَتي[١] إيضاحا ، ونكرَتي تعريفا ؛ ثمَّ أهَّلُوني للقيام بوظيفة السَّادة المالكية بهذا الوقف الشَّريف ، من حسَنات السلطان صَلاح الدّين أيّوب مَلِك الجِلاد والجِهاد ، وماحي آثار التَّثليث والرَّفض الخبيث من البِلاد ، ومُطهِّر القُدس الشَّريف من رِجْس الكُفر بعدَ أن كانت النَّواقيسُ والصُّلبانُ فيه بمكان العُقُود من الأجْيَاد . وصاحِب الأعمال المتقبَّلة يَسْعَى نُورُها بين يديه في يوم التَّنَاد[٢] ؛ فأقامَني السلطان ـ أيّده الله ـ لتدريس العلم بهذا المكان ، لا تقدُّماً على الأعيان ، ولا رغبةً عن الفُضلاء من أهل الشَّان ؛ وإني موقنٌ بالقُصور ، بين أهل العُصُور ، مُعترف بالعجز عن المَضاء في هذا القضاء ؛ وأنا أرغَب من أهل اليد البيضاء ، والمعارف المتَّسِعة الفضاء ، أن يَلْمَحوا بعين الارتِضاء ، ويَتَغَمَّدوا بالصَّفح والاغضاء ، والبضاعةُ بينهم مُزجاة[٣] ، والاعترافُ من اللَّوم ـ إن شاء الله ـ مَنْجاة ؛ والحُسنى من الاخوان مُرتَجاة . والله تعالى يَرفع لمولانا السلطان في مَدارج القَبول أعمالَه ، ويبلّغه في الدَّارَين آمالَه ، ويجعلُ للحُسنَى والمَقَرّ الأسنى ، مُنقلَبه ومآله ؛ ويُديمُ على السَّادة الأمراء نعمتَه ، ويحفَظُ على المسلمين بانتظام

(١) البهمة : السواد ، ويريد بها ما يقابل الوضوح .
(٢) يوم التناد : يوم ينادي « أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » . لسان العرب .
(٣) بضاعة مزجاة : قليلة .

الشَّمل دَولتهم ودولته ، ويُمدُّ قُضَاةَ المسلمين وحُكّامَهم بالعَون والتَّسديد ، ويُمتِّعُنا بانفساح آجالهم الى الأمد البَعيد ، ويشمَلُ الحاضرين برضوانه في هذا اليَوم السّعيد ، بمَنِّه وكرمه .

وانفضّ ذلك المجلس ، وقد شيَّعتني العُيون بالتَّجلَّة والوَقار ، وتناجت النُّفوس بالاهلية للمَناصب ؛ واقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه الى أن سَخِط السلطانُ قاضي المالكية يومئذ في نَزْعة من النَّزَعات الملوكية ، فعَزله ، واستَدعاني للوِلاية في مَجلسه ، وبين أمرائه ؛ فَتفاديتُ من ذلك ، وأَبى إلّا إمضاءَه . وخَلَع عليّ ، وبَعث معي من أجلَسَني بمَقْعَد الحكم في المدرسة الصَّالحية[1] في رَجَبِ ستٍّ وثمانين ؛ فقُمت في ذلك المقامَ المحمُود ، ووَفّيتُ عهدَ الله في إقامة رُسومِ الحقّ ، وتحرِّي المَعْدَلَة ، حتَّى سَخِطَني من لم تُرْضِه أحكامُ الله ، ووَقع من شَغَبِ أهل الباطل والمِراء ما تَقدّم ذكرُه .

وكنتُ عند وصولي الى مصر بَعثتُ عن وَلَدي من تُونس ؛ فمَنَعَهُم سلطان تُونِس من الّلحاقِ بي اغتِباطاً بمكاني ؛ فرغِبتُ من السُّلطان أن يشفعَ عِندَه في شأنهم ، فأَجاب ، وكتب إليه بالشَّفاعة ؛ فرِكبوا البحر من تُونس في السَّفين ؛ فما هو إلّا أن وَصلوا الى مَرسَى

(١) نسبة الى بانيها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

الأسكندرية ؛ فعصفت بهم الرِّياح وغرق المركب بمَن فيه، وما فيه، وذهب الموجود والمولود ؛ فعظُم الأسف، واختلط الفِكر، وأعفاني السلطان من هذه الوظيفة وأراحني، وفرغتُ لشأني من الاشتغال بالعلم تَدْريساً وتأليفا .

ثم فرغ السلطان من اختطاط مَدْرستِه[1] بين القَصْرَين، وجعل فيها مدافن أهله، وعَيَّن لي فيها تدريسَ المالكيَّة ؛ فأنشأتُ خُطبةً أقومُ بها في يوم مُفتَتَح التَّدريس على عادتهم في ذلك ونصُّها :

« الحمد لله الذي مَنَّ على عِباده، بنِعْمة خَلقِه وإيجادِه، وصرَّفهم في أطوار استعبادِه بين قَدَرِه ومُرادِه، وعرَّفهم أسرار توحيده، في مَظاهِر وُجودِه، وآثارَ لُطفِه في وقائع عباده، وعرَضهم على أمانَة التَّكاليف ليَبْلُوَهم بصادق وَعْده وإبعاده[2]، ويَسَّر كُلاًّ لِما خُلِق لَه، من هدايتِه أو إضلالِه، وغَيِّه أو رَشادِه، واسْتَخلَف الانسانَ في الأرض بعد أن هداهُ النَّجْدَيْن[3] لصَلاحِه أو فَسادِه، وعَلَّمه ما لم يكن يَعلم، من مدارك سَمْعه وبَصَرِه والبيان عَمَّا في

---

(١) هي المدرسة الظاهرية، وتسمى البرقوقية أيضاً . عهد في بنائها الى الاميرجهركس الخليلي، فشرع في بنائها سنة ٨٨٦، وأنهاها سنة ٨٨٨ .

(٢) ينظر الى الآية ٧٢ من سورة الأحزاب : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الانسان » .

(٣) النجدان : طريق الخير، وطريق الشر .

فؤاده ؛ وجعل منهم أنبياء وملوكاً يجاهدون في الله حق جهاده ، ويثابرون على مرضاته في اعتمال العدل واعتماده ؛ ورفع البيوت المقدسة بسبحات[1] الذكر وأوراده .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد سيد البشر من نسل آدم وأولاده ، لا . بل سيد الثقلين[2] في العالم من إنسه وجنه وأرواحه وأجساده ، لا . بل سيد الملائكة والنبيئين ، الذي ختم [الله] كمالهم بكماله وآمادهم بآماده ، الذي شرف به الأكوان فأضاءت أرجاء العالم لنور ولاده ؛ وفصل له الذكر الحكيم تفصيلا ، كذلك ليثبت من فؤاده[3] وألقى على قلبه الروح الأمين بتنزيل رب العالمين ، ليكون من المنذرين لعباده[4] ؛ فدعا الى الله على بصيرة بصادق جداله وجلاده[5] وأنزل عليه النصر العزيز ، وكانت ملائكة السماء من إمداده ، حتى ظهر نور الله على رغم من رغم[6] . بإطفائه وإخماده ، وكمل الدين الحنيف فلا تخشى والحمد

(١) السبحات جمع سبحة ؛ وهي التطوع في الذكر ، والصلاة .
(٢) الثقلان : الجن والإنس .
(٣) يشير الى الآية ٣٢ من سورة الفرقان : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك » .
(٤) يشير كذلك الى الآيتين ١٩٣ ، ١٩٤ من سورة الشعراء : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » .
(٥) الجلاد : الجهاد .
(٦) على رغم من رغم : من أساء ؛ والاشارة الى الآية ٣٢ من سورة التوبة : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا ان يتم نوره » .

لله غائلةُ انقطاعِه ولا نَفاده ؛ ثمّ أَعدّ له من الكرامات ما أَعدّ في مَعادِه ، وفضَّله بالمَقام المحمود في عرصات القِيامة بين أَشهادِه ، وجعل له الشَّفاعةَ فيمَن انتظَم في أُمته ، واعتصَم بمَقادِه .

والرِّضى عن آله وأَصحابه ، غُيوث رحمتِه ، ولُيوث إنجاده ، من ذوي رحمِه الطَّاهرة وأهل وِدادِه المتزوِّدين بالتَّقْوى من خيْرِ أَزوادِه ، والمُراغمين بسُيُوفهم من جاهرَ بمُكابرة الحقّ وعِنادِه ، وأَرادَ في الدِّين بظُلمه وإلحادِه ، حتَّى استقام المِيسَم[1] في دين الله وبِلادِه ، وانتظَمت دعوةُ الاسلام أَقطارَ العالَم ، وشُعوبَ الأنام ، من عربِه وعَجمِه وفارِسه ورُومِه وتُركِهِ وأَكرادِه . صلّى الله عليه وعليهم صلاةً تُؤْذن باتّصال الخير واعْتياده ، وتُؤَهّلُ لاقتناء الثَّواب وزيادِه ، وسلَّم كثيرا ؛ وعن الأئمَّة الأربعة[2] ، عُلماء السنَّة المتَّبعة ، والفئةِ المجتَباة المصْطَنَعة ؛ وعن إمامِنا من بينِهم الذي حمل الشريعَةَ وبيَّنها ، وحرَّر مقاصدَها الشريفَةَ وعيَّنها ، وتعرَّض في الآفاق منها والمَطالع ، بين شُهُبِها اللّوامع ؛ فزيَّنها . نُكْتَةُ الهداية إذا حُقِّق مناطُها ، وشرْطُ التَّحصيل والدِّراية إذا رُوعِيت أَشراطُها ،

(١) الميسم : الجمال .

(٢) هم المجتهدون أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة : مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة ، وأحمد بن حنبل .

وَقصْدُ الرِّكابِ اذا ضُرِبت في طلَبِ العلمِ آباطُها[1] ؛ عالم المدينة وإمامُ هذه الأمة الأمِينَة ، ومُقبِس أنوارِ النُّبُوَّة من مِشْكاتها المُبِينة ، الامامُ مالك بنُ أنس . ألحقَهُ اللهُ برِضوانه ، وعرَّفنا بَركةَ الاقتِداء بهَديه وعِرفانِه ؛ وعن سَلَف المؤمنين والمهتَدين ، وتابِعِيهم بإحسان إلى يَوم الدِّين .

أما بعد فإن الخلْق عيال الله يكنُفُهم بلُطفه ورحمته ، ويكفُلُهم بفضله ونِعْمَته ، ويُيَسِّرهم لأسباب السَّعادة بآداب دينه وشِرْعته ، ويَحملهم في العِناية بأمورهم ، والرِّعاية لجُمهُورهم ، على مَناهِج سُنَّته ولَطائف حِكمتِه . ولذلك اختار لهم الملوكَ الذين جَبَلهم على العَدْل وفِطرته ، وهَداهم إلى التَّمسُّك بكلِمَته . ثم فَضَّلهم بما خوَّلهم من سَعَة الرزق وبَسْطَته واشتِقاق التَّمكين في الأرض من قُدرتِه ، فَتسابقُوا بالخيْرات إلى جزائه ومثُوبته ، وذَهَبوا بالدَّرجات العُلى في وُفور الأجر ومزِيَّته .

وإنّ مولانا السُّلطان المَلِك الظَّاهر ، العزيز القاهر ، العادل الطّاهر ، القائم بأمور الاسلام عندما أعيا حَملُها الاكتَاد[2] ، وقُطب

(١) يشير الى الحديث : « تضرب أكباد الابل في طلب العلم ، فلا يوجد عالم أعلم من عالم المدينة » ، وسيأتي له بعد .

(٢) جمع كتد ؛ وهو مجمع الكتفين من الانسان .

دائرةِ المُلْك الذي أطلع الله من حاشيتِه الأبدالَ[1] وأنبتَ الأوتاد[2] ، ومُنفّق أسواقِ العزّ بما بَذلَ فيها من جميل نَظره المذْخُور والعَتاد ؛ رحمةُ الله الكافلةُ للخَلق ، ويَداه المبسوطتَان بالأَجل والرِّزق ، وظِلّه الواقي للعباد بما اكتنفهم من العَدْل والحقِ ، قَاصِمُ الجَبابرة ، والمعَفّي على آثار الأعاظِم من القَياصِرة ، وذَوي التِّيجان من التَّبابعَة والأكاسرَة ، أُولي الأقيال[3] والأساوِرة[4] ؛ وحائز قَصَب السَّبق في المُلوك عند المنَاضلة والمفاخرة ، ومُفوِّض الأمور بإخلاصه الى وَليّ الدنيا والآخرة ؛ مُؤيِّد كلمة الموحِّدين ، ورَافع دعائم الدِّين ، وظهير خلافة المؤمنين ، سُلطان المسلمين أبو سعيد . صَدَّق الله فيما يقتَفي من الله ظُنونَه ، وجعَل النَّصرَ ظَهيرَه ، كما جَعَل السَّعدَ قرينَه ، والعزَّ خدينَه[5] ، وكان وليَّه على القيام بأمور المسلمين ومُعينَه ، وبلَّغ الأُمّة في اتِّصال أيامه ، ودَوام

---

(١) يوري بالابدال في مصطلح الصوفية ، وهم اشخاص سبعة : يسافرون بأرواحهم من مكان الى اخر ، ويتركون جسدهم في موضعهم الاول ، بحيث لا يحس احد بسفرهم . عن « تعريفات » الجرجاني ص ٢٧ ، و « تعريفات » ابن العربي ص ٢ .

( ) والاوتاد عند الصوفية ايضاً : عبارة عن اربعة رجال ، منازلهم على منازل الأربعة الأركان من العالم : الشرق ، والغرب ، والشمال ، والجنوب ؛ كل واحد منهم مقامه فى تلك الجهة . عن الجرجاني في « التعريفات » ص ٢٧ ، وابن العربي ص ٢ . ويريد ان الدولة غنية بالرجال .

(٣) جمع قيل وهو ، في مملكة حمير ، بمنزلة الوزير بالنسبه للملك . (عن التاج) .

(٤) جمع اسوار ، وهو الرامي او الفارس .

(٥) الخدين : الصديق .

سلطانه ، ما يرجونه من الله ويؤملونه . لمّا قلده الله هذا الأمرَ الذي استوى له على كرسيّ المُلك ، وانتظمت عقود الدول في لَبّاتِ الأيام ، وكانت دولتُه واسطةَ السِّلك وجمعَ له الدين بولاية الحرمين ، والدنيا بسلطان التُّرك . وأجرى له أنهارَ مصرَ من الماء والمال ؛ فكان مجازه فيها بالعدل في الأخذ والترك . وجمعَ عليه قلوب العِباد . فشهد سرُّها بمحبّه الله [له] شهادةً خالصةً من الرَّيب ، بريئةً من الشكّ . حتى استولى من العز والمُلك على المَقام الذي رَضيَه وحمِدَه . ثم تاقت نَفسُه إلى ما عند الله ، فصرفَ قصدَه اليه واعتمَدَه ، وسارَع إلى فعل الخيرات بنفس مطمئنة ، لا يسأل عليها أجراً ولا يُكدّرها بالمنّة ، وأحسنَ رعايةَ الدين والمُلك تشهد بها الانسُ والجِنّة ، لا ؛ بل النَّسَم والأجِنّة . ثم آوى الخلق إلى عدله تصديقاً بأن الله يؤويه يومَ القيامة إلى ظلالهِ المستجِنّة ، ونافس في اتخاذ المدارس والرُّبُط لتعليم الكتاب والسنّة ، وبناء المساجد المقدّسة يبني له بها الله البيوتَ في الجنّة ، والله لا يضيع عمَل عاملٍ فيما أظهره أو أكنّه .

وإنّ ما أنتجَته قرائح هِمّته وعنايتهِ ، وأطلعته آفاق عدله وهدايتهِ ، ووَضحت شواهدُه على بُعد مداه في الفخر وغايتِه ، ونُجح مقاصده في الدين وسعايتِه ؛ هذا المَصنَعَ الشَّريف ، والهيكل

السَّامي المُنيف ، الذي راقَ الكواكبَ حُسْنُه وظَرْفُه ، وأعجزَ الهِمَم البشَرية ترتيبُه ورَصفه ، لا ابل الكلامَ السّحريةَ تمثيله ووَصْفُه وشمخ بِطاولة السُّحب ومناولة الشّهب مارِنُه[1] العزيز وأنفُه ، وازْدهى بلَبُوس السَّعادة والقَّبول من الله عِطْفُه ؛ إن فَاخرَ بَلاَط الوليد ، كان له الفَخار ؛ أو باهَى القصْرَ[2] والايوان ، شهِد له المِحْرابُ والمَنار ؛ أو ناظرَ صَنْعاءَ وغمُدان ، قامت بحجَّته الآثار . إنما هو بهوٌ مِلؤه دينٌ وإسلام ، وقصرٌ عليه تحيةٌ وسَلام ، وفضاء رباني يَنشأ في جوّه للرَّحمة والسَّكينة ظُلَّةٌ وغَمام ، وكَوكَب شرْقٍ يُضاحك وجهَ الشَّمس منه ثَغرٌ بسَّام ؛ دفع إلى تشْييد أركانه ، ورَفْع القواعد من بُنيانه ، سَيْفَ دَولته الذي استلَّه من قِراب مُلْكه وانتضاه ، وسَهمَه الذي عجَمَ عيدان كِنانته فارتضاه ، وحُسامَ أمره الذي صقَّل فِرندَه بالعز والعَزم وأمضاه ، وحاكمَه المؤيَّدَ الذي طالب غَريم الأيام ، بالأمل العزيز المرَام ؛ فاستوفَى دَيْنَه واقتَضاه ، الأمير الأعزّ الأعلى جهركس[3]

---

(١) المارن : الانف .

(٢) لعله يريد قصر غمدان .

(٣) هو الأمير سيف الدين جهركس (ويكتب : جهاركس ، وجاركس) بن عبد الله اليلبغاوي الخليلي ، الذي ينسب اليه « خان الخليلي » المعروف اليوم بالقاهرة . قتل بظاهر دمشق سنة ٨٩١ ه في الوقعة بين منطاش ، والظاهر برقوق . خطط المقريزي ١٥٢/٣ – ١٥٣ ، طبع مصر . وقد ضبط في « المنهل » : « جاركس » وهو لفظ أعجمي معناه أربعة أنفس .

الخليلي أمير الماخورية باسطبله المنيع . حرسه الله من خطوب الأيام ، وقسم له من عناية السلطان أوفر الحظوظ والسهام ؛ فقام بالخطو الوساع ، لأمره المطاع ، وأغرى بها أيدي الاتقان والابداع . واختصها من أصناف الفعلة بالماهر الصناع ، يتناظرون في إجادة الأشكال منها والأوضاع ، ويتناولون الأعمال بالهندام إذا توارت عن قدرتهم بالامتناع ؛ فكأن العبقري[1] ، يفري الفري[2] ، أو العفاريت ، قدمت من أماريت[3] . وكأنما حشرت الجن والشياطين ، أو نشرت القهارمة[4] من الحكماء الأول والأساطين ، جابوا لها الصخر بالأذواد[5] لا بالواد ، واستنزلوا صم الأطواد على مطايا الأعواد ، ورفعوا سمكها الى أقصى الآماد ، على بعيد المهوى من العماد . وغشوها من الوشي الأزهر ، المضاعف الصدف والمرمر ، ومائع اللجين الأبيض والذهب الأحمر ، بكل مسهم الحواشي حالي الأبراد ؛ وقدروه مساجد للصلوات والأذكار ، ومقاعد

(١) العبقري نسبة الى «عبقر» ، وهي قرية تسكنها الجن فيما زعموا . ويقولون اذا تعجبوا من جودة شيء او غرابته ، او دقة صنعه : هو عبقري ، ثم توسعوا فسموا الرجل ، والسيد ، والكبير – عبقرياً . لسان العرب .

(٢) يقال هو يفري الفري : اذا عمل عملا فأجاده .

(٣) أماريت : جمع الجمع لمرت : وهي المفازة والقفر لا نبات فيه .

(٤) القهارمة : جمع قهرمان ، وهو الآمر ، صاحب الحكم . لسان العرب .

(٥) الأزواد جمع زود ؛ وهو الجماعة من الابل . وفى تحديد عددها خلاف مذكور في كتب اللغة .

للسُّبُحات [١] بالعَشِيِّ والابكار ، ومجالسَ للتِّلاوة والاستغفار ، في الآصال والأسحار ، وزَوايا للتَّخلِّي عن ملاحظة الأسماع والأبصار ، والتَّعرُّضِ للفتوح الرَّبَّانية والأنوار ؛ ومدارسَ لقَدْح زِناد الأفكار ، ونِتاج المَعارف الأبكار ، وصَوغ اللُّجَين والنُّضار ، في مَحَكِّ القرائح والأبصار . تتفجَّر ينابيعُ الحكمة في رياضه وبُستانه ، وتتفتَّحُ أبواب الجنَّة من غُرَفه وإيوانه ، وتُقتادُ غُرُّ السَّوابق من العُلوم والحقائق ، في طَلَق [٢] مَيْدانه ، ويَصعَدُ الكَلِم الطَّيِّبُ والعملُ الصَّالحُ الى الله من نواحي أرْكانه ؛ وتُوَفَّرُ الاجور لغاشيته مُحتَسَبةً عند الله في ديوانه ، راجحَةً في ميزانه .

ثم اختارَ لها من أئمة المذاهب الأربعة أعيانا، ومن شيوخ الحقائق الصُّوفية فُرسانا ؛ تَصفَّح لهم أهلَ مَملَكته إنساناً إنسانا ، وأشاد بِقَدرهم عِنايةً وإحسانا ، ودَفَعهم الى وظائفه توُسعاً في مذاهب الخير وافتنانا . وعهِد إليهم برياضة المريدين ، وإفادة المستفيدين ، احتساباً لله وقربانا ، وتقيُّلا [٣] لمذاهب الملوك من قومِهِ واستنانا ؛ ثمَّ نظمني معهم تطوُّلاً وامتِنانا ، ونعمةً عظُمت موقِعاً وجلَّت شانا ؛ وأنا وإنْ كنتُ لقصور البضاعة ، متأخراً عن الجماعة ، ولقُعود الهمَّة ، عيالا

(١) جمع سبحة ؛ وهي التطوع في الدعاء والصلاة .
(٢) الطلق : الشوط الواحد في جري الخيل ، والغايه التي يجري اليها الفرس في السباق .
(٣) بمعنى من تقيل أباه : أشبهه ، وعمل عمله .

على هؤلاء الأئمة، فسمحهم يغطي ويُلحف، وبمواهب العفو والتجاوز يمنح ويُتحف. وإنما هي رحمة من مولانا السلطان - أيده الله - خصّت كما عمّت، ووسمت أغفال النكرة والاهمال وسمّت؛ وكملت بها مواهب عطفه وجبره وتمّت؛ وقد ينتظم الدرّ مع المرجان، وتلتبس العصائب بالتيجان؛ وتراض المسوّمة[1] العراب[2] على مسابقة الهجان[3]؛ والكلّ في نظر مولانا السلطان وتصريفه، والأهلية بتأهيله والمعرفة بتعريفه، وقوام الحياة والامال بلطائف إحسانه وصنوفه؛ والله يوزعنا شكر معروفه، ويوفقنا للوفاء بشرطه في هذا الوقف وتكليفه، ويحمي حماه من غير الدهر وصروفه، ويفيء على ممالك الاسلام ظلال أعلامه ورماحه وسيوفه، ويريه قرّة العين في نفسه وبنيه، وحاشيته وذويه، وخاصته ولفيفه، بمنّ الله وفضله.

ثم تعاون العداة عند أمير الماخورية، القائم للسلطان بأمور مدرسته، وأغروه بصدّي عنها، وقطع أسبابي من ولايتها، ولم يمكن السلطان إلا إسعافه فأعرضت عن ذلك، وشغلت بما أنا عليه من التدريس والتأليف.

---

(١) المسومة من الخيل: المرعية، والمعلمة.
(٢) العراب من الابل، والخيل: التي ليس فيها عرق هجين.
(٣) الهجان: جمع هجين؛ وهو الفرس الذي ليس بعتيق.

ثمّ خرجتُ عام تسعةٍ وثمانين للحجّ، واقتضَيتُ إذنَ السلطان في ذلك فأسعَف، وزوّد هو وأمراؤه بما أوسع الحالَ وأرغدَه، وركبتُ بحرَ السويس من الطُّور الى اليَنْبُع؛ ثم صَعِدتُ مع المَحْمِل الى مكَّة؛ فقضيتُ الفَرض عامَئذ. وعُدتُ في البَحْر؛ فنزلتُ بساحل القُصَيْر؛ ثم سافرتُ منه الى مدينة قُوص في آخر الصعيد، وركبت منها بحرَ النيل الى مِصر، ولقيتُ السلطان، وأخبرتُه بدُعائي له في أماكن الاجابة، وأعادَني الى ما عَهِدتُ من كرامته، وتفيُّؤ ظِلّه.

ثم شَغرَت وظيفةُ الحديث بمدرسة صلغتمش [1] فولّاني اياها بدلاً من مدرسته وجلستُ للتدريس فيها في مُحرّمِ أحدٍ وتسعين، وقمتُ ذلك اليومَ ــ على العادة ــ بخطبةٍ نصُّها :

« الحمد لله اجلالاً واعظاما، واعترافاً بحقوق النِّعم والتزاماً، واقتباساً للمَزيد منها واغتناماً، وشكراً على الذي أحسَن وتماما، وسع كلّ شيءٍ رحمةً وانعاماً، وأقام على توحيده من أكوانه ووُجوده آياتٍ واضحةً وأعلاما، وصرّف الكائناتِ في قَبضَة قُدرته ظهوراً وخفاءً وايجاداً واعداماً، وأعطى كلّ شيء خلْقَه ثم هداه الى مَصالحه

---

(١) كذا في الاصل : « صلغتمش »، ولعلها كانت تنطق باللام فسجلها ابن خلدون كما سمعها. والمدرسة الصرغتمشية هذه التي تقع بجوار جامع احمد بن طولون، تنسب الى بانيها الامير سيف الدين صرغتمس الناصري امير رأس نوبة، المتوفى سجيناً في الاسكندرية سنة ٧٥٩ . خطط المقريزي ٤/٢٥٦ ــ ٢٥٨ طبع مصر .

الهاماً ، وأودَع مَقدورَ قضائه في مسطور كتابه ، فلا يَجدُ مَحيصا عنه ولا مَراما .

والصلاةُ والسّلام على سيدنا ومولانا محمّدٍ نبيِّ الرّحمة الهامية غماما[١] والمَلحَمة التي أراقت من الكُفر نجيعاً وحطّمت أصناماً ، والعُروة الوثقى ، فازَ من اتخذها عِصاما[٢] ، أول النَّبيئين رُتبةً وآخرهم ختاما ، وسيّدهم ليلة قاب قوسين[٣] اذ بات للملائكة والرّسل اماما ؛ وعلى آله وأصحابه الذين كانوا رُكناً لدعوته وسَناما[٤] وحرباً على عدوّه وسماما[٥] ، وَصلوا في مُظاهرته جِداً واعتزاما ، وقطَعوا في ذات الله وابتغاء مرضاته أنساباً وأرحاما ، حتى ملأُوا الارضَ ايماناً واسلاما ، وأوسعوا الجاحد والمُعاند تبكيتاً[٦] وارغاما[٧] فأصبح ثَغر الدين بَسّاما ووجه الكُفر والبَاطل عَبوسا جَهاما[٨] . صلى الله عليه وعليهم ما عاقبَ ضِياءٌ ظَلاما ، صلاةً ترجح القَبول ميزانا ، وتُبوِّئ عندَ الله مَقاما .

---

(١) همت السماء : امطرت ؛ والغمام : القطر نفسه .

(٢) العصام : رباط كل شيء . من حبل ونحوه .

(٣) قاب قوسين : قدر قوسين ، او طول قوسين .

(٤) السنام : المرتفع من الرمل ، والجبل ، والمراد انه ملجأ .

(٥) السمام : جمع سم ؛ وفي حديث عن علي رضي الله عنه : (الدنيا غذاؤها سمام) .

(٦) التبكيت : التقريع والتعنيف .

(٧) الارغام : الاكراه والاهانة .

(٨) الجهام : السحاب لا ماء فيه ، ويريد : كريهاً لا خير فيه .

والرضى عن الأئمة الأربعة ، الهُداة المتَّبعَة ، مصابيح الامان وَمفاتيح السُّنَّة الذين أحسنوا بالعلم قياما وكانوا للمتَّقين إماما .

أما بعد فإن الله سبحانه تكفل لهذا الدين بالعلاء والظُّهور ، والعز الخالد على الظُّهور[1] ، وانفِسَاح خُطَّته في افاق المَعْمور ، فلم يَزَل دولةً عظيمةَ الاثار ، غزيرةَ الانصار ، بعيدةَ الصِّيت عالية المقدار ، جامعةً ــ بمحاسنِ ادابهِ وعزّة جنابه ــ معاني الفَخار ، مُنفّقةً بضائعَ علومه في الاقطار ، مفجّرةً ينابيعَها كالبحار ، مُطْلعةً كواكبَها المنيرة في الافاق أضوأ من النهار ؛ ولا كالدّولة التي استأثرت بقبلة الاسلام ومنابره ، وفاخرت بحرُمات الله وشعائره واعتمدَت بَركَةَ الايمان ويُمنَ طائره ، في خِدمة الحرمين الشّريفَين ــ بالمتين من أسباب الدين وأواصره ، واعتمَلت في اقامة رُسُوم العلم ليكون من مفاخره ، وشاهداً بالكمال لاوّلِه واخره .

وان مولانا السلطانَ الملِك الظّاهر ، العزيزَ القاهر ، شرَف الاوائل والاواخر ، ورَافع لواء المعالي والمفاخر ، رب التّيجانِ والاسرّة والمنابر ، والمُجلّي في مَيْدان السَّابقين من الملوك الاكابر ، في الزمن الغابر ، حاملُ الامّة بنظرِه الرّشيد ورأيه الظافر ، وكافلُ

(١) كذا في الاصل ، ولعلها : « الدهور » .

الرعايا في ظله المديد وعدله الوافر ، ومطلع انوار العز والسعادة من أفقه السافر ؛ واسطة السلك من هذا النظام ، والتاج المحلى في مفارق الدول والايام ، سيد الملوك والسلاطين ، بركة الاسلام والمسلمين ، كافل امير المؤمنين ، أبو سعيد . أعلى الله مقامه ، وكافأ عن الامة احسانه الجزيل وانعامه ، واطال في السعادة والخيرات المبدأة المعادة لياليه وايامه ؛ لما اوسع الدين والملك نظراً جميلاً من عنايته ، وأنام الخلق في حجر كفالته ، ومهاد كفايته ، وايقظ لتفقد الأمور ، وصلاح الخاصة والجمهور ، عين كلاءته ، كما قلده الله رعايته[1] وأقام حكام الشريعة والسياسة يوسعون نطاق الحق الى غايته ، ويطلعون وجه العدل سافراً عن ايته . ونصب في دست النيابة من وثق بعدله وسياسته ، ورضي الدين بحسن ايالته ، وأمنه على سلطانه ودولته ، وهو الوفي - والحمد لله - بأمانته ؛ ثم صرف نظره الى بيوت الله يعنى بإنشائها وتأسيسها ، ويعمل النظر الجميل في اشادتها وتقديسها ، ويقرض الله القرض الحسن في وقفها وتحبيسها وينصب فيها لبث العلم من يؤهله لوظائفها ودروسها ؛ فيضفي عليه بذلك من العناية أفخر لبوسها ، حتى زهت الدولة بملكها ومصرها ، وفاخرت الانام بزمانها الزاهر وعصرها .

(١) كذا في الاصل ؛ ولعلها : « قلده الله حق رعايته » ، او «واجب رعايته» ، او نحو هذا

وخضعت الاواوينُ لايوانها العالي وقصرها ؛ فابتهج العالم سروراً بمكانها ، واهتزّت الاكوانُ للمفاخرة بشأنها ، وتكفّل الرحمن ، لمن اعتزّ به الايمان، وصلُح على يده الزمان، بوفور المثوبة ورجحانها

وكان مما قد منّ به الان تدريسُ الحديث بهذه المدرسة وقف الأمير صرغتمش من سلف أمراء التُّرك ، خفّف الله حسابه وثقّل في الميزان ـ يوم يُعْرَض على الرحمن ـ كتابه ، وأعظم جزاءه في هذه الصّدقة الجارية وثوابه ، عنايةً جدّد لي لباسها ، وإيثاراً بالنّعمة التي صححتْ قياسها ، وعرفتُ منه انواعها وأجناسها ، فامتثلتُ المرسوم ، وانطلقت اقيمُ الرُّسوم ، واشكُر من الله وسلطانه الحظ المقسوم. وأنا مع هذا مُعترِف بالقُصور ، بين أهل العُصور ، مُستعيذٌ بالله وبركة هؤلاء الحضور ، السّادة الصُّدور ، أن يجمحَ بي مَركبُ الغُرور ، أو يَلِجَ شيطانُ الدّعوى والزُّور ، في شيء من الأمور . والله تعالى ينفع مولانا السلطان بصالح أعماله ، ويُعرِّفه الحسنى وزيادة الحظِّ الأسنى في عاقبته ومآله ، ويُريه في سلطانه وبنيه وحاشيته وذويه قُرّة عينه ورضى آماله ، ويديم على السّادة الأمراء ما خوّلهم من رضاه وإقباله ، ويحفظُ المسلمين في هذا الأمر السّعيد بدوامه واتّصاله ، ويسدِّدُ قضاتهم وحكامهم لاعتماد الحقِّ واعتماله بمَنّ الله وإفضاله .

وقد رأيتُ أن أقرّر للقراءة في هذا الدَّرس ، كتاب الموطأ للامام مَالك ابن أنس ، رضي الله عنه ، فإنه من أصول السُّنن ، وأمّهات الحديث ، وهو معَ ذلك أصلُ مَذهبنا الذي عليه مَدار مَسائله ، وَمنَاطُ أحكامه ، وإلى آثاره يرجع الكثير من فِقهه .

فلنَفتَتِح الكلامَ بالتَّعريف بمؤلفه - رضي الله عنه ، ومكانه من الأمانة والديانة ، ومنزلة كتابه « الموطَّأ » من كُتُبِ الحديث . ثم نذكُر الرواياتِ والطُّرقَ التي وَقعت في هذا الكتاب ، وكيفَ اقتصرَ الناسُ منها على رواية يَحْيي بن يَحْيي ، ونَذكرُ أسانيدي فيها ، ثم نرجعُ الى الكلاَم على مَتن الكتاب .

أما الامام مالك ـــ رَضي الله عنه ، فهو إمام دار الهجرة ، وشَيْخ أهل الحجاز في الحديث والفِقه غير مُنازَع ، والمقلَّدُ المتْبوع لأهل الأمْصَار وخصوصاً أهلَ المغرب .

قال البُخارى : مالك بن أنس بن أبي عَامر الأصبَحي . كُنيتُه أبو عبد الله ، حَليف عبد الرحمن بن عثمان بن عُبَيد الله القُرشي التَّيْمي ابن أخي طلحةَ بن عُبَيد الله . كانَ إمـامـا ، رَوَى عَنه يَحيَى بنُ سَعيد . انتهى كلام البخاري .

وجدُّه أبو عامر بن عَمرو بن الحرث بن عثمان ويقال : غَيمان بغين

معجمة مفتوحة ، وياء تحتانية ساكنة ، ابن جُثَيل بجيم مضمومة وثاء مثلثة مفتوحة ، وياء تحتانية ساكنة ؛ ويقال حُثيل أو خُثيل بحاء مضمومة مهملة أو معجمة ، عوضَ الجيم ؛ ويقال حِسْل بحاء مهملة مكسورة ، وسين مهملة ساكنة ، ابن عَمرو بن الحرث ؛ وهو ذو أصبح . وذو أصبح بطنٌ من حِمْيَر ، وهمْ إخوةُ يَحْصُب ، ونسبهُم معروف ؛ فهو حِمْيَريّ صَلِيبة ، وقُرَشيٌّ حِلفا . وُلد سنة إحدى وتسعين[1] — فيما قال ابن بُكَير[2] ، واربع وتسعين — فيما قال محمد بن عبد الله بن عبد الحَكَم[3] ؛ ونشأ بالمدينة ، وتفقّه بها . أخذ عن رَبيعةِ الرأي[4] ، وابن شِهاب[5] وعن عمّه أبي سُهَيل[6] ، وعن جماعة ممَّن عاصَرهم من التَّابعين وتابِعي التَّابعين ؛ وجلَس للفُتيا والحديث

(١) في مولد مالك اقوال اخر غير ما ذكر ابن خلدون تجدهـا في « الانساب » للسمعاني ، و « وفيات » ابن خلكان ؛ و « الانتقاء » لابن عبد البر ص ١٠ .

(٢) هو يحيى بن عبد الله بن بكير القرشي المخزومي بالولاء المصري [١٥٤-٢٣١] احد رواة « الموطأ » عن مالك .

(٣) ابو عبد الله محمد بن عبد الحكم الفقيه الشافعي المصري المشهور [١٨٢ - ٢٦٨] . « وفيات » ١/٥٧٨ .

(٤) هو ابو عثمان ربيعة بن ابي عبدالرحمن فروخ مولى آل المنكدر ... المعروف بربيعة الرأي . فقيه مدني جليل . أدرك جماعة من الصحابة . توفي بالانبار بمدينة « الهاشمية » سنة ١٣٦ على خلاف . « المعارف » لابن قتيبة ص ٢١٧ ، (وفيات) ١/٢٢٨ .

(٥) ابو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبيد الله بن شهاب الزهري القرشي . من اجل فقهاء التابعين بالمدينة . ادرك جماعة من الصحابة [٥١ - ١٤٢] على خلاف في المولد والوفاة . (وفيات) ابن خلكان ١/٥٧١-٥٧٢ .

(٦) نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي أبو سهيل التيمي . مات في امارة أبي العباس . تهذيب التهذيب ١٠/٤٠٩ .

في مَسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شاباً يُناهز العشرين ، وأقام مُفتياً بالمدينة ستين سنة . وأَخذَ عنه الجمُّ الغفير من العُلماء الأعلام ، وارتحل اليه من الأمصار من لا يُحصَى كثرة ؛ وأعظمُ من أخذَ عنه الامام محمَّد بن إدريس الشَّافعي [١] ، وابنُ وَهْب [٢] ، والأوزاعي [٣] ، وسفيانُ الثَّوْرى [٤] ، وابنُ المُبارك [٥] — في أمثال لهُم وأنظار . وتوفّي سنة تسع وسبْعين ومائة باتفاق من الناقلين لوفاته ، وقال الواقدي [٦] : عاشَ مالكٌ تسعين سنة ، وقال سُحْنُون [٧] عن ابن نافع [٨] : توفي مالك ابن سبع وثمانين سَنة ، ولم

(١) الامام المجتهد أبو عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع ينتهي نسبه الى عبد مناف بن قصيّ ، حيث يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [١٥٠ — ٢٠٤ . « الانتقاء » لابن عبد البر ص ٦٦ — ١٢٢ .

(٢) ابو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي المصري (١٢٥ — ١٩٧) ، لازم مالكا مدة طويلة .

(٣) ابو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي ، ونسبته اما الى « الأوزاع » بطن من همدان ، او من ذي كلاع من اليمن ، او الى « الأوزاع » قرية بدمشق نزل بها فنسب اليها أدخلته أمه « بيروت » فسكنها ، وبها مات سنة ١٥٧ ، ومولده ببعلبك سنة ٨٨ ، او ٩٣ . « المعارف » لابن قتيبة ص ٢١٧ ، « وفيات » ١/٣٤٥ .

(٤) أبو عبد الله سفيان بن سعيد المعروف بالثورى ، احد الأئمة المجتهدين ، ولاه المهدي قضاء الكوفة فامتنع ، ورمى بصك الولاية في دجلة . « وفيات الاعيان » ١/٢٦٣ .

(٥) ابو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي مولى بني حنظلة ، أحد رواة « الموطأ » عن مالك . « وفيات » ١ / ٣١١ .

(٦) ابو عبد الله محمد بن عمر بن واقد المدني صاحب « المغازي » ؛ تولى القضاء ببغداد في أيام المأمون . ضعفوه في الحديث [١٣٠ — ٢٠٧] . « وفيات » ١ / ٦٤٠ .

(٧) ابو سعيد عبدالسلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الفقيه المالكي المشهور . [١٦٠—٢٤٠] .

(٨) ابو محمد عبد الله بن نافع بن أبي نافع الصائغ المخزومي ، يروي عن مالك كثيراً ، ولهم في الثقة به كلام .

يختلف أهلُ زمانه في أمانته ، وإتقانه ، وحفظه وتثبّته وورعه ، حتى لقد قال سُفيان بن عُيَيْنَة[١] : كُنَّا نرى في الحديث الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « تُضرب أكباد الابل في طلب العلم فلا يُوجد عالم أعلم من عالِم المدينة » أنّه مالك بنُ أنس .

وقال الشّافعي : إذا جاء الأثر فمالك النّجم ، وقالَ : اذا جاءك الحديث عن مالك ، فشُد به يديْك ؛ وقال أحمد بن حنبل[٢] : اذا ذُكر الحديث فمالك امير المؤمنين .

وقد ألّف الناس في فضائله كتباً ، وشأنه مشهور .

وأما الذي بعثه على تصنيف « المُوطّأ » ــ فيما نقل أبو عُمر بنُ عبد البرّ ــ فهو أن عبدَ العزيز بن عبد الله بن أبي سلَمة الماجشون[٣] ، عَمِل كتاباً على مثال « الموطأ » ، ذكر فيه ما اجتمع عليه أهلُ المدينة ، ولم يذكر فيه شيئاً من الحديث ، فأُتِيَ به مالك ، ووقف عليه وأعجبه ، وقال : ما أحسنَ ما عمِل هذا ! ولو كنتُ أنا الذي

(١) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ابو محمد المحدث المشهور (١٠٧ – ١٩٨) « وفيات » ١ / ٢٦٤ .

(٢) ابو عبد الله احمد بن حنبل الامام المجتهد المعروف ، ينتهي نسبه الى بني شيبان (١٦٤ – ٢٤١) . « وفيات » ١ / ٢٠ .

(٣) عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون المتوفى سنة ١٦٤ ببغداد في خلافة المهدي . « المعارف » ص ٢٠٣ ، « تهذيب التهذيب » ٦/ ٣٤٣ .

عمِلت لبدأت بالآثار ، ثم شددت ذلك بالكلام . وقال غيره : حجّ أبو جعفر المنصور[١] ، ولقيه مالك بالمدينة ، فأكرمه وفاوضه . وكان فيما فاوضه : يا أبا عبد الله لم يبقَ على وجه الأرض أعلم مِني ومنك ، وقد شغلتني الخلافة ، فضع انت للناس كتاباً ينتفعون به ، تجنَّبْ فيه رُخصَ ابنِ عبّاس[٢] وشدائدَ ابنِ عُمر[٣] ووطّئه للناس توطئة . قال مالك : فلقَد علّمني التأليف ؛ فكانت هذه وأمثالُها من البواعث لمالك على تصنيف هذا الكتاب ، فصنَّفه وسماه « الموطأ » أي المسَهَّل[٤] . قال الجوهري وطُؤَ يوطُؤُ وطاءةً ، أي صار وطيئا ؛ ووطَّأتُه توطئة ؛ ولا يُقال وطَّيْتُه[٥] . ولما شُغِل بتصنيفه أخذَ النَّاسُ بالمدينة يومئذٍ في تصْنيف مُوطّآت ، فقال لمالكٍ

---

(١) ابو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الخليفة العباسي الثاني تولى الخلافة سنة ١٣٦ ، وتوفي سنة ١٥٨ . له ترجمة واسعة في « تاريخ الطبري » ٩/٢٥٤ – ٣٢٣ .

(٢) ابو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وتوفي سنة ٦٨ على خلاف في سنة الوفاة . تاريخ الاسلام للذهبي ٣ / ٣٠ – ٣٧ .

(٣) ابو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي صاحب رسول الله ، وابن صاحبه . توفي سنة ٧٣ ، وكان عمره يوم الخندق ٢٥ سنة . تاريخ الاسلام للذهبي ٣/٢٧٧ – ٢٨٤ .

(٤) ذكر الزرقاني في شرحه للموطأ ١ / ٨ ، نقلا عن ابن فهد ، وجهاً آخر لتسميته بالموطأ ، قال : « ... قال مالك : عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة ، فكلهم واطأني عليه ، فسميته بالموطأ » .

(٥) انظر لسان العرب (وطأ) .

أصحابُه : تَرَاكَ شغَلت نفسك بأمرٍ قد شَركك فيه النَّاسُ ؛ وأتي ببَعْضِها فنظرَ فيه ، ثم طرحه من يدِه وقال: ليُعلَمنَّ أن هذا لا يرتفِعُ منه إلا ما اريد به وجهُ الله ؛ فكأنما ألقِيت تلك الكُتُب في الآبار ، وما سُمِع لشيءٍ منها بعدَ ذلك ذِكر ، وأقبل مالك على تهذيب كتابه وتَوطِئته ؛ فيُقال إنه أكملَه في أربعين سنة . وتلقَّت الأمة هذا الكتاب بالقبول في مشارق الأرض ومغاربها ، ومن لدُن صُنِّف الى هلم[1] . وطالَ ثَناء العُلماء في كلّ عصْر عليه ، ولم يَختلف في ذلك اثنان . قال الشَّافعيّ ، وعبدُ الرَّحمن بن مَهْدي[2] : ما في الأرضِ كتابٌ بعد كتابِ الله أنفعَ ، وفي رواية أصحّ ، وفي رواية أكثرَ صوابا ، من « موَطأ » مالك[3] . وقال يُونُس بن عَبْد الأعلى[4] : ما رأيتُ كتاباً الّف في العلم اكثر صواباً من « مُوَطّأ » مالك .

(١) كذا في الأصلين ، وهو استعمال غريب . وقد استعمله في « مقدمته » في فصل الكيمياء ص . وانظر شرح الشريشي على مقامات الحريري ١/٨٤ ، تاج العروس (جر) .

(٢) ابو سعيد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمن العنبري البصري المتوفي سنة ١٩٨ . « تهذيب التهذيب » ٦/٢٨١ ، « المعارف » ص ٢٢٤ .

(٣) بعد أن ألف البخاري ، ومسلم صحيحيها ، لم تبق الموطأ هذه المكانة ، ومن هنا أولوا قول الشافعي هذا بأنه كان قبل وجود الصحيحين . وانظر مقدمة ابن الصلاح ص ١٤ ، تدريب الراوي ص ٢٥ ، مقدمة شرح الزرقاني على الموطأ ١ / ٩ ، مقدمة موطأ محمد بن الحسن اللكنوي ص ٢٦ طبع الهند سنة ١٣٠٦ .

(٤) ابو موسى يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة المحدث المقرىء المصري (١٧٠ — ٢٦٤) . تهذيب التهذيب ١١ / ٤٤٠ ، طبقات القراء ٢/٤٠٦ .

وأما الطرقُ والرواياتُ التي وقعت في هذا الكتاب ، فإنه كَتَبه عن مالك جماعة نُسِبَ الموطأ إليهم بتلك الرواية ، وقيل موطأ فلان لراويه عنه[(١)] فمنها موطأ الامام محمد بن إدريس الشافعي[(٢)] ، ومنها موطأ عبد الله بن وهب ، ومنها موطأ عبد الله بن مَسْلَمَة القَعْنَبي[(٣)] ، ومنها مُوطأ مطَرّف بن عبد الله اليَسَاري[(٤)] نسبة إلى سُليمان بن يَسَار ، ومنها موطّأ عبد الرّحمن بن القَاسم[(٥)] رَواه عنه سُحْنون بن سَعيد ؛ ومنها موطأ يَحيى بن يحيى الأندلسي[(٦)] . رحل

(١) في « ترتيب المدارك » ١/٣٤ ظ (نسخة خاصة) ، وشرح الزرقاني على الموطأ ١/٦ – كلمة جامعة عن الذين رووا الموطأ عن مالك . وفي مقدمة عبد الحي اللكنوي لموطأ محمد بن الحسن: ان احد علماء « دهلي » ، اورد في كتاب له بالفارسية سماه « بستان المحدثين » القول المستفيض عن الموطأ ، ومؤلفه ، ونسخه ؛ ويتبين من الخلاصة التي عربها عن الفارسية عبد الحي اللكنوي ان صاحب « البستان » كاد ان يستقصي الموضوع .

(٢) قال احمد بن حنبل : كنت سمعت الموطأ من بضعة عشر رجلا من حفاظ اصحاب مالك ، فأعدته على الشافعي لأنه اقومهم . زرقاني ١/٧ .

(٣) أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسلمة بن قعنب القعني الحارثي المدني المتوفي سنة ٢٢١ او ٢٢٠ . سمع من الامام مالك نصف الموطأ بقراءة الامام ، وقرأ هو النصف الباقي على الإمام .

(٤) مطرف بن عبد الله بن مطرف بن سليمان اليساري الهلالي ابو مصعب المدني ابن اخت الامام مالك (١٣٧ – ٢١٤) ، على خلاف في وفاته . تهذيب التهذيب ١٠/١٧٥ الانتقاء ص٥٨.

(٥) ابو عبدالله عبدالرحمن بن القاسم بن جنادة العتقي المصري المالكي (١٢٨ – ١٩١) ، اول من نقل الموطأ الى مصر . وكان ابو الحسنُ القابسي يقدم روايته للموطأ على غيره : ويقول في ذلك انه – مع ما يتصف به من الفهم والورع – قد اختص بمالك ، ولم يكثر من النقل عن غيره، فخلص بذلك من ان تختلط عليه الفاظ الروة ، او تتبدل الاسانيد ، وانما نقل كتاباً مصنفاً ، فهو وافر الحظ من السلامة في النقل .

(٦) هو ابو محمد يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاسن المصمودي البربري الليثي بالولاء . (١٥٢ – ٢٣٤) وفيات ٢/٢٨٥ – ٢٨٧ .

الى مالك بن انس من الاندلس واخذ عنه الفقهَ والحديث ، ورَجع بعلمٍ كثير وحديث جمّ ؛ وكان فيما اخذَ عنه « الموطأ » ، وادخله الاندلسَ والمغرب ؛ فأكبَّ الناسُ عليه ، واقتصَروا على روايته دونَ ما سواها [1] ، وعوّلوا على نسَقِها وترتيبها في شرحهم لكتاب « الموطأ » وتقاسيرهم ، ويشيرون الى الروايات الاخرى اذا عرضت في امكنتها ، فهُجِرت الرّوايات الاخرى ، وسائرُ تلك الطُّرق ، ودَرَست تلك الموطآت الا موطأ يحيى بن يحيى ، فبروايته اخذ الناس في هذا الكتاب لهذا العهد شرقاً وغرباً .

وأما سندي في هذا الكتاب المتّصل بيحيى بن يحيى فعلى ما أصِفه :

حدثني به جماعةٌ من شيوخنا رحمة الله عليهم . منهم إمام المالكية ، قاضي الجماعة بتُونِس وشيْخ الفُتيا بها ، أبو عَبْد الله محمد بن عبد السَّلام ابن يوسف الهَوّاري ، سَمِعتُه عليه بمنزِله بتُونس ، من أوله إلى آخره . ومنهم شيخ المُسْنِدِين بتُونس ، الرّحالة أبو عبد الله محمد بن جابر بن سُلطان القَيْسي الوادي آشي ، سمعتُ عليه بَعضَه ، وأجازَني بِسائره . ومنهمُ شيْخ المحدِّثين بالأندلس ، وكبيرُ القُضاة بها ، أبو البركات

(١) كان بقي بن مخلد المحدث الأندلسي يقدم على رواية يحيى هذه ، رواية أبي المصعب الزهري ، ورواية يحيي بن بكير ، وعاتبه في ذلك عبيد الله بن يحيى ، وأخوه اسحق بن يحيى ، فاحتج لفعله بأن أبا المصعب قرشي فاستحق التقديم ، وبأن يحيى بن بكير أكبر من أبيهما في السن ، وبأنه سمع الموطأ من مالك سبع عشرة مرة ، ويحيى أبوهما لم يسمعه الا مرة واحدة .

محمد بن محمد بن محمد - ثلاثة من المحدّثين - بن ابراهيم بن الحاجّ البَلَّفيقي، لقيتُه بفاس سنة ست وخمسين من هذه المائة الثامنة، مَقْدَمَهُ من السَّفارة بين مَلك الأندلس وملك المغرب . وحضرت مجلسَه بجامع القَرَوِيِّين من فاس ؛ فسَمعتُ عليه بعضاً من هذا الكتاب، وأجازني بسَائره . ثم لقيتُه لقاءةً أخرى سنة اثنتين وستّين، اسْتَقْدَمَه ملك المغرب، السلطانُ أبو سالم ابن السلطان أبي الحسَن للأخذ عنه ؛ وكنت انا القّارىء فيما يأخذُه عنه، فقرأت عليه صَدراً من كتاب « الموَطَّأ »، وأجازني بسَائره إجازةً أخرى .

ومنهم شيخ أهل المغرب لعصره في العلوم العقْلية، ومُفيدُ جماعتهم، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي، قرأتُ عليه بَعضَه، وأجازني بسائره، قالوا كلُّهم : حدثنا الشيخ المُعَمَّر، أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطّائي[1]، عن القاضي أبي القاسم أحمد بن يزيد بن بَقِيّ[2]، عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الحقّ الخزرَجي[3] .

(١) أبو محمد عبدالله بن محمد بن هرون بن محمد بن عبد العزيز الطائي القرطبي ثم التونسي الامام المسند . أخذ عنه الوادي آشي وغيره من مشايخ العلم والحديث (٦٠٣-٧٠٢) . ديباج ص ١٤٣ الدرر الكامنة ٢ / ٣٠٣ .

(٢) أبو القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن ... بن بقي بن مخلد (٥٣٣ - ٦٢٥) . « التكملة لكتاب الصلة » ص ١٤١ طبع الجزائر سنة ١٣٣٧ هـ، « تكميل الديباج » ص ٧٣ .

(٣) أبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن احمد بن عبد الرحمن بن محمدبن عبد الحق الخزرجي القرطبي . سمع من ابن الطلاع . ذكره ابن الأبار في « التكملة » ١ / ٢١٤ طبع مدريد سنة ١٨٨٩ م ؛ وقال انه لم يقف على وفاته .

وحدّثني به أيضاً شيخُنا أبو البركات ، عن إمام المالكية ببِجايَة ، ناصر الدين أبي علي ، مَنصُور بن أحمد بن عبد الحق المَشَدّالي[1] ، عن الامام شَرَف الدين مُحمد بن أبي الفَضْل المُرْسِي ، عن أبي الحسن علي ابن موسى بن النّقرات[2] عن أبي الحسن علي بن أحمد الكِنَاني[3] . قال الخزرجي والكناني : حدثنا أبو عبد الله مُحمّد بن فرج[4] مولى ابن الطّلاع ، عن القاضي أبي الوليد يونس بن عبد الله بن مُغِيث ابن الصَّفّار قاضي الجماعة بقرطبة .

وحدّثني به أيضا شيخُنا أبو عبد الله بن جابر عن القاضي أبي العباس

(١) منصور بن محمد بن أحمد بن عبد الحق الزّواوي المشدّالي ناصر الدين . وهو لقب لزمه من المشرق ، حيث انه رحل اليه ، وأخذ عن علمائه ؛ ويقول العبدري في « رحلته » : انه لم تكن له عناية بالرواية ؛ ومشدّالة قبيلة من زواوة .

(٢) علي بن موسى بن علي (ويقال ابن القاسم) بن علي الأنصاري الجياني يعرف بابن النقرات يكنى أبا الحسن ، ويعرف ايضاً بابن أرفع رأسه (٥١٥ — ٥٩٣) ، ويقول ابن القاضي في جنوة الاقتباس انه كان حيا في سنة ٥٩٣ . طبقات القراء ١/ ٥٨١ ، الجذوة ص ٣٠٥ ، فوات الوفيات ٢/٩٢ ، تكملة الصلة ٢/ ٦٧٤ .

(٣) علي بن أحمد بن أبي بكر الكناني ، يعرف بابن حنين ، ويكنى أبا الحسن (٤٧٦ — ٥٦٩) سمع من ابن الطلاع موطأ مالك . جذوة الاقتباس ص ٣٠٤ .

(٤) هو الحافظ ابو عبدالله محمد بن فرج بن الطلاء بالهمزة ، وكان ابو مروان بن سراج يقول : كان فرج يطلي مع سيده اللجم في الربض الشرقي عند الباب الجديد من قرطبة ، قال : ومن قال الطلاع بالعين فقد اخطأ ، وكذلك قال ابو الوليد بن خيرة . وقالا ايضاً : ان الطلاع بالعين هو والد مولاه محمد بن يحيى البكري المعروف بابن الطلاع . اما ابو بكر ابن برنجال الداني فيقول : هو بالعين لأن اباه كان يطلع النخل في قرطبة لاجتنائها فعرف بذلك . وقد رحل الناس الى ابن فرج من كل قطر لسماع الموطأ والمدونة ، وكان يحفظ الموطأ ، وله فيه سند عال . ديباج ص ٢٥٧ .

أحمد ابن محمد بن الغمَّاز ، عن شيخه أبي الرَّبيع سُليمان بن موسى بن سالم[1] الكلاعيّ ، عن القاضي أبي القاسم عبد الرحمن بن حُبَيش ، وأبي عبد الله محمد بن سَعيد بن زَرْقُون[2] ، شارح كتاب « الموطأ » ، قال ابن زَرْقون : حدثنا به أبو عَبد الله الخَوْلاني[3] ، عن أبي عمرو عثمان بن أحمد القَيْجَاطِي[4] ، وقال ابن حُبَيْش : حدثنا به القاضي أبو عبد الله بن أصْبغ[5] ويونسُ بن محمد بن مُغيث ، قالا : قرأناه على أبي عبد الله مُحمد بن الطلاّع[6] . وقال ابن حُبَيش أيضاً : حدّثنا به ابو القاسم أحمد بن مُحمد ورْد[7] ، عن القاضي أبي عبد الله محمد بن خلَف ابن المُرابِط[8] ، عن المقريء أبي عُمَر احمد بن محمد بن عبد الله المُعافِري

---

(١) ابو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان يعرف بابن سالم الكلاعي (٥٦٥ – ٦٣٤) .

(٢) محمد بن سعيد بن احمد بن سعيد بن عبد العزيز زرقون (٥٠٢ – ٥٨٦) ، آخر من حدث بالإجازة عن الخولاني ، وكان عالي الرواية . ديباج ص ٢٨٥ .

(٣) ابو عبدالله احمد بن محمد بن عبدالرحمن بن غلبون الخولاني (٤١٨ – ٥٠٨) روى عن جماعة ، منهم ابو عمرو عثمان بن احمد القيشطالي (القيجاطي) صلة ٧٦/١ .

(٤) عثمان بن احمد بن محمد بن يوسف المعافري القرطبي يكنى ابا عمرو ، ويعرف بالقيشيطيالي (القيشطالي ، القيجاطي ، توفي سنة ٤٣١ عن ٨٠ سنة . صلة ٣٩٧/٢ .

(٥) محمد بن اصبغ بن محمد بن اصبغ الأزدي ابو عبد الله . سمع من ابي عبدالله محمد بن فرج ، توفي سنة ٥٣٦ ، وهو من ابناء الستين . صلة ٥٢٨/٢ .

(٦) محمد بن يحيى البكري المتوفى سنة ٤٩٧ . الاستقصا ١٢٩/١ .

(٧) احمد بن محمد بن عمر بن يوسف بن ادريس بن عبدالله بن ورد التميمي ابو القاسم (٤٦٥ – ٥٤٠) ، سمع الموطأ من ابي علي الغساني . احاطة ٥٧/١ .

(٨) القاضي ابو عبدالله محمد بن خلف بن سعيد المعروف بابن المرابط . اجازه ابو عمر الطلمنكي ، توفي بالمدينة بعد سنة ٤٨٠ . ديباج ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

الطَّلَمَنْكِي[1] ؛ قال القاضي ابو الوليد بن مُغيث ، والتَّيجاطي ، والطَّلَمَنْكي : حدّثنا ابو عيسَى يحيى بن عبد الله بن يحيى عن عم ابيه أبي مروان عبيد الله بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى . وقال الطَّلَمَنْكي : حدّثنا ابو جعفر احمد بن محمد بن حُدَيْر البَزّاز ، قال حدثنا ابو محمد قاسم بن أَصْبَغ[2] ، قال حدثنا ابو عبد الله محمد بن وضّاح[3] ، قال حدثنا يحيى بن يحيى عن مالك ، إلاّ ثلاثةَ ابواب من آخر كتاب الاعتكاف ، اوّلها خروج المعْتكف الى العيد فإنّ يحيى شَكّ في سماعها عن مالك ، فسمعها من زياد بن عبد الرحمن الملقَّب شَبْطون[4] عن مالك .

ولي في هذا الكتاب طرق أخرى لم يَحْضرني الآن اتّصالُ سَندي فيها .

فمنها عن شيخنا أبي محمد عبد المُهَيْمِن بن محمد الحَضْرميّ كاتب

(١) احمد بن محمد بن ابي عبد الله بن ابي عيسى المعافري ابو عمر الطلمنكي ، المتوفى سنة ٤٢٩ ديباج ص ٣٩ .

(٢) قاسم بن اصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح ابو محمد البياني القرطبي (٢٤٤ – ٣٤٠) ، سمع من ابن وضاح . تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ١/٢٩٧ .

(٣) محمد بن وضاح بن بديع القرطبي ابو عبدالله (١٩٩ – ٢٨٦) ، على خلاف في مولده ووفاته . سمع من يحيى بن يحيى . ديباج ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

(٤) زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشبطون [بشين معجمة مفتوحة فباء موحدة ساكنة ، وبعدها طاء تليها واو ساكنة فنون] ، اول من أدخل مذهب مالك الى الاندلس ، وكان اهلها قبله على مذهب الاوزاعي . توفي سنة ٢٠٤ على خلاف . نفح الطيب ١/٣٤٩ .

السلطان أبي الحسَن ، لقيتُه بتُونس عند استيلاء السلطان عليها ، وهو في جملتِه سنَةَ ثمان وأربعين ، وحضرتُ مجلسَه ، وأَخذتُ عنه كثيراً ، وسمعتُ عليه بعضَ « الموطأ » ، وأجازني بالاجازة العامّة ، وهو يَرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزُّبير ، وعن شيخه الأستاذ أبي إسحق الغافقي ، وعن أبي القاسِم القَبْتُوري ، وجماعةٍ من مَشْيَخَة أهل سَبْتَة ؛ ويتَّصل سنَدُه فيه بالقاضي عِياض ، وأبي العبَّاس العَزَفي صاحب كتاب (الدُّر المنَظَّم في المَوْلِد المعظَّم) .

ومنها عن شيخنا أبي عبد الله الكوسي خطيب الجامع الأعظم بغرناطة ، سمعتُ عليه بعضَه وأجازني بسائره وهو يَرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزُّبير عن القاضي أبي عبد الله بن بكَّار ، وجماعةٍ من مَشيخة أهل الأندلس ، ويتَّصل سَندَه فيه بالقاضي أبي الوليد الباجي [1] ، والحافظ أبي عُمَر بن عَبد البَرّ بسَندهما .

ومنها عن شيخنا المكتِّب أبي عبد الله محمد بن سعد بن بُرّال الأنصاري شيخ القراءة بتُونس ، ومُعَلِّمي كتابَ الله ؛ قرأتُ عليه القرآن العظيم بالقِراآت السَّبْع وعَرضتُ عليه قَصيدَتَي الشَّاطبي [2] في

(١) سليمان بن خلف بن سعد بن ايوب ابو الوليد القاضي . رحل الى المشرق ، وعاد الى الاندلس بعلم كثير (٤٠٣ – ٤٩٤) . ديباج ص ١٢٠ .

(٢) اللامية المسماة بحرز الاماني ، والمشهورة بالشاطبية ، والرائية ، وتسمى « عقيلة اتراب القصائد » .

القراءة ، وفي الرّسم ، وعرضتُ عليه كتابَ التَّقصِّي لابن عبد البرّ ، وغيرَ ذلك ، وأجازني بالاجازة العامّة ، وفي هذه بالاجازة الخاصة ، وهو يَرْوي هذا الكتاب عن القاضي ابي العبَّاس أحمد بن محمد بن القَمَّاز ، وعن شيْخِه ابي العبَّاس احمد بن موسى البَطَرْني بسَندهما .

ومنها عن شيخنا الأستاذ ابي عبد الله محمد بن الصَّفَّار المَرّاكُشي ، شيخ القراآت بالمغرب ، سَمِعت عليه بعض هذا الكتاب بمجلس السلطان أبي عثمان مَلِك المَغرب ، وهو يُسمعه إياه ، وأجازَني بسائره ؛ وهو يَرويه عن شَيْخه مُحدِّث المَغْرب ابي عبد الله محمد بن رُشيد الفِهري السَّبْتي [1] عن مشيَخة اهل سَبْتة ، واهل الأندلُس ، حسَبَما ذلك مذكور في كُتبِ رواياتهم وطُرقِ أسانيدهم ، إلا أنّها لم تحضُرني الان ؛ وفيما ذكرناه كفاية والله يوفِقنا أجمعين لطاعتِه وهذا حينَ أبتَدي ، وبالله أهتَدي .

وانفضّ ذلك المَجلس ، وقد لاحظتني بالتَّجِلَّة والوَقار العيُون ، واستَشْعرتْ أهليتي للمناصب القُلُوب ، وأخلَص النَّجِيَّ في ذلك الخاصّةُ والجُمهور ، وأنا أنتابُ مَجالسَ السلطان في أكثر الأحيان ، لِتأدية الواجب من التَّحية والمُشافهة بالدُّعاء ، الى أن سَخِط السلطانُ

(١) هو ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر ...... بن رشيد الفهري السبتي (٦٥٧ - ٧٢١) .

قاضيَ المالكية يومئذ في نزعةٍ من النَّزعات الملوكية ، فأبعدَه ، وأخَّره عن خطَّة القَضاء في رجبِ ستٍّ وثمانين وسبعمائة ، ودَعاني للوِلاية في مجلسه ، وبينَ أمرائه فتَفاديتُ من ذلك ، وأَبى إلاّ إمضاءَه ، وخلَع عليّ ، وبَعثَ الأمراءَ معي الى مَقْعد الُحكم بمدرسة القَضاء ؛ فقُمت في ذلك المَقامَ المحمُود ، ووفَّيتُ عهدَ الله وعهدَه في إقامة رُسوم الحقّ ، وتحرِّي المَعْدَلة ، حتى سَخِطني من لم تُرضِه أحكامُ الله ، ووقع في ذلك ما تقدَّم ذكرُه ، وكَثُرَ شغَب أهلِ الباطِل والمِراء ، فأعفاني السلطان منها لحَوْلٍ من يومِ الوِلاية ، وكان تَقَدَّمها وصولُ الخَبَر بغرَق السَّفِين الواصِل من تُونِس الى الأسكندريَّة ، وتلَف المَوْجود والمولود ، وعَظُمَ الأسف ، وحسُنَ العزاء ، واللهُ قادرٌ على ما يَشاء .

ثم خرجتُ عامَ تسعةٍ وثمانين لقَضاء الفرض ، وركبتُ بحرَ السويس من الطُّور الى اليَنْبُع ، ورافقْتُ المَحْمِل الى مَكَّة ، فقَضَيت الحجَّ عامَئِذ ، وعدتُ الى مِصر في البَحْر كما سافرت اولاً . وشغَرَتْ وظيفةُ الحديث بمدرَسةِ صُلْغَتْمِش ، فولَّاني السُّلطانُ إياها بدلاً من مدرَستِه في مُحرَّمِ أحد وتِسعين ، ومضيتُ على حالي من الانقباض ، والتَّدْرِيس ، والتَّأليف ، حتى ولّاني خانْقاه بَيْبَرس ، ثم عزَلَني عنها بعدَ سَنةٍ او أزيد ، بِسَببٍ انا أذكرُه الان .

ولاية خانقاه بيبرس ، والعزل منها

لما رجعت من قضاء الفَرْض سَنةَ تسعين ، ومَضَيتُ على حالي من التَّدريس والتأليف ، وتعاهُدِ السلطان باللِّقاء والتَّحيَّة والدعاء ، وهو ينظُر اليَّ بعَيْن الشَّفَقة ، ويُحْسن المَواعيد . وكانت بالقاهرة خانقاه شيَّدَها السلطان بَيْبَرس ، ثاِمن مُلوك الترك الذي استبدَّ على النَّاصر محمد بن قَلاون[1] هو ورفيقه سلار[2] وأنِفَ النَّاصر من استبدادِهما ، وخرج للصَّيد ، فلمَّا حاذَى الكَرَك امتَنَع به ، وتركَهم وشأنَهم ، فجلَس بَيْبَرس على التَّخْت مكانَه ، وكاتَبَ الناصر أُمراءَ الشَّام من مَماليك أَبيه ، واستَدْعوه للقِيام مَعَه ، وزَحف بهم الى مصر ، وعاد الى سُلطانِه ، وقتَل بَيْبَرْسَ وسَلار سنة ثمانٍ

---

(١) هو الملك الناصر محمد بن الملك المنصور ابن قلاوون . تولى الملك ثلاث مرات كانت الاخيرة منها في سنة ٧٠٩ ، وبقي ملكاً حتى مات سنة ٧٤١ ، وعمره ٥٨ سنة . الخطط طبع مصر ٤/٩٨ – ١٠٢ .

(٢) الامير سيف الدين سلار المنصوري ، كان من اسرى التتار ، فخاص وصار مولى لعلاء الدين علي بن المنصور بن قلاوون ، واليه ينتسب ؛ ساءت علاقته بالناصر ، فاعتقله ، واستصفى امواله وقتله . العبر م ٥ .

وسبعمائة[1] . وشيّد بيبرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر[2] من أعظم المصانع وأحفلها ، وأوفرها رَيْعا ، وأكثرها أوقافا ، وعَين مشيختها ، ونظرها لمن يستَعدّ له بشرطه في وقفه ، فكان رِزقُ النَّظر فيها والمشيَخة واسعاً لمن يتولاه ، وكان ناظرها يومئذ شرَف الدِّين الأشقر إمام السلطان الظاهر . فتوفي عند منصرفي من قضاء الفرْض ، فولاّني السلطان مكانه تَوسِعة عليّ ، وإحساناً إليّ ، وأقمتُ على ذلك إلى أن وقعت فتنة الناصري .

(١) في العبر ٥ : ان ذلك كان في سنة ٧١٠ وهو الأشبه بالصواب ، لان الناصر عاد الى الملك في سنة ٧٠٩ .

(٢) كذا بالأصل . ويظهر ان هنا كلمة سقطت أثناء النسخ . ومقتضى السياق : « وشيد بيبرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر خانقاه ، وهي من اعظم المصانع واحفلها...الخ ».

فتنة الناصري

وسياقة الخبر عنها بعد تقديم كلام في أحوال الدول يليق بهذا الموضع ، ويطلعك على أسرار في تنقل أحوال الدول بالتدريج الى الضخامة والاستيلاء ، ثم الى الضعف والاضمحلال ، والله بالغ أمره .

وذلك أن الدُّول الـكلِّـية ، وهي التي تتعاقب فيها الملوك واحداً بعد واحد ، في مدة طويلة ، قائمين على ذلك بعصبيَّة النَّسَب أو الولاء ، وهذا كان الأصلَ في استيلائهم وتغلُّبهم ، فلا يزالون كذلك الى انْقراضهم ، وغلَب مستَحقّين آخرين يَنزَعون من أيديهم بالعَصبيَّة التي يقتدرون بها على ذلك ، ويحُوزون الأعمال التي كانت بايدي الدولة الأولى ؛ يَفضون جِبايتها بينهم على تفاضل البأس والوُجوله والكثرة في العِصابة او القلة ؛ وهم على حالهم من الخشونة لمعاناة البأس ، والاقلال من العَيش لاستصحاب حال البَداوة ، وعدم الثَّروة من قبل . ثم تَنمو الثَّروة فيهم بنُموّ الجباية التي ملكوها ، ويُزَيّن حبُّ الشَّهوات للاقتدار عليها ، فيَعظُم التَّرف في الملابس

والمطاعم والمساكن والمراكب والممالك ، وسائر الأحوال ، ويتزايد شيئاً فشيئاً بتزايد النِّعم وتتّسعُ الأحوال أوسع ما تكون ، ويَقْصُرُ الدّخل عن الخَرْج ، وتضيقُ الجِباية عن أرزاق الجُنْد وأحوالهم ، ويَحصل ذلك لكلّ أحدٍ ممن تحتَ أيديهم ؛ لأن النّاس تَبع لملوكهم ودَولتِهم ، ويُراجِع كلٌّ احدٍ نَظرَه فيما هو فيه من ذلك ،فيَرجع وراءه ، ويطلب كِفاءَ خَرْجه بدَخله .

ثم إن البَأْسَ يَقِلُّ من أهل الدولة بما ذهب لهم من الخشُونة ، وما صاروا إليه من رِقّة الحاشية والتنعُّم ؛ فيتطاول من بقي من رؤساء الدّولة إلى الاستبداد بها غيرةً عليْها من الخلل الواقع بها . ويستعد لذلك بما بَقي عنده من الخشونة ، ويحمِلهُم على الاقلاع عن التَّرَف ، ويستَأنف لذلك العصابةَ بعشيره أو بمَن يدعوه لذلك ؛ فيستولي على الدولة ، ويأخذ في دَوائها من الخَلَل الواقع ، وهو أحقُّ الناس به ، وأقربُهم إليه ؛ فيصير المُلك له ، وفي عَشيرِهِ ؛ وتصير كأنها دولة أخرى ، تمرُّ عليها الأوقات . ويقع فيها ما وقع في الأولى ؛ فيستولي آخَرُ منهم كذلك الى ان تنقرضَ الدولة بأسرها ، وتخرج عن القوم الاولين أجمع . وتأتي دولة أخرى مُباينة لعصابةِ هؤلاء في النَّسَب ، أو الوَلاء . سُنَّةُ الله في عباده .

وكان مبدأ هذه الدولة التركية ، أنَّ بَني أيُّوب لما ملكوا

مصرَ والشام ، كما قَصَصناه عليك في أخبارهم واستقلَّ بها كبيرُهم صلاح الدين ، وشُغِل بالجهاد وانتزاع القلاع والحصون من أيدي الفرنج الذين ملكوها بالسَّواحل ، وكان قليلَ العِصابه ، إنما كان عشيرُه من الكُرد يُعرَفون ببني هَذَان[1] ، وهم قليلون ، وإنما كَثَّر منهم جماعةُ المسلمين ، بهمَّة الجهاد الذي كان صلاح الدين يدعو اليه ؛ فعَظُمت عصابتُه بالمسلمين ، وأسمَع داعيه ، ونصر الله الدِّين على يده . وانتزَع السَّواحل كلَّها من أيدي نصارى الفرنج ، حتى مَسْجد بيتِ المَقْدِس ؛ فإنهم كانوا ملكوه وافحشوا فيه بالقتل والسَّبي ؛ ؛ فأذهبَ الله هذه الوَصْمَة على يد صلاح الدين ، وانقسم مُلْك بني ايوب بعدَه بين وَلده وولد اخيه . واستفحل أمرُهم ؛ واقتَسموا مدُن الشَّام ، ومصْر بينَهم ، إلى أن جاء آخرَهم الصالح نَجمُ الدين أيوب ابن الكامل محمد بن العادل أبي بكر أخي صلاح الدِّين ، وأراد الاستكثار من العِصابة لحماية الدَّولة ، وإقامة رسوم الملك ، وأن ذلك يحصل باتخاذ المماليك ، والاكثار منهم ، كما كان آخراً في الدولة العباسيَّة ببغداد ؛ وأخذ التُّجار في جلبهم إليه ، فاشترى منهم أعداداً ، وأقام لتربيتهم أَساتيذ معلمين لحرفة الُجندية ، من الثقافة والرَّمي ، بعدَ تعليم الآداب الدينية والخُلُقية

---

(١) بفتح الهاء، والذال المعجمة ، وبعدها ألف ، ثم نون؛ وهي قبيلة كبيرة من قبائل الاكراد وفيات ٢/٤٩٥ .

الى ان اجتمع له منهم عددٌ جمٌّ يناهز الألف ؛ وكان مقيما بأحواز دِمْياط[١] في حماية البلاد من طوارق الفرنج المتغلّبين على حصنها دِمْياط . وكان أبوه قد اتخذ لنزله هنالك قلعةً سمّاها المنصورة[٢] ، وبها توفي رحمه الله، فكان نجم الدين نازلاً بها في مُدافعة ساكني دِمْياط من الفرنج ، فأصابه هنالك حدث الموت ، وكان ابنه المعظّم تُورَنْشاه نائبا في حصن كَيْفا[٣] من ديار بَكر وراء الفُرات ، فاجتمع الجندُ على بيعته ، وبعثوا عنه ، وانتظروا . وتَفَطَّن الفرنج لشأنهم ، فهجموا عليهم ، واقتتلوا فنَصَر الله المسلمين ، وأُسِر مَلِك الفرنج رَيْد إفرَنْس ؛ فبعثوا به الى مِصر . وحُبِس بدار لُقمان ، الى أن فادَوْه بدِمياط ، كما هو مذكور في أخبار بني أيوب . ونصبوا ــ للمُلْك ، ولهذا اللقاء ــ زَوجةَ الصالح أيُّوب واسمُها

(١) وقد ضبطها ابن خلدون بخطه بالحركات ، بكسر الذال المعجمة ؛ وقد حكى الاعجام الزبيدي في « تاج العروس » ، والسمعاني في « الانساب » عن ابي محمد بن أبي حبيب الاندلسي قال السمعاني معقباً : « ومـا عرفناه الا بالدال المهملة » . ياقوت ٤ / ٨٤ – ٨٨ ، تاج العروس (دمط ، ذمط) .

(٢) بلدة أنشأها الملك الكامل بن العادل بن أيوب بين دمياط والقاهرة ، ورابط فيها في وجه الافرنج لما ملكوا دمياط وذلك في سنة ٦١٦ ، ولم يزل بها حتى استنقذ دمياط في رجب سنة ٦١٨ . ياقوت ٨ / ١٧٨ .

(٣) حصن كيفا : قلعة عظيمة مشرفة على دجلة ، بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . ياقوت ٣ / ٢٨٦ .

شَجَرُ الدُّر[١]، فكانت تحكم بين الجند، وتكتُب على المراسيم[٢]، ورَكِبت يوم لقاء الفرنج، تحت الصّناجق[٣]، والجندُ مُحْدقون بها، حتى أعز الله دينَه، وأتمّ نصره. ثم وصل تورنشاه المعظّم؛ فأقاموه في خطَّة المُلك مكان أبيه الصالح أيوب، ووَصل معه مماليكُ يُدِلُّون بمكانهم منه، ولهم به اختصاص، ومنه مكان؛ وكان رُؤساءُ الترك يومئذ القائمون بالدولة من عَهد أبيه وجدِّه. أَقطايَ الجَمدار[٤] وأَيبَك التُّركُماني، وقَلاوُن الصالحي، فأَنِفوا من تصرفات مماليك تُورنشاه، واستغلائهم بالحظِ من السلطان، وسَخِطوهم وسخطوه، وأجمعوا قتلَه. فلما رحل الى القاهرة اغتالوه في طريقه بفارسْكُور، وقتلوه، ونصبُوا للأمر أَيْبَك التركماني منهم، واستحدثوا هذه الدولة التركية كما شرحناه في أخبارها؛ وهَلك بعد أَيْبَك ابنُه عليّ المنصور،

(١) بعضهم يكتبها: «شجرة الدر»، وكان يخطب باسمها على المنابر، ونقشت على «السكة»، وكان نقشها: «السكة المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة المنصور خليل»، وخليل هذا ابنها من الملك الصالح توفي في حياة ابيه، وكانت تكنى به. العبر ٥ الخطط ٢ / ٢٣٧ ولاق

(٢) يعني اتخذت لها «علامة» تختم بها على المراسيم، وكانت علامتها ـ فيما يرى ابن خلدون: «أم خليل»، أما ابن الوردي فيقول: «والدة خليل». العبر م ٥، ابن الوردي ٢ / ١٨٣.

(٣) جمع سنجق وهو في الاصل الرمح، وكانت تجعل في رأسه الراية، ومن ثم اصبح معناه: الراية مباشرة. صبح الاعشى ٥ / ٤٥٨.

(٤) أخبار أقطاي مفصلة في العبر ٥ م. والجمدار: هو الذي يتولى الباس السلطان، أو الامير ثيابه؛ وأصله جاما دار فحذف المد منه فقيل: جمدار، وهو مركب من كلمتين فارسيتين: «جاما». ومعناها ثوب، و«دار»، ومعناها: ممسك. صبح الاعشى ٥ / ٤٥٩.

ثم مولاه قُطز، ثم الظاهر بَيْبَرس البُنْدُقْداري [١]. ثم ظهر أمر الطَّطَر [٢]، واستفحل ملكهم. وزحف هولاكو بن طولي بن جِنكِيزخان من خُراسان الى بَغداد؛ فملكها، وقتل الخليفةَ المستعْصم آخر بني العباس. ثم زحف الى الشام؛ فملك مدُنه وحواضره من أيدي بني أيوب، الى أن استوعَبها. وجاء الخبر بأن بَرَكَة صاحب صَرَايْ شريكه في نَسَب جِنكِزخان، زحف الى خُراسان؛ فامتعض لذلك، وكرَّ راجعاً، وشُغِل بالفتنة معه الى إن هلك. وخرج قُطزْ من مصر عندما شُغل هُولاكو بفتنة بَرَكة؛ فملَك الشام كله، أمصارَه ومُدنَه، وأصارَه للترك موالي بني أيوب. واستفحلت دولةُ هؤلاء المماليك، واتّصلت أيامُها واحداً بعد واحد، كما ذكرنا في أخبارهم. ثم جاء قلاوُن عندما ملك بَيْبَرْس الظاهرُ منهم؛ فتظاهر به، وأصْهر اليه، والترفُ يومئذ لم يأخذ منهم، والشِّدة والشكيمة موجودةٌ فيهم، والبأسُ والرجولةُ شعار لهم؛ وهلك الظاهرُ بَيْبرس، وابنـاه من بعده، كما في أخبارهم. وقام قَلَاوُون بالأمر، فاتّسع نِطاقُ مُلكه، وطال ذِرْع سلطانه، وقصُرت أيدي الطَّطَر عن الشام بهلك هُولاكو، وولاية الأصاغر من ولده؛ فعظم مُلْك قَلَاوُن،

---

(١) انظر ترجمته في الخطط ٢ / ٣٠٠، ٢٣٨ بولاق. وخبر توليه السلطنة في العبر ٥. والبندقداري: هو الذي يحمل غرارة البندق خلف السلطان. والبندق: الذي يرمي به وأصله البندق الذي يؤكل، وهو في العربية الجلوز؛ صبح الاعشى ٥ / ٤٥٧.

(٢) كذا بالاصل، وهي: التتر.

وحسُنت آثارُ سياسته، وأصبحَ حجةً على من بعدَه؛ ثم ملك بعدَه ابناه: خليل الأشرف، ثم محمد الناصر. وطالت أيامه، وكثُرت عصابته من مماليكه، حتى كَمُل منهم عدد لم يقع لغيره. ورتّب للدّولة المراتِب، وقدّم منهم في كل رُتبة الأمراء، وأوسع لهم الاقطاع والولايات، حتى توفرت أرزاقهم واتسعت بالترّف أحوالهم. ورحل أربابُ البضائع من العلماء والتجّار الى مصر؛ فأوسعهم حِباءً وبرّا. وتنافست أمراء دولته في اتخاذ المدارس والرُّبط والخوانق، وأصبحت دولتهم غُرّة في الزمان، وواسطةً في الدّول. ثم هلك الناصر بعد أربعين وسبعمائة، فطفِق أمراء دولته ينصبُون بنيه للملك، واحداً بعد آخر، مستبدّين عليهم، متنافسين في الملك، حتى يغلبَ واحد منهم الآخر، فيقتُلَه، ويقتُلَ سلطانه من أولاد الناصر، ويَنْصِبَ آخر منهم مكانَه، الى أن انساق الأمرُ لولده حسَن النّاصر؛ فقَتَل مُستَبدّه شيخون، وملك أمرَه. وألقَى زِمام الدولة بيد مملوكه يَلْبُغا؛ فقام بها، ونافسَه أقرانُه، وأغروا به سلطانَه؛ فأجمع قتلَه. ونُمي اليه الخبرُ وهو في علوفة البرْسيم عند خَيْله المُرْتَبَطة لذلك؛ فاعتزم على الامتناع، واستعدّ للقاء. واستدعاه سلطانُه؛ فتثاقل عن القُدوم. واستشاط السلطان، وركب في خاصته اليه، فركب هو لمصادمته. وهاجم السلطانَ ففلَّه، ورجع الي القلعة، وهو في اتّباعه، فلم يُلفِه بقصْره، وأغرى به البحث فتقبّض عليه،

واستصفاه ، وقتله ؛ ونَصَبَ للملك محمدَ المنصورَ بن المظفَّر حاجي بن الناصر . وقام بالدولة أحسن قيام ، وأغرَى نفسَه بالاستكثار من المماليك ، وتهذيبهم بالتَّربيــة ، وتوفير النِّعم عندهم بالاقطاع ، والولايات ، حتى كَمُل منهم عدد لم تعهده الدولة . ثم خلَع المنصور بن المظفَّر لسنتين ، ونصبَ مكانَـه للمُلك شعبانَ الأشرف بنَ حُسَين بن النَّاصر ؛ فأقام على التَّخْت وهو في كفالته ؛ وهو على أَوَّله في إعزاز الدولة ، وإظهار التَّرَف والثروة ، حتى ظهرت مخـايل العِزّ والنِّعم ، في المساكن والجياد والمماليك والزينة ؛ ثم بَطرُوا النِّعمة ؛ وكفَروا الحقوق ، فحَنِقوا عليه لِـما كان يتجاوز الحدود بهم في الآداب ؛ فَهمّـوا بقَتله وخلَصوا نَجِيا لذلك في مُتَصيَّدهم الشَّتوي ، وقد بَرَزوا له بخيامهم وسلطانهم على عادتهم . ولما أَحسّ بذلك ركب ناجياً بنفسه الى القـاهرة ؛ فدخلوا على السلطان الأشرف ، وجاءوا به على إثْره ، وأجـازوا البحر ؛ فقبضوا عليه عَشِيّ يومهم ، ثم قتلوه في مَحْبِسه عشاء . وانطلقت أيديهم على أهل البلد بمعَرّات لم يعهدوهـا من أول دولتهم ، من النَّهْب والتَّخطُّف وطرُوق المنـازل والحمَّامـات للعَبَث بالُحرَم ، وإطلاق أَعنَّة الشَّهوات والبغْي في كل ناحية ؛ فمَرِج أَمرُ النَّاس ، ورفع الأمر الى السُّلطان ، وكثُـر الدعاء واللَّجَـأُ الى الله

واجتمع أكابر الأمر الى السلطان ، وفـاوضوه في كفِّ عاديتهم ؛ فأمرهم بالركوب ، ونادَى في جُنده ورعيته بانطلاق الأيدي عليهم ،

والاحتياط بهم في قَبْضَة القهر ؛ فلَم يكن إلا كلَمح البَصَر ، واذا بهم في قَبضة الأسر . ثم عُمّرت بهم السُّجُون ، وصُفِّدوا وطِيف بهم على الجمال ينادَى بهم ، إبلاغاً في الشهْرة ؛ ثم وُسِّط [1] أكثرهم ، وتُتُبِّع البقيَّةُ بالنَّفي والحَبس بالثغور القَصِيَّة ، ثم أطلِقوا بعدَ ذلك . وكان فيمن أطلق جماعةٌ منهم بحَبْس الكَرَك : فيهم بَرْقوق الذي ملك أمرَهم بعد ذلك ، وبركة الُجوباني [2] ، وألَطُنْبغا الجوباني [3] وجِهَركَس الخليلي .

وكان طشتمر [4] ، دَوادار يَلُبْغا [5] ، قد لطُفَ محلُّه عند السلطان الأشرف ، ووَلي الدَّوادارية له ، وكان يؤَمّل الاستبداد كما كان أستاذه يُلبُغا ، فكان يَحتال في ذلك بجمع هؤلاء المماليك اليَلُبْغاويّة من حيث سقطوا ، يُريد بذلك اجتماعَهم عُصبةً له على هواه ، ويُغرِي السلطان بها شِفاهاً ورسالة ، الى أن اجتمع أكثرُهم

---

(١) وسطه توسيطا : قطعه نصفين ، ويقال قتل فلان موّسطا .

(٢) هو بركة بن عبد الله الجوباني اليلبغاوي الامير زين الدين . كان أميراً شجاعا يحب العلماء ؛ له مآثر خيرية بمكة ، والحرم ، وبطريق المدينة . قتل سنة ٨٧٢ .

(٣) علاء الدين الطنبغا بن عبد الله الجوباني اليلبغاوي الأمير ؛ كان من خيار الامراء دينا ، وعقلا وشجاعة . مات في الواقعة بين منطاش والناصري خارج دمشق سنة ٧٩٢ هـ ، وكان صديقا لابن خلدون ، وقد عرف به وأثنى عليه في العبر م ٥ .

(٤) طشتمر بن عبد الله العلائي الدوادار الامير سيف الدين ، توفي في دمياط منفياً سنة أثنى عليه ابن تغري بردي كثيراً بمقدار ما قدح في بركة ، والظاهر برقوق .

(٥) لقب للذي يمسك دواة السلطان او الأمير ، ويتولى من الأمور ما حكم ، أو تنفيذ أمور ، أو غير ذلك . صبح الأعشى ٥/٤٦٢ .

بباب السُّلطان الأشرف ، وجعَلَهم في خدمة ابنهِ عليّ وليّ عهده . فلما كَثُروا ، وأخذَتهم أرْيَحِيَّةُ العزّ بعَصَبيَّتهم ، صاروا يَشتطُّون على السُّلطان في المطالب ، ويعتزُّون بعصبية اليُلْبُغاوية . واعتزم السلطان الأشرفُ عام ستة وسبعين على قَضاء الفَرْض ، فخَرج لذلك خروجاً فخماً ، واستناب ابنَه علياً على قَلعته ومُلكه في كفالة قُرَطاي[1] من أكابر اليُلْبُغاوية ، وأخرج معه الخليفة والقضاة . فلما بلغ العقَبة[2] اشتَطّ المماليك في طلب جِرايتهم من العُلوفة والزّاد ، واشتَطّ الذين بمصر كذلك في طلَب أرزاقهم من المتوَلّين للجباية . وصار الذين مع السلطان الى المكاشفة في ذلك بالأقوال والأفعال ، وطشتمر الدّوادار يُغضِي عَنهُم ، يَحْسَبُ وقتَ استبداده قد أزِف ، الى أن راغَمهم السُّلطان بالزّجر ؛ فرِكبوا عليه هنالك ، ورِكب من خيامه مع لَفيف من خاصّته ، فنَضَحوه بالنَّبلَ ، ورَجع الى خيامه ، ثم ركب الهُجُن مَساء ، وسار فصَبَّح القاهرة ، وعَرَّس هو ولفيفهُ بقُبّة النَّصْر .

وكان قُرَطاي كافلُ ابنه عليّ المنصور ، حدَث بينَه وبين ناظر

(١) قرطاي (أو قراطاي) بن عبد الله المعزي الأشرفي سيف الدين ، رفيق أينبك ، وصهره ، وكان من أصاغر الأمراء في دولة الأشرف شعبان بن حسين ، ولكنه أصبح في أيام ولده عليّ أمير مئة ، ثم مقدم ألف . واختلف مع صديقه أينبك ، فحبسه الى ان مات سنة ٧٧٩ .

(٢) موقعها في النهاية الشرقية الشمالية لخليج العقبة .

الخاص المَقْسِي مكالَمة عند مَغيب السُّلطان أَحقَدَته . وجاشت بما كان في نفسِه ؛ فأغرَى عليّاً المنصورَ بن السلطان بالتَّوثُّب على المُلك ، فارتاح لذلك وأجابه ، وأصبح يومَ ثورة المماليك بالعقَبه ؛ وقد أجلسَ عليّاً مكفولَه بباب الاسطبل ، وعقَدَ له الراية بالنداء على جلوسه بالتخت ؛ وبينما هم في ذلك ، صَبَّحهم الخبر بوُصول السلطان الأشرف الى قبة النصر لَيْلَتَئِذ ، فطاروا اليه زُرافاتٍ ووُحدانا ؛ فوجدُوا أصحابَه نِياما هنالك ، وقد تسلَّل من بينهم هو ويَلْبُغا الناصري [(١)] من أكابر اليَلْبُغَاوِيَّة ؛ فقطعوا رؤوسهم جَميعا ، ورجعوا بها تَسِيل دَما . وتَوجّهوا لفُقْدان الأشرف ، وتابَعوا النِّداء عليه ، واذا بامرأةٍ قد دَلَّتهم عليه في مكانٍ عَرفته ؛ فتسابقوا إليه ، وجاءوا به فقَتَلوه لوقته بخَلْع أكتافه ، وانعقَدت بيعَة ابنِه المنصور . وجاء طشتمر الدَّوادَار من الغَدِ بمن بقي بالعقبة من الحُرَم ، وخُلَّف السلطان ، واعتزَم على قتالهم طمَعاً في الاستبداد الذي في نفسه ؛ فدافَعوه وغلَبوه وحصَل في قبضَتهم ؛ فخلَعُوا عليه بنيابة الشام ، وصرَفوه لذلك ، واقاموا في سلطانهم . وكان أَينَبكُ أميراً آخر من اليَلْبُغَاوية [(٢)]

---

(١) يلبغا بن عبد الله الناصري الأتابكي الأمير سيف الدين ، وهو صاحب الوقعة مع الملك الظاهر بظاهر دمشق . الدرر الكامنة ٤ / ٤٤٠ – ٤٤٢ .

(٢) أينبك بن عبد الله البدري الامير سيف الدين ، كان هو وقرطاي صاحبي الحل والعقد في الدولة . استبد بالمنصور بن الاشرف ، ثم تغلب عليه يلبغا الناصري وأودعه سجن الاسكندرية .

قد ساهم قُرَطاي في هذا الحادث ، وأصهرَ إليه في بعض حُرَمه ؛ فاستنام له قُرَطاي ، وطمع هو في الاستيلاء . وكان قُرَطاي مواصلاً صَبُوحه بغَبُوقه ، ويستغرق في ذلك ؛ فركب في بعض أيامه ؛ وأركب معه السلطان عليا ، واحتاز الأمرَ من يد قُرَطاي ، وصيَّره إلى صَفَد [1] ، واستقلَّ بالدولة ، ثم انتقض طشتمر بالشَّام مع سائر امرائه ؛ فخرج أَيْنَبَك في العساكر ، وسرَّح المقدَّمة مع جماعة من الأمراء ؛ وكان منهم بَرْقوق وبَرَكة المستوليان عقِب ذلك ؛ وخرج هو والسلطان في السَّاقة [2] ؛ فلما انتهوا إلى بُلْبِيس ، ثار الأمراء الذين في المقدِّمة عليه ، ورجع اليه أخوه منهزما ؛ فرجع الى القلعة . ثم اختلف عليه الأمراء ، وطالبوه بالحرب في قُبَّة النَّصر ؛ فسرَّح العساكر لذلك ؛ فلما فصَلوا فرَّ هو هاربا ، وقُبِض عليه وثُقِّف بالأسكندرية . واجتمع أمراء اليَلْبغاوية يقدمهم قطلقتمر العلائي ، ويَلْبغا النّاصري ودُمُرْداش اليوسفي وبَرَكة وبَرقوق ؛ فتصدى دَمُرْداش ويُلْبغا وبركة وبرقوق ، إلى الاستقلال بالأمر وتغلبوا على سائر الأمراء ؛ واعتقلوهم بالاسكندرية . وفوَّضوا الأمر الى يَلْبغا النَّاصري ، وهم يرونه غيرَ خبير ، فأشاروا

(١) صفد : مدينة في شمالي فلسطين ، واقعة في الشمال الغربي لبحيرة طبرية ، قريبة من حدود سوريا في الجنوب الغربي ، ومن حدود لبنان في الجنوب .

(٢) ساقة الجيش : مؤخره .

باستدعاء طشتمر، وبعثوا اليه، وانتظروا. فلما جاءه الخبر بذلك ظنّها مُنيَةَ نفسه، وسارَ الى مصر؛ فدفعوا الامر اليه، وجعلوا له التولية والعزل وأخذ برقوق، وبركة يستكثران من المماليك، بالاستخدام والجاه، وتوفير الاقطاع، إكثافاً لعصبيتها؛ فانصرفت الوجوه عن سواهما، وارتاب طشتمر بنفسه، وأغراه أصحابه بالتوثب؛ ولما كان الاضحى في سنة تسع وسبعين استعجل اصحابه على غير رويّة، وركبوا وبعثوا إليه فأحجم، وقاتلوا فانهزموا. وتقبض على طشتمر، وحبس بالاسكندرية، وبعث معه يلبغا الناصري، وخلت الدّولة للأميرين برقوق وبركة من المنازعين، وعمروا المراتب بأصحابهما. ثم كثر شغب التركمان والعرب بنواحي الشّام، فدفعوا يلبغا النّاصري إلى النّيابة بحلب ليستكفوا به في تلك النّاحية. ثم تنافس برقوق وبركة في الاستقلال، وأضمر كلٌّ واحد منهما لصاحبه، وخشي منه؛ فقبض برقوقُ على بطانة بركة من عصابته ليحُصّ بذلك جناحه؛ فارتاع لذلك بركة، وخرج بعصابته إلى قُبّة النّصر ليواضع برقوقاً وأصحابه الحرب هنالك، ورجا ان تكون الدائرة له. وأقام برقوق بمكانه من الاسطبل، وسرّب أصحابه في جموعهم إلى مُحاولة أولئك. وأقاموا كذلك أياماً يغادُونهم ويراوحونهم ثلاثاً، الى أن عضّت بركة واصحابه الحربُ؛ فانفضّوا عنه، وجيء ببركة، وبعث به إلى

الاسكندرية ؛ فحُبِس هنالك الى ان قتله ابن عَرّام نائب الاسكندرية . وارتفع أصحابه الى برقوق شاكين ؛ فثأرهم منه بإطلاق أيديهم في النَّصَفَة ؛ فانتصفوا منه بقتله في ساحة القَلْعة ، بعد أن سُمِّر ، وحُمل على جَمَل عقاباً له ؛ ولم يُقنِعهم ذلك ، فأطلق أيديَهم فيما شاءوا منه ، ففعلوا ما فعلوا . وانفرد برقوق ــ بعد ذلك ــ بحَمْل الدّولة ينظر في أعطافها [1] بالتّهديد ، والتّسديد ، والمُقارَبة [2] ، والحرص على مكافأة الدّخل بالخَرْج . ونَقَّصَ ما أفاض فيه بنو قَلَاوُن من الامعان في التّرف ، والسّرَف في العوائد والنّفقات ، حتى صار الكَيْلُ في الخرج بالمكيال الرّاجح ، وعَجزت الدولةُ عن تمشية أحوالها ؛ وراقبَ ذلك كلَّه برقوق ، ونظر في سدّ خَلَل الدّولة منه ، وإصلاحها من مَفاسده ، يَعتَدُّ ذلك ذريعةً للجلوس على التَّخت ، وحيازَة اسم السلطان من أولاد قَلَاوُن ، بما أفسَد الترفُ منهم ، وأحال الدولةَ بسَببهم ، الى أن حصَل من ذلك على البُغْية ، ورَضِي به أصحابُه وعصابتُه ؛ فجلَس على التَّخْت في تاسع عشر رمضان من سنة أربع وثمانين ، وتلقَّب بالظاهر . ورتّبَ أهل عصابته في مراتب الدولة ؛ فقام وقاموا بها أحسن قيام ، وانقلبت الدولةُ من آل قلاون الى برقوق الظاهر وبَنيه . واستمرّ الحال على ذلك ،

(١) الأعطاف : الجوانب .

(٢) المقاربة : ترك الغلو في الأمور ، وقصد السداد فيها .

ونافسه اليَلْبُغاوية - رفقاؤه في ولاء يلبُغا - فيما صار اليه من الأمر ، وخصوصاً يَلْبُغا نائبَ حلَب ، فاعتزم على الانتقاض . وشعر به الظاهر فبعث باستدعائه ؛ فجاء وحَبَسه مُدّة ، ثم رجعه الى نيابة حلَب ، وقد وغر صدرُه من هذه المعاملَة . وارتاب به الظاهر ؛ فبعث سنة تسعين دواداره للقبض عليه ، ويستَعين في ذلك بالحاجب . وانتقَض ، واستدعى نائبَ مَلَطْيَة[1] ، وهو منطاش من امراء اليلبُغاوية ، وكان قد انتقض قبله ، ودعا نواب الشام الى المسير الى مصر إلْباً على الظاهر ؛ فأجابوه ، وساروا في جُملته ، وتحت لوائه ؛ وبلغ الخبر الى الظاهر برقوق ؛ فأخرج عساكره مع امراء اليلبغاوية من أصحابه : وهم الدوادار الأكبر يونس[2] ، وجِهَرْكَس الخليلي أمير الاسطبل ، والأتابكي ايتمش ، وأيدكار حاجب الحجاب[3] وأحمد بن يَلْبُغا استاذهم[4] . وخرج النّاصري من حلب في عسكره ،

(١) بفتح الميم واللام ، وسكون الطاء ، ثم ياء مفتوحة ؛ والعامة تكسر الطاء ، وتشدد الياء . تقع فى الشمال الغربي لديار بكر من الجمهورية التركية . ياقوت ٨ / ١٥٠ - ١٥١ ، تاج العروس (ملط) .

(٢) يونس بن عبد الله الأمير سيف الدين الدوادار الأكبر للملك الظاهر ، ويعرف بالنوروري (نسبة الى معتقه الامير جرجي النوروري) . كان من أعاظم دولة الظاهر برقوق ، حارب منطاش ، والناصري ، وعاد في جيش منهزم الى القاهرة ، وفي طريقه قتل سنة ٧٩١ عن نيف وستين سنة . خطط المقريزي ٢ / ٤٢٦ بولاق .

(٣) أيدكار بن عبد الله العمري سيف الدين ، كان أحد أعيان الملك الظاهر ، وولاه حجابة الحجاب . ثم انحاز الى حزب منطاش ، ولما عاد برقوق الى الملك قبض عليه في سنة ٧٩٤ ، وقتله .

(٤) الامير شهاب الدين أحمد بن يلبغا العمري الخاصكي ، كان برقوق مملوكا لوالده ، ولذلك عفا عنه حين انحاز الى الناصري ومنطاش . ولما مات الظاهر ، ثار ايتمش وآخرون بالشام ؛ فانضم اليهم احمد بن يلبغا هذا ، وحاربهم فرج بن الظاهر ؛ فانتصر عليهم ، وقبض على احمد بن يلبغا ، فقتله في سنة ٨٠٢ .

واستنفر العرب والتركمان وامراء الشام ؛ ولما تراءى الجمعان بناحية دمشق ، نَزَع كثير من عسكر السلطان اليهم ، وصدقوا الحملة على من بقي فانفَضُّوا . ونجا ايتمش الى قلعة دمشق ؛ فدخلها ، وقتل جهَرْكَس - ويونس ، ودخل النَّاصري دمشق ؛ ثم أجمع المسير الى مصر ، وعميت أنباؤهم حتى أَطلُّوا على مصر .

وفي خلال ذلك أطلق السلطانُ الخليفةَ من مَحْبِسه كان بعض الغواة أنمَى عنه، أنه داخله شيطان من شياطين الجند ، يعرف بقُرط[1] في قتل السلطان يوم ركوبه الى الميدان قبل ملكه بسنين ، فلما صَحَّ الخبر أمر بقتله ، وحبَس الخليفةَ سبعا الى تلك السنة ، فأطلقه عند هذا الواقع ؛ ولما وصل الى قيطا اجتمعت العساكر ، ووقف السلطان أمام القلعة يومه حتى غَشِيَه الليل ، ثم دخل الى بيته وخرج متنكراً ، وتسرب في غيابات المدينة ، وباكر الناصري وأصحابه القلعة ، وأمير حاج بن الأشرف؛ فأعادوه الى التخت ولقبوه المنصور . وبعثوا عن الأمراء المحبوسين بالأسكندرية ، وكان فيهم أَلطنبُغا الجوباني الذي كان أمير مجلس[2] ، وقبض السلطان الظاهر عليه ،

(١) قرط بن عمر من التركمان المستخدمين في الدولة ، وكان له اقدام وشجاعة وصل بهما الى مرادفة الامراء في مذاهبهم . قتل سنة ٧٨٥ .

(٢) معناه صاحب الشورى في الدولة ، وهو ثاني الأتابك ، وتلو رتبته . العبر م٥ صبح الاعشى ٥ / ٤٥٥ .

وحَبَسه أياما ، ثم أَطلقه وبعثه نائباً على دمشق ، ثم ارتفعت عنه الأقوال بأنه يروم الانتقاض ، وداخل الناصريَّ نائب حلب في ذلك ، وأكّد ذلك عند السلطان ما كان بينه وبين النّاصري من المُصافاة والمخالصة ، فبعث عنه . ولما جاء حبسه بالاسكندرية ؛ فلما ملك الناصري مصر ، وأجلس أمير حاج بن الأشرف[1] على التخت ، بعث عنه ليستعين به على أمره ؛ وارتابوا لغيبة الظاهر ، وبالغوا في البحث عنه ، فاستدعى الجوبانيَّ واستنام له ، واستحلفه على الأمان ؛ فحلف له ، وجاء به الي القلعة بعد أن ساور صاحبه الناصريَّ في المُضِيّ اليه وتأمينه . وحبسوه في بعض قصور الملك ، وتشاوروا في أمره ؛ فأشار امراء اليَلْبُغاوية كلُّهم بقتْله ، وبالَغ في ذلك منطاش ، ووصل نُعَيْر أمير بني مُهَنَّا[2] بالشام للصِّحابة بينه وبين الناصري ، فحضَّهم على قتله ، ومنَع الجوبانيُّ من ذلك وفاءً بيمينه ، فغَلَت صُدورهم منه . واعتزموا على بَعثه الى الكَرَك ، ودافعوا منطاشاً بأنهم يبعثونه الي الأسكندرية ، فيعترضه عند البحر بما شاء من رأيه . ووثق بذلك ،

---

(١) الملك الصالح حاجي بن الاشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، يلقب بالمنصور (غير لقبه من الصالح الى المنصور) ، وخلع نفسه يوم أن عاد برقوق الى الملك .

(٢) نعير بن محمد بن حيار بن مهنا بن مانع ، لبته القدم الراسخة في الإمارة .
وفي ظفر برقوق به ، وبمنطاش ، يقول الشيخ زين الدين بن ظاهر :

الملك الظاهر في عزه   أذل من ضل ومن طاشا
ورد في قبضته طائعاً   نعيرا العاصي ومنطاشا

فقعد له عند المرساة ، وخالفوا به الطريق الى الكَرَك ، وولّوا عليها نائباً وأوصوه به ؛ فأخفق مَسْعَى منطاش ، ودبّر في اغتيال الدولة ، وتمارض في بيته . وجاءه الجوباني عائذا فقبض عليه ، وحبسه بالأسكندرية ، وركب مُنتقِضا ، ووقف عند مدرسة الناصر حسن يحاصر الناصري بالقلعة . واستحاش هو بأمراء اليلبُغاوية ؛ فداهنوا في إجابته ، ووقفوا بالرُّمَيْلَة امام القلعة . ولم يزل ذلك بينهم أياماً حتى انفضّ جمع النّاصري ، وخرج هارباً ؛ فاعترضه أصحاب الطريق بفارسكو ، وردّوه ؛ فحَبَسَهُ منطاش بالأسكندرية مع صاحبه ، واستقلّ بأمر الملك . وبعث الى الكَرَك بقتل الظاهر ؛ فامتنع النّائب ، واعتذر بوقوفه على خط السلطان والخليفة والقضاة . وبثّ الظاهر عطاءهُ في عامّة اهل الكَرَك ؛ فانتدبت طائفة منهم لقتل البَريدي الذي جاء في ذلك ؛ فقتلوه ؛ وأخرجوا الظاهر من محبسه فأصحَروا . واستألف أفاريقَ من العَرب ، واتصل به بعض مَماليكه ، وسار الى الشام . واعترَضه ابن باكيش [1] نائب غَزّة [2] ، فأوقع به الظاهر ، وسار الى دمشق ، وأخرَج منطاش العساكرَ مع سلطانه امير حاج ، وسار على التعبئة ليمانع الظّاهر عن دمشق . وسَبَقه الظاهر فمنعه

(١) الحسن بن باكيش الامير بدر الدين التركماني ، نائب غزة من قبل منطاش . قتله الظاهر بالقاهرة سنة ٧٩٣ ، وكان مشهوراً بالشجاعة .

(٢) مدينة بفلسطين قرب الساحل ، بها ولد الإمام الشافعي ، ويروى له فيها شعر . ياقوت ٦ / ٢٨٩ — ٢٩١ .

جنتمر نائب دمشق [١]؛ فواقعه، وأقام محاصراً له. ووصل اليه كمشبُغا [٢] الحموي نائب حلب، وكان قد أظهر دعوته في عمله، وتجهَّز للقائه بعسكره؛ فلقيه وأزال عِلَله، فأقام له أُبهة الملك. وبيناهم في الحصار إذ جاء الخبر بوُصول منطاش بسلطانه وعساكره لقتالهم، فلقيَهم الظاهر بَشَقْحَب [٣]، فلمَّا تراءي الجمعان، حمَل الظاهر على السُّلطان امير حاج وعساكره ففَضَّهم، وانهزَم كمشبُغا الى حلَب. وسار منطاش في اتّباعه؛ فهجم الظاهر على تعبئة أمير حاج؛ ففَضَّها، واحتازَ السلطانَ، والخليفةَ والقضاة، ووكَل بهم. واختلط الفريقان، وصاروا في عَمْيـاءَ من امرهم، وفرَّ منطاش الى دمشق. واضطرب الظاهر أخبيته [٤]، ونزل على دمشق محاصراً لها. وخرج اليه منطاش من الغَد فهزمه، وجمع القُضاة والخليفة؛ فشهدوا على امير حاج بالَخلْع، وعلى الخليفة بإعادة الظّاهر الى مُلكه. ورحل الى مصر فلقيه بالطريق خبر القلعة بمصر، وتغلُّب مماليكه عليها؛ وذلك أن القلعة لما خلت من السلطان ومنطاش والحامية، وكان مماليك السلطان محبوسين هنالك في مُطبق أُعدّ لهم، فتناجوا في

(١) الامير جنتمر التركماني.

(٢) كمشبغا بن عبد الله الحموي اليلبغاوي الامير سيف الدين. توفي سنة ٨٠١.

(٣) شقحب (كجعفر): موضع قرب دمشق، نسب اليه جماعة من المحدثين. (تاج العروس).

(٤) كذا في الاصول، وهي مكررة في أماكن متعددة من تاريخ العبر. وأظنها محرفة أثناء النسخ عن كلمة (ضرب). فتصبح العبارة: « وضرب الظاهر أخبيته ».

التَّسَوُّر منه الى ظاهره ، والتوثُّب على القلعة والملك ، فخرجوا ، وهرب دوادار منطاش الذي كان هنالك بمن كان معه من الحاشية. وملك مماليكُ الظاهر القلعة ، ورَأَسهم مملوكه بُطَا[1] ، وساس أمرَهم ، وانتظر خبر سلطانه ، فلما وصل الخبر بذلك الى الظاهر ، أغذَّ السَّير الى مصر . وتَلقَّاه الناس فرحين مسرورين بعوده وجَبره . ودخل مُنْتَصَفَ صفر من سنة إحدى وتسعين ، وولَّى بُطا دَواداراً ، وبعث عن الأمراء المحبوسين بالأسكندرية ، وأعتَبهم ، وأعادهم الى مراتبهم. وبعث الجوباني الى دمشق ، والناصري الى حلب كما كانا ، وعادت الدولة الى ما كانت عليه . وولَّى سودون على نيابَته ، وكان ناظراً بالخانقاه التي كنتُ فيها ، وكان يَنقِم عليَّ أحوالاً من مُعاصاته فيما يريد من الأحكام في القضاء أزمانَ كنتُ عليه ، ومن تَصرُّفات دَواداره بالخانقاه ، وكان يَستنيبه عليها ؛ فوَغر صدره من ذلك ؛

---

(١) الأمير بطا الطولوتمري ، خلع عليه الظاهر برقوق في سنة ٧٩٢ دوادارا ، ثم نائب دمشق ، وليها من قبل استاذه في ذي القعدة سنة ٧٩٣ الى ان توفي بها سنة ٧٩٤ . وانظر تفصيل ثورة بطا ومن كان معه من المسجونين ، في « العبر » م ٥ .

وكان الظاهر يَنْقِم علينا مَعْشرَ الفقهاء فتاوى[1] استدعاها مِنَّا مَنْطاش، وأكرَهنا على كتابها؛ فكتبناها، وورّينا فيها بما قدرنا عليه. ولم يقبل السلطان ذلك، وعتب عليه، وخصوصاً عليّ؛ فصادف سودون منه إجابةً في إخراج الخانقاه عَنّي، فولّى فيها غيري وعزَلني عنها. وكتبت الى الجوباني بأبيات أعتذر عن ذلك ليطالعَهُ بها؛ فتغافل عنها، وأعرضَ عني مُدّة، ثم عاد الى ما أعرف من رضاه وإحسانه، ونَصُّ الأبيات:

سيدي والظنونُ فيك جَميلَة   وأياديكَ بالأماني كَفيلَة

(١) في السلوك: «في ٢٥ قعدة، احضرت نسخ الفتوى في الملك الظاهر، وزيد فيها: «واستعان على قتل المسلمين بالكفار، وحضر الخليفة المتوكل، وقضاة القضاة: بدر الدين محمد بن ابي البقاء الشافعي. وابن خلدون، وسراج الدين عمر بن الملقن الشافعي، وعدة دون هؤلاء، في القصر الأبلق، بحضرة الملك المنصور، ومنطاش، وقدمت اليهم الفتوى، فكتبوا عليها باجمعهم، وانصرفوا».

وفي تاريخ ابن الفرات:

«وفي يوم الاثنين اجتمعت الأمراء بالقصر الابلق بقلعة الجبل، بحضرة السلطان الملك المنصور وحاجي، والأمير منطاش، والخليفة محمد، والقضاة الأربعة، والشيخ سراج الدين البلقيني، وولده القاضي جلال الدين عبدالرحمن قاضي العسكر، وقاضي القضاة بدر الدين بن ابى البقاء الشافعي، وقضاة العسكر، ومفتون (كذا) دار العدل، وكتبت فتاوى تتضمن: هل يجوز قتال الملك الظاهر برقوق ام لا؟ وذكروا فى الفتاوى اشياء تخالف الشرع الشريف، ومما تضمنته الفتاوى: انه يستعين على قتال المسلمين بالنصارى، فسألوم (كذا) الجماعة عن ذلك، فقيل لهم ان الملك الظاهر معه جماعة من نصارى الشوبك نحو ٦٠٠ نفس يقاتل بهم في عسكره، ولم يكن الأمر كذلك، وانما ارادوا التلبيس على العلماء المفتيين، فعند ذلك وضعوا (كذا) المذكورون خطوطهم على الفتاوى المذكورة بجواز قتاله، وانفصل المجلس على ذلك ونودي في بكرة هذا النهار في القاهرة لأجناد الحلقة: أن لا يتأخر احد منهم عن العرض، ومن لم يحضر قطع خبزه».

لا تَحُل عن جَميل رأيك إنّي … ماليَ اليومَ غيرُ رأيك حِيلَة
واصطنعني كما اصطنعت بإسْدا … ءِ يَدٍ مِن شفاعة أو وسيلَة
لا تُضِعْني فلستُ منك مُضِيعاً … ذِمّة الحبّ، والأيادي الجميلَة
وأجِرْني فالخَطْب عَضّ بنابَيْـهِ وأجرى الى حِمايَ خُيولَه
ولَو أنّي دَعا بنصْرِيَ داعٍ … كنتَ لي خيرَ مَعشَرٍ وفَصيلَة
أنهِ أمري الى الذي جَعل اللّـه أمورَ الدُنيا له مكفولَة
وأراه في مُلكه الآيةَ الكُبْرى فولاّه ثم كان مُديلَه
أشهدته عناية الله في التمحيص أن كان عَوْنَه ومُنيلَه
العزيزُ السلطان والملكُ الظا … هرُ فخرُ الدنيا وعزُّ القَبيلَة
ومُجيرُ الاسلام من كل خَطْب … كاد زَلزالُ بأسه أن يُزيلَه
ومُديل العدو بالطَّعْنة النَّجْلا … ءِ تُفرّي ماذيَّه ونُصولَه[1]
وشكور لأنعم الله يُفْني … في رضاه غُدُوَّه وأصيلَه
وتلطَّفْ في وصف حالي وشَكْوَى … خَلّتي[2] يا صفيَّه وخَليلَه
قل له والمقالُ يَكرُمُ من مثـ … ـلك في مَحفِل العُلا أن يَقُولَه
يا خوندَ الملوك يا معدل الدّ … هرِ إذا عَدّل[3] الزمان فُصُولَه
لا تقصِّر في جبر كسْرى فما زِلْـتُ أرجّيك للأيادي الطَّويلَة

(١) الطعنة النجلاء : الواسعة العريضة . وتفري : تشق . والماذي (بالمعجمة) : كل سلاح من الحديد . والنصول جمع نصل ؛ وهو حديدة السهم .
(٢) الخلة (بالفتح) : الحاجة ، والفقر .
(٣) عدل الحكم : اقامه ، والميزان سواه .

أنا جارٌ لكم منعتم حماه ونَهجتم الى المعالي سَبيلَه
وغريب أنستُموه على الوَحشَة والحُزْن بالرضى والسُّهولَة
وَجمعتم من شَمله فقضي اللـهُ فراقاً وما قَضَى مأمولَه
غالَه الدّهرُ في البنين وفي الأهـ ـل وما كان ظنُّه أن يَغُولَه[1]
وَرَمته النَّوَى[2] فقيداً قد اجتَاحت عليه فُروعَه وأُصولَه
فجذبتم بضَبْعِه[3] وأنلتُم كل ما شاءت العُلا أن تُنيلَه
ورفعتم من قدره قبل أن يشـكو إليكم عياءَه وخُمُولَه
وفرضتم له حَقيقةَ وُدٍّ حاش لله أن تُرَى مُستَحيلَة
همةٌ ما عرفتُها لسواكم وأنا من خَبرتُ دهري وجيلَه
والعِدا نمَّقوا أحاديثَ إفكٍ كلها في طرائق معلولَة
روّجوا في شأني غرائب زور نصبوها لأمرهم أحبُولَة
ورَموا بالذي أرادوا من البهتان ظنا بأنها مقبولَة
زعموا أنني أتيت من الأقوا ل ما لا يُظنُّ بي أن أقولَه
كيف لي أغمطُ الحقوق وأنِّي شكرُ نَعماكم عليّ الجزيلة ؟
كيفَ لي أنكرُ الأيادي التي تعـ ـرِفها الشَّمسُ والظِّلالُ الظليلة ؟
إن يكن ذا فقد برئتُ من اللـه تعالى وخُنتُ جهراً رسولَه

(١) يشير الى غرق اهله في المركب الذي اقلهم من المغرب ، وقد تقدم له ذكر هذا .
(٢) النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب او بعد . وهي مؤنثه لا غير .
(٣) الضبع : العضد .

طوقونا أَمر الكتاب فكانت لقداح الظنون فينا مُجيلَة[1]
لا ورَبِّ الكتاب أَنزله اللّـه على قلبِ من وَعى تنزيلَه
ما رضينا بذاك فعلًا ولا جئـناهُ طوعاً ولا اقتفينا دليلَه
إنما سامنا الكتابَ ظلُوم لا يُرَجى دِفاعُه بالحيلَة
سَخَطٌ ناجزٌ وحِلمٌ بَطيءٌ وسلاح[2] للوخز فينا صَقيلَة
ودعوني ولست من مَنصِب الحكم ولا سَاحباً لَديهم ذُيولَه
غيرَ أَنِّي وَشى بذكريَ واش يتقَصَّى أَوتارَه وذُحولَه[3]
فكتبنا معوِّلين على حلـمك تمحو الاصار عَنَّا الثَّقيلَة
ما أَشرنا بهِ لِزيد ولا عمـرو ولا عَيَّنُوا لَنا تفصيلَه
إنما يذكرون عمَّن وفيمَن مُبهماتٍ أَحكامُها منقولَة
ويظنُّون أَنَّ ذاك على ما اضمروا من شناعةٍ او رذيلة
وهو ظنٌّ عن الصَّواب بعيدٌ وظلَامٌ لم يُحسِنُوا تأويلَه
وجناب السُّلطان نزَّهه اللـهُ عن العاب[4] بالهُدَى والفَضيلَة
وأَجلُّ الملوك قدراً صفوحٌ يَرْتجي ذنبَ دَهره لِيُقيلَه
فاقبلوا العُذرَ إِنَّنا اليومَ نرُجو بحياةِ السُّلطان منكم قبُولَه

(١) يشير الى الفتوى السالفة الذكر عن المقريزي وابن الفرات .
(٢) السلاح : آلة الحرب ، او حديدته ، ويؤنث .
(٣) اوتار جمع وتر ، بمعنى الذحل . والذحل : العداوة ، والجمع ذحول .
(٤) العاب : العيب .

واعينوا على الزّمان غريباً يشتكي جَدْب عَيشِه ومُحُولَه

جارُكم ضيفُكم نزيلُ حِماكم لا يُضيعُ الكريمُ يوماً نَزيلَه

جَدِّدوا عندَه رُسومَ رضاكم فرُسومُ الكرام غيرُ مُحيلَة

داركوه برحمة فلقد أم سَتْ عقودُ اصطباره محلولَة

وانحَلوه جَبْرا فليس يُرجّي غيرَ إحسانكم لهَذي النَّحيلَة

يا حميدَ الآثار في الدهر يا أَطنُبُغا يا رَوْض العُلا ومَقيلَه

كيفَ بالخانقاه ينقلُ عنّي لا لذَنب او جُنحَةٍ مَنقولَة

بل تقلّدتُها شَغُوراً برُسو مٍ شَريفٍ وخِلعة مَسْدُولَة

ولقد كنت آملًا لسواها وسواها بوعْدِه ان يُنيلَه

وتوثّقتُ للزّمان عليها بعقود ما خِلتُها محلولَة

أبلغَن قِصَّتي فمثلُك من يَقْ صِدُ فعل الحسنى بمن ينتمي لَه

واغنَموا من مثوبتي ودعائي قُرْبةً عند ربكم مقبولَة

وفي التَّعريض بسَفَره الى الشام :

واصحَبِ العزّ ظافراً بالأماني واترُكِ العُصبةَ العِدا مَفلولَة

واعتَمِل في سعادة الملك الظّا هر أن تمحو الأذى وتُزيلَه

وتُعيدَ الدُّنيا لأحسَنِ شملٍ حين تُضحي بسَعْده مشمُولَة

واطلُب النَّصر من سَعادته يصـحَبْك دأباً في الظعن والحيلُولَة

وارتَقِب ما يُحِلُّه بالأعادي في جُمادَى او زد علَيه قَليلَه
وخذُوه فألاً بحُسن قَبولٍ صدَّق الله في الزمان مقُولَه
فلقد كان يَحسُنُ الفالُ عِندالـمصطفى دائما ويَرضى جَميلَه

السعاية في المهاداة والاتحاف بين ملوك المغرب والملك الظاهر

كثيراً ما يتعاهد الملوك المتَجاورون بعضُهم بعضاً بالاتحاف بُطرَف أوطانهم، للمُواصلة والاعانة مَتَى دعا اليها داع. وكان صلاح الدين ابنُ أيوب هادى يَعقوبَ المنصورَ ملكَ المغرب من بني عبد المؤمن، واستجاش به بأسطوله في قَطْع مَدَد الفرنج عن سواحل الشَّام حين كان مَعْنِيّاً بإرجاعهم عنها، وبَعَث في ذلك رسولَه عبد الكَريم بن مُنقذ [1] من أُمَراء شَيْزَر [2]، فأكرَم المنصورُ رَسولَه، وقعد عن إجابته في الأسطول لِما كان في الكتاب اليه [3] من العدُول عن

---

(١) هكذا سماه ابن خلدون هنا، وفي «المقدمة»؛ وفي «وفيات ابن خلكان» (٢ / ٤٣٣)، والروضتين لأبي شامة ١ / ١٧٣، والاستقصاء ١/ ١٧٤، ان اسمه عبدالرحمن.
وهو شمس الدين ابو الحرث (وكناه في الروضتين ابا الحزم)، عبدالرحمن بن نجم الدولة ابي عبدالله محمد بن مرشد، المتوفى سنة ٦٠٠ بالقاهرة، والمولود بشيزر سنة ٥٢٣.

(٢) قرية قرب المعرة بينها وبين حماة، فتحت سنة ١٧ هجرية، ومنها الامراء من بني منقذ، وأول من ملكها منهم من يد الروم علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، وذلك في سنة ٤٧٤. ياقوت ٥ / ٢٣٤، وفيات ١ / ٤٦٤، تاريخ ابى الفداء ٢ / ٣٥٢ (سنة ٥٠٢). وانظر اخبار بني منقذ في تاريخ ابي الفداء ايضاً ٣ / ٣٢ وما بعدها.

(٣) جاء في الروضتين (٢ / ١٧٠-١٧٥) نص الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل الى المنصور الموحدي، ونص رسالة اخرى مضمونها تكليف الأمير ابن منقذ هذا بالسفارة الى الموحدين.

تخطيطه[١] بأمير المؤمنين ؛ فوجدها غصّة في صدره منعته من إجابته الى سؤاله ؛ وكان المانع لصلاح الدين من ذلك كاتبه الفاضل عبد الرحيم البيساني[٢] بما كان يشاوره في أموره ، وكان مقيماً لدعوة الخليفة العبّاسي بمصر ؛ فرأى الفاضل أن الخلافة لا تنعقد لاثنين في الملّة كما هو المشهور ، وإن اعتمد أهل المغرب سوى ذلك ، لما يرون أنّ الخلافة ليست لقباً فقط ، وإنما هي لصاحب العصبية القائم عليها بالشدّة والحماية ؛ والخلاف في ذلك معروف بين أهل الحقّ . فلما انقرضت دولة الموحّدين ، وجاءت دولة بني مرين من بعدهم ، وصار كبراؤهم ورؤساؤهم يتعاهدون قضاء فرضهم لهذه البلاد الشرقيّة ، فيتعاهدهم ملوكها بالاحسان اليهم ، وتسهيل طريقهم ؛ فحسُن في مكارم الأخلاق انتحال البرّ والمواصلة ، بالاتحاف والاستطراف والمكافأة في ذلك بالهمم الملوكية ؛ فسُنّت لذلك طرائق وأخبار مشهورة ، من حقّها أن تذكر ؛ وكان يوسف بن يعقوب بن عبد الحقّ ثالث ملوك بني مرين ، أهدى لصاحب مصر عام سبعمائة[٣] ، وهو يومئذ النّاصر بن محمد بن قلاون ، هديةً ضخمة ، أصحبها كريمةً من كرائم داره ، احتفل فيها ما شاء من أنواع

---

(١) تحليته .

(٢) عبد الرحيم بن الأشرف بهاء الدين ... العسقلاني ، ثم المصري المعروف بالقاضي الفاضل مجير الدين (٥٢٩-٥٩٦) . وفيات ١/ ٣٥٧ وما بعدها .

(٣) انظر العبر م٥ ، والاستقصا ٢/ ٤٠ - ٤١ ، حيث تجد تفصيل الحديث عن هذه الهدية .

الطُّرَف ، وأصناف الذَّخائر ، وخصوصاً الخيلَ والبغال .

أخبرني الفقيه ابو إسحق الحَسّناوي ، كاتب الموحِّدين بتُونِس ، أنه عاين تلك الهَدية عند مُرورها بتُونِس ، قال : وعددت من صِنف البغال الفارهة فيها أربعمائة ، وسكتَ عما سوى ذلك . وكان مع هذه الهدية من فقهاء المغرب، ابو الحَسَن التَّنَسيّ كبيرُ أهل الفُتْيا بتِلِمْسان . ثم كافأ النَّاصرعن هذه الهدية بأعلى منها وأحفل[1] مع أميرين من أمراء دولته ، أدركا يوسفَ بنَ يعقوب وهو يُحاصر تِلِمسان ، فبعثهما الى مرّاكُش للنَّزاهة[2] في محاسنها ، وأدركه الموتُ في مَغيبهما ، ورَجعا من مرّاكُش ؛ فجهَّزهما حافدُه ابو ثابت المالك بعدَه ، وشيَّعهما الى مِصر ؛ فاعترَضتهما قبائل حُصَين ونَهَبوهما[3] ، ودَخلا بِجاية ، ثم مَضَيا الى تُونِس ، ووصلا من هنالك الى مصر .

ولما ملك السلطان ابو الحسن تِلمسان ، اقترَحتْ عليه جاريةُ أبيه

---

(١) جاء في الاستقصا : ٢ / ٤١ : « .... وأما الملك الناصر ، فانه كفأ السلطان يوسف على هديته ، بأن جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله ، من الثياب والحيوانات ، ونحو ذلك ، مثل الفيل والزرافة ونحوهما ، وأوفد به مع عظماء دولته سنة ٧٠٥ » .

(٢) استعمال النزاهة ، والنزهة بهذا المعنى مختلف فيه بين اللغويين . وانظر تاج العروس « نزه » ، حيث تجد اقوالهم .

(٣) في الاستقصا : ٢ / ٤٢ : « .... ولما انتهوا الى بلاد بني حسن في سنة ٧٠٨ ، اعترضتهم الأعراب بالقفر ، فانتهبوهم ، وخلصوا الى مصر بجريعة الذقن ، فلم يعاودوا بعدها سفراً ، ولا لفتوا اليه وجهاً ، وطالما اوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه له ، ويهادونهم ويكافئون ، ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئاً » .

أبي سعيد ، وكانت لها عليه تربية ؛ فأرادت الحج في أيامه وبعنايته ؛ فأذن لها في ذلك ، وبعث في خدمتها وليّه عريف بن يحيى من أمراء سويد، وجماعة من امرائه وبطانته، واستصحبوا هدية منه للملك الناصر احتفل فيها ما شاء . وانتقى من الخيل العتاق ، والمطايا الفره وقماش الحرير والكتان ، والصوف ومدبوغ الجلود الناعمة ، والأواني المتخذة من النحاس والفخار المخصوص كل مصر من المغرب بأصناف من صنائعها ، متشابهة الأشكال والأنواع ، حتى لقد زعموا انه كان فيها مكيلة من اللالي والفصوص ، وكان ذلك وقر خمس مائة بعير ، وكانت عتاق الخيل فيها خمس مائة فرس ، بالسروج الذهبية المرصّعة بالجواهر ، واللجم المذهبة ، والسيوف المحلاة بالذهب واللآلىء ؛ كانت قيمة المركب الأول منها عشرة آلاف دينار ، وتدرّجت على الولاء إلى آخر الخمس مائة ؛ فكانت قيمته مائة دينار . تحدّث الناس بهذه الهدية دهراً ، وعرضت بين يدي الملك النّاصر، فأشار إلى خاصكيته بانتهابها فنهبت بين يديه ، وبولغ في كرامة أولئك الضيوف، في إنزالهم وقراهم وإزوادهم الى الحجاز وإلى بلادهم ؛ وبقي شأن الهدية حديثاً يتجاراه الناس في مجالسهم وأسمارهم ؛ وكان ذلك عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة. ولما فصل[1] أرسال ملك المغرب ،

(١) فصل من البلد : خرج عنه . وقد استعمل ابن خلدون « ارسال » جمع رسول في اماكن متفرقة من كتاب العبر .

وقد قضوا فرضهم ، بعث الملك الناصر معهم هدية كفاء هديتهم ، وكانت أصنافها حمل القماش من ثياب الحرير والقماش المصنوعة بالأسكندرية ، تحمل كل عام إلى دار السلطان ، قيمة ذلك الحمل خمسون ألف دينار ، وخيمة من خيام السلطان المصنوعة بالشام عل مثال القصور ، تشتمل على بيوت للمراقد ، وأواوين للجلوس والطبخ ، وأبراج للاشراف على الطرقات ، وأبراج أحدها لجلوس السلطان للعرض ؛ وفيها تمثال مسجد بمحرابه ، وعمده ، ومأذنته ؛ حوائطها كلها من خرق الكتان الموصولة بحبك الخياطة مفصلة على الأشكال التي يقترحها المتخذون لها . وكان فيها خيمة أخرى مستديرة الشكل ، عالية السمك ، مخروطة الرأس ، رحبة الفناء ، تظل خمس مائة فارس او أكثر ، وعشرة من عتاق الخيل بالمراكب الذهبية الصقيلة ، ولجمها كذلك ؛ ومرت هذه الهدية بتونس ، ومعها الخدام القائمون بنصب الأبنية ، فعرضوها على السلطان بتونس وعاينت يومئذ أصناف تلك الهدية ، وتوجهوا بها الى سلطانهم ، وبقي التعجب منها دهراً على الألسنة . وكان ملوك تونس من الموحدين ، يتعاهدون ملوك مصر بالهدية في الأوقات .

ولما وصلت الى مصر ، واتصلت بالملك الظاهر ، وغمرني بنعمه وكرامته ، كاتبت السلطان بتونس يومئذ ، وأخبرته بما عند الملك

الظّاهر من التَّشوُّف الى جِياد الخيل، وخصوصاً من المغرب، لما فيها [من تحمُّل] الشِدّة والصَّبر على المتاعب، وكان يتولى مثلَ ذلك، وأنّ خيلَ مصر قصَّرت بها الرّاحة والتَّنعُّم، عن الصَّبر على التَّعب؛ فحَضَضتُ السلطانَ بتُونس على إتحاف الملك الظاهر بما يَنتقيه من الجياد الرّائعة، فبعث له خمسةً انتقاها من مراكبه، وحملها في البَحر في السَّفين الواصل بأهلي وولدي؛ فغرقت بمرسى الأسكندرية، ونفَقت تلك الجياد، مِعَ ما ضاع في ذلك السَّفين، وكلُّ شيء بقدَر.

ثم وَصلَ إلينا عامَ ثلاثة وتسعين شيخُ الأعراب: المَعْقِل بالمغرب، يُوسف بن عليّ بن غانم، كبير أولاد حُسَين ناجياً من سَخَط السلطان أبي العبَّاس احمد بن أبي سالم، من ملوك بني مَرين بفاس، يَروم قَضاء فَرضه، ويتوسّل بذلك لرِضى سُلطانه؛ فوَجد السلطان غائباً بالشام في فِتنَة منطاش؛ فعَرضتُه لصاحب المَحْمل. فلمَّا عادَ من قَضاء فَرضه، وكان السلطانُ قد عاد من الشام، فوَصلتُه به، وحضَر بين يديْه، وشَكا بَثّه؛ فكتب الظاهر فيه شفاعةً لسلطان وطنه بالمغرب، وحمَّله مع ذلك هديةً اليه من قُماش وطيب وقِسيّ، وأوصاه بانتقاء الخيل له من قُطر المغرب، وانصرف؛ فقبِل سلطانُه فيه شفاعةَ الظّاهر، وأعادَه الى مَنزلته. وانتقى الخيولَ الرائعة لمهاداة الملك الظاهر، وأحسَن في انتقاء أصناف الهدية؛ فعاجلته المنيَّة

دُون ذلك ، وولي ابنُه ابو فارس ، وبقي أياماً ثمَّ هلك ، وولي أخوه ابو عامر ، فاستكمل الهدية ، وبعثها صُحبةَ يوسف بن علي الوارد الأول .

وكان السلطان الملك الظاهر ، لما أبطأ عليه وصولُ الخيل من المغرب ، أراد أن يبعثَ من أمرائه من ينتقي له ما يشاء بالشِّراء ، فعيَّن لذلك مملوكاً من مماليكه منسوباً الى تربية الخليلي ، اسمه قُطْلُوبُغا[1] ، وبعثَ عنِّي ، فحضرتُ بين يَديه ، وشاورني في ذلك فوافقتُه ، وسألني كيف يكون طريقُه ، فأشرت بالكتاب في ذلك الى سلطان تُونِس من الموحّدين[2] ، وسلطان تِلِمسان من بني عبد الواد ، وسلطان فاس والمغرب من بني مَرين ، وحمَّله لكل واحد منهم هدية خَفِيفَةً من القُماش والطيب والقِسِيّ ، وانصرف عامَ تسعة وتسعين الى المغرب ، وشيَّعه كل واحد من مُلوكه الى مأمنه ، وبالغ في إكرامه بما يتعيَّن . ووصلَ إلى فاس ، فوجد الهَدية قد استكملت ، ويوسفَ بنَ عليّ على المسير بها عن سلطانه أبي عامر من ولد السلطان أبي العباس المخاطب أوّلا . وأظلّهم عيدُ الأضحى بفاس ، وخرجوا

(١) هو قطلوبغا بن عبدالله المتوفى سنة ٨٢١ . تولى نيابة الاسكندرية والحجابة أيام الظاهر ، ونيابة الإسكندرية أيام المؤيد . قال في المنهل : وأظنه من مماليك جاركس الخليلي امير اخور ، والله اعلم .

(٢) هو ابو العباس احمد بن محمد بن ابي بكر بن ابي حفص الموحدي .

متوجهين الى مصر ، وقد أفاض السُّلطان من إحسانه وعطائه ، على الرّسول قُطْلُوبُغا ومن في جُمْلته بما أَقرَّ عيونَهم ، وأطلق بالشكر ألسنتَهم ، وملأ بالثناء ضمائرهم ، ومَرُّوا بتِلِمْسان ، وبها يومئذ ابو زَيَّان ، ابنُ السلطان ابي حَمُّو من آل يَغْمراسن بن زَيَّان ، فبعث معهم هديةً أخرى من الجياد بمراكبها ، وكان يَحُوكُ الشِّعر ، فامتدح الملك الظاهر بقصيدة بَعَثَها مع هديته ، ونَصُّها من أولها الى آخرها :

لمن الرَّكائب سَيْرهن ذَميلُ[1] والصَّبْرُ — إلّا بعدَهن — جَميلُ
يا أيُّها الحادِي رُوَيْدَكَ[2] إنَّها ظُعُنٌ[3] يَمِيلُ القَلْبُ حيثُ تَميلُ
رفقاً بمن حملَتْه فوق ظُهُورها فالحسنُ فوقَ ظهورها محمولُ
لله آيةُ أنجم : شَفَّافة تنجاب عنها للظلام سدولُ
شُهُبٌ بآفاق الصدور طلوعها ولها بأستار الجدول أفولُ
في الهَوْدَح المَزْرُورِ منها غادةٌ تَرَعُ الدُّجى بجبينها فيحولُ
فكأنها قمر على غُصْنٍ على مَتنَي كثيبٍ والكَثيب مَهيل
ثارَت مَطايا فثارَ بيَ الهوَي واعتادَ قلبي زَفرةٌ وغَليلُ
أوَمت لِتوديعي فغالبَ عَبْرتي نظرٌ تخالسُه العيون كليلُ

(١) الذميل : ضرب من سير الإبل فوق التزيد .
(٢) رويدك : اسم فعل بمعنى أمهل .
(٣) جمع ظعينة ؛ وهي المرأة تكون في الهودج ، والهودج نفسه .

دمع أغيّض منه خوفَ رقيبها طوراً ويغلبني الأسى فيسيلُ
ويحَ المحبِّ وشت به عبراته فكأنّها قالٌ عليه وقيلُ
صانَ الهوى وجفونه يوم النّوى لمصون جوهر دمعهن تذيلُ
وتهابه أسدُ الشّرى في خيسها[1] ويروعه ظبيُ الحمى المكحولُ
تأبى النفوسُ الضّيمَ إلاّ في الهوى فالحرُّ عبدٌ والعزيز ذليلُ
يا بانةَ الوادي ويا أهلَ الحمى هل ساعةٌ تصغين لي فأقولُ
ما لي إذا هبّ النسيم من الحمى أرتاحُ شوقاً للحمى وأميلُ
خلّوا الصّبا يخلُص إليّ نسيمُها إن الصّبا لصبابتي تعليلُ
ما لي أحلاً عن ورود محلّه وأذادُ عنهُ وورده منهولُ[2]
والباب ليس بمرتج[3] عن مرتج[4] والظنُّ في المولى الجميل جميلُ

* *

من لي بزورة روضة الهادي الذي ما مثله في المرسلين رسولُ
هو أحمد ومحمدٌ والمصطفى والمجتبى وله انتهى التفضيل
يا خيرَ من أهدى الهدى وأجلّ من أثنى عليه الوحي والتّنزيلُ

(١) الخيس : موضع الأسد.
(٢) حلأ الإبل عن ورود الماء : منعها، وذادها.
(٣) باب مرتج : مغلق.
(٤) من الرجاء.

وحيٌ من الرَّحمن يُلقيه على قَلبِ النَّبي محمدٍ جبريلُ
مدحتك آياتُ الكتابِ وبَشَّرت بقدومك التَّوراةُ والانجيلُ
صِلةُ الصَّلاةِ عليك تحلو في فمي مَهما تَكرَّر ذِكرُكَ المعسولُ
فوَرَبعكَ المأهولِ إن بأضلُعي قلباً بحُبِّك ربْعُه مأهولُ
هل من سبيلٍ للسُّرى حتى أرى خيرَ الورى فهو المُنى والسُّولُ
حتَّامَ تمطُلُني اللَّيالي وعدَها إنَّ الزَّمان بوعدِه لبَخيلُ
ما عاقني إلاَّ عظيمُ جرائمي إن الجرائمَ حملُهنَّ ثقيلُ
أنا مُغرم فتعطَّفوا انا مُذنِب فتجاوزوا أنا عاثِر فأقيلوا
وأنا البَعيدُ فقرِّبوا والمُستَجيرُ فأمِّنوا والمُرتجَى فأنيلوا
يا سائقاً نحو الحجاز حَمُولةً[1] والقَلب بين حُمُولِهِ[2] محمولُ
لمحمَّدٍ بلِّغ سلامَ سَميِّهِ فذِمامُه بمحمدٍ موصولُ
وَسل الاله له اغتفارَ ذنوبه يُسمَعْ هناكَ دعاؤكَ المقبولُ

∴

وعن المليك أبي سعيدٍ فلتَنُبْ فلَكَمْ له نحوَ الرَّسول رَسُولُ
مَتَحَمِّلٌ لله كِسوة بيتِه يا حبَّذاكَ المَحمِلُ المحمولُ
سَعْدُ المليك أبي سَعيدٍ إنَّه سَيفٌ على أعدائه مَسلولُ

(١) الحمولة (بالفتح) : ما يحمل عليه الناس من الدواب .
(٢) الحمول جمع حمل ، وهو ما حمل على ظهر الدابة .

مَلِكٌ يَحُجُّ المَغْرِبِ الأقصى بِهِ ... فَلَهُم به نَحوَ الرَّسولِ وُصولُ[1]

مَلِكٌ به نامَ الأنامُ وأُمِّنَتْ ... سُبُلُ المَخافِ[2] فلا يُخافُ سَبيلُ

فالمُلكُ ضَخْمٌ والجَنابُ مؤمَّلٌ ... والفَضْلُ جَمٌّ والعَطاءُ جَزيلُ

والصُّنْعُ أجملُ والفَخارُ مؤثَّلٌ ... والمَجْدُ أكمَلُ والوَفاءُ أصيلُ

يا مالِكَ البَحْرينِ بُلِّغْتَ المُنى ... قَد عادَ مِصرُ على العِراقِ يَصُولُ

يا خادِمَ الحَرَمينِ حقٌّ لكَ الهَنا ... فعليكَ مِن رَوْحِ[3] الإلهِ قَبولُ

يا مُتحِفي ومُفاتِحي بِرَسالةٍ ... سَلْسالةٍ يُزْهى بها التَّرسيلُ

أهديتَها حَسْناءَ بِكراً ما لها ... غَيري، وإن كَثُرَ الرِّجالُ، كَفيلُ

ضاءَ المِدادُ مِن الوِدادِ بِصُحْنِها ... حتى اضمَحلَّ عُبوسُهُ المَجبولُ[4]

جُمِعَت وحامِلَها بِحَضْرَتِنا كما ... جُمِعَت بُثَيْنَةُ في الهوى وجَميلُ[5]

وتأكَّدَت بِهَديَّةٍ ودِيَّةٍ ... هي للإخاءِ المُرتَضى تَكميلُ

أطلَعْتَ فيها لِلقِسِيِّ أهِلَّةً ... يَرتَدُّ عنها الطَّرْفُ وهو كَليلُ

وحُسامَ نَصْرٍ زاهِياً بِنُضارِهِ ... راقَ العُيونَ فِرِنْدُهُ المَغسولُ

ماضي الشَّبا[6] لِمَصابِهِ تَعنو الظُّبا ... فَبِهِ تَصولُ على العِدا وتَطولُ

---

(١) كانت العناية التي يلقاها الحجاج المغاربة من ملوك مصر ، مما يقدره ملوك المغرب التقـدير الجميل ، وكان مما يقلقهم ان يتعرض وفد الحجاج المغاربة للمتاعب في سفره . صبح الأعشى ٩ / ٥٠.

(٢) المخاف : موضع الخوف .

(٣) روح الاله : رحمته .

(٤) يعني : اضمحل العبوس الطبيعي .

(٥) جميل بن عبدالله بن معمر العذري ، وبثينة صاحبته التي عشقها منذ ايام صباه .

(٦) الشباة : حد السيف وطرفه ، والجمع شبا .

وبدائعَ الحُلَلِ اليمانيةِ التي رَوَّى معاطفَها بمصر النيلُ
فأجلتُ فيها ناظري فرأيتُها تُحَفاً يجول الحسنُ حيث تجول
جلَّت محاسنُها فأهوى نحوَها بفَم القبول اللَّثْمُ والتَّقْبيلُ
يا مُسْعِدي وأخي العزيزَ ومُنْجِدي ومن القلوب إلى هواه تميلُ
إن كان رَسْم الودِّ منك مذيَّلا بالبرِّ وهو بذيله موصولُ
فنظيرُه عندي وليس يَضِيرُه بمعارضٍ وَهْمٌ ولا تخييلُ
ودٌّ «يزيدُ» و«ثابتٌ» شهدا به و«لخالدٍ» بخُلودِه تذييلُ
وإليكها تُنبيك صدقَ مودَّتي صحَّ الدليلُ ووافقَ المدلولُ
فإذا بذاك المجلسِ السَّامي سَمَتْ فلديك إقبالٌ لها وقَبولُ
دام الودادُ على البِعاد موصِّلا بينَ القلوب وحبلُه موصولُ
وبقيتَ في نِعَمٍ لديك مزيدُها وعليك يضفو ظلُّها المسدُولُ

ثم مَرُّوا بعدَها بتونس، فبعث سلطانُ تونس أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي العبَّاس من مُلوك الموحِّدين، هديةً ثالثةً انتقَى لها جيادَ الخيل، وعزَّز بها هديةَ السلطانين وراءه، مع رسوله من كبار الموحِّدين أبي عبد الله ابن تافراكين؛ ووصلت الهدايا الثلاث إلى باب الملك الظَّاهر في آخر السَّنة، وعُرِضت بين يدي السلطان، وانتهب الخاسكية ما كان فيها من الأقمشة

والسُّيوف والبُسُط ومراكب الخَيل ، وحمل كثيراً منهم على كثير من تلك الجياد وارتبط الباقيات .

وكانت هديَّةُ صاحبِ المغرب تشتَمل على خمسةٍ وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللُّجُم الذهبية ، والسيوف المحلاَّة ، وخمسةٍ وثلاثين حِملاً من أقمشة الحرير والكتَّان والصوف والجلد ، منتقاةً من أحسن هذه الأصناف .

وهديةُ صاحب تلمسان تشتمل على ثلاثين من الجياد بمراكبها المُمَوَّهة ، وأحمالاً من الأقمشة .

وهديةُ صاحب تونس تشتمل على ثلاثين من الجياد مُغَشَّاةً ببراقع الثياب من غير مَراكب ، وكلها أنيق في صُنعِه مُستطرَف في نوعِه ؛ وجلَس السُّلطان يَوم عرضِها جلوساً فَخماً في إيوانه ، وحضر الرُّسل ، وأدَّوا ما يجب عن ملوكهم . وعامَلهم السلطان بالبرِّ والقَبُول ، وانصرفوا الى منازلهم للجرايات الواسعة ، والأحوال الضَّخمَة . ثم حضرَ وقتُ خرُوج الحاجّ ، فأستأذنوا في الحجّ مع محمِل السلطان ، فأذن لهم ، وأرغد أزوِدتهم . وقضَوا حجَّهُم ، ورجَعُوا إلى حضرة السلطان ومعهود مبرَّته . ثم انصرفوا

إلى مواطنهم ، وشيَّعهم من برّ السلطان وإحسانه ، ما ملأ حقائبهم ، وأسنى ذخيرتهم ، وحصل لي أنا من بين ذلك في الفخر ذكرٌ جميل بما تناولتُ بين هؤلاء الملوك من السَّعْي في الوُصلة الباقية على الأبد ، فحمدت الله على ذلك .

ولاية القضاء الثانية بمصر

ما زلتُ ، منذُ العزل عن القضاء الأوّل سنة سبعٍ وثمانين ، مكبّاً على الاشتغال بالعلم ، تأليفاً وتدريساً ؛ والسلطان يولّي في الوظيفه من يراه أهلاً متى دعاه الى ذلك داع ، من موت القائم بالوظيفة ، او عزله ؛ وكان يراني الاوْلَى بذلك ، لولا وجودُ الذين شَغَبوا من قبلُ في شأني ، من أمراء دولته ، وكبار حاشيته ، حتى انقرضوا . واتفقت وفاةُ قاضي المالكية إذ ذاك ناصر الدين بن التَّنَسي[1] ، وكنتُ مقيماً بالفيوم لضَمِّ زرعي هنالك ؛ فبعث عنّي ، وقلّدني وظيفة القضاء في منتصف رمضان من سنة إحدى وثمانمائة ؛ فجريتُ على السَّنَن المعروف مني ، من القيام بما يجب للوظيفة شرعاً وعادة ؛ وكان رحمه الله يَرضى بما يَسمع عنّي في ذلك . ثم أدركته

(١) هو احمد بن محمد بن عطاء الله بن عوض الزبيري الاسكندري المالكي المشهور بابن التنسي (بفتح التاء والنون وكسر السين المهملة) ، ولد سنة ٧٤٠ ، وتوفي سنة ٨٠١

الوفاة في منتصف شوال بعدها ، وأحضر الخليفة والقضاة والأمراء ، وعهد الى كبير أبنائه فرج ، ولاخوته من بعده واحداً واحدا ، وأشهدهم على وصيته بما أراد . وجعل القائم[1] بأمر ابنه في سلطانه الى أتابكه ايتمش[2] ، وقضى رحمة الله عليه ، وترتبت الأمور من بعده كما عهد لهم ، وكان النائب بالشام يومئذ أمير من خاسكية السلطان يعرف بتنم[3] ، وسمع بالواقعات بعد السلطان فغص أن لم يكن هو كافل ابن الظاهر بعده ، ويكون زمام الدولة بيده . وطفق سامرة الفتن يغرونه بذلك ، وبينما هم في ذلك إذ وقعت فتنة الأتابك[4] أيتمش ، وذلك أنه كان للأتابك دوادار غر يتطاول الى الرئاسة ، ويترفع على أكابر الدولة بحظه من أستاذه ، وما له من الكفالة على السلطان ؛ فنقموا حالهم مع هذا الدوادار ، وما يسومهم به من الترفع عليهم ، والتعرض لاهمال نصائحهم ؛ فأغروا السلطان بالخروج عن ربقة الحجر ، وأطاعهم في ذلك ، وأحضر القضاة بمجلسه

(١) كذ بالأصل ؛ ولعلها « القيام بأمر » .

(٢) هو أيتمش بن عبدالله الأسندمري البجاسي الجرجاني الأمير سيف الدين؛ اتابك العساكر بالديار المصرية ؛ أصله من مماليك اسندمر البجاسي الجرجاني (نسبة الى جرجي نائب حلب) وكان ملك ايتمش قبل أن يحرره الظاهر برقوق .

(٣) الأمير سيف الدين تنم بن عبد الله الحسني الظاهري ؛ اسمه الاصلي تنبك ؛ وغلب عليه « تنم » ؛ كان نائب دمشق ؛ وهو من مماليك الظاهر برقوق ؛ قتل سنة ٨٠٢ بقلعة دمشق .

(٤) يطلق « اتابك » في أيام المماليك ؛ على مقدم العساكر او القائد العام ؛ على انه ابو العساكر والامراء جميعاً . وهو مركب من كلمتين : « أتا » بمعنى « أب » ؛ و « بك » ومعناها أمير . صبح الأعشى ٤ / ١٨ ، ٦ / ١ .

للدّعوى على الأتابك باستغنائه عن الكافل ، بما عُلِم من قيامه بأمره وحُسن تصرفاته . وشهِد بذلك في المجلس أمراءُ أبيه كافّة ، وأهلُ المراتب والوظائف منهم ، شهادةً قبِلَها القضاة . وأعذروا الى الأتابك فيهم فلم يَدفع في شيء من شهادتهم ، ونَفَذ الحكمُ يومئذ برفع الحجْر عن السلطان في تصرفاته وسياسةِ مُلكه ، وانفَضّ الجمع ، ونزَل الأتابكُ من الاسطبل الى بيت سُكناه . ثم عاوَد الكثيرُ من الأمراء نَظَرهم فيما أتوه من ذلك ؛ فلم يَروه صوابا ، وحملوا الأتابك على نَقْضه ، والقيام بما جعَل له السلطانُ من كفالة ابنه في سلطانه . وركب ، وركبوا معه في آخر شهر المولد النّبوي ، وقاتَلهم أولياءُ السّلطان فرَج عشيّ يومِهم وليلتَها ؛ فهزَموهم ، وساروا الى الشّام مستصْرخين بالنائب تنم ، وقد وَقر في نفسه ما وَقر من قبل ؛ فبرّ وفادتهم ، وأجاب صريخهم . واعتزموا على المُضيّ الى مصر . وكان السُّلطان لما انفضّت جموع الأتابك ، وسار الى الشام ، اعتَمله في الحركة والسَّفر لخضْد شوكتهم ، وتفريق جماعتهم ؛ وخرج في جُمادى حتى انتهى الى غزّة ، فجاءه الخبر بأنّ نائب الشام تِنم ، والأتابك ، والأمراء الذين معَه ، خرجوا من الشَّام زاحفين للقاء السلطان ، وقد احتَشَدوا وأَوعَبوا ، وانتهوا قريباً من الرّملة[1] ؛ فراسلَهم السُّلطان

(١) الرملة : مدينة بفلسطين بينها وبين القدس نحو ١٨ ميلا ؛ كانت ذا شأن عظيم في الحروب الصليبية ؛ ياقوت ٤ / ٢٨٦ .

مع قاضي القُضاة الشافعي صَدر الدّين المُنـاوي [١] ، وناصر الدين الرَّمَّاح ، أحد المعَلِّمين لِثَقافة الرِّماح ، يُعْذِر اليهم ، ويَحمِلُهم على اجتماع الكَلِمة ، وتَركِ الفِتْنة ، وإجابتهم الى ما يطلُبون من مَصالحهم ؛ فاشتطُّوا في المطالب ، وصمَّموا على ما هم فيه . ووَصل الرَّسولان بخبرهم ، فركب السّلطان من الغد ، وعبَّى عساكره ، وصمَّم لمعاجلتهم ؛ فَلقِيهم أثناء طريقه ، وهاجَمهم فهاجمُوه ، ثم ولَّوا الأدبارَ منهزمين . وصُرع الكثير من أعيانهم وأمرائهم في صدر موكبه ، فلما غشِيهم الليل إلاّ وهم مصفَّدون في الحديد ، يَقْدُمهم الأمير تنِم نائب الشام وأكابرُهم كلهم . ونجا الأتابك أيتمش الى القلعة بدمشق ، فآوى إليها ، واعتقله نائب القلعة . وسار السلطان الى دمشق ؛ فدخلها على التعبئة في يوم أغرّ ، وأقام بها أياما ، وقَتل هؤلاء الأمراء المعتقلين ، وكبيرَهم الأتابك ذَبحاً ، وقَتل تنِم من بينِهم خَنْقا ، ثم ارتحل راجعاً الى مصر .

وكنتُ استأذنت في التقدُّم الى مصر بين يَدَي السلطان لزيارة بيت المَقْدِس ، فأذِن لي في ذلك . ووصلتُ الى القدس ودخلت المَسجِد ، وتبرَّكت بزيارته والصّلاة فيه ، وتعفّفْت عن الدخول الى القُمامَة [٢] لما فيها من الاشادة بتكذيب القرآن ، إذ هو بناء أمم

(١) صدر الدين محمد بن ابراهيم بن اسحق الشافعي .
(٢) القمامة (بالضم) : كنيسة كبرى ببيت المقدس . تاج العروس (قمم) ؛ ياقوت ١٥٨/٧ .

النّصرانية على مكان الصَّليب بزعمهم ، فنكِرتْه نَفْسي ، ونكِرْتُ الدُّخول اليه . وقضيت من سُنَن الزيارة ونافلتها ما يجب ، وانصرفتُ الى مدفَن الخليل عليه السلام . ومررتُ في طريقي اليه ببيت لَحْم ، وهو بناءٌ عظيم على موضع ميلادِ المسيح ، شَيَّدت القياصرة عليه بناءً بسياطين من العَمَد الصُّخُور ، مُنَجَّدَةً مصْطفّة ، مرقوماً على رؤوسها صورُ ملوكِ القياصرة ، وتواريخ دُوَلِهم ، مُيَسَّرةً لمن يبتغي تحقيق نَقْلِها بالتَّراجمة العارفين لأوضاعها ؛ ولقد يشهد هذا المصْنَع بعِظَم مُلك القياصرة وضَخامة دولتهم . ثم ارتحلت من مدفن الخليل الى غَزَّة ، وارتحلتُ منها ، فوافيتُ السلطان بظاهر مِصْر ، ودَخلتُ في رِكابه أواخر شهرِ رمضان سنة اثنين وثمانمائة . وكان بمصر فقيه من المالكية يعرف بنُور الدّين بن الخلال [1] ، ينوب أكثرَ أوقاته عن قُضاة القضاة المالكية ؛ فحرَّضه بعض أصحابه على السَّعي في المنصِب ، وبذل ما تَيَسَّر من مَوجوده لبعض بطانة السّلطان الساعين له في ذلك ، فتَمَّت سِعايته في ذلك ، ولبِس منتصفَ المحرَّم سنة ثلاث ؛ ورجعت أنا للاشتغال بما كنت مشتغلا به من تدريس العلم وتأليفه ، الى ان كان السَّفر لمدافعة تمر عن الشام .

(١) علي بن يوسف بن عبدالله (او ابن مكي) الدميري (او الزبيري) ، المعروف بابن الخلال المالكي .

سفر السلطان الى الشام لمدافعة الططر عن بلاده

هؤلاء الططر من شعوب الترك ، وقد اتفق النسابه والمؤرخون على أن اكثر أمم العالم فرقتان ، وهما : العرب والترك ، وليس في العالم أمة اوفر منهما عدداً ، هؤلاء في جنوب الارض ، وهؤلاء في شمالها ، وما زالوا يتناوبون الملك في العالم ؛ فتارةً يملك العرب ويزحلون[1] الأعاجمَ إلى آخر الشمال ، وأخرى يزحلهم الأعاجم والترك إلى طرف الجنوب ، سنة الله في عباده .

فلنذكر كيف انساقَ الملك لهؤلاء الططر[2] ، واستقرت الدول الاسلامية فيهم لهذا العهد فنقول : إن الله سبحانه خلق هذا العالَم واعتَمَره بأصناف البشَر على وَجه الأرض ، في وسَط البُقعة التي انكشفت من الماء فيه ، وهي عندَ أهل الجغرافيا مقدار الرُبع منه ، وقسَّموا هذا المعمور بسبعة أجزاء يُسَمُّونها الأقاليم ، مبتدأةً من

(١) زحل عن مكانه : زل ، وبعد .
(٢) كذا بالأصل ، وهي : التتر .

خط الاستواء بينَ المشرق والمغرب، وهو الخط الذي تسامت الشمس فيه رؤس السكان، إلى تمام السَّبعة أقاليم. وهذا الخط في جَنُوب المعمور، وتَنتهي السبعة الأقاليم في شماله. وليس في جنوب خط الاستواء عِمارةٌ إلى آخر الربع المنكشف، لافراط الحر فيه، وهو يَمنع من التَّكوين؛ وكذلك ليس بعدَ الأقاليم السَّبعة في جهة الشَّمال عِمارة، لافراط البرْد فيها، وهو مانع من التكوين أيضاً. ودخل الماء المحيطُ بالأرض من جهة الشرق فوق خط الاستواء بثلاث عشرة درجة، في مدخل فسيح، وانساح مع خطّ الاستواء مُغرِبًا؛ فمرّ بالصِّين، والهند والسِّند واليَمن، في جَنوبها كلِّها. وانتهى إلى وسط الأرض، عند باب المَنْدَب[1]، وهو البحر الهندي والصيني، ثم انحرف من طرفه الغَربي في خليج عندَ باب المندَب، ومرّ في جهة الشمال مغربًا باليَمن وتِهامة والحجاز ومَدْيَن[2] وأيْلة[3] وفاران[4]،

(١) باب المندب : هو المضيق الواقع فى النهاية الجنوبية للبحر الاحمر .

(٢) Midian : مقاطعة في شمال الحجاز تمتد على الساحل الشرقي للبحر الأحمر الى مبدأ خليج العقبة، وفي الجهة الشرقية منها يقع جبل الصفاة .

(٣) أيلة (Aila او Ailat) : ميناء واقع في الزاوية الشمالية الشرقية لخليج العقبة، وكان في القديم مدينة تجارية ذات اهمية كبرى، وقد ورد ذكرها في التوراة؛ في سفر الملوك ٩ : ٢٦، ٢٧ . خطط المقريزي ١ / ٢٩٨ (طبع مصر) .

(٤) فاران : مدينة كانت على ساحل بحر القلزم بناحية الطور، ويقول المقريزي في الخطط (١ / ٣٠٤ طبع مصر) : « ... وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين الى اليوم، وبها نخل كثير مثمر، أكلت من ثمره، وبها نهر عظيم، وهي خراب يمر بها العربان » .

وانتهى إلى مدينَة القُلْزُم[١] ، ويُسمّى بحر السويس ، وفي شرقيه بلادُ الصّعيد إلى عَيْذَاب[٢] ، وبلا البُجَاة[٣] ؛ وخَرج من هذا البحر الهنـدي من وَسطِه خليج آخر يُسَمّى الخليـجَ الأخضر[٤] ، ومَرَّ شمالاً إلى الأُبلة[٥] ، ويسمّـى بَحْر فارس[٦] ، وعَليْه في شرقيه بلادُ فارس[٧] ، وكِرْمان[٨] ، والسِّند[٩] ؛ ودخل الماء أيضا ، من جهـة الغرب في خليج مُتضايق في الاقليم الرّابع ، ويُسَمَّى بحرَ الزّقاق[١٠] ،

(١) القلزم بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة : بلد ساحلية بجوار السويس والطور ، واليها ينسب البحر ، فيقال بحر القلزم ، ويقول ياقوت ٧ / ١٤٥ : « ... وأما اليوم فهي خراب يباب ، وصار الميناء الى مدينة قربها يقال لها السويس » .

(٢) عيذاب : مدينة مصرية على الساحل الافريقي للبحر الأحمر ، وكانت في العصور الوسطى ميناء مهماً للحجاج الذين يقصدون مكة من الغرب ، ومحطة للسفن الهنديه التي كانت تأتي من عدن ، ولتجار افريقية الوسطى ، ياقوت ٦ / ٢٤٦ .

(٣) البجاة ، ويقال البجة : مجموعة من القبائل الحامية تسكن فيا بين النيـل والبحر الأحمر ؛ واسمها « البجة » قديم يرجع الى ما قبل الاسلام ، الخطط (طبع مصر ١ / ٣١٣-٣١٩) . صبح الأعشى ٥ / ٢٧٣ .

(٤) يريد بالخليج الأخضر خليج عمان .

(٥) ضبطها ابن خلدون بضم الهمزة والباء الموحدة ، وتشديد اللام المفتوحة ؛ وهي مدينةعلى شاطىء دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينـــة البصرة . ياقوت ١ / ٨٩ – ٩٠ ، صبح الأعشى ٤ / ٣٣٦ .

(٦) يسمى بحر فارس اليوم ، الخليج الفارسي .

(٧) فارس ، او بلاد العجم : هي التي تعرف اليوم باسم ايران اشتقاقاً من كلة «آرية» وتدل الآن على المملكة الفارسية . ياقوت ٦ / ٣٢٤ .

(٨) كرمان : احدى المدن الجبلية من مدن ايران : وكانت في القـــديم ولاية تفصل بين فارس في الغرب ، وصحارى لوط في الشرق . ياقوت ٨ / ٢٤١ – ٢٤٤ .

(٩) السند : بلاد كانت تفصل بين الهند وكرمان ، وبعضهم كان يعد من اقليم السند بـــلاد امكران الواقعة في جنوب فارس . ياقوت ٥ / ١٥١ .

(١٠) هو مضيق جبل طارق الآن .

تكون سعته هنالك ثمانية عشر ميلًا . ويمر مُشرِقًا ببلاد البربر ، من المغرب الاقصى والأوسط وأرض إفريقية والأسكندرية وأرض التِيه(١) وفلسطين والشام ؛ وعليه في الغرب بلادُ الافرنج كلها؛ وخرج منه في الشمال خليجان: الشرقي منها خليج القُسْطَنطينية(٢) والغربي خليج البَنادقة(٣) ، ويُسَمَّى هذا البحرُ البحرَ الرُّومِيّ ، والشاميّ .

ثم إن هذه السبعة الأقاليم المعمورة ، تنقسم من شرقيها وغربيها بنصفين : فنصفُها الغربي في وسطه البحرُ الرّوميّ ، وفي النصف الشرقي من جانبه الجنوبي البَحر الهندي؛ وكان هذا النصف الغربيّ أقل عِمارةً من النصف الشرقي ، لأن البَحر الرّوميّ المتوسط فيه ، انفسَح في انسياحه ، فغمرَ الكثيرَ من أرضه . والجانبُ الجنوبيّ منه قليل العِمارة لشدّة الحرّ ؛ فالعمران فيه من جانب الشّمال فقط ، والنصف الشَّرقي عُمرانه أكثر بكثير ، لأنه لا بَحر في وسطه يُزَاحم . وجانبه الجنوبي فيه البحر الهنديّ ، وهو مُتَّسع جدا ؛ فلطُف الهواء فيه بمجاورة الماء ، وعدَّل مِزَاجه للتَّكوين ؛ فصَارت أقاليمُه كلُّها قابلة

---

(١) ارض التيه : هي شبه جزيرة سيناء اليوم .

(٢) يتحدث الآن عن بحر ايجة الذي يصل البحر الابيض عن طريق الدردنيل ، والبوسفور بالبحر الأسود .

(٣) خليج البنادقة ؛ هو البحر الادرياتي الذي يقع في نهايته الشمالية خليج البندقية . صبح الأعشى ٥ / ٤٠٤ وما بعدها .

للعِمارة ؛ فكثر عُمرانه . وكان مبدأ هذا العمران في العَالم ، من لَدُن آدمَ صلواتُ الله عليه ، وتناسل ولدُه أولا في ذلك النصف الشرقيّ ، وبادت تلك الأمم ما بينه وبين نوح ، ولم نَعلم شيئا من أخبارها ، لأن الكتُب الالهية لم يرد علينا فيها إلا أخبارُ نوح وبَنيه ؛ وأما مَا قبل نوح فلم نَعْرف شيئاً من أخباره ؛ وأقدَم الكتب المنزلة المتداولة بين أيدينا التوراةُ ، وليس فيها من أخبار تلك الأجيال شيء ، ولا سبيل إلى اتصال الأخبار القديمة إلا بالْوَحي ؛ وأما الأخبار فهي تَدرُس بدروس أهلها .

واتفق النّسَّابون على أن النسل كلّه منحصر في بني نوح ، وفي ثلاثة من ولده ، وهم سَام ، وحَام ، ويافِث ؛ فمن سَام : العـرب ، والعِبْرانِيُّون ، والسَّبائيون[1] ؛ ومن حَام : القِبْط ، والكَنْعَانِيُّون ، والبرْبَر ، والسُّودان ؛ ومن يَافِث : التُّرك ، والروم ، والخزَر[2] ، والفُرس ، والدّيْلم ؛ والجيل .

ولا أدري كيف صحّ انحصارُ النّسَب في هؤلاء الثلاثة عند النّسّابين ؛ أمِنَ النقل ؟ وهو بَعيدٌ كما قدّمناه ، أوهو رأي

(١) كذا في الأصل . ولعلها : « السريانيون » .

(٢) ضبطه ابن خلدون بفتح الخاء والزاي ؛ وفي« تثقيف اللسان » لأبي جعفر عمر بن مكي الصقلي « ... ويقولون لقبيلة من الترك الخزَر بفتح الخاء والزاي والصواب الخزْر بضم الخاء واسكان الزاي ، ويقال انهم سموا بذلك لخزر أعينهم » أي ضيقها .

تفرّعَ لهم من انقسام جماعة المعمور ؛ فجعلوا شعوب كلّ جهة لأهل نَسَب واحد يشتركون فيه ؛ فجعلوا الجنوبَ لبني سام ، والمغربَ لبني حام ، والشمال لبني يافث . إلاّ أنه المتناقل بين النسّابة في العالم ، كما قلناه ، فلنعتمده ونقول : أولُ من ملك الأرض من نسل نُوح عليه السّلام ، النّمرود بن كَنْعان بن كوش ، بن حام ووقع ذكره في التوْراة . ومَلك بعدَه عابر بن شالخ الذي يُنسَبُ إليه العبرانيون ، والسُريانيُّون ، وهم النَّبَط ؛ وكانت لهم الدّولة العظيمة ، وهم ملوك بابِل ، مَن نبِيط بنْ أشُّور بن سام ، وقيل نَبِيط بن ماش بن إدم ؛ وهم ملوك الأرض بعد الطوفان على ما قاله المسْعُودي . وغلَبَهم الفرسُ على بَابِل ، وما كان في أيديهم من الأرض ، وكانت يومئذ في العالم دولتان عظيمتان ، لملوك بابل هؤلاء ، وللقبط بمصر : هذه في المغرب ، والأخرى في المشرق ؛ وكانوا ينتحلون الأعمال السحريّة ، ويُعوّلون عليها في كثير من أعمالهم ، وبَرَابي مِصر[1] ، وفِلاحةُ ابن وحْشيَة ، يشهدان بذلك . فلما غلب الفُرسُ على بابِل ، استقلّ لهم ملك المشرق ، وجاء موسى – صلوات الله عليه – بالشريعة الأوليّة ، وحرّم السِّحر وطُرقَه ،

(١) كان القدماء يعتقدون ان الرسوم التي توجد على البرابي ، والمعابد المصرية القديمة ، ليست الا طلاسم ، وأوفاقاً ، نقشت على جدرانها ليكون لها مفعول سحري معين . خطط المقريزي ١ / ٤٨ طبع مصر ، معجم البلدان « برابي » .

وغلَب الله له القِبْط بإغراق فرعونَ وقومه ؛ ثم مَلَك بنو إسرائيل الشّام ، واختَطوا بيت المَقْدِس ، وظهر الرومُ في ناحيــة الشمال والمَغرب ، فغلبوا الفُرس الأولَى على مُلكهم . وملَكَ ذو القرنين الاسكندر ما كان بأيديهم ؛ ثم صار ملك الفرس بالمشرق الى ملوكهم السَّاسانية ، ومُلْك بني يونان بالشام والمغرب إلى القياصرة ، كما ذكرنا ذلك كله من قَبل . وأصبحت الدولتان عظيمتين ، وانتظمتا العالَم بما فيه . ونازع التركُ ملوكَ فارس في خراسان[1] ، وما وراءَ النَّهر[2] ، وكانت بينهم حُروبٌ مشهورة ، واستقرّ ملكُهم في بَني أفراسْيَاب ؛ ثم ظهر خاتِمُ الأنبياء محمد صلوات الله عليــه ، وجمَع العرب على كلمــة الاسلام ، فاجتَمعوا له ، « لو أنفقْتَ ما في الأرض جميعاً ما ألّفتَ بينَ قلوبهم ولكنّ الله ألّفَ بينهم »[3] ، وقبضه الله اليه ، وقد أمرَ بالجهــاد ، ووعَد عن الله بأن الأرض لأمتــه ، فزَحفُوا الى كسْرَى ، وقيْصَرَ بعد سَنتَين من وفاته ، فانتَزعوا المُلْك مــن أيديهما ، وتجاوزوا الفُرسَ الى التُّرك ، والرُّومَ الى البرْبَر والمغرب ، وأصبَح العالَم كلُّه مُنتظِما في دَعوة الاسلام . ثم اختلفَ أهل الدِّين

(١) تطلق خراسان اليوم على القسم الشرقي لايران ، الذي يتصل بافغانستان . وقــد فتحت خراسان سنة ٣١ هجرية في ايام عثمان رضي الله عنه . ياقوت ٣ / ٤٠٧ .

(٢) ما وراء النهر : اقليم مشهور يقع فيما وراء نهر جيحون « وهو المراد بالنهر » . ياقوت ٧ / ٣٧٠ — ٣٧٣ .

(٣) الآية ٦٣ من سورة الأنفال .

من بعده في رجوعهم الى من ينظم أمرَهم ، وتشيَّع قوم من العرب فزعموا أنه أوصى بذلك لابن عمّه عليّ ، وامتنع الجماعة من قبول ذلك ، وأبوا إلّا الاجتهاد في تعيينه ، فمَضَى على ذلك السَّلَف في دولة بني أميَّة التي استفحل الملكُ والاسلامُ فيها ، وتناقل التشيّع بتَشعّب المذاهب ، في استحقاق بني عليّ ، وأيُّهم يَتعيَّن له ذلك ، حتى انساق مذهب من مذاهبهم الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[1] ؛ فظهرت شيعتُه بخراسان ، وملكوا تلك الأرض كلّها ، والعراقَ بأسره . ثم غَلَبوا على بني أُميَّة ، وانتزعوا الملك من أيديهم ، واستفحل ملكُهم والاسلامُ باستفحاله ، وتَعدّد خُلَفاؤهم . ثم خامَر الدّولة ما يخامر الدُّولَ من التَّرَف والراحة ؛ ففشلُوا . وكثُر المنازعون لهم من بني عليّ وغيرهم ؛ فظهرت دولةٌ لِبَني جعفر الصَّادق بالمغرب ، وهم العُبَيْدِيُّون[2] بَنُو عُبَيد الله المهدي بن محمد ، قام بها كُتامة وقبائل البَربر ، واستولوا على المَغرب ومِصر ؛ ودولةُ بني العلَوي بطَبَرِسْتان ، قام بها الدَّيْلَمُ وإخوانهم الجِيل ؛ ودولةُ بني أميَّة النائيةُ بالأندلس ، لأن بني العبَّاس لما غلبوهم بالمشرق ، وأكثَروا القتل فيهم ، هرب عبد الرحمن بنُ معاوية بن هشام بن عبد الملك ،

---

(١) كان ذلك في سنة ١٢٩ هـ ، وانظر تفصيل القول في تاريخ الطبري ٩ / ٨٢ وما بعدها ، تاريخ ابي الفداء ١ / ٢٢٠ وما بعدها .

(٢) كان مبدأ دولة الفاطميين بالمغرب في سنة ٢٩٦ ، ونهايتها سنة ٣٦١ هـ .

وَنَجا الى المغرب . ثم رَكب البحر الي الأندُلس ؛ فاجتمع عليه من كان هُنالك من العَرب وَموالي بني أميَّة ، فاستحدَث هنالك مُلكاً آخرَ لهم ، وانقسمت الملَّة الاسلامية بين هذه الدّول الأربع الى المائة الرابعة . ثم انقرضَ مُلكُ العَلويَّة من طَبرِستان [١] ، وانتقلَ الى الدّيلَم ، فاقتَسمُوا خُراسانَ وفارس والعراق ، وغَلبوا على بَغداد ، وَحجرَ الخليفةَ بها بَنُو بُوَيه منهم [٢] . وكان بنو سامان — من أتباع بني طاهر — قد تَقلَّدوا عَمالات ما وراءَ النَّهر ، فلمَّا فشِل أمرُ الخلافة استبدُّوا بتلك النَّواحي ، وأصاروا لهم فيها مُلكاً ضخماً [٣] ، وكان آخرهم محمود بن سُبُكتُكين من مَواليهم ، فاستبد عليهم ، ومَلَك خُراسان ، وما وراء النَّهر الى الشَّاش ، ثم غَزنَة [٤] ، وما وراءها جنوباً الي الهِند . وأجاز الى بلاد الهِند ؛ فافتتح منها كثيرا ، واستخرج من كنوزها ذَخائر لم يعثر عليها أحدٌ قبلَه . وأقامت الملةُ على هذا النَّمَط الى انقضاء المائة الرّابعة ، وكان التُّرك

---

(١) طبرستان : اقليم متسع في غربي خراسان، ويقول ياقوت انه الذي يسمى ايضاً بمازندران. وهو اقليم واقع في شمالي مرتفعات البرز ، ويشرف على بحر قزوين . ياقوت ٦ / ١٧ — ٢١ .

(٢) بنوبويه دولة اسسها اتراك من الديلم في خلافة الراضي بالله (٣٢٢ - ٤٤٧ هـ) . تاريخ ابي الفداء ٢ / ٨٣ ، ١٥٢ ، والعبر ٤ / ٩٠٩ وما بعدها .

(٣) ملكت دولة بني سامان هذه ما وراء النهر ، وأقامت هناك دعوة بنى العباس، ثم استقلت. وقد تحدث عنها ابن خلدون ٤ / ٧١٢ ، أبو الفداء ٢ / ١٢٣ ، ١٤١ ، صبح الأعشى ٤ / ٤٤٦ .

(٤) غزنة : مدينة من مدن افغانستان ، وكانت عاصمة الدولة التي اسسها نصر الدين محمود بن سبكتكين سنه ٣٦٦ ، والتي استمرت الى سنة ٥٧٨ هجرية . العبر م ٤.

منذُ تعبَّدوا للعرب، وأسلموا على ما بأيديهم وراءَ النَّهر، من كاشْغَر[١]، والصَّاغون الى فَرغانة[٢]، وولَّاهم الخلفاءُ عليها؛ فاستحدثوا بها مُلكا، وكانت بَوادِي التُّرك في تلك النواحي مُنتجِعَةً أمطارَ السماء، وعُشب الأرض، وكان الظهور فيهم لقبيلة الغُزِّ من شعوبهم، وهم الخوزُ، إلا أن استعمال العرب لها عرَّبَ خاءَها المعجمة غينا، وأدغمت واوها في الزّاي الثانية؛ فصارت زاياً واحدة مشدّدة. وكانت رياسة الغُزّ هؤلاء في بني سَلْجوق بن ميكائل، وكانوا يُستَخدمون لملوك التّرك بتُركستان تارة، ولملوك بني سامان في بُخارَى أخرى. وتَحدُث بينهما الفتنة؛ فيتألفون مَن شاءوا منهما[٣]؛ ولما تغلّب محمود بن سُبُكْتِكِين[٤] على بني سامان، وأجاز من خراسان فنزل بُخارَى[٥]، واقتَعد كرسيَّهم، وتقبَّض على كِبار بني سَلْجوق هؤلاء، وحبسهم بخُراسان. ثم مات وقام بالأمر أخوه مَسْعود[٦]،

---

(١) كانت كاشغر قاعدة « التركستان » وكانت تسمى ايضاً « أزدوكنـد » وهي اليوم في الصين . ياقوت ٧ / ٢٠٧ صبح الأعشى ٤ / ٤٤٠ :

(٢) فرغانة كورة واسعة فيما وراء النهر ، متاخمة لبلاد تركستان . ياقوت ٦ / ٣٦٤ .

(٣) انظر كلمة موجزة عن الغز في تاريخ ابي الفداء ٣ / ٢٧ وما بعدها .

(٤) هو محمود بن ناصر الدولة بن سبكتكين (٣٦١ – ٤٢١) ، يلقب سيف الدولة ، ويمين الدولة . وليمين الدولة هذا ينسب التاريخ « اليميني » الذي الفه له ابو نصر العتبي . ترجمة يمين الدولة في « الوفيات » ٢ / ١١٠ – ١١٤ ، وانظر تاريخ ابي الفداء ٢ / ١٦٥ العبر م ٤ طبعة دار الكتاب اللبناني – بيروت ، راجع الفهارس لتعيين الصفحات .

(٥) تقع بخارى اليوم في جمهورية الاتحاد السوفياتي ، وكانت قاعدة الدولة السامانية ، فتحت فيما بين سنتي ٥٣ ، ٥٥ هـ ، في ايام معاوية . ياقوت .

(٦) هكذا في الاصل : « اخوه مسعود » . وهو سبق قلم ، والصواب : « ابنه مسعود » العبر ٤ ، « تاريخ دولة آل سلجوق » ص ٨ .

فملك مكانَه ، وانتقضَ عليه بنو سَلْجُوق[١] هؤلاء ، وأجاز الغُزُّ الى خراسانَ فملكوهـا ، وملكوا طَبَرِسْتان من يد الدَّيْلَم ، ثم إصبهـان[٢] وفـارس ، مـن أيدي بني بُوَيْه ، ومَلِكُهُم يومئذ طُغْرُلْبَك[٣] بن ميكائيل من بني سَلْجوق ، وغلب على بغداد[٤] من يد بني مُعزّ الدولة بن بُوَيْه المستبدّين على الخليفة يومئذ المطيع[٥] ، وحَجَرَه عن التصرُّف في أمور الخلافة والمُلك ، ثم تجاوز الى عراق العَرب ، فغلب على ملوكه ، وأبادَهم ، ثم بلاد البحرين وعُمان ، ثم على الشّام ، وبلاد الرّوم ، واستوعب ممالك الاسلام كلّها ، فأصارها في مُلكه ؛ وانقبضَت العرب راجعَة الي الحجاز ، مسلوبةً من المُلك ، كأن لم يكُن لهم فيه نصيب ، وذلك أعوامَ الأربعين والأربعمائة ؛

(١) ابتدأت الدولة السلجوقية في خلافة القائم بامر الله العبـاسي سنة ٤٣٢ ، وانتهت في سنة ٥٧٢ . تاريخ أبي الفداء ٢ / ١٧١ وما بعدها ، العبر ٥ / ١ وما بعدها . وقد خص هـذه الدولة بالتأليف العماد الاصفهاني ، وطبع مختصر لكتاب العماد بالقاهرة سنة ١٩٠٠ م .

(٢) كذا بالأصل ، اصبهان ، وكذا في اكثر الكتب القديمة . وهي : أصفهان بفتح الهمزة وكسرها : مدينة جبلية عظيمة في جنوب عراق العجم من بلاد فارس ، وتطلق اصفهان على الاقليم أيضاً . فتحت في سنة ٢٣ هـ في أيام عمر بن الخطاب . ياقوت ١ / ٣٦٩ .

(٣) أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق ، ركن الدين طغرلبك (٣٨٥ ـ ٤٥٥) . وفيات الأعيان ٢ / ٥٩ ـ ٦٠ .

(٤) كان دخول بغداد والعراق سنة ٤٤٧ . وفيات الأعيان ٢ / ٦٠ ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩ .

(٥) كذا بالأصل : « المطيع » والصواب : « القائم » لأنه الذي عاصر طغرلبك . وهو أبو جعفر عبد الله بن القادر ، القائم بأمر الله . ولد سنة ٣٩١ ، وولي الخلافة سنة ٤٢٢ ، وتوفي سنة ٤٦٧ . تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٧ ـ ١٦٩ .

وخرجَ الأفرنج على بقـايا بني أُمَيَّة بالأندلس ، فانتزعوا الملك من أَيديهم ، واستولوا على حواضِر الأندَلُس وأمصارها ، وضاق النِّطاقُ على العُبَيْديِّين بالقاهرة بملوك الغُزّ يُزاحمونهم فيها من الشام ، بمحمود ابن زنكي وغيره[1] من أبنائهم ومماليكهم ، وبملوك المغرب قد اقتطعوا مـا وراء الأسكندرية ، بملوك صنهاجـة في إفريقية ، والمَلَثَّمين المرابطين بعدَهم بالمغرب الأقصَى والأوسط ، والمَصَامِدة الموحِّدين بَعدَهم كذلك ، وأمام الغزّ والسّلجوقية في مُلك المشرق ، وبنوهم ومواليهم من بعدِهم الى انقضاء القَرن السادس ؛ وقد فشل ريح الغُزّ ، واختلّت دولتهم ، فظهر فيهم جنكيزخـان أمير المُغل مـن شعوب الططر[2] ، وكان كاهنا ، وجدّه النجر كاهناً مثلَه . ويزعمون أنه وُلِد من غير أب[3] ؛ فغلَب الغُزّ في المفازة ، واستولى على مُلك الططر ،

(١) رسمه ، على قاعدته التي قررها في اول « المقدمة » بصاد وسطها زاي اشارة الى ان الصاد تشم – عند النطق بها – زايا . وانظر أخبار تملك محمود بن زنكي ، في تاريخ ابي الفداء ٣/ ٣٠ ، ٥٨ .

(٢) ولد جنكيز خان (ويقال جنكس قان) في سنة ٥٤٩ ، وهو من قبيلة تركية تسمى ثيات من أشهر قبائل المغل ، وأكثرهم عدداً ؛ وكان اسمه – حين بلغ من العمر ١٣ سنة – تموجين ثم أصاروه : « جنكيز » ؛ و « خان » تمام الاسم ؛ وهو بمعنى الملك عندهم . العبر م٥ .

(٣) ينتهي نسبه الى : « بوذَ نجر بن ألان قوى » ؛ وألان قوى اسم امرأة هي جدتهم ؛ كانت متزوجة ثم مات زوجها ؛ وتأيمت وحملت وهي أيم ، فنكر عليها اقرباؤها ، فذكرت انها رأت بعض الأيام ان نوراً دخل فرجها ثلاث مرات ، وطرأ عليها الحمـل بعد ذلك ، وقالت ان في حملي ثلاث ذكور ، فان صدقت عند الوضع فذلك ، والا فافعلوا ما بدا لكم ؛ فوضعت ثلاث توائم في ذلك الحمل ، فظهرت براءتها ، بزعمهم ، وكان ثالث التوائم « بوذنجر » جد جنكيز خـان ، وكانوا يسمون التوائم الثلاث : النورانيين نسبة الى النور المذكور ، ولذلك كانوا يقولون لجنكيز خان : ابن الشمس . العبر م ٥

وزَحفَ الى كرسيّ الملك بخوارزم . وهو عَلاء الدّين خُوارَزْم شاه ، سَلَفُه من موالي طُغْرُلبَك ، فغالبَه على مُلكه ، وفرّ أمامه ، واتّبعه الى بُحَيرة طبرستان ؛ فنَجا الى جزيرة فيها ، ومَرِض هُنالك ومات[١] ، ورجع جنكيزخان الى ما زندَران ، من أمصار طَبرستان فنزلها ، وأقَام بها ، وبعث عساكره من المغل حتى استولوا على جميع ما كان للغُزّ ، وأنزل ابنَه طولى[٢] بكرسيّ خراسان ، وابنَه دُوشيخان[٣] بصَراي وبلاد التُّرك ، وابنه جَغَطاي[٤] بكرسي التُّرك فيما وراء النَّهر ، وهي كاشْغَر وتُركِستَان ، وأقام بمازَنْدَران إلى أن مات جنكيزخان ودفن بها[٥] ؛ ومات ابنه طولي وله ولدان ، قُبْلاَي[٦] وهولاكُو[٧] ، ثم هَلك قبْلاَي ، واستقلّ هولاكُو

(١) هو السلطان علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش بن أرسلان، كان من علماء الملوك وعظمائهم ، وكانت مدة ملكه ٢١ سنة ، وتوفي عام ٦١٧ ، وانظر اخبار حروبه مع جنكيزخان في تاريخ ابي الفداء ٣/١٣٣ - ١٣٤ ، ١٥٤ - ١٥٨ .

(٢) هو الابن الاصغر لجنكيز خان ، وكان عاقلا كيساً ، ولذلك امره ابوه ان يرأس اخويه : جوجي ، وجغتاي في حرب قلعة الطالقان التي استعصى عليهما الاستيلاء عليها . وطاؤه تنطق بين التاء والطاء ، ويقال في اسمه ايضاً : « تولوي » . وانظر العبر ٥ .

(٣) ويقال طوشي خان (بين التاء والطاء) ، ويقال جوجي خان .

(٤) جقطاي ، ويقال « جغتاي » ، ويسمى ايضا كداي ، وجداي .

(٥) كانت وفاته في سنة ٦٢٥ ؛ وهناك رأي غير ما ذكره ابن خلدون في مكان وفاة جنكيزخان ، تجده في السلوك ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٦) قبلاي بن تولي خان المتوفى سنة ٦٩٥ . وقد ضبطه ابن خلدون بالحركات - بضم القاف ، وسكون الباء الموحدة ، ولام مفتوحة مخففة ، ثم ياء ساكنة .

(٧) يكتبه ابن خلدون : « هولاوو » بواوين أحياناً ، واحياناً اخرى يكتبه : « هولاكو » بنقطة تحت الكاف اشارة الى ان الكاف تنطق كافاً فارسية . وقد ابتدأ امر هولاكو في الظهور في سنة ٦٥٤ ، وتوفي سنة ٦٦٣ . وانظر السلوك ص ٥٤١ .

بملك خراسان ، وحدث بينه وبين بَركَة بن دُوشيخان[١] فتنةبالمنازعة في القانية ، تحاربوا فيها طويلاً ، ثم أقصرُوا ، وصرف هولاكو وَجهَهُ إلى بلَاد أصبَهان ، وفارس ، ثم الى الخُلفَاء المستبدِّين ببغداد ، وعراق العرب ، فاستولى على تلك النَّواحي ، واقتحم بَغداد[٢] على الخليفة المستعصم ، آخر بني العباس[٣] وقتَله ، وأعظَمَ فيها العيْث والفَساد ، وهو يومئذ على دينه من المجوسيَّة؛ ثم تخطَّاه إلى الشام؛ فملَك أمصَاره وحوَاضِرَه إلى القدس ، وملوكُ مصْر يومئذ من موالي بَني أيُّوب قد استحاشوا ببركة صاحب صَرَاي ؛ فزحف إلى خُراسان ليأُخذ بحُجزَة هُولاكو عن الشام ومصر . وبلغ خبره الىهولاكو فحَرِد[٤] لذلك ، لما بينهما من المنافسة والعداوة ، وكرَّ راجعاً إلى العراق ، ثم إلى خراسان ، لمدافعة برَكة . وطالت الفتنة بينَهما إلى أن هلك هُولاكو سنة ثلاث وستين من المائة السَّابعة ، وزَحف أمراء مصرَ من موالي بني أيُّوب ، وكبيرهم يومئذ قُطز ، وهو سلطانهم فاستولى على أمصار الشام التي كان هولاكو انتزعها من أيدي بني أيوب ، واحدةً واحدة ، واستضاف الشام إلى مصر في ملكه . ثم

(١) ويقال ايضاً : بركة بن توشي بن جنكيزخان . وقد توفي سنة ٦٦٥ . كان مسلماً يعظم اهل العلم ، وكان يميل الى الملك الظاهر بيبرس .

(٢) دخل هولاكو بغداد في سنة ٦٥٦ ﻫ .

(٣) هو ابو احمد عبد الله بن المنتصر ، ولد سنة ٦٠٩ ، وقتل سنة ٦٥٦ .

(٤) حرد : اغتاط وغضب

هدى الله أبغَا بن هولاكو إلى الاسلام ، فأسلم بعد أن كان أسلم بركة ابن عمّه صاحب التخت بصَرَاي من بني دُوشي خان على يَدِ مُريدٍ من أصحاب شمس الدين كُبْرَى[١] ، فتواطأ هو وأبغَا بن هولاكو على الاسلاَم . ثم أسلَم بعد ذلك بنو جقطاي وراء النَّهْر ؛ فانتظمت ممالكُ الاسلام في أيدي ولد جنكيزخان من المغل ، ثم من الطَّطَر ، ولم يخرج عن مُلكهم منها إلاّ المغربُ والأندلس ومصرُ والحجاز ، وأصبحوا وكأنّهم في تلك الممالك خَلَفٌ من السُلجوقيّة والغُزّ . واستمرّ الامرُ على ذلك لهذا العهد ، وانقرض ملك بني هولاكو بموت أبي سعيد آخرِهم سنة أربعين من المائة الثامنة[٢] . وافترقت دولتُهم بين عمّال الدولة وَقَرَابتها من المُغُل ؛ فملك عراق العرب ، وأذربيجَان[٣] وتوْريز[٤] ، الشيخُ حسَن سبط هولاكو[٥] ، واتصل مُلكُها في بَنِيه

(١) هو ابو الجناب احمد بن عمر بن نجم الخيوقي شيخ خوارزم . عرف به السبكي في طبقاته ٥/١١ ، ١٢ ، ولم يذكر مولده ولا وفاته ؛ ووصفه فى تاريخ جنكيز خان بأنه : « شيخ المشايخ ، وقطب الأوتاد ، نجم الدين الكبري » ، وذكر انه مات في حصار مدينة خوارزم . وقد ضبطه ابن خلدون . بضم الكاف وسكون الباء ، وفي طبقات الشافعية : « الكبرى على صيغة فعلى كعظمى » .

(٢) هو ابو سعيد بن خربند بن ارغو بن ابغا بن هولاكو . وانظر اخباره في العبر ٥

(٣) آذربيجان ، واسمها القديم أثروباتان : اقليم يقع فيالجنوب الغربي لبحر قزوين (بحرالخزر) ويحده في الشمال اقليم داغستان ، واقليم جورجيا ، ومن الغرب ، والجنوب الغربي مقاطعة ارمينية . ياقوت ١/ ١٥٩ – ١٦١ .

(٤) توريز (تبريز) : احدى مدن ايران الشمالية ، وكانت في القديم تشملها مقاطعة آذربيجان ياقوت ١/ ٣٦٣ .

(٥) يسمى ايضاً الشيخ حسن الصغير .

لهذا العهد ؛ ومَلَك خُراسان وطَبَرِستان شاه وليّ من تابعة بني هولاكو ؛ ومَلَك إصبهانَ ، وفارسَ ، بنو مُظَفَّر البردي[١] من عُمّالهم أيضاً ؛ وأقاموا بَنو دُوشِي خان في مملكة صرّايْ وآخرُهم بها طقطمش بن بُرْدِي بَك[٢] ؛ ثم سَمَا لبني جَقَطَاي وراء النَّهر ، وملوكهم أملٌ في التغلُّب على أعمال بني هولاكو ، وبني دَوشِي خان ، بما استفحل ملكهم هنالك ؛ لعدم التَّرف والتَّنعم ، فبقُوا على البَداوة؛ وكان لهم مَلِك اسمه ساطلمش[٣] هلك لهذا العَهد، وأجلَسوا ابنَه على التَّخت مكانه ، وأمراءُ بني جَقْطاي جميعاً في خدمته ، وكبيرُهم تيمور المعروف بتمر بن طرَغاي[٤] فقام بأمر هذا الصبي وكفَله ، وتروّج أمّه ، ومدَّ يدَه إلى ممالك بني دُوشي خان التي كانت على دعوتهم وراء النَّهر ، مثل سمرقند[٥] ، وبُخارى، وخوارزم، وأجاز إلى طَبَرِستان وخراسانَ فملكها . ثم ملك أصبهان ، وزحفَ إلى بغداد؛ فملكها من يد أحمد بن أُوَيس . وفرَّ أحمد مستجيراً بملك مصر ،

---

(١) ورد في العبر ٥ : « اليزدي » .

(٢) ضبطه ابن خلدون بالحركات بفتح الباء وضمها ، وسكون الراء بعدها دال ثم ياء مثناة تحتية ساكنة ، ثم باء موحدة مفتوحة .

(٣) كذا في الأصل ، وفي هامش أصل أياصوفيا بخطه : « سيورغتمش » وكتب فوقها كلمة : « أصح » .

(٤) في نسخة : « طرغان » ، وفي هامش اصل اياصوفيا بخطه : « ترغاي » وكتب فوقها كلمة « أصح » .

(٥) مدينة مشهورة ، تقع اليوم في جمهورية الاتحاد السوفييتي ، وكانت في القديم عاصمة بلاد الصغد . ياقوت ٥ / ١٢١ – ١٢٦ .

وهو المَلك الظاهِر برقوق ، وقد تقدم ذكره ؛ فأجاره ، ووعده النَّصر من عدوِّه . وبعث الأمير تمر رُسُلًا إلى صاحب مصر ، يقررون معه الولاية والاتِّحاد ، وحُسْنَ الجوار؛ فوصلوا إلى الرَّحْبة؛ فلقيهم عاملها ، ودار بينهم الكلام فأوحشوه في الخطاب ، وأَنزلهم ، فبَيَّتَ جميعهم ، وقتَلهم . وخرج الظاهر برقوق من مصر ، وجمَع العرب والتُّركُمان ، وأناخ على الفرات ، وصرَخ بطقطمش من كرسيه بصَرَاي ؛ فحشد ووصل إلى الأبواب[1] . ثم زحف تمر إلى الشام سنة سِت وتسعين ، وبلَغ الرُّها[2] ، والظاهرُ يومئذ على الفرات ، فخَام[3] تمر عن لقائه . وسَار إلى محاربة طقطمش ؛ فاستولى على أعماله كلِّها ، ورجعت قبائل المُغُل إلى تِمُر ؛ وسَاروا تحت رايته . وذهب طقطمش في ناحية الشمال ، وراء بُلْغار ، متذمماً بقبائل أرُوس من شعوب التُّرك في الجبال . وسارت عصائب الترك كلها تحت رايات تمر ؛ ثم اضطرب ملوك الهِند ، واستصرخ خارجٌ منهم بالأمير تمر ؛ فسار اليهم في عساكر المغُل ، وملك دِلّي[4] ، وفرّ صاحِبها الى كَنْبايَة[5]

(١) يريد بالأبواب المضايق والممرات التي في الجبال الفاصلة بين اقليم مازندران والعراق العجمي .

(٢) بلدة مشهورة في شمال حران ، وتقع اليوم في الجمهورية التركية ، وتسمى أورفة .

(٣) خام عنه : نكص ، وجبن .

(٤) هي دلهي اليوم . صبح الأعشى ٥ / ٦٨ ـ ٦٩ .

(٥) كنباية ، أو كنبايت ، ضبطها ابن خلدون بالحركات بفتح الكاف وسكون النون ، وباء مفتوحة بعدها الف ثم ياء مفتوحة بعدها هاء للتأنيث . وفي صبح الأعشى ٥ / ٧١ : أنه ينسب اليها فيقال أنباتي وعلى ذلك قاسها « أنبايت » بابدال الكاف همزة . وهى مدينة على ساحل بحر الهند .

مرسى بحر الهند ، وعاثُوا في نواحي بلاد الهِند . ثمّ بلغه هنالك مهلكُ الظاهر . برقوق بمصر ؛ فرجع الى البلاد ، ومرّ على العراق ، ثم على أرمينيَة[1] وأرزنكان[2] ، حتى وَصل سيواس[3] فخرّبها ، وعاث في نواحيها ، ورجع عنها أول سنة ثلاث من المائة التّاسعة . ونازلَ قلعة الروم[4] ، فامتنعت ، وتجاوزها الى حَلَب ؛ فقابله نائب الشام وعساكره في ساحتها ؛ ففضّهم ، واقتحم المغُل المدينة من كل ناحية . ووَقع فيها من العيْث والنَّهب والمصادرة واستباحة الُحرَم ، ما لم يَعهَد النـاس مثلَه ؛ ووَصل الخبر الى مصر ، فتجهز السّلطان فَرَج بنُ المَلِك الظّاهر[5] الى المدافعة عن الشّام ، وخرَج في عساكره من التُّرك مُسابقًا المغُلَ وملِكَهم تمر أن يصدّهم عنها .

(١) أرمينية : اقليم واقع فى غرب آذربيجان ، وفى شماله الغربي يقع اقليم جورجيا . صبح الأعشى ٤/ ٣٥٣ ، ياقوت ١/ ٢٠٣ – ٢٠٦ .

(٢) أرزنكان ، ويقال أرزنجان : بلدة كانت تعد قديماً من بلاد ارمينية ، وهي الآن من بلاد الجمهورية التركية . صبح الأعشى ٤/ ٣٥٤ .

(٣) سيواس : مدينة في تركيا ، تبعد ستين ميلا نحو الشرق من « قيسارية » السلوك ص٣١٣

(٤) هي قلعة حصينة واقعة في غربي الفرات مقابل « البيرة » . ياقوت ٧/ ١٥٠ – ١٥١ .

(٥) هو الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن الملك الظاهر . المقريزي ٣/ ٣٩٢ = ٣٩٣ طبع مصر .

لقاء الامير تمر سلطان المغل والططر

لما وَصل الخبر الى مِصْر بأن الأمير تمر[١] مَلَكَ بلاد الروم، وخرَّب سِيواس، ورجع الى الشّام، جمع السلطان عساكره، وفتح ديوان العَطاء، ونادى في الُجند بالرحيل الى الشام، وكنتُ أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة[٢]؛ فاستدعاني دَواداره يِشْبَك[٣]، وأرادني

(١) في عجائب المقدور ص ٥، ٦: « ... اسمه تيمور بتاء مثناة مكسورة ساكنة، فمثناة تحت، وواو ساكنة بين ميم مضمومة وراء مهملة، هذه طريقة املائه ... لكن كرة الألفاظ الأعجمية اذا تداولها صولجان اللغة العربية خرطها في الدوران على بناء اوزانها ..... فقالوا تارة تمور، وأخرى تمرلنك » . وضبطه البدر العيني في « عقد الجمان » بخطه بالحركات بفتح التاء وضم الميم بعد راء ساكنة، ثم لام مفتوحة، فنون ساكنة، فكاف .

(٢) في عقد الجمان، في حوادث سنة ٨٠٣، وتاريخ ابن قاضي شهبة كذلك : « ... خرج السلطان الملك الناصر فرج، ومعه الخليفة المتوكل على الله، والقضاة الثلاثة، وهم صدر الدين المناوي الشافعي، والقاضي نور الدين علي بن الخلال المالكي، والقاضي موفق الدين بن الحنبلي؛ وأما القاضي جمال الدين الملطي الحنفي فانه ما سار لكونه ضعيفاً، وسار معهم القاضي ولي الدين ابن خلدون المالكي، وهو معزول » .

(٣) هو الامير يشبك الشعباني كان من امراء الملك الظاهر، تقلب في مناصب مختلفة، وجعل له الملك الظاهر الوصية على اولاده؛ وفي أيام الملك فرج، تولى وظيفة دوادار كبير، ومشير المملكة تاريخ ابن اياس ٢ / ٣٠٨، ٣١٤، ٣٣٧ . وقد ضبطه البدر العيني بخطه في « عقد الجمان » بكسر الياء، وسكون الشين، وفتح الباء .

على السَّفَر معه في ركاب السلطان ؛ فتجافيتُ عن ذلك . ثم أظهر العزم عليّ بليِّن القول ، وجزيل الانعام فأصْخَيتُ ، وسافرت معهم مُنتصفَ شهر المولد الكريم من سنة ثلاث ؛ فوصلنا الى غَزّة ، فأرحنا بها أياما نترقب الأخبار ؛ ثم وصلنا الى الشام مسابقين الططَر الى أن نزلنا شَقْحَب[1] ، وأسرينا فصبَّحنا دمشق ، والأمير تِمُر في عساكره قد رحل من بَعلَبك[2] قاصداً دمشق ، فضرب السلطان خيامه وأبنيته بساحة قُبَّة يَلبُغا . ويئسَ الأميرُ تِمُرْ من مهاجمة البلد ، فأقام بمرقَب على قُبَّة يَلبُغا يراقبنا ونراقبه أكثر من شهر ، تَجاول العسكران في هذه الأيام مراتٍ ثلاثاً او أربعاً، فكانت حربُهم سِجالا ؛ ثم نُمي الخبر الى السلطان وأكابرِ أُمرائه ، أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة يُحاولون الهَرَب الى مِصر للثورة بها ؛ فأَجمع رأيهم للرجوع الى مصر خشيةً من انتقاض الناس وراءهم، واختلال الدولة بذلك ، فأسْروا ليلة الجمعة من شهر [......][3] وركبوا جَبَل الصَّالحية ، ثم انحطُّوا في شِعابه ، وساروا على شافة البحر الى غَزَّة ،

---

(١) بفتح الشين والحاء المهملة ، وسكون القاف بينهما (كجعفر) ، ويقول المقريزي في الخطط ٣ / ٣٩٩ (طبع مصر) : « ... انها بظاهر دمشق » ؛ وزاد في السلوك ص ٩٣٢ : « تحت جبل غباغب » ؛ فهي – بناء على هذا – في جنوب دمشق . وانظر تاج العروس (شقب) .

(٢) بعلبك : احدى مدن لبنان المشهورة ، وهي واقعة في الشمال الشرقي لمدينة زحلة . ياقوت ٢ / ٣٣٦ – ٣٣٨ .

(٣) بياض بالأصل ، ولعله يريد (شهر جمادى الآخرة) . وانظر تاريخ ابن اياس ١ / ٣٢٩ .

وركب الناس ليلًا يعتقدون أن السلطان سارَ على الطريق الأعظم الى مصر ؛ فساروا عصبا وجماعات على شَقْحَب الى أن وصلوا الى مصر ، وأصبح أهل دمشق مُتَحَيِّرين قد عميت عليهم الأنباء .

وجاءني القُضاة والفقهاء ، واجتمعت بمدرسة العادليَّة ، واتّفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير تِمُر على بيُوتهم وحُرَمهم ، وشاوروا في ذلك نائب القلعة ، فأبى عليهم ذلك ونَكِره ؛ فلم يوافقوه . وخرج القاضي بُرهان الدِّين بن مفلح الحنبلي[1] ومعه شيخ الفقراء بزاوية [....][2] فأجابهم الى التأمين ، وردهم باستدعاء الوجوه والقُضاة ، فخرجوا اليه متدلِّين من السور بما صبَّحهم من التقدمة ، فأحسن لقاءهم وكتب لهم الرقاع بالأمان ، وردّهم على أحسن الآمال ، واتفقوا معه على فتح المدينة من الغَد ، وتَصَرُّف الناس في المعاملات ، ودخول أمير يَنزِل بمحل الامارة منها ، ويملك أمرَهم بعزِّ ولايته .

وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأله عنّي ، وهل سافرتُ مع عساكر مصر او أقمت بالمدينة ، فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت ،

---

(١) هو برهان الدين ابراهيم بن محمد بن مفلح (٧٤٩ – ٨٠٣) ، وكان يحسن اللغتين : التركية ، والفارسية ، ولعلهم – لذلك – اختاروه للسفارة . وانظر ابن اياس ١ / ٣٣٦ .

(٢) بياض في الأصل ولم نعثر في المراجع التي بين ايدينا على اسم هذه الزاوية .

وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج اليه ؛ فحدث بين بعض الناس تشاجر في المسجد الجامع ، وأنكر البعضُ ما وقع من الاستنامة إلى القول . وبلَغني الخبر من جوف الّليل ؛ فخشِيت البادِرة على نفسي ، وبكرت سَحَراً إلى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج أو التدلّي من السُّور ، لِما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر ؛ فأبوا عليّ أوَلا ، ثم أصخَوا لي ، ودلّوني من السور ؛ فوجدت بطانتَه عند الباب ، ونائبَه الذي عَيَّنه للولاية على دمشق ، واسمه شاه ملك ، من بني جَقطاي أهل عصابته ، فحيَّيتُهم وحيَّوني ، وفدّيت وفدّوني ، وقدَّم لي شاه ملك ، مركوباً ، وبَعث مَعي من بطانة السُّلطان مَن أوصلني إليه . فلما وقفت بالباب خرج الأذن بإجلاسي في خيمة هنالك تُجاور خَيمة جلوسه ، ثم زيد في التعريف باسمي أنّي القاضي المالكي المغربي ، فاستدعاني ، ودخلتُ عليه بخيمة جلوسه ، مُتكئاً على مَرفقه ، وصِحاف الطَّعام تمُرُّ بين يديه ، يُشير بها إلى عُصَب المُغُل جلُوساً أمام خيمته ، حلَقاً حلَقاً . فلما دخلتُ عليه فاتحتُ بالسَّلام ، وأوميتُ إيماءة الخضوع ، فرفَع رأسه ، ومدّ يده إليّ فقبّلتُها ، وأشار بالجلوس فجلستُ حيث انتهيت . ثم استدعى من بطانته الفقيهَ عبدَ الجبّار بن

النُّعمان من فقهاء الحنفيَّة بخُوارزم[١] ، فأقعدَه يترجم ما بينَنا ، وسألني من أين جئت من المغرب ؟ ولِمَا[٢] جئت ؟ فقلت : جئت من بلادي لقَضاء الفَرْض ركبتُ إليها[٣] البحر ، ووافيتُ مرَسى الأسكندرية يوم الفِطر سنة أَربع وثمانين من هذه المائة الثامنة ، والمفرحاتُ بأسوارهم لجلوس الظّاهر على تخت الملك لتلك العشرة الأيام بعَدَدِها . فقال لي : وما فَعَل مَعك ؟ قلت كل خير ، برّ مقْدَمي ، وأرغد قِراي ، وزوّدني للحجّ ، ولما رَجعت وفّر جِرايتي ، وأقمت في ظلّه ونعمته ؛ رحمه الله وجزاه . فقال : وكيف كانت توليتُه إياك القضاء ؟ فقلت : مات قاضي المالكية قبل موته بشهر ، وكان يظنُّ بي المقام المحمودَ في القيام بالوظيفة ، وتحَرِّي المعدَلة والحق ، والاعراض عن الجاه ، فولّاني مكانَه ، ومات لشهر بعدَها ، فلم يَرضَ أهل الدّولة بمكاني ، فأدالوني مِنها بغَيري جزاهم الله . فقال لي : وأين ولدُك ؟

---

(١) هو : (عبد الجبار بن النعمان المعتزلي ، أحد خواص تيمور الذين طافوا معه البلاد ، وأهلكوا العباد ، وأظهروا الظلم والفساد) . ذكره علاء الدين في (تاريخ حلب) وقال : اجتمعت به ، فوجدته ذكياً فاضلا ، وسألته عن مولده ، فقال : يكون لي نحو الاربعين . ورأيت شرح الهداية لأكمل الدين ، وقد طالعه عبد الجبار المذكور ، وعلّم على مواضع منه ، ذكر أنها غلط . وذكره ابن المبرد في (الرياض) وقال : (كان له معرفة بالفقه ، والعلوم العقلية ، وكان يمتحن العلماء ويناظرهم بين يدي اللنك . وهو من قلة الدين على جانب كبير . توفي سنة ٨٠٨ ھ) .

(٢) كذا في الاصل باثبات الف (ما) المجرورة عند الاستفهام ؛ وهي لغة حكوها عن الأخفش .

(٣) كذا بالأصل .

فقلت : بالمغرب الجوّاني كاتب[1] للملك الأعظم هنالك . فقال وما معنى الجوّاني في وصف المغرب ؟ فقلتُ هو في عرف خطابهم معناه الدّاخلي ، أي الأبعد ، لأن المغرب كلّه على ساحل البحر الشامي من جنوبه ؛ فالأقربُ الى هنا برْقة ، وإفريقية[2] ؛ والمغرب الأوسط[3] : تلمسان وبلاد زناتة ؛ والأقصى : فاس ومراكش ، وهو معنى الجوّاني . فقال لي : وأين مكانُ طنجةَ من ذلك المغرب ؟ فقلت : في الزّاوية التي بين البحر المحيط ، والخليج المسمّى بالزّقاق ، وهو خليج البَحْر الشَّامي ؟ فقال : وسَبتة ؟ فقلت : على مسافة من طنجة على ساحل الزّقاق ، ومنها التَّعْدِية الى الأندلس ، لقرب مسافته ، لأنها هناك نحو العشرين ميلا . فقال : وفاس ؟ فقلت : ليست على البحر ، وهي في وَسط التّلول ، وكرسيُّ ملوك المغرب من بني مَرين . فقال : وسِجِلماسة ؟ قلت : في الحدّ ما بين الأرياف والرِّمال من جهة الجنوب . فقال : لا يُقنِعني هذا ، وأُحبُّ أن تكتب لي بلادَ المغرب كلَّها ، أقاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقُراه وأمصاره ، حتى كأني أشاهده . فقلت : يحصل ذلك بِسعادتك ؛ وكتبتُ له بعدَ انصرافي من المجلس لِما طلب من ذلك ، وأوعبتُ الغرَض فيه في

(١) كذا في الأصل .
(٢) هي المملكة التونسية اليوم .
(٣) مكانه اليوم بلاد (الجزائر) .

مختصَرٍ وجيز يكون قدرَ اثنتَي عَشرة من الكراريس المنصَّفة القَطْع. ثم أشار الى خدَمه بإحضار طعام من بيته يسمونه الرشتَة، ويُحكِمونَه على أبلغ ما يمكن؛ فأُحضِرَت الأواني منه، وأشار بِعَرضها عليّ، فمثَلتُ قائماً، وتناولتُها وشربتُ واستطبت؛ ووقع ذلك منه أحسنَ المواقع؛ ثم جلستُ وسكتْنا، وقد غلَبني الوَجل بما وقع من نكبَة قاضي القُضاة الشافعية، صدْر الدين المُناوي، أَسرَه التَّابعون لعسكر مصر. بشَقْحَب، وردُّوه؛ فحُبِس عندَهم في طلب الفِدْية منه؛ فأصابَنا من ذلك وَجل؛ فزوّرتُ في نفسي كلاماً أُخاطبه به، وأتلطَّفه بتعظيم أحواله، ومُلكه. وكنت قبل ذلك بالمغرب قد سمعت كثيراً من الحدَثان في ظهوره، وكان المنجِّمون المتكلّمون في قِرانات العُلْوِيَيْن[1] يترقّبون القِرانَ العاشرَ في المثلَّثة الهوائية[2]، وكان يُترقّب عام ستة وستين من المائة السَّابعة. فلقِيتُ ذاتَ يوم من عام أحدٍ وستين بجامع القَرويين من فاس، الخطيبَ أبا عليّ بن باديس خطيب قُسَنْطِينَة، وكان ماهراً

(١) الكوكبان العلويان: زحل، والمشتري؛ والمراد بالقران — عند الإطلاق — اجتماع المشتري، وزحل خاصة (مفاتيح العلوم ص ٢٣٢).

(٢) المثلثة: كل ثلاثة بروج تكون متفقة في طبيعة واحدة من الطبائع الأربع. (مفاتيح العلوم ص ٢٢٦).

ولعل ابن خلدون كان يعرف أن تيمورلنك (كان يعتمد على أقوال الأطباء والمنجمين، ويقربهم ويدنيهم، حتى انه كان لايتحرك بحركة الا باختيار فلكي)، فحدثه بهذا الحديث.

في ذلك الفَن ، فسألتُه عن هذا القِران المتوقّع ، وما هي آثاره ؟ فقال لي : يدلّ على ثائر عظيم في الجانب الشَّمالي الشرقي ، من أمة بادية أهل خيام ، تتغلب على الممالك ، وتقلب الدُّول ، وتستولي على اكثر المعمور . فقلت : ومتَى زمنُه ؟ فقال : عامَ أربعة وثمانين تنتشر أخباره . وكتَب لي بمثل ذلك الطبيبُ ابن زَرْزَر اليَهودي ، طبيبُ مَلِك الأفرنج ابن أُذْفُونَش ومُنَجِّمُه . وكان شيخي رحمه الله إمامُ المعقولات محمد بن إبراهيم الآبلي متى فاوضتُه في ذلك ، أوسايَلته عَنه يقول : أمره قَريب ، ولا بُدّ لك إن عشتَ ان تراه .

وأما المتصوفة فكنَّا نسمع عنهم بالمغرب تَرقُّبَهم لهذا الكائن ، ويَرون ان القائم به هو الفاطميُّ المشار اليه في الأحاديث النَّبوية (١) من الشيعة وغيرهم ؛ فأخبرني يَحيى بنُ عبد الله حافد الشيخ ابي يعقوب البَادِسي كبير الاولياء بالمغرب ، ان الشيخ قال لهم ذات يوم ، وقد انفَتل من صلاة الغَداة : إن هذا اليوم ولد فيه القائم الفاطمي ، وكان ذلك في عَشر الأربعين من المائة الثامنة ؛ فكان في نفسي من ذلك كله تَرقُّبٌ له .

فوقع في نفسي لأجل الوَجَل الذي كنتُ فيه ان افاوضه في شيء من ذلك يَستريحُ اليه ، ويأنَس به مني ، ففاتحته وقلتُ :

(١) ذكر هذه الأحاديث في المقدمة .

أيدكَ الله الي اليوم ثلاثون او اربعون سنة اتمّنى لقاءَكَ . فقال لي التُّرجمان عبد الجبَّار : وما سببُ ذلك ؟ فقلتُ : أمران ، الأول أنك سلطان العالم ، ومَلِكُ الدُّنيا ، وما أعتقد أنه ظهَر في الخليقة منذ آدَم لهذا العهد مَلكٌ مثلُك ، ولسْتُ ممن يقول في الأمور بالجُزاف ، فإني من أهل العِلم ، وأبيِّن ذلك فأقول :

إن المُلْك إنما يكون بالعَصَبِية ، وعلى كَثرتها يكون قدرُ المُلك ؛ واتفق أهلُ العِلم من قبْلُ ومن بعْد ، أن أكثر أمم البشر فرقتان : العرَب والترك ، وأنتم تعلمون مُلك العرَب كيف كان لمَّا اجتمعوا في دِينهم على نبيِّهم ، وأما الترك ففي مُزاحمتهم لِملوك الفُرس ، وانتزاعُ مَلِكهم أفْراسْيَاب خُراسانَ من أيديهم شاهدٌ بنصابهم من المُلك . ولا يساويهم في عَصَبيتهم أحدٌ من ملوك الارض من كسْرَى ، أو قيصَر ، أو الأسكندَر ، أو بُختنصَّر ، أما كسرَى فكبير الفُرس ومليكُهم ؛ وأين الفرس من الترك ؟ وأما قيصَر والاسكندر فلُوكُ الروم ، وأين الروم من الترك ؟ وأما بُختنَصَّر فكبير أهل بَابل ، والنَّبَط . وأين هؤلاء من التُّرك ؟ وهذا برهان ظاهِر على ما ادَّعيتُه في هَذا الملك .

وأما الامرُ الثاني مما يحملني على تمَنِّى لقائه ، فهو ما كنت أسمعه من أهل الحَدثان بالمغرب ، والاولياء ، وذكرتُ ما قصَصْتُه من

ذلك قبل . فقال لي : وأراك قد ذكرتَ بُختنَصَّر مع كسرى ، وقيصر ، والاسكندر ، ولم يكن في عِدادِهم ، لانهم ملوك أكابر . وبُختنصَّر قائد من قواد الفرس ، كما أنا نائب من نواب صاحب التَّخت ، وهو هذا ، وأشار إلى الصفّ القائمين وراءه ، وكان واقفاً معهم ، وهو رَبيبُه الذى تقدَّم لنا أنّه تزوج أمّه بعد أبيه ساطلمش ، فلم يُلْفِه هناك ، وذكر له القائمون في ذلك الصفّ أنه خرَج عنهم .

فرجع اليّ فقال : ومن أي الطوائف هو بُختنَصَّر ؟ فقلت : بين الناس فيه خلاف ، فقيلَ من النَّبط بقية ملوك بابل ، وقيل من الفرس الاولى ، فقال : يعني من ولد مَنُوشِهر (١) . قلت نعم هكذا ذكروا ، فقال : ومَنُوشِهر له علينا ولادة من قِبَل الامهات . ثم أفضتُ مع الترجمان في تعظيم هذا القول منه ، وقلتُ له : وهذا ممّا يجعلني على بنـي لقائه .

فقال الملِك : وأيّ القولين أرجح عندك فيه ؟ فقلت إنّه من عقية ملوك بابل ، فذهب هو إلى ترجيح القول الآخر . فقُلتُ : يعكِّر علينا رأي الطبري ، فإنه مؤرخ الامة ومحدثهم ، ولا يرجّحه غيره ،

(١) كذا بالأصل وهو : منوجهر بالجيم المتوسطة بينها وبين الشين اسم ملك من الفرس ، الأوّل ومعناه فضيّ الطلعة ، وذلك لبهائه ؛ فان مينو بالفارسية : الفضة ، فاقتصروا على حذف الياء وقالوا منو . وجهر : الطلعة .

فقال : وما علينا مِنَ الطبري؟ نُحْضِر كتُب التاريخ للعَرَب والعَجَم، ونناظرك . فقُلتُ : وانا ايضا أناظِرُ على رأي الطبري ، وانتهى بنا القول ، فسكتّ ؛ وجاءه الخبر بفتح باب المدينة ، وخروج القُضاة وفاءً بما زعموا من الطاعة التي بَذَل لهم فيها الأمان ، فرُفِع من بَين أيدينا ، لما في رُكْبَتِه من الداء ، وحُمِل على فرَسه فقَبض شكائمَه ، واستوى في مركبه . وضُربت الآلات حِفافَيْه حتى ارتجّ لها الجوّ . وسار نحو دمشق ، ونزل في تربة مَنْجَك عند باب الجابية ؛ فجلس هناك ، ودخل اليه القضاة وأعيان البلد ، ودخلتُ في جُملتهم ؛ فأشارَ اليهم بالانصراف ، والى شاه مَلِك نائبه أن يخلعَ عليهمْ في وظائفهم ؛ وأشار إليّ بالجُلوس ، فجلستُ بين يَدَيه . ثم استدعى أمراءَ دولتِه القائمين على أمر البِناء ؛ فأحضروا عُرَفاء البُنْيان المهندسين ، وتناظروا في إذهاب الماء الدائر بحفير القلعة، لعلّهم يَعثُرون بالصِّناعة على مَنفَذه ؛ فتناظروا في مَجلسه طويلا ، ثم انصرفوا ، وانصرفتُ الى بيتي داخلَ المدينة بعدَ أن استأذنتُه في ذلك ، فأذن فيه . وأقمت في كِسْر البيت ، واشتغلتُ بما طلَب مني في وصف بلادِ المغرب ؛ فكتبتُه في أيام قليلة ، ورفعتُه اليه فأخذَه من يَدي ، وأمر مُوقِّعَه بترجمته الى اللسان المُغلي . ثم اشتدّ في حصار القَلْعَة ، ونَصَب عليها الآلاتِ من المجانِيق ، والنُّفوط ، والعَرّادات ، والنقب ؛ فنَصَبوا لأيام قليلة ستّين منجَنيقا الى ما يُشا كلها من الآلات الأخرى ، وضاق الحصار

بأهل القَلعة ، وتهدّم بناؤُها من كل جهة ، فطلَبوا الأمان .

وكان بها جَماعة من خُدّام السلطان ومخلّفه ، فأمّنهم السلطان تِمُر ، وحضَروا عنده . وخرّب القلعة وطَمَس معالمها ، وصادر أهلَ البَلَد على قناطيرَ من الأموال استولى عليها بعد أن أخذ جميع ما خلّفه صاحبُ مصر هنالك ، من الأموال والظّهْر والخيام . ثم أطلق أيدي النّهّابة على بُيوت أهل المدينة ؛ فاستوعبوا أناسِيَها ، وأمتعتَها ، وأضرَموا النّار فيما بقي من سَقَط الأقمشة والُخرْثيّ ؛ فاتصَلت النار بحيطان الدُّور المدعمة بالَخشَب ؛ فلم تَزل تَتوقّد الى أن اتصلت بالجامع الأعظم ، وارتفعت الى سَقْفه ؛ فسال رصاصُه ، وتهَدّمت سُقُفه وحوائطه ، وكان أمراً بلغ مَبالغَهُ في الشّناعة والقُبح . وتصاريفُ الأمور بيد الله يفعل في خلقه ما يريد ، ويحكم في ملكه ما يشاء .

وكان أيامَ مُقامي عند السلطان تِمُر ، خَرج اليه من القَلعة يَومْ أمّن أهلَها رجلٌ من أعقاب الخلفاء بمصر ، من ذُرية الحاكم العبّاسي (١) الذي نَصبَه الظاهر بَيْبَرس ؛ فوقَف الى السلطان تِمُر يسأله النَّصَفة في أمره ؛ ويطلب منه مَنصِب الخلافة كما كان لسلفه ، فقال له السلطان تِمُر : أنا أحضِر لك الفهقاءَ والقُضاة ، فإن حَكَموا لك بشيء أنصفتك

(١) هو ابو العباس احمد بن أبيعلي الحسن القطبي المتوفى سنة ٧٠١ .

فيه . واستدعى الفقهاءَ والقُضاة ، واستدعاني فيهم ؛ فحضرنا عندَه وَحضَر هذا الرجل الذي يسأل مَنصِب الخلافة ، فقال له عبدُ الجبَّار : هذا مجلس النصفة فتكلَّم . فقال : إن هذه الخلافة لَنا ولسلفنا ، وإن الحديث(١) صحَّ بأن الأمر لبني العبَّاس ما بقيت الدُّنيا ، يعني أمر الخلافة . وإني أحقُّ من صاحب المَنصِب الآن بمصر ، لأن آبائي الذين ورثتُهم كانوا قد استحقُّوه ، وصار الى هذا بغير مستند ؛ فاستدعَى عبدُ الجبَّار كُلاًّ مِنَّا في أمره ، فسكتنا بُرْهة ، ثم قال : ما تقولون في هذا الحديث ؟ فقال بُرهان الدّين بن مُفلح : الحديثُ ليس بصحيح . واستدعَى ما عندي في ذلك فقلت : الأمر كما قلتم من أنّه غير صحيح ، فقال السلطان تِمُر : فما الذي أصار الخلافة لبني العبَّاس الى هذا العهد في الاسلام ؟ وشافَهني بالقول ، فقلت : أيّدك الله ! اختلف المسلمون من لدن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، هَل يجب على المسلمين ولاية رجل منهم يقوم بأمورهم في دينهم و دُنياهم ، أم لا يجب ذلك ؟ فذهبت طائفة الى أنه لا يجب ، ومنهم الخوارج ، وذهبَ الجماعةُ الى وجوبه ، واختلفوا في مُستند ذلك الوجوب ؛ فذهب الشيعة كلُّهم الى حديث الوصية ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بذلك لعليّ ، واختلفوا في تنقُّلها عنه الى عَقِبه الى مذاهب كثيرة تَشذُّ عن الحصر .

(١) في تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٠٠ ، ١٠١ بعض الآثار التي تمسك بها العباسيون في خلافتهم .

وأجمع أهل السُّنَّة على إنكار هذه الوصيَّة ، وأن مستند الوُجوب في ذلك إنما هو الاجتهاد ، يعنون أن المسلمين يجتهدون في اختيار رجل من أهل الحق والفقه والعدل ، يُفوِّضون اليه النظرَ في أمورهم .

ولما تعدّدت فرق العلوية وانتقلت الوصية بزعمهم من بني الحنفيَّة الى بني العبَّاس ، أوصى بها ابو هاشم بن محمد بن الحَنفية الى محمد بن علي ابن عبد الله بن عَبَّاس ، وبثّ دعاته بخُراسان . وقام ابو مُسلم[1] بهذه الدعوة ؛ فملك خراسان والعراق ، ونزل شيعتُهم الكوفة ، واختاروا للأمر أبا العباس السفَّاح[2] ابنَ صاحب هذه الدّعوة ؛ ثم أرادوا أن تكون بيعتُه على إجماع من أهل السنَّة والشيعة ، فكاتبوا كبار الأمة يومئذ ، وأهلَ الحل والعقد ، بالحجاز والعراق ، يشاورونهم في أمره ؛ فوقع اختيارُهم كلُّهم على الرّضى به ، فبايَع له شيعتُه بالكوفة بيعة إجماع وإصفاق . ثم عَهِد بها الى أخيه المنصور[3] ، وعهد بها المنصور الى بنيه ؛ فلم تزل مُتناقَلة فيهم ، إما بِعهْدٍ او باختيارِ أهل العَصر ، الى أن كان المستَعصمُ آخرهم ببغداد . فلمَّا استولى عليها هولاكو

(١) أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني . له ترجمة واسعة في وفيات ابن خلكان ١ / ٣٥٢ - ٣٥٦ .

(٢) أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (١٠٤ - ١٣٦) وانظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٩٩ وما بعدها .

(٣) أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس (٩٥ - ١٥٨) . تاريخ الخلفاء ١٠١ - ١٠٦ .

وقَتَلَه ، افترق قرابتُه ، ولحق بعضُهم بمصر ، وهو أحمد الحاكم من عقِب الرّاشد ، فنصَبه الظّاهر بَيْبَرس بمصر ، بمالأة اهل الحلّ والعقْد من الجند والفقهاء . وانتقَل الأمر في بيته الى هذا الذي بمصر ، لا يُعلم خلاف ذلك . فقال لهذا الرّافع : قد سمعتَ مقال القضاة ، وأهلِ الفُتيا ، وظهر أنه ليس لك حقّ تطلبه عندي . فانصرف راشدا .

الرجوع عن هذا الامير تمر الى مصر

كنت لما لقيته ، وتدلّيتُ إليه من السور كما مرّ أشار عليّ بعض الصّحاب ممن يَخْبُر أحوالهم بما تقدمتْ له من المعرفة بهم ؛ فأشار بأن أُطرفه ببعض هدية ، وإن كانت نَزْرةً فهي عندهم متأكدةٌ في لقاء ملوكهم ، فانتقَيت من سُوق الكُتب مُصْحَفاً رائعاً حسَناً في جزء محذو ، وسجّادة أنيقة ، ونُسخَة من قصيدة البُردة المشهورة للأبوصيري[1] في مدح النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة . وجئت بذلك فدخلت عليه ، وهو بالقصر الأبلق جالس في إيوانه ؛ فلمّا رآني مقبلاً مَثَل قائماً وأشار إلي عن يمينه؛ فجلستُ وأكابر من الجقطيّة حِفَافَيْه ؛ فجلستُ قليلا ، ثم استدرتُ بينَ يديه ، وأشرت إلى الهَدية التي ذكرتُها ، وهي بيد خُدّامي ؛ فوضعتُها ، واستقبلني؛ ففتحتُ المُصْحَف فلما رآه وعرفه، قام مُبادراً

(١) هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد الدلاصي البوصيري الصنهاجي (٦٠٨ – ٦٩٤) على خلاف في تاريخ الوفاة . له ترجمة في فوات الوفيات ٢/٢٠٥ – ٢٠٩ ، حسن المحاضرة ١/٣٦٠

فوضعَه على رأسه . ثم ناولتُه البُردة ، فسألني عنها وعن ناظمها فأخبرته بما وقفت عليه من أمرها . ثم ناولته السجّادة ، فتناولها وقبلها . ثم وضعتُ علب الحلوى بين يديه ، وتناولتُ منها حرفاً على العادة في التأنيس بذلك . ثم قسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه ، وتقبَّل ذلك كلّه ، وأشعر بالرّضى به . ثم حومت على الكلام بما عندي في شأن نفسي ، وشأن أصحاب لي هنالك . فقلت أيدك الله ! لي كلام أذكره بين يديك ، فقال : قل . فقلت أنا غريب بهذه البلاد غُربتين ، واحدة من المغرب الذي هو وطني ومنشأي وأخرى من مصر وأهل جيلي بها ، وقد حصلتُ في ظلك ، وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غُربتي ، فقال : قل الذي تريد أفعلْه لك ، فقلت : حالُ الغُربه أنستني ما أريد ، وعساك ــ أيدك الله ــ أن تعرف لي ما أريد . فقال : انتقل من المدينة إلى الأردو[1] عندي ، وأنا إن شاء الله أوفي كُنه قصدك . فقلت يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك ، فأشار إليه بإمضاء ذلك ، فشكرت ودعوتُ وقلت : وبقيت لي أخرى . فقال : وما هي ؟ فقلت هؤلاء المخلّفون عن سلطان مصر . من القُرّاء ، والموقّعين ، والدواوين[2] ، والعمال ، صاروا إلى إيالتك والمَلِكُ لا يُغفل مثل هؤلاء فسُلطانكم كبير ، وعمالاتكم متّسعة ، وحاجةُ مُلككم إلى

(١) الأردو : المعسكر (تركية) .
(٢) كذا في الاصل . ولعلها : (بالدواوين) او (واصحاب الدواوين) .

المتصرفين في صنوف الخدم أشدُّ من حاجة غيركم ، فقال وما تريد لهم؟ قلت : مكتوب أمان يستنيمون إليه ، ويعوِّلون في أحوالهم عليه. فقال لكاتبه : اكتب لهم بذلك[1] ، فشكرتُ ودعوت . وخرجتُ مع الكاتب حتى كتب لي مكتوبَ الأمان، وختمه شاه ملك بخاتم السلطان ، وانصرفتُ إلى منزلي . ولما قَرُبَ سفرُه واعتزم على الرحيل عن الشام ، دَخلت عليه ذاتَ يوم ، فلما قضينا المعتاد ، التفت إليَّ وقال : عندك بغلة هنا ؟ قلت نعم، قال حسنة ؟ قلتُ نعم، قال وتبيعها؟ فأنا أشتريها منك ، فقلتُ أيدك الله ! مِثلي لا يبيع من مثلك ، إنما أنا أخدُمك بها ، وبأمثالها لو كانت لي ، فقال : أنا أردت أن أكافئك عنها بالاحسان ، فقلتُ : وهل بقي إحسان وراء ما أحسنتَ به ، اصطنعتني ، وأحللتني من مجلسك محلَّ خواصك ، وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله، وسكَتَ وسكتُّ وحُمِلت البغلةُ — وأنا معه في المجلس — إليه ، ولم أرها بعد .

ثم دخلتُ عليه يوماً آخر فقال لي : أتسافر إلى مصر؟ فقلتُ أيَّدك الله ، رغبتي إنما هي أنت ، وأنتَ قد آويت وكفلت ، فان كان السَّفر إلى مصر في خدمتك فنعم ، وَإلا فَلاَ بُغية لي فيه ، فقال لا ، بل تسافر إلى عيالك وأهلك ، فالتفتَ إلى ابنه ، وكان مسافراً إلى

(١) ذكر هذه الشفاعة المقريزي في السلوك في حوادث سنة ٨٠٣ .

شقحب لمرباع دوابه ، واشتغل يحادثه ، فقال لي الفقيه عبد الجبار الذي كان يترجم بيننا : إن السلطان يوصي ابنه بك ، فدعوت له ؛ ثم رأيت أن السفر مع ابنه غير مستبين الوجهة ، والسفر إلى صفد أقرب السواحل إلينا أملك لأمري ، فقلت له ذلك ؛ فأجاب إليه ، وأوصى بي قاصداً كان عنده من حاجب صفد ابن الداويداري[1] ، فودعته وانصرفت ، واختلفت الطريق مع ذلك القاصد ، فذهب عني ، وذهبت عنه . وسافرت في جمع من أصحابي ؛ فاعترضتنا جماعة من العشير قطعوا علينا الطريق ، ونهبوا ما معنا ، ونجونا الى قرية هنالك عرايا . واتصلنا بعد يومين أو ثلاث بالصبيبة فخلفنا بعض الملبوس ، وأجزنا إلى صفد ، فأقمنا بها أياماً . ثم مر بنا مركب من مراكب ابن عثمان سلطان بلاد الروم ، وصل فيه رسول كان سفر اليه عن سلطان مصر ، ورجع بجوار رسالته ؛ فركبت معهم البحر الى غزة ، ونزلت بها ، وسافرت منها الى مصر ، فوصلتها في شعبان من هذه السنة ، وهي سنة ثلاث وثمانمائة ؛ وكان السلطان صاحب مصر ، قد بعث من بابه سفيراً الى الأمير تمر اجابة الى الصلح الذي طلب منه ؛ فأعقبني اليه . فلما قضى رسالته رجع ، وكان وصوله بعد

(١) كذا بالأصل وفي عجائب المقدور ص ٢١٣ : « ... وكان في صفد تاجر من أهل البلاد احد الرؤساء والتجار ، يدعى علاء الدين ، وينسب الى دوادار ، كان تقدمت له خدمة على السلطان فولاه حجابة ذلك المكان » .

وصولي ؛ فبعثَ اليَّ مع بعض أصحابه يقول لي : ان الأمير تِمُر قد بعثَ معي اليك ثمن البَغْلة التي ابتاعَ منك ، وهي هذه فخُذها ، فإنه عَزَم علينا من خلاص ذِمّته من مالِك هذا . فقلت لا أقبله الا بَعْد اذن من السُّلطان الذي بعثَك اليه ، وأما دُون ذلك فلاَ . ومضيتُ الى صاحب الدَّولة فأخبرته الخبرَ فقال وما عليك ؟ فقلت ان ذلك لا يَجملُ بي أن أفعَله دون اطلاعكم عليه ، فأغضي عن ذلك ، وبعثوا اليَّ بذلك المَبْلغ بعد مدَّة ، واعتذَر الحامل عن نقصِه بأنه أعطِيه كذلك ، وحمدت الله على الخَلاَص .

وكتبتُ حينئذ كتاباً الى صاحب المغرب ، عرَّفته بما دار بيني وبين سلطان الطَّطَر تِمُر ، وكيف كانت واقعتُه معنا بالشَّام ، وضمَّنت ذلك في فصل من الكتاب نَصُّه :

« وان تفضَّلتم بالسؤال عن حَال المملوك ، فهي بخير والحمد لله ، وكنت في العام الفارط توجهت صُحبةَ الرِّكاب السلطاني الى الشام عندما زَحفَ الطَّطَر اليه من بلاد الروم والعراق ، مع مَلِكهم تِمُر ، واستولى على حَلَب وحَماة وحِمْص وبَعْلَبَكّ ، وخرَّبها جميعاً ، وعاثت عَساكره فيها بما لم يُسمَع أشنعَ منه . ونهَض السلطان في عساكره لاستنقاذها ، وسبق الى دِمَشق ، وأقام في مقابلته نحواً من شهر ؛ ثم قفل راجعاً الى مصر ، وتخلَّف الكثير من أمرائه وقضاته ، وكنتُ في المخلَّفين . وسمعت أن سلطانَهم تمُر سَأل عنِّي ؛ فلم يَسع

إلّا لقاؤه فخرجت اليه من دِمَشق ، وحضرتُ مَجلسَه ، وقابلَني بخَير ، واقتضيتُ منه الأمان لأهل دِمَشق ، وأقمتُ عندَه خمساً وثلاثين يوماً ، اباكره واراوِحه . ثمّ صرَفني ، وودّعني على أحسَن حال ، ورجعتُ الى مِصر . وكان طلَبَ منّي بَغلَة كنت أركبُها فأعطيته إياها ، وسألني البيع فتأفّفتُ منه ، لما كان يُعامل به من الجميل ، فبعدَ انصرافي الى مصر بعث اليّ بثَمَنها مع رَسول كان من جهة السلطان هنالك ، وحمدتُ الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا .

وهؤلاء الطَّطَر هم الذين خرجوا من المَفازة وراءَ النَّهر ، بينه وبين الصين ، أعوام(١) عشرين وستّمائة مع ملكهم الشهير جنكزخان ومَلك المشرق كلّه من أيدي السَّلجوقية ومواليهم الى عراق العرب ، وقَسَم الملك بينَ ثلاثة من بنيه وهم جَغَطاي ، وطولي ، ودوشي خان :

فجَغَطاي كبيرُهم ، وكان في قسمته تُرْكَستان وكاشغَر ، والصَّاغُون ، والشَّاش وفَرْغانة ، وسائرُ ما وراء النَّهر من البلاد .

وطُولي كان في قِسمته أعمال خراسان ، وعراق العجم ، والرَّيّ

(١) كذا بالأصل ، وهو تعبير مألوف في اسلوب ابن خلدون . ورد كثيراً في اماكن متفرقة من كتابه .

الى عراقِ العَرب وبلاد فارس وسِجِستان والسند . وكان أبناؤه : قبلاي ، وهولاكو .

ودوشي خان كان في قسمته بلاد قَبْجَق ، ومنها صَراي ، وبلاد الترك الى خوارزم . وكان لهم أخ رابع يسمى أوكداي كبيرهم ، ويسمّونه الخان ، ومعناه صاحب التّخت ، وهو بمَثابة الخليفة في مُلكِ الاسلام . وانقرَض عَقِبه ، وانتقلت الخانيَّة الى قُبلاي ، ثم الى بني دوشي خانْ ، أصحابِ صَراي . واستمرّ مُلكَ الططر في هذه الدُّول الثلاث ، وملك هولاكو بَغداد ، وعراق العرب ، الى ديار بكر ونهر الفرات . ثم زحفَ الى الشام وملكَها ، ورجع عنها ، وزَحف اليها بَنُوه مراراً ، وملوكُ مصر من الترك يُدافعونهم عنها ، الى أن انقرض مُلك بني هولاكو أعوامَ أربعين وسبعمائة ، ومَلك بعدَهم الشيخ حسن النُّوينُ وبنوه . وافترق مُلكهم في طوائف من أهل دولتهم ، وارتفعت نِقمتُهم عن ملوك الشام ومِصر . ثم في أعوام السّبعين او الثمانين وسبعمائة ، ظهر في بَني جِقَطاي وراء النهر أمير اسمه تيمور ، وشُهرته عند الناس تِمُر ، وهو كافل لصبيٍّ متَّصل النَّسَب معه الى جقَطاي في آباء كلُّهم ملوك ، وهذا تِمُر بن طَرَغاي هو ابن عمهم ، كَفَل صاحبَ التَّخت منهم اسمه محمود ، وتزوج أمه صَرغَتمِش ، ومدّ يده الى ممالك التتر كلِّها ؛

فاستولى عليها الى ديار بَكر ، ثم جال في بلاد الروم والهند ، وعاثت عساكره في نواحيها ، وخرب حُصونَها ومُدنَها ، في أخبار يَطول شرحها . ثم زَحف بعدَ ذلك الى الشام ، ففعل به ما فعل ، والله غالبٌ على أمره . ثم رَجع آخراً الى بلاده ، والأخبار تَتَّصل بأنه قَصَد سَمَرْقَنْد ، وهي كرسيُّه .

والقوم في عَدَد لا يَسَعه الاحصاء ، إن قدرتَ ألفَ ألفٍ فغير كثير ، ولا تقولُ أنقَص ، وإن خيَّموا في الأرض ملأوا السَّاح ، وان سارت كتائبهم في الارض العَريضة ضاق بهم الفضاء ؛ وهم في الغارة والنهب والفَتْك بأهل العُمران ، وابتلائِهم بأنواع العذاب ، على ما يحصلونه من فِئاتِهم آيةٌ عَجَب ، وعلى عادة بوادي الأعراب .

وهذا المَلِك تِمُر من زُعماء الملوك وفراعنتهم ، والناس يَنْسُبونه الى العلم ، وآخرون الى اعتقاد الرّفض ، لما يرون من تَفْضيله لأهل البيت ، وآخرون الى انتحال السِّحر ؛ وليس من ذلك كلّه في شيء ؛ انما هو شديد الفِطنة والذّكاء ، كثير البحث واللّجاج بما يعلم وبما لا يعلم ، عُمُره بين السِّتّين والسَّبعين ، ورُكْبَتُه اليُمنَى عاطلة من سَهم أصابَه في الغارة أيام صِباه على ما أخبرني ، فيجرُّها في قَريب المشي ، ويتناوله الرِّجال على الأيدي عند طُول المسافة ، وهو مَصْنوعٌ له ؛ والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده .

ولاية القضاء الثالثة والرابعة والخامسة بمصر

كنت – لما أقمت عند السلطان تمر تلك الأيام التي أقمت – طال مغيبي عن مصر، وشيعت الأخبار عني بالهلاك. فقدم للوظيفة من يقوم بها من فضلاء المالكية، وهو جمال الدين الأقفهسي[1]، غزير الحفظ والذكاء، عفيف النفس عن التصدي لحاجات الناس، ورع في دينه؛ فقلدوه منتصف جمادى الآخرة من السنة.

فلما رجعت الى مصر، عدلوا عن ذلك الرأي، وبدا لهم في أمري؛ فولوني في أواخر شعبان من السنة. واستمررت على الحال التي كنت عليها من القيام بالحق، والاعراض عن الأغراض والانصاف من المطالب؛ ووقع الانكار علي ممن لا يدين للحق، ولا يعطي النصفة من نفسه؛ فسعوا عند السلطان في ولاية شخص من المالكيه يعرف بجمال الدين البساطي[2]، بذل في ذلك لسعاة

(١) هو عبد الله بن مقداد بن اسماعيل بن عبد الله الأقفهسي، جمال الدين المالكي المتوفى سنة ٨٢٣ هـ.

(٢) يوسف بن خالد بن نعيم بن نعيم بن محمد بن حسن بن علي بن محمد بن علي، جمال الدين.

داخلوه ، قطعةً من ماله ، ووجوهاً من الأغراض في قضائه . قاتل الله جميعهم ؛ فخلعوا عليه أواخرَ رجب ، سنة أربع وثمانمائة . ثم راجع السلطان بصيرته ، وانتقد رأيه ، ورجّعَ إليّ الوظيفة خاتمَ سنة أربع ، فأجريتُ الحال على ما كان . وبقي الأمر كذلك سنة وبعض الأخرى . وأعادوا البساطي الي ما كان ، وبما كان ، وعلى ما كان ، وخلعوا عليه سادسَ ربيع الأول سنةَ ست[1] ، ثم أعادوني عاشر شعبان سنة سبع[2] ، ثم أدالوا به مني أواخر ذي القعدة[3] من السنة وبيد الله تصاريف الأمور .

(١) انظر « عقد الجمان » للعيني ، في حوادث سنة ٨٠٦ .

(٢) في صبح الأعشى ١١ / ١٨٩ نص « التقليد » الذي تولى به البساطي القضاء بعد ابن خلدون .

(٣) الذي في « عقد الجمان » للعيني في حوادث سنة ٨٠٧ ، أن الذي خلف ابن خلدون هو جمال الدين الأقفهسي . ولعل ابن خلدون أعرف بمن ولي بدله .

الفهرس

الموضوع	صفحة